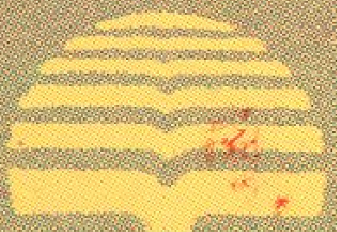
الدكتور سعدون نصر الله

تاريخ العرب السياسي في الأندلس



دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

تاريخ العرب السياسي
في الأندلس

تاريخ العرب السياسي في الأندلس

تأليف

الدكتور سعدون نصر الله



دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص . ب ٧٤٩

الطبعة الاولى 1998 م.

الناشر


دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

الادارة : بيروت - شارع مدحت باشا - بناية كريدية

تلفون : 743166- 743167 - 736093

برقيا : دانهضة - ص .ب 749-11

فاكس : 735295 - 1 - 00961

المكتبة : شارع البستاني - بناية اسكندراني رقم 3

غربي جامعة بيروت العربية

تلفون : 316202 - 818703

المستودع : بئر حسن - خلف تلفزيون المشرق - سابقا

بناية كريدية - تلفون : 833180

الإهـــــداء

إلى زهرات

شممت فيها شذا الحياة

إلى أولادي

نانسي وليليان ومحمد

اهدي هذا الكتاب.

سعدون

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة.

عرفت الأندلس الإنسان السامي، منذ نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، عندما وطئت قدماه أرضها، فأسس الفينيقي مستعمرة قادس سنة 1110 ق.م على ساحل بحر الظلمات منارة تشع منها الحضارة. وفي طريق عودته إلى موطنه، أقام واحات حضارية على الساحل الإفريقي وفي جزر البحر المتوسط.

وفي مطلع القرن الثامن الميلادي، نهاية القرن الأول الهجري، انطلق العربي من صحرائه الى سائر أنحاء العالم حاملاً رسالته السماوية الحضارية، وحط رحاله في الأندلس حيث شاد صرحاً، ظل منبعاً يوزع العلوم على أوروبا بكاملها. في وقت كانت تلك القارة، ملوكاً وحكاماً وشعوباً يغطون في ظلمات الجهل والتخلف، إذ كانت المعرفة مقتصرة عندهم فقط على بعض رجال الدين الذين قصدوا طليطلة وقرطبة وإشبيلية وغيرها من مدن الأندلس، لينهلوا من معين معاهدها، بينما كان سكان قرطبة جميعهم يعرفون القراءة والكتابة، حتى أن مكتبة الحكم المستنصر 350 ـ 366 هـ كانت تضم أكثر من 400 ألف مجلد في مختلف العلوم.

ولكن لكل شيء إذا ما تم نقصان، فإن تلك المملكة انهارت بعد تشييد العرب لها بثمانية قرون، وخرجوا منها صفر اليدين وفي قلوبهم غصة وفي أعينهم دمعة.

من يتتبع تاريخ الأندلس يدرك أن نهاية وجودهم فيها إلى بوار، إذ أن تلك الدولة محكوم عليها بالتلاشي بسبب خلاف العناصر الحاكمة. فالعربي كان الحاكم والقائد، يرى في نفسه أنه صاحب الرسالة وباني الحضارة، فاختص نفسه بكل ما يتمتع به الحاكم من امتيازات. ويا ليته اكتفى بذلك، بل نقل معه

إلى وطنه الجديد خلافاته القبلية مما كانت وبالاً عليه. يضاف إلى ذلك أن هجرته للإعمار قد توقفت، بل كان أحياناً يحصل نزوح باتجاه البلد الأم، مما أضعف القوة العربية وجعلهم أقلية بين أكثرية معادية.

العنصر الثاني العنصر البربري، كان له الفضل في فتح الأندلس، لأنه كان يشكل القوة الرئيسة في الجيش الإسلامي الفاتح الذي عبر إليها، أغمط حقه، وبدل أن ينال ما يستحق من المكافآت، أعطاه العربي المناطق النائية القاحلة في الشمال والغرب القريبة من الإسبان المتعطشين لطرد المسلمين من الأندلس. هؤلاء كانوا يتركون مراكز استيطانهم، خاصة في سني الجفاف، وينحدرون إلى الأودية الخصبة، وبعضهم كان يفضل العودة إلى المغرب، مما أتاح المجال لدعاة حرب الاسترداد في احتلال تلك المناطق دون قتال.

وكان البربر أحياناً يغتنمون الفرص ويقومون بثورات دموية لانتزاع السلطة من أيدي العرب، يذهب ضحيتها عشرات الألوف.

العنصر الثالث من المسلمين العنصر المولد، وهو الإسباني الذي اعتنق الإسلام، لقد كان قليل الوفاء للدولة هناك بالرغم مما كانت تغدقه عليه من الأنعام.

كان يشعر بأنه أدنى مستوى من العنصر العربي الحاكم. ولذلك كانت ثوراته عديدة، وصلاته بالنصارى الإسبان أحياناً كثيرة ومكشوفة وبدون حياء.

وهناك عنصر كفر بالنعمة وأنكر الجميل. فكان المستعرب الإسباني الذي بقي على دينه في كنف الدولة العربية الإسلامية. هذا العنصر كان انتهازياً متآمراً بدون سبب، مستغلاً تساهل الحكومة معه. فقد كان صلة الوصل بين ثوار الأندلس والإسبان، حتى أنهم كانوا أدلاء ومرشدين للإسبان في كثير من المعارك، وحاولوا مراراً ضرب الاستقرار الأمني.

أما اليهود وهم الذين حررهم العرب من نير القوط، ساندوا الحكومة الإسلامية في البدء. وبمجرد أن تحققت أهدافهم بنيل حريتهم، انصرفوا إلى تأمين مصالحهم الخاصة لا يهم أي عنصر انتصر.

لو تتبعنا ثورات طليطلة ـ على سبيل المثال ـ التي قامت ضد الدولة

وقدرنا عدد الضحايا من الحكومة والثائرين، لتبين لنا أن هؤلاء كان بإمكانهم فتح أوروبا والعودة إلى المشرق عن طريق القسطنطينية. ولكن للأسف، كانت دماؤهم تذهب هدراً، ولم يجن من قادها وحرض عليها شيئاً سوى أنها أدت إلى سقوط المدينة فريسة سهلة بيد الإسبان فيما بعد.

كان يذكي حماس الإسبان لطرد المسلمين الكنيسة في العالم الغربي، وخاصة بابوات روما. فقد كانوا يصدرون صكوك الغفران، ويعتبرون القتال في الأندلس أرفع مقاماً من الذهاب إلى المشرق للقتال في القدس.

في هذا المجال كان العرب أرحم الفاتحين، إذ أبقوا أهل الذمة آمنين في مدنهم وقراهم، وقلما تعرضوا لهم. على خلاف الإسبان الذين كانوا يقضون على المسلمين بالقتل والتهجير في أية مدينة كانوا يستولون عليها. وربما لو فعل العرب ذلك لما فقدوا الأندلس.

هذه العناصر التي تشكل منها المجتمع الأندلسي، كانت متفككة منحلة، وكل عنصر يحقد على الآخر، ويتحين المناسبات للانقضاض عليه، حتى فقد العرب وغيرهم من المسلمين فردوسهم الذي دخلوه بالإيمان وخرجوا منه بالكفر.

أنزلت الكتاب في تمهيد وتسعة فصول. تحدث التمهيد عن الأندلس وسكانها قبل الفتح العربي، والفصل الأول عن الفتح حتى آخر عصر الولاة. أما الفصل الثاني ففيه ذكر الإمارة الأموية حتى عصر الخلافة. والثالث تناول الخلافة. أما الفصل الرابع فتضمن الدولة العامرية، والخامس الدولة الحمودية والسادس دول الطوائف، وقد اقتصرت على ذكر دويلتين فقط، والسابع عن الأندلس في عهد المرابطين والثامن عهد الموحدين. والفصل الأخير عن غرناطة، آخر منارة للعرب في أوروبا.

فردوس دخلناه بالإيمان وخرجنا منه بعد أن تناولنا تفاحه، جدير بإعطائه بعض ما يستحق من عناية، ليعرف العربي أين كان وأين صار.

بعلبك في 8 آب 1997

4 ربيع الثاني 1418 هـ

التمهيـد

- اسم الأندلس.
- سكان الأندلس قبل القوط.
- القوط في الأندلس حتى الفتح العربي.

الأندلس تعبير جغرافي يطلق على البلاد التي تقع جنوب غرب أوروبا[1]. كانت تعرف قديماً باسم إباريه ثم أطلق اليونان عليها اسم اشبانية[2]. وهو اسمها عند بطليموس.

سكن الأندلس بعد الطوفان قوم يعرفون بالأندلش فسميت البلاد باسمهم، ثم عرب بعد ذلك إلى الأندلس «استبدال الشين بالسين». وأصاب البلاد جفاف فهلك سكانها وبقيت خالية مدة مئة سنة[3]. وخضعت لروما بعد الحرب البونية الثانية، ولما اضمحلت قوة روما غزتها القبائل البربرية في مطلع القرن الخامس الميلادي واقتسمت أملاكها فكانت الأندلس من نصيب القوط[4].

والقوط من نسل ماغوغ بن يافث، عرفوا قديماً باسم السيسيين نسبة إلى الأرض التي كانوا يسكنوها بالمشرق بين بلاد الفرس واليونان. ودارت حروب مع السريانيين أيام النبي إبراهيم الخليل انتصروا فيها على الملك السرياني مومن مالي[5] ثم حاربوا الفرس زمان تخريب القدس. ثم هزمهم الاسكندر ودخلوا في طاعته وصاروا في عداد قبائل الروم واليونان. ولما ضعف الروم هاجم القوط بلاد الإغريق (اليونان ومقدونيا وغلاريا وبنطة Pantus في عهد الامبراطور غلينوش «كلوديوس» «253 ـ 268» وهزموا سكانها ودمروها[6]. وتصدى لهم

---

(1) تاريخ العالم ص 67.

(2) الروض المعطار 32. نفح الطيب 1/67، الكامل 4/120.

(3) البيان المغرب 2/1. الروض المعطار 33.

(4) البيان المغرب 2/2.

(5) العبر 2/234.

(6) تاريخ العالم ص 451 وغلينوش عينه مجلس الشيوخ إلى جانب امبراطور آخر يدعى=

الامبراطور قلوديوس بن بلاريان Clauduis Gothius الذي حكم سنتين وقد عينه الأشراف الرومان، وهزمهم وأخرجهم من البلاد التي احتلوها[1] إلى ما وراء الدانوب 5454.

وفي أيام الامبراطور أورليان بن بلنسيان Aurelianus الذي حكم خمس سنوات 5459 سنة 1027 من بناء روما التي بنيت سنة 753 ق. م. 274 م تصدى للقوط على نهر الدانوب Danubium وانتصر عليهم بعد حروب طويلة[2].

وفي عهد الامبراطور قسطنطين 5519 وفي السنة العشرين من حكمه أغاروا على أطراف امبراطوريته وعاثوا تخريباً هزمهم وأخرجهم منها إلى ما وراء الدانوب[3]. ثم حاربهم مع الفرنجة الامبراطور بلنسيان بن قسطنطين. وفي عهده 5559 انقسموا إلى حزبين بتدبير منه ترأس الحزب الأول مزوبلد والثاني اطنريق Athanaricus ثم اعتنقوا النصرانية على مذهب أريوس Arius وأمانة ينقيه[4].

، وترجم أسقفهم غلفلة Gulfilas الإنجيل إلى اللغة القوطية[5]، كان اطنريق يضطهد النصارى الكاثوليك Catholici من قومه القوط واستشهد جماعة منهم على يديه وهرب كثيرون ولجأوا إلى الرومان فاستقبلوهم إخوة لهم في الإيمان وآووهم بعد أن كانوا يعاملونهم معاملة الأعداء[6].

وفي سنة 5563 في عهد الامبراطور فالنس Valens زحف الهون

= بلريان عينه الجيش ـ تاريخ العالم ص 450 هامش رقم 3. ابن خلدون ص 2/235.

(1) تاريخ العالم 451.

(2) تاريخ العالم 451 و 452. العبر 2/235 يشير إلى تغلب القياصرة عليهم وكذلك في الكامل 2/120.

(3) تاريخ العالم 460. العبر 2/212.

(4) تاريخ العالم 463. ابن خلدون 2/213. الروض المعطار 34. البيان 2/2.

(5) تاريخ العالم 463 وغلفلة ولد سنة 311 وصار أسقفاً على القوط الغربيين.

(6) تاريخ العالم 464.

Hunorium Gens من الشرق ودحروا القوط أمامهم وأجبرهم على مغادرة بلادهم فعبـروا نهر الدانوب إلى بلاد الرومان وحاربهم الامبراطور فالنس. ثـم عين عليهم مجشمة Mascimus الذي عاملهم بعنف فثاروا عليه وهزموا جيش الامبراطور، وعاثوا تدميراً ونهباً مما اضطر الامبراطور إلى حشد جيش كبير لإخضاعهم وخرج بجيشه من مدينة أنطاكية فانتصروا عليه وأبادوا جيشه وقد أصيب الامبراطور بسهم فلجأ إلى قرية وعثروا عليه وأحرقوه حياً 378 م[1].

وعندما انتقل القياصرة إلى القسطنطينية وضعف مركزهم بروما، هاجمها القوط في عهد الامبراطور طودوشيس الأصغر «هنوريوس» بقيادة زعيمهم الريق Alaric واحتلوها سنة410 م ونهبوها[2].

ثم غادروها بعد حروب مع الامبراطور وأراد الريق أن يقلد الأباطرة الرومان فأنكر قومه عليه ذلك وانفضوا من حوله[3]. وتوفي الريق بعد أشهر قليلة من دخوله روما فخلفه اتولف Ataulf أو Adolphus الذي توصل إلى اتفاق مع حكومة رافنا التي أصبحت العاصمة الجديدة للرومان في إيطاليا، ودخل في خدمة الامبراطور هندريوس وساعدت قواته الامبراطور ضد مغتصب غالي للعرش سنة 413 واتفق مع الرومان على أن يكون له ما يفتح من بلاد الأندلس التي كان يتقاسمها الوندال والسوابيون والآلان[4] وأخرجهم إلى أفريقية[5] واتخذ طليطلة وسط البلاد عاصمة له[6].

وطمع الفرنج بالأندلس فتصدى لهم القوط وهاجموا بلاد الفرنج ولكنهم انهزموا مما أثار القوط في جنوب غاليس فهاجموا بقيادة ملكهم طودريك الفرنج

(1) تاريخ العالم 465 و 466. العبر 2/213.
(2) الكامل 4/120 ويسميه الريف. تاريخ العالم 494 ويسميه البطريرك. العبر 2/235ج
(3) العبر 2/235.
(4) تاريخ العالم 494. العبر 2/235. الكامل 4/121.
(5) العبر 2/235.
(6) الروض المعطار 34. الكامل 4/120. البيان 2/2 ويسمي الملك وخشندش.

في الأندلس وطردوهم منها ودخل قوط الأندلس في طاعته. فولى عليهم ابنه اشتريك ـ زحف إليه الفرنج وانتصروا عليه واستولوا على طلوسة (تولوز) وطردوا القوط من غاليس الذين تحصنوا بالأندلس.

واستمر القوط يحكمون الأندلس ومن ملوكهم شيشوط وأبقة اجيكا وخلفه ابنه غيطشة الذي انتزع منه العرش لذريق آخر ملوك القوط[1].

(1) العبر 2/23.

الفصل الأول

الأنـدلـس
منذ الفتح العربي حتى آخر عصر الولاة

الصراع على السلطة في الأندلس بين القوط ـ انقسام القوط إلى حزبين: حزب لذريق وحزب الملك المخلوع غيطشة ـ حزب غيطشة يتصل بموسى بن نصير والي إفريقية ـ دور الكونت يليان بالاتصال.

موسى يطلع الخليفة الوليد بن عبد الملك ـ تعليمات الخليفة.

حملة طريق بن مالك ـ الاستعداد للحرب ـ الجيش العربي بقيادة طارق بن زياد ـ معركة وادي لكة ـ انتصار العرب ـ انهيار دولة القوط.

فتح طليطلة ـ حملة موسى بن نصير ـ استكمال فتح الأندلس.

ـ أمر الخليفة بوقف الحرب وعودة موسى وطارق إلى دمشق.

الـولاة

ـ عبد العزيز بن موسى بن نصير ـ أعماله ـ مقتله.
ـ الحر الثقفي ـ فتح سبتمانيا ـ تنظيم الأندلس.
ـ الخليفة عمر بن عبد العزيز يفكر بإخلاء الأندلس ـ عدوله عن فكرته ـ ولاية تابعة مباشرة إلى دمشق.
ـ السمح الخولاني ـ فتح اكوتين ـ استشهاده.
ـ عنبسة بن سحيم الكلبي.
ـ عبد الرحمن الغافقي ـ فتح جنوب فرنسا ـ استشهاده في بلاط الشهداء.
ـ تحالف أمير بروفانس مع العرب.
ـ عقبة بن الحجاج السلولي.
ـ عبد الملك بن قطن الفهري ـ ثورة البربر.
ـ بلج بن بشر والي الأندلس ـ مقتله.
ـ أبو الخطار الكلبي.
ـ يوسف بن عبد الرحمن الفهري ـ تنظيم الأندلس ـ سقوط سبتمانيا.
ـ دخول عبد الرحمن الأموي إلى الأندلس.

وفي مطلع القرن الثامن 708 حاصر العرب مدينة سبتة وكان يحكمها الكونت يليان نسيب الملك القوطي غيطشة الذي أرسل إليه أشجع جنوده. اغتنم خصوم الملك رحيل الجيش إلى سبتة وثاروا عليه بقيادة لذريق «رودريك» ابن دوق تيودوفريد مدعوماً من الأشراف والأحبار الناقمين ودارت معارك انتصر فيها لذريق خلع الملك وحل مكانه[1].

لكن العرش لم يخلص للملك الجديد إذ قاد الثورة ضده ابنا غيطشة ايفاوسيزبوت وأخوه أوباس أسقف طليطلة ورأس الكنيسة القوطية[2] استطاع لذريق أن يقمع ثورات خصومه. ولكن الخطر أتاه من جهة لم تكن متوقعة، ذلك أن خصومه تطلعوا إلى خارج الأندلس إلى المغرب حيث الكونت يليان حاكم سبته[3]. كان الكونت من أقارب الملك المعزول غيطشة، فانضم إلى أنصاره. وكان يخشى على مركزه من الملك الجديد لذريق. اتصل به أنصار غيطشة واستقر الرأي على الاستنجاد بالعرب. وفي الوقت نفسه كان يليان يعمل للانتقام لشرفه. فكانت له ابنة جميلة تدعى فلورندا أوكابا. وجرياً على عادة النبلاء، أرسلها إلى بلاط طليطلة لتتلقى تربية خاصة مع بنات الأشراف القوط فاغتصبها الملك لذريق. علم يليان بالأمر فاستدعاها وقرر الانتقام. ورأى أن خير وسيلة لتحقيق ذلك إدخال العرب إلى الأندلس[4].

وكان العرب قد أتموا فتح المغرب ما عدا ثغر سبته لمناعته ودفاع حاكمه

(1) ابن القوطية 34.

(2) ابن القوطية 34.

(3) فتوح البلدان 72.

(4) ابن عبد الحكم 72. نفح الطيب جـ 1 ص 236. البيان المغرب جـ 2، ص 7. ابن القوطية 34. المعجب ص 6 الكامل جـ 4 ص 121، ابن خلدون جـ 2، ص 236.

يليان، وكان موسى بن نصير يتوق إلى فتح سبته وتطهير افريقية من أي عدو، وبينما يستعد لتحقيق غايته وردته رسالة من الكونت يليان يعرض عليه تسليم سبتة ويدعوه إلى فتح اسبانيا وتم الاجتماع بينهما(1)، واستجاب موسى للدعوة خاصة بعد أن اطلع على أحوال الأندلس السياسية وما يسودها من انقسام وعلى غناها وخصبها فاتصل بالخليفة الوليد بن عبدالملك وأطلعه على مشروع فتح أسبانيا فكتب إليه الخليفة أن يختبره بالحملات الصغيرة وإلا يقذف المسلمين في لجج البحر.

استقر موسى بطنجة يعد العدة للفتح، كان يليان وأنصار غيطشة يقصدون من عملهم هذا الاستعانة بالعرب لإسقاط لذريق واستعادة العرش لأنفسهم وليس لتمليك العرب اسبانيا، وكانوايعتقدون بأن العرب متى امتلأت أيديهم بالغنائم سيعودون إلى المغرب من حيث أتوا(2).

ونفذ موسى أمر الخليفة بإرسال حملة صغيرة من 500 مقاتل بينهم 100 فارس بأمرة القائد طريف بن مالك البربري، عبروا المضيق على ظهر 4 سفن قدمها يوليان، ونزلت الحملة بالجزيرة المقابلة التي سميت باسم جزيرة طريف قائد الحملة وذلك في رمضان 91 هـ/ تموز 710 م واجتاحت الجزيرة الخضراء بارشاديليان وقوبلت بالترحيب ثم عادت محملة بالغنائم في أمن وسلام. عندها جد موسى بالفتح(3).

وفي رجب عام 92 هـ/ نيسان 711 م جهز موسى جيشاً بلغ عدده سبعة الاف مقاتل جلهم من البربر بقيادة طارق بن زياد بن عبدالله النفزي حاكم طنجة(4).

---

(1) الكامل جـ 4/120، البيان المغرب 2/6، فتوح البلدان 72.

(2) الكامل 4/122، أخبار 8، Doz 1/272، طيب 1/237.

(3) نفح الطيب 1/237، البيان المغرب جـ 2، ص5، الكامل جـ 4، ص 122.

(4) ورد نسب طارق في البيان المغرب جـ 1 ص 43 وجـ 2 ص 7 وفي نفح الطيب جـ 1 238، وعند ابن خلدون جـ 4 117. طارق بن زياد بن عبدالله بن ولغو بن ورفجوم. . . بن نفزا.

كان طارق قائداً ناجحاً ظهرت مواهبه العسكرية أثناء توليه ولاية طنجة. لذلك اختاره موسى لقيادة الجيش الذاهب إلى الأندلس. عبر بحر سبته. على سفن يليان، ونزل بالجبل الصخري المقابل الذي أطلق عليه منذ ذلك اليوم جبل طارق، كما أطلق على المضيق الذي يفصل المغرب عن الأندلس مضيق جبل طارق تخليداً للقائد الفاتح. وكان نزوله نهار الاثنين 5 رجب 92 هـ/ 27 نيسان 711 م[1].

زحف طارق غرباً نحو الجزيرة الخضراء يرشده الكونت يليان، كان يحكمها تيودومير عامل لذريق، فتح قلاعها وهزم القوط الذين تصدوا له، فكان أول نصر أحرزه للعرب[2]. جزع حكام الولايات المجاورة، وأبلغوا الملك لذريق بالخطر الداهم، كان يطارد الثوار في الشمال[3]. ارتد مسرعاً إلى طليطلة لمعالجة الوضع الخطير، وأرسل قائده اديكو لرد العرب والعمل على تأخير تقدمهم حتى يكون قد أتم استعداده للقائهم. هزمه طارق واخترق سهل الفرنْتيرة متجهاً نحو طليطلة عاصمة القوط.

كانت مملكة القوط تمزقها الصراعات الداخلية على السلطة، ولكن أمام الخطر الداهم[4] عمل لذريق على توحيد القوط، وجهز جيشاً بلغ عدده مئة ألف رجل. وهكذا اعتصم القوط بالوحدة في أوقات الشدة[5]. سار لذريق بهذا الجيش نحو الجنوب للتصدي للعرب.

وقف طارق على قوة القوط، فاستنجد بموسى الذي أرسل إليه 5 آلاف جندي فبلغ عدد الجيش 12 ألفاً جلهم من البربر، بالإضافة إلى قوة صغيرة

---

(1) نفح الطيب جـ 1 ص 216 و 238 و 241، البيان المغرب جـ 2 ص 9، جذوة المقتبس جـ 31، الكامل جـ 4 ص 122.
(2) البيان المغرب جـ 2 ص 9.
(3) نفح الطيب جـ 1 ص 239.
(4) ابن القوطية جـ 29.
(5) جـ 4، ص 122، نفح الطيب جـ 1 ص 216 و 240. ابن خلدون جـ 4 و 117 العدد 40 ألف.

قدمها يليان[1]. كان القوط يفوقون العرب عدة وعدداً، والعرب يقاتلون في أرض يجهلونها وكلها هضاب ومفاوز صعبة. ورغم ذلك تقدم طارق بحزم وعزم إلى المعركة وكله ثقة بالنصر.

معركة وادي لكه (البحيرة)

حدث اللقاء بين العرب والقوط، الإسلام والنصرانية، في وادي لكه جنوب بحيرة جنده Janda المتصلة بنهر برباتي Barbate الذي يصب في المحيط الأطلسي جنوب رأس طرف الغار، وذلك نهار الأحد في 28 رمضان 92/ تموز 711[2] بدأت المعركة بمناوشات على ضفاف البحيرة، وقد فصل الوادي بين الجيشين ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع التحم الجيشان ودارت معركة عامة.

كان الجيش القوطي رغم كثرته مختل التوازن، فالميمنة والميسرة يقودهما ايفا وسيزبوت إبني غيطشة[3]. وعناصر الجيش من الناقمين على الملك، وإذ كان القوط قد تظاهروا بالوحدة، لكنهم كانوا يتحينون الفرصة المناسبة للانتقام من الملك[4]. وعملت الخيانة عملها، إذ استمال يليان والأسقف أوباس كثيراً من الجنود القوط الناقمين، فانسحبوا من المعركة وتركوا القتال. وهكذا تمكن الجيش العربي القليل العدد من إحراز النصر في اليوم السابع لبدء المعركة في 5 شوال 92/ تموز 711 م، وهزم القوط هزيمة ساحقة. فقد قتل عدد كبير منهم وعرفت مراتبهم من خواتمهم فكبار القوط يحملون خواتم ذهبية، ومن دونهم خواتم فضية، والعبيد نحاسية[5]، وغنم المسلمون كثيراً.

أما الملك لذريق فقد لاذ بالفرار وغرق في النهر ولم يعثر له على أثر،

(1) فتوح المغرب جـ 19. نفح الطيب جـ 1 ص 216 و 240، الكامل جـ 4 ص 122.
(2) فتوح المغرب جـ 19، ابن القوطية جـ 33.
(3) أخبار مجموعة جـ 8، نفح الطيب جـ 1 ص 241.
(4) الكامل جـ 4 ص 122، نفح الطيب جـ 1 ص 241. ابن القوطية جـ 30. دوزي جـ 1 ص 272.
(5) نفح الطيب جـ 1 ص 243.

ولكن عثر على جواده وسرجه الذهبي[1].

وهكذا زالت دولة القوط بعد أن استمرت حوالي 300 سنة، وورث العرب ملك اسبانيا. على أثر معركة الفتح في وادي لكه، إنهار الجيش القوطي، وساد الرعب المدن الاسبانية، فامتنع القوط بالحصون والجبال.

سرت أنباء النصر في المغرب فتدفق المجاهدون وانضموا إلى الجيش النظامي المنتصر[2] زحف طارق شمالاً. كانت بقايا جيش القوط قد تجمعت في استجة[3]. هزمها طارق وفتح المدينة. وهكذا انهارت المقاومة القوطية، ولم يبق أمام العرب سوى فتح المدن والحصون.

في كل هذه الأعمال الحربية، كان يليان وصحبه إلى جانب العرب مرشدين ومقاتلين وناصحين. وفي استجة وضعت خطة سير عمليات الفتح، تقرر أن يسير طارق بنفسه إلى طليطلة العاصمة، ومغيث الرومي مولى الخليفة الوليد بن عبدالملك إلى قرطبة على رأس 700 فارس[4] ففتحها دون مقاومة. ثم أرسل حملات إلى غرناطة والبيرة ومالقة. استسلمت مالقة دون قتال، ولاذ سكانها بالجبال، والتحق الجيش الذي تولى فتحها بالجيش الزاحف نحو البيرة وغرناطة، حوصرت غرناطة ثم استسلمت وكذلك البيرة.

كان اليهود يساعدون العرب في فتح المدن، فكافأهم العرب بأن ضموا إليهم في كل مدينة حامية يهودية تساعد على حفظ الأمن.

واتجه العرب شرقاً إلى مرسيه وقاعدتها مدينة أوريولة. كانت المنطقة تسمى بتدمير باسم حاكمها «تيودمير». كان قائداً محنكاً حاول التصدي للعرب، ودارت معركة هلك فيها معظم جنوده فارتد إلى المدينة وتحصن بها، ولجأ إلى

---

(1) الكامل جـ 4 ص 122، نفح الطيب جـ 1 ص 243، البيان المغرب جـ 1 ص 43 وجـ 2 ص 9. الطبري م 4 أحداث سنة 92 هـ.

(2) نفح الطيب 243.

(3) ابن القوطية 35، ابن عبد الحكم 19، نفح الطيب 244، الكامل 122.

(4) البيان المغرب 11، الكامل 122، ابن القوطية 35.

حيلة بأن عرض الناس وهن بلباس الرجال من فوق الأسوار كمقاتلين، واستطاع أن يحصل على صلح أنقذ المدينة من السبي والجزية[1].

سار طارق شمالاً مخترقاً هضاب الأندلس وجبل الشارات إلى طليطلة يرشده الكونت يليان. وفر القوط من العاصمة حاملين أموالهم. وبقي بها اليهود وقلة من النصارى دخلها طارق[2] أمن من بقي فيها وترك لهم عدة كنائس، ولأحبارها حرية إقامة شعائرهم الدينية، وللنصارى اتباع شرائعهم الدينية.

اختار طارق لحكم المدينة الأسقف أوباس حليفه وضم اليهود إلى حاميتة[3]. ثم تابع زحفه شمالاً إلى قشتالة وليون، فتح مدينة المائدة وغنم المائدة وفيها 365 قاعدة من الزبرجد[4]. وطارد فلول القوط حتى استرقه، فلاذوا بجبال جيليقية. تابع طارق تقدمه شمالاً حتى أشرف على ثغر خيخون على خليج بسكونية، فكان ذلك نهاية فتوحاته. وعاد أدراجه إلى طليطلة، حيث وصله الأمر من موسى بوقف الأعمال العسكرية وذلك بعد عام من دخوله الأندلس[5].

وليدعم الفتح الجديد بالعناصر البشرية عبر موسى بن نصير المضيق إلى الأندلس على رأس جيش من 18 ألف جندي، عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر على سفن صنعها لهذه الغاية[6]. نزل بالجزيرة الخضراء حيث استقبله يليان وذلك في رمضان 93/ حزيران 712[7].

بدأ أعماله العسكرية بفتح شذونة[8]، ثم سار إلى قرمونة وهي من أمنع

---

(1) الكامل جـ 4 ص 123. البيان المغرب 11 جـ 2.
(2) ابن القوطية 35، الكامل جـ 4 ص 123، نفح الطيب 248.
(3) الكامل 123.
(4) نفح الطيب 248، البيان المغرب جـ 2 ص 12، الكامل 123.
(5) البيان المغرب 12 جـ 2، الكامل جـ 4 ص 123.
(6) ابن القوطية 35، جذوة المقتبس 33.
(7) فتوح ابن عبدالحكم 77.
(8) البيان المغرب 252، نفح الطيب 13.

مدن الأندلس، فدخلها بمساعدة يليان، ثم توجه إلى أشبيلية عاصمة اسبانيا أيام الرومان[1] ففتحها بعد حصار دام شهراً، وتابع زحفه إلى ماردة وحاصرها، وقتل النصارى عدداً من جنوده بكمائن تحت أسوارها. ثم استسلمت المدينة في رمضان 94/ حزيران 713، فصادر أموال الكنائس والفارين، ومنحها ديات لذوي القتلى[2]. ثم توجه إلى طليطلة. وفيها اجتمع بقائده طارق بن زياد حيث وضعا خطة عسكرية لفتح ما تبقى من الأندلس. زحفا شمالاً نحو أراجون وفتحا سرقسطة وطركونة وبرشلونة[3]. وهناك افترق القائدان. سار موسى شمالاً مخترقاً جبال البيرنيه وغزا ولاية لانجدوك (سبتمانية) التي كانت تابعة لمملكة القوط، واستولى على قرقشونة وأربونة ثم اخترق حدود مملكة الفرنج ووصل إلى مدينة لوذون على نهر الرون. وهناك بدأت المعارك الأولى بين العرب والفرنج قرب أربونة[4].

وسار طارق نحو الغرب غازياً جيليقية مطارداً فلول القوط[5]. في هذا الوقت وصله كتاب من الخليفة يأمره بالتوجه إلى دمشق، أساءه ذلك، فتمهل في العودة حتى يستولي على جيليقية ويطهر الأندلس من أية مقاومة، فاستولى على معظمها وبقي من القوط شراذم قليلة لجأت إلى الصخور في ناحية جيليقية مجتمعة حول زعيم منهم يدعى بلاجيوس، وكان يستعد لسحقها إذ وصله كتاب آخر من الخليفة يأمره بالعودة مسرعاً مع طارق وبذلك نجت بقايا القوط من المطاردة فاعتصمت بصخور جيليقية وكانت نواة المملكة النصرانية التي اعتمدت حرب الاسترداد لطرد العرب من الأندلس وكان لها ذلك بعد 8 قرون. وأثناء ذلك كان عبد العزيز بن موسى بن نصير قد فتح المنطقة الساحلية بين مالقة

---

(1) البيان المغرب 13، نفح الطيب 252.
(2) الكامل 123، البيان المغرب 15، نفح الطيب 253.
(3) البيان المغرب 16.
(4) نفح الطيب 253 وسبتمانية تضم سبع مدن: أربونة، نيمة، قرقشونة، بزييه، أجده، ماجويلون ولوديف.
(5) البيان المغرب جـ 2 ص 16.

وبلنسية وأخمد ثورة اشبيلية وباجة وفتح لبله، وقد أبدى تساهلاً في معاملة أهالي المدن المفتوحة، يستند على ذلك من كتاب الصلح الذي أعطاه عبد العزيز بن موسى إلى تدمير حاكم شرق الأندلس.

ونظم موسى بن نصير شؤون الأندلس وجعل قاعدتها مدينة اشبيلية وعين ابنه عبد العزيز حاكماً لها كما عين على المغرب الأقصى ابنه عبد الملك وعلى افريقية ابنه عبدالله. وفي ذي الحجة سنة 95/ آب 715 توجه إلى المشرق يصحبه طارق وفي ركبه الغنائم والتحف النفيسة والسبي[1].

وبعد وصول موسى إلى دمشق لم يرد له ذكر ولم يلق الثواب الذي يستحق. لقد كان من أكبر رجال العرب السياسيين الإداريين والعسكريين تجلى ذلك في عبور العرب إلى أوروبا وعلى يديه[2].

وكذلك يسود الغموض مصير طارق بن زياد قائد عمليات فتح الأندلس. أما الكونت يليان فقد عاد بعد الفتح إلى سبته حيث استقر فيها.

وعامل العرب ابني غيطشة ايفا وسيزبوت وأوياس معاملة حسنة، فعينوا أوياس مطراناً على طليطلة والأندلس وأعطوا ابني غيطشة ما كان لوالدهما من الممتلكات. وتوفي ايفا عن ابنة تدعى سارة وطفلين صغيرين فاغتصب عمهما سيزبوت ميراثهم، فرحلت سارة مع أخويها إلى دمشق وشكت أمرها إلى الخليفة هشام بن عبدالملك، فأنصفها وأمر والي الأندلس أبا الخطار برد ميراثها إليها. وفي دمشق تزوجت من عيسى بن مزاحم وعادت إلى الأندلس مع زوجها ورزقت بولدين إبراهيم وإسحاق اللذين أحرزا مكانة عالية. وإلى سارة ينسب مؤرخ الأندلس الشهير ابن القوطية[3].

قبل عودته إلى المشرق عين موسى ابنه عبدالعزيز والياً على

(1) الكامل جـ 4 ص 123 و 124. ابن القوطية 36، نفح الطيب جـ 2551، جذوة 33، البيان المغرب / ـ 2 ص 23.

(2) نفح الطيب 1/133.

(3) الكامل 4/213، نفح الطيب 245 جـ 1، ابن القوطية 326.

الأندلس[1]، في ذي الحجة 95 هـ. فكان أول ولاتها. وكذلك جعل قاعدتها مدينة أشبيلية. أقر الخليفة سليمان بن عبدالملك هذا التعيين. قضى عبدالعزيز عامين في مركزه، حصن أثناء ذلك الثغور، قمع الفتن التي نشبت بين القبائل، نظم الولاية الجديدة، أنشأ ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية بحيث تتوافق مع معتقدات الرعايا، اهتم بالناحية الاجتماعية، فشجع الزواج بين العرب والاسبان، وضرب لهم المثل بأن اقترن بايجلونا ابنة لذريق ملك القوط، واختار دير سانتاروفينا مقراً له بعد إجراء التعديلات عليه وفقاً للطراز العربي[2].

وقد وفدت عليه وفود المهاجرين من المشرق، من مصر والشام والعراق وفارس هؤلاء القادمون نهضوا بالاقتصاد زراعة وصناعة وتجارة. ولكن أخذ خصومه يعملون على النيل منه، ويشيعون بأنه يسعى إلى الاستقلال بالأندلس بتحريض من زوجته ايجلونا[3]. وأثاروا ريبة الخلافة من أعماله خاصة وأن الأندلس كانت تتمتع بحضارة تفوق حضارة الشعوب التي أخضعها العرب في الغرب. فثار عليه الجيش بتحريض من الخلافة في دمشق بقيادة الوزير حبيب بن أبي عبدة الفهري وقتله وهو يؤدي الصلاة في أحد مساجد أشبيلية في رجب 97 هـ/ كانون الثاني 716 م وبعثوا برأسه إلى دمشق[4].

اتفق الثوار على تعيين أيوب بن حبيب اللخمي، وهو ابن عمة الوالي القتيل عبد العزيز بن موسى والياً على الأندلس[5]. كان أيوب عاقلاً حليماً، استطاع تهدئة الأوضاع. بقي في ولايته ستة أشهر نقل خلالها العاصمة إلى قرطبة برأي الجماعة. ثم أقاله محمد بن يزيد والي افريقية وعين مكانه الحر بن

---

(1) نفح الطيب جـ 1 ص 218، البيان المغرب جـ 2 ص 23.

(2) ابن القوطية 37، فتوح افريقية جـ 83 و 84، البيان المغرب 23، الكامل جـ 4 ص 144 يذكر ايجلونا أرملة لذريق.

(3) الكامل 144، جذوة المقتبس 33، البيان المغرب 24.

(4) فتوح افريقية 85، البيان المغرب 24.

(5) نفح الطيب جـ 219، البيان المغرب 25.

عبدالرحمن الثقفي في ذي الحجة 97/ 716 م[1].

نظم العرب الأندلس إدارياً وأتبعوها بولاية افريقية وقسموها إلى أربع ولايات كما كانت أيام الرومان، يدير كل ولاية حاكم تابع للوالي الذي يعينه والي افريقية وأحياناً الخليفة كما حدث أيام عمر بن عبدالعزيز الذي جعلها ولاية تابعة للخلافة مباشرة.

ـ الولاية الأولى الأندلس: وتشمل الإقليم الممتد من البحر المتوسط شرقاً إلى الوادي الكبير غرباً، وأهم مدنها قرطبة وأشبيلية ومالقة واستجة وجيان.

ـ الولاية الثانية: تشمل اسبانيا الوسطى من البحر المتوسط شرقاً إلى البرتغال غرباً ونهر دويره شمالاً وأشهر مدنها طليطلة وبلنسية ودانية وقرطاجنة ومرسية ولورقة وبسطة.

ـ الولاية الثالثة: جيليقية ولوزيتانيا (البرتغال) أشهر مدنها مارده، يابرة، باجة، اشبونة، قلمرية، استرقة وشلمنقة.

ـ الولاية الرابعة: المنطقة الواقعة ما بين نهر دويرة وجبال البرتات على ضفتي نهر الأبرو إلى جيليقية غرباً وأهم مدنها سرقسطة، طرطوشة، طركونة، برشلونة بلد الوليد وشقه.

ـ الولاية الخامسة: وراء البرتات (ولاية سبتمانية) ومن مدنها أربونة، نيمة، قرقشونة، بزييه، أجدة، ماجويلون ولوديف[2].

نزل الفاتحون في هذه الولايات وانتقى العرب بالأماكن الخصبة حيث توزعت القبائل، فنزلت قبائل دمشق في قرطبة وقبائل حمص بأشبيلية ولبلة وقبائل قنسرين بجيان وقبائل فلسطين بشذونة والجزيرة وقبائل اليمن بطليطلة

---

(1) ابن القوطية 37، فتوح افريقية 85، نفح الطيب 219، الكامل 144، البيان المغرب 25.

(2) الروض المعطار ص 31، 32، 33، 34.

والفرس بقنسرين، والعراقيون بغرناطة والمصريون بتدمير.

بينما أنزلوا البربر في الأطراف الغربية القاحلة في نواحي مارده وبطليوس ونزلت أقلية منهم بين العرب. هذا التوزيع الظالم أدى إلى نفور البربر من العرب خاصة وأنهم كانوا العنصر الفعال في الفتح مما أدى إلى الثورة على العرب لاحقاً[1].

كان الحر صارماً قمع الفتن وقضى على الخلافات بين العرب والبربر وطارد الخارجين على النظام وطّد الأمن واهتم بالجيش وبعد ذلك انصرف للغزو. عبر جبال البرتات بجيش كبير إلى سبتمانيا 99/718. فأخضع المدن التي تمردت وتابع زحفه على ضفاف نهر الجارون، وبينما هو يتقدم داخل سبتمانيا وصلته أخبار عن قيام البشكنس بثورة في نافار وعن اضطرابات في العاصمة قرطبة، فعاد مسرعاً إلى الأندلس، وقمع الفتنة بشدة فعزله عمر بن عبدالعزيز منتصف 100/719 لقسوته وفشله في الاصلاح وكانت مدة ولايته سنيتن و 8 أشهر.

وفكر الخليفة عمر بن عبد العزيز بإخلاء الأندلس من المسلمين والتخلي عنها لبعد المسافة ولأن البحر يفصلها عن سائر العالم الإسلامي لأن مصير المسلمين فيها إلى بوار، ولكنه عدل عن فكرته بعد أن تأكد من كثرة المسلمين فيها واستقرارهم فجعلها ولاية مستقلة عن افريقية تتبع الخلافة مباشرة في دمشق لأهميتها[2]. وعين عليها السمح بن مالك الخولاني في رمضان 100/ نيسان 719 وأوصاه باتباع الرفق والعدل مع سكانها.

كان السمح حكيماً ذا عقل وخبرة، قمع الفتن والمنازعات وأصلح الإدارة مسح الأراضي وخمسها وقرر الخراج عليها، واهتم بالجيش لأنه عماد الحكم في ذلك القطر النائي فهدأت الاضطرابات وساد الأمن والنظام والتف الزعماء حوله.

---

(1) ابن خلدون 119/4.

(2) البيان المغرب 25/2. ابن القوطية 38، الكامل 182 جـ 5.

اهتم بالعاصمة قرطبة فجدد بناء قنطرة قرطبة الشهيرة على الوادي الكبير بتوجيه من الخليفة[1].

بعد أن حقق الهدوء في الداخل استأنف الغزو إلى لانجدوك أواخر 101/ 719 فعبر البرتات من باب الروسيون واستعاد اربونة وقرقشونة واجتاح غاليس القوطية وكانت هذه الغزوة في سنة 720/ 101.

نظم السمح سبتمانيا وأقام بها حكومة إسلامية وزع الأراضي بين الفاتحين والسكان فرض الجزية على النصارى وترك لهم حرية إقامة شعائرهم الدينية. واتجه نحو الغرب غازياً اكويتن وزحف نحو قاعدتها تولوز[2].

كانت اكوتين مملكة مستقلة ما بين اللوار وجبال البيرنيه يحكمها الدوق أودو أقوى أفراد الأسرة المالكة الميروفنجية. التف حوله القوط والبشكنس، وكانت يطمح في استعادة ملك أسرته في (بلاد الفرنج) وأعد جيشاً لهذه الغاية ولكنه اضطر إلى التحول لقتال العرب الذين هددوا مملكته من الجنوب.

تصدى للسمح أثناء زحفه القوط والبشكنس فسحقهم، وتوجه إلى تولوز وكان الدوق أودو أعد جيشاً كبيراً لرد العرب، وعلم السمح بالجيش القادم فتراجع عن مهاجمة تولوز للقاء جيش أودو الذي يفوقه عدداً ودارت معركة عنيفة في ظاهر تولوز تبادل فيها الفريقان النصر ولكن استشهد السمح فاختل نظام الجيش العربي وارتد إلى سبتمانيا بعد أن سقط من خيرة أفراده في 9 ذي الحجة 102/ 9 حزيران 721[3].

بعد استشهاد السمح اختار القادة عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي للقيادة فارتد نحو الجنوب بمن تبقى من الجيش. واختارته الجماعة حاكماً على الأندلس ريثما يتم تعيين والٍ من الخلافة. بقي في منصبه مدة قصيرة أخمد خلالها تمرد الولايات الشمالية وأبقى فارضاً الجزية على سبتمانيا حتى قدم

---

(1) نفح الطيب 1/219، البيان المغرب 26. جذوة المقتبس 34.

(2) البيان المغرب 26.

(3) ابن خلدون 4/118، نفح الطيب جـ 1 ص 221.

عنبسة بن سحيم الكلبي اختاره بشر بن صفوان الكلبي والياً على الأندلس بعد أن أعاد يزيد بن عبدالملك الأندلس إلى ولاية افريقية[1]

وصل عنبسة إلى الأندلس سنة 103/227 م إنصرف إلى تنظيم الإدارة، وإصلاح الجيش. ثم سار سنة 105/724 إلى الشمال عبر جبال البيرنيه إلى سبتمانيا واستعاد المدن التي خرجت بعد استشهاد السمح. واستولى على قرقشونة ونيمة[2] وحالفه القوط. وتابع زحفه شمالاً في وادي الرون ودخل إلى برجونية وغزا مدينة أوتون آب 725 وكذلك مدينة صانص. وتخوف الدوق أودو من مهاجمة المسلمين له فسعى إلى مفاوضاتهم. وسيطر المسلمون على جنوب شرق فرنسا.

ولكن نكب المسلمون مرة ثانية، فإن عنبسة أثناء عودته إلى الجنوب تصدت له حشود من الفرنج، أصيب أثناء المعركة بجراح بالغة توفي على أثرها في شعبان 107/726 فتراجع الجيش إلى الداخل. واختل حبل الأمن في الأندلس. واضطربت الأوضاع فيها فقد توالى على الحكم فيها خلال خمس سنوات ستة ولاة أولهم عزرة بن عبدالله الفهري الذي تولى قيادة الجيش عقب وفاة عنبسة. وبقي في مركزه مدة شهرين[3] ثم خلفه يحيى بن سلمة الكلبي ولاه بشر بن صفوان الكلبي والي افريقية، دخل الأندلس في شوال 107/ 726.

ودامت ولايته سنتين ونصف سادها الهدوء، وبعد وفاة بشر بن صفوان

خلفه على افريقية عبيدة بن عبدالرحمن السلمي عزل يحيى من ولايته وعين مكانه على لأندلس عثمان بن أبي نسعة الخثعمي فقدم إليها في شعبان 110 ثم عزل بعد ستة أشهر وخلفه الهيثم بن عبيد الكلابي من قبل عبيدة السلمي فقدم إلى الأندلس في محرم 111/ 730[4].

---

(1) ابن القوطية 38.

(2) الكامل 197.

(3) نفح الطيب 220، الكامل 197.

(4) نفح الطيب 220، البيان المغرب 26، ابن القوطية 38.

كان تتابع الولاة دليلاً على الاضطرابات وعدم الاستقرار في الأندلس، فقد اشتد الخلاف بين القبائل العربية وبين العرب والبربر. وكان توقف المسلمين عن الغزو مشجعاً للفرنج بمهاجمة القواعد الإسلامية في سبتمانيا وفرصة ثمينة للقوط والبشكنس أتاحت لهم تنظيم قواتهم وخاصة شراذم القوط التي اعتصمت بأقاصي جيليقية. فكانت نواة المملكة النصرانية التي قويت واشتد ساعدها وتبنت حرب الاسترداد الاسبانية.

كان الهيثم حازماً وصارماً، قمع الفوضى وطارد الزعماء المخلين بالأمن وسجنهم، قاد حملة ضد منوسة البربري حاكم منطقة الاستريا‌س عندما ثار. ولكنه فشل في القضاء عليه ثم سار بالجيش نحو الشمال وعبر البيرنيه. إخترق سبتمانيا إلى وادي الرون، وغزا ليون وشالون على نهر الساؤون واجتاح أراضي برجونية الجنوبية. ولكن هذا الفتح لم يكن مستقراً، فقد أدى تمرد البربر واختلاف القبائل إلى تفكك الجيش. وبالتالي خرجت المدن التي فتحها عن طاعته. فارتد نحو الجنوب، ثم توفي بعد حكم دام سنتين. واختارت الجماعة مكانه محمد بن عبدالله الأشجعي حتى تعيين وال جديد ولبث الأشجعي في منصبه مدة شهرين، حتى عين الوالي عبيدة السلمي على الأندلس عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي بموافقة الخليفة هشام بن عبدالملك وذلك في صفر 113/ نيسان 731 فكانت ولايته الثانية.

كان عبد الرحمن حاكماً قديراً[1]، وإدارياً بارعاً ومصلحاً كبيراً وعسكرياً موهوباً ظهرت مواهبه العسكرية عندما عاد بالجيش العربي بعد استشهاد السمح الخولاني ويعد أهم ولاة الأندلس وأقدرهم[2].

لقي تعيينه ترحيباً من الأندلسيين وخاصة الجنود والتفت القبائل حوله وتصالحت وعاد الوئام إلى الأندلس. بدأ عهده بزيارة مناطق الأندلس، اطلع على أحوالها ونظم شؤونها وعهد بإدارتها إلى ذوي الكفاءة، وقمع الفتن،

(1) البيان المغرب جـ 2 ص 28. نفح الطيب جـ 2 ص 220، ابن خلدون جـ 4 ص 119.
(2) ابن عبد الحكم 216 ـ 217، جذوة المقتبس ص 6 و 255.

وعامل أهل الذمة معاملة حسنة فرد إلى النصارى الكنائس والأموال المصادرة، ونظم الضرائب وفرضها على الجميع بالعدل والمساواة وأصلح الإدارة. إهتم بالجيش ونظمه، أنشأ فرقاً قوية من فرسان البربر بإشراف قادة من العرب، حصن الثغور.

ظهرت أعراض الثورة في الشمال وقائدها منوسة البربري حاكم منطقة الاسترياس. وقد حاول الهيثم الكناني القضاء عليه سابقاً ففشل، وكان الدوق أودو حاكم اكوتين منذ أن اجتاح العرب مملكته يسعى إلى مهادنتهم والتقرب منهم. وفي الوقت نفسه يجمع حوله الحلفاء للحفاظ على مملكته. فسعى إلى التفاهم مع منوسة البربري عندما تولى حكم المناطق الشمالية، وتم ذلك. ثم قوت المصاهرة بينهما عرى الصداقة ذلك أنه كان للدوق أودو ابنة رائعة الجمال تدعى لامبجيا أسرها منوسة في بعض غاراته على اكوتين وتزوجها بموافقة أبيها أودو وهكذا تم التحالف المتين بين أودو وصهره منوسة، وكان أودو بين نارين العرب من الجنوب وزعيم الفرنج كارل مارتل من الشمال الذي ينقم على اودو لاستقلاله بجنوب غاليس.

ورأى منوسة أن يسبغ على اتفاقه صفة الهدنة مع الفرنج، ولكن عبدالرحمن ارتاب بتصرفاته، ورفض عرض الهدنة، عندها أسفر عن وجهه وأعلن الثورة فبعث إليه عبدالرحمن حملة بقيادة ابن زيان للقضاء على تمرده. فتحصن منوسة في قاعدته مدينة الباب التي تقع على منحدر جبال البيرنية. وكان يعتقد أنها تعصمه من عبد الرحمن، ولكن ابن زيان اخترق بجيشه مناطق التمرد ووصل إلى مدينة الباب وحاصرها. ففر منها منوسة ولاذ بشعب الجبال الوعرة فطارده ابن زيان حتى قتله سنة 731/133[1]، وأسرت زوجته لامبجيا وأرسلت إلى دمشق.

وهكذا انهار مشروع أودو وشعر بالخطر الداهم فاستعد للدفاع عن مملكته، وتحرك القوط والفرنج في الشمال وهاجموا أطراف الأندلس الشمالية.

---

(1) ليفي بروفنسال 43، دوزي ص 129.

كان عبد الرحمن يتحرق للثأر لاستشهاد السمح الخولاني عند اسوار تولوز ويتأهب لاجتياح مملكة الفرنج، فلما رأى تحرك الأعداء على الحدود الشمالية سار مباشرة إلى الشمال بعد أن أعد أكبر جيش سيرَّه المسلمون إلى غاليس في 732/ 114 هـ. بلغ عدده حوالي 70 ـ 80 ألف مقاتل. إخترق ولاية أراجون ونافار وعبر البيرنيه من ممر بنبلونة ودخل غاليس في ربيع 732 وزحف إلى مدينة آرل الواقعة على نهر الرون، واستولى عليها بعد معركة عنيفة مع أودو. ثم توجه غرباً وعبر الجارون وهاجم اكوتين. وحاول أودو إيقافه فدارت معركة على ضفاف الدردون انهزم فيها أودو وطارد عبدالرحمن الدوق حتى عاصمته بوردو وفتحها بعد حصار قصير. وفر منها أودو وسقطت اكويتن كلها في يد العرب، ثم ارتد عبد الرحمن نحو الرون واخترق برجونية وفتح ليون وبيزانصون، ووصلت طلائع الجيش إلى صانص التي تبعد مئة ميل عن باريس، ثم ارتد غرباً إلى ضفاف اللوار ليفتح هذه المنطقة ثم يتجه إلى باريس عاصمة الفرنج. وهكذا فتح نصف فرنسا الجنوبي في بضعة أشهر وامتد خط ظفر العرب على طول ألف ميل من جبل طارق إلى ضفاف اللوار. وبدأ الاستعداد للمعركة الفاصلة مع الفرنج.

بلاط الشهداء

كان يحكم فرنسا الفرنج وملكهم تيودوريك الرابع يملك ولا يحكم، والسلطة الفعلية بيد محافظ القصر كارل، وكانت تقع عليه مهمة التصدي للعرب والدفاع عن المملكة.

لم يتحرك للقاء العرب عندما اجتاحوا مملكة اكوتين على الرغم من استنجاد أودو به بعد هزيمته. وبرر كارل للفرنج عدم التصدي للعرب عندما ألحوا عليه بالحرب بأنهم أشداء كالسيل يحمل من يصادره ونياتهم تغني عن كثرة العدد وقلوبهم تغني عن حصانة الدروع[1]. ولكن نمهلهم حتى تمتلىء

(1) نفح الطيب جـ 129.

أيديهم بالغنائم ويتنافسون على الرئاسة عندئذ نتصدى لهم[1].

وحشد كارل جيشاً كبيراً من أمم أوروبا من الفرنج وقبائل الجرمان والمرتزقة وأكثر جنوده غير نظامي، شبه عراة. وبهذا الجيش الكبير سار نحو الجنوب حتى يفاجيء العرب قبل أن يستعدوا للمعركة الفاصلة.

كان الجيش العربي قد اجتاح مملكة اكوتين التي تضم اليوم مقاطعات فرنسا: جويان وبريجور وسانتونج وبواتو، وأشرف على مروج اللوار الجنوبية، حيث تصب فيه فروعه الكريز والفيين والكلين واستولى على بواتييه ونهبها وأحرق كنيستها وفتح مدينة تور على ضفة اللوار اليسرى. في ذلك الوقت كان الجيش الفرنجي قد وصل إلى اللوار دون أن يشعر به المسلمون الذين أخطأوا بتقدير عدده وعدته، وأراد عبد الرحمن اقتحام اللوار إلى الضفة اليمنى لمقابلة العدو، فوجيء بجيش الفرنج الجرار، فارتد إلى السهل الواقع بين تور وبواتيه، وعبر الفرنج نهر اللوار غرب تور للقاء الجيش العربي، وخيم إلى يسار الجيش العربي على بعد بضعة أميال بين نهري كلين وفيين.

كانت حال الجيش العربي تدعو إلى القلق، فقد كان البربر الذين يشكلون معظم الجيش يتوقون إلى الانسحاب بالغنائم الكثيرة التي غنموها فكانوا قد استولوا على ثروات فرنسا الجنوبية ونهبوا محتويات الكنائس والأديرة بعد حربهم المظفرة. وكانت هذه الأسلاب والغنائم تحدث الاضطراب في صفوفهم.

بدأت المعركة الفاصلة بين العرب والفرنج في آخر شعبان 114 هـ/ 12 آب 732 م وكان عبدالرحمن الذي بدأ بالهجوم، ودارت معارك بين الجيشين مدة ثمانية أيام كانت سجالاً، وفي اليوم التاسع نشبت المعركة الفاصلة فقد انقض الفرسان العرب على الفرنج بشدة، وصمد الفرنج للهجوم حتى حل الظلام، وتجدد القتال صباح اليوم العاشر. وأبدى الفريقان الشجاعة والصبر بدت معالم الهزيمة على الفرنج فتراجعت صفوفهم ولاح النصر إلى جانب

---

(1) نفح الطيب 1/129.

العرب. في هذه الأثناء ارتفع صوت مجهول في صفوف الجيش العربي بأن الفرنج قد فتحوا ثغرة إلى معسكر الغنائم، وبأنه يوشك أن يسقط في أيديهم. ارتدت قوة من الفرسان من قلب المعركة للدفاع عن الغنائم، وكان ذلك الصوت مؤامرة نفذها مجهول ليشغل الجيش العربي عن قتال العدو. واضطربت صفوف العرب ودب الخلل فيها، وعبثاً حاول عبد الرحمن إعادة النظام إلى صفوف الجيش. وبينما كان يتنقل بين الجنود لإعادتهم إلى مراكزهم أصابه سهم من الأعداء أودى بحياته، وسقط شهيداً عن ظهر جواده. عندها ساد الاضطراب من جديد صفوف العرب، وقويت عزيمة الفرنج بعد أن حلت بهم الهزيمة، فارتدوا على العرب وأمعنوا فيهم القتل حتى جن الليل، فافترق الجيشان كان ذلك في أوائل رمضان 114 هـ/ 21 تشرين الأول 732 م.

رأى قادة الجيش العربي أنهم فقدوا الأمل بالنصر، فقرروا الانسحاب تحت جنح الظلام جنوباً نحو سبتمانيا تاركين غنائمهم التي كانت عامل هزيمتهم. وفي الصباح لاحظ الفرنج أن السكون يسود معسكر الجيش العربي، تقدموا بحذر نحوه فوجدوه خالياً إلا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا الانسحاب، فأجهزوا عليهم وخشي كارل مارتل من خديعة العرب فاكتفى بذلك دون مطاردتهم. وعاد بجيشه نحو الشمال ظافراً[1].

سنحت الفرصة للفرنج لإخراج العرب من فرنسا، ولكن شارل مارتل لم يقدم مباشرة على جني ثمار انتصاره بعد أن انحسر المد العربي الجارف، إذ انشغل بمحاربة الوثنيين في ألمانيا، وكذلك حليفه أودو، إنشغل أيضاً بالتصدي لوالي الأندلس الجديد عبد الملك بن قطن الفهري الذي غزا أكوتين، وقوى مراكز الحاميات العربية على ضفاف نهر الرون. ثم توفي أودو 117 هـ/ 735 م فتخلص كارل من منافسه الشرعي على العرش الفرنجي، جهز جيشاً هاجم اكوتين ودخل عاصمتها، وعين هونالد بن أودو دوقاً عليها على أن تكون

(1) ابن عبدالحكم 317، البيان المغرب جـ 1 ص 37، الكامل جـ 5 ص 74، ابن خلدون جـ 4 ص 119، نفح الطيب جـ 1، ص 109 جـ 2 ص 56.

المقاطعة تابعة له.

في ذلك الوقت فتح العرب مدينة آرل للمرة الثانية بقيادة عبد الرحمن بن علقمة اللخمي حاكم أربونة والملقب بفارس الأندلس لشجاعته الفائقة[1].

كانت المناطق المجاورة لسبتمانية يسكنها القوط والبرجونيون الذين يحاولون الاستقلال عن الفرنج. وكان الدوق مورنتوس حاكم بروفانس أقوى زعمائهم يحكم مملكة تمتد ما بين الرون وجبال الألب يريد كذلك الاستقلال عن الفرنج، فعقد حلفاً مع العرب، وعبر الجيش الحليف بقيادة مورنتوس وعبدالرحمن اللخمي نهر الرون استولى على أفنيون، واخترق العرب إقليم دوفينيه، واستولوا على أوسيز وفقبيه وفالانس وفيين وليون، وغزوا برجونية[2].

وصل نبأ الغزو العربي إلى كارل مارتل وهو يحارب السكسونيين، فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة اخيه شلِدبراند ليتصدى للعرب، ثم أتبعه بجيش آخر، وهاجم الفرنج مدينة افينيون واحتلوها، وأبادوا حاميتها العربية، وتحصن العرب بمدينة اربونة، فحاصرها كارل وصمد العرب فيها، أرسل عقبة بن الحجاج جيشاً من البحر لنجدتها ونشبت معركة مع الفرنج بين المدينة والبحر انهزم فيها العرب، ولم ينج منهم إلا من لاذ بالفرار في السفن وذلك سنة ح11 هـ/ 737 م. ومع ذلك بقيت أربونة صامدة ولم تستسلم، فاضطر كارل إلى رفع الحصار، وهاجم المواقع العربية في سبتمانية فاستولى على بزييه وأجدة وماجلونة وخربها ودمرها. وأحرق نيمة مع آثارها الرومانية. وغدت المنطقة أطلالاً دارسة، وحول السهل غرب سبتمانيا وشمالها إلى صحراء ليحول دون طمع العرب به.

في هذه الأثناء وصلته أخبار بوفاة ملك الفرنج تيودوريك الرابع الميروفنجي في أيلول 737/119 هـ، فأسرع بالعودة إلى باريس ليتدبر الأمر، ويحول دون وصول أعضاء من الأسرة إلى الملك، وترك العرش خالياً حتى تسنح له الظروف بتنصيب نفسه عليه. وكان عقبة والي الأندلس يستعد لاسترداد

---

(1) نفح الطيب جـ 2 ص 59 و 62.

(2) دولة الإسلام جـ 1 ص 115.

ما انتزعه كارل من العرب في سبتمانيا اجتاز البيرنيه على رأس جيش كبير، عبر نهر الرون واستعاد مدينة آرل للمرة الثالثة، وتعاون مع الدوق مورنتوس. على غزو افينيون في بروفانس. أرسل كارل جيشاً بقيادة أخيه شلدبراند، واستنجد بصهره ملك اللومبارد لوتبراند الذي غزا بروفانس من الشرق ليضيق على قوات الدوق مورنتس، وتقدم هو بجيش ثالث، زحف الجيش الفرنجي على مواقع العرب، فأخلى عقبة بروفانس، وارتد إلى ما وراء الرون، وفقد العرب سبتمانيا ما عدا اربونة[1] وشريط ساحلي ضيق يربطها بالأندلس. وانهزم الدوق مورنتوس هزيمة ساحقة، واعتصم بالجبال، فاستولى الفرنج على مملكته. وانسحب عقبة إلى الأندلس عبر ممرات البيرنيه، واصطدم مع عصابات القوط والبشكنس التي تصدت له بتحريض من الفرنج، تكبد بعض الخسائر في مطاردتها. وعاد الجيش سالماً إلى قرطبة. كان هذا آخر لقاء بين العرب والفرنج في فرنسا سنة 121/ 739 م.

استقر عقبة في قرطبة، ثم ثار عليه عبد الملك بن قطن الفهري الوالي السابق وكان قائد الجيش في الثغور الشمالية فأسره، وتوفي عقبة في سجنه في قرمونة في صفر 123 هـ/ 741 م[2]. وتسلم عبد الملك ولاية الأندلس بتأييد من الأندلسيين في سنة 123 هـ/ 741 م[3]. ودخلت الأندلس بعد ذلك الانقلاب مرحلة من الفوضى والفتن، فقد ثار البربر على العرب في المغرب الأقصى، وانتصروا عليهم في معركتي الاشراف 122 وبقدورة 123 هـ كان لهذا الانتصار صداه في الأندلس، حيث كان البربر ساخطين على العرب الذين استأثروا بالغنائم من التضحيات التي قدموها، وقد أعطوهم الأراضي القاحلة في الشمال والغرب.

وبعد معركة بقدورة التي قتل فيها قادة العرب في افريقية ومنهم الوالي

---

(1) البيان المغرب جـ 2 ص 29.

(2) الكامل جـ 4 ص 250، البيان المغرب 30.

(3) نفح الطيب جـ 1 ص 110 وجـ 2 ص 58، ابن خلدون جـ 4 ص 119، البيان المغرب جـ 2 ص 30.

كلثوم بن عياض القشيري، لاذ ابن أخيه بلج بن بشر القشيري مع عشرة آلاف جندي شامي بسبتة، وتحصن بها. طاردهم البربر وشددوا عليهم الحصار، فأحرقوا المزروعات على مسافة يومين من المدينة حتى لا يستفيد منها العرب المحاصرون، فاضطروا إلى أكل الميتة والحيوانات حتى أشرفوا على الهلاك[1] فاستنجد بشر بوالي الأندلس عبدالملك ورجاه بالسماح له بالعبور إلى الأندلس مع الجيش المحاصر في سبتة[2].

كان الوالي عبدالملك قيسياً، وقد شهد وقعة حرة وأقام في ضاحية المدينة المنورة الشرقية سنة 63 هـ، وفيها هاجم جيش يزيد بن معاوية بقيادة مسلم بن عقبة المري المدينة واحتلها، واستباح الجيش الأموي حرمتها وارتكب فيها أشنع الأعمال من هتك للأعراض وسبي الذراري ومصادرة الأموال وأخذ البيعة بالقوة ليزيد على أن سكان المدينة عبيد له.

رفض ابن قطن السماح لهم بالجواز إلى الأندلس حتى رفض تقديم أية مساعدة لهم وتخوف منهم، وقد نصحه بذلك عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي لجأ إلى الأندلس بعد معركة بقدورة[3].

أدى انتصار البربر في افريقية إلى تشجيع بربر الأندلس على الثورة، فقد ثاروا بدورهم في المناطق التي كانوا يشكلون فيها أكثرية السكان وخاصة المناطق الشمالية والغربية، وطردوا العرب منها، ثم بايعوا زعيماً منهم يدعى ابن هدين ويلقب بزقطرتق[4]، وقرروا الزحف على طليطلة وقرطبة ثم إلى الجزيرة الخضراء ليمهدوا لعبور بربر المغرب إلى الأندلس، واستطاعوا هزيمة الحملات التي أرسلها ابن قطن للقضاء على ثورتهم، عندها اضطر عبد الملك إلى الاستعانة بالجنود الشاميين المحاصرين في سبتة للقضاء على عدوهم

(1) الكامل 250، البيان المغرب 30.
(2) ابن القوطية ص 38.
(3) ابن القوطية ص 40، البيان المغرب 30، أخبار مجموعة 37.
(4) أخبار مجموعة 39، ابن القوطية 31، البيان المغرب 30.

المشترك البربر مشترطاً عليهم مغادرة الأندلس إلى المغرب بعد انتهاء مهمتهم، ورضي جند الشام بالشروط لأنهم يتوقون للخلاص من محنتهم. وفي الأندلس يتدبرون أمورهم. وضماناً لتنفيذ الاتفاق بالانسحاب ومغادرة الأندلس أخذ الوالي عدداً من قادتهم رهائن أنزلهم في جزيرة أم حكيم، ثم سمح لهم بالعبور إلى الأندلس 123 هـ/ إذ أرسل إليهم السفن فكانوا حفاة عراة تستر دروعهم أجسادهم، فكساهم الأندلسيون وقدم إليهم ابن قطن المساعدات[1].

بدأ الشاميون بتنفيذ مهمتهم، وهاجموا البربر في شذونة وانتصروا عليهم، وغنموا أموالهم وأمتعتهم فانتعشوا، ثم هزموهم قرب قرطبة، وزحفوا نحو الشمال. كان البربر قد تجمعوا من جيليقية وأسترقة وماردة وقورية وطلبيرة وزحفوا نحو قرطبة، والتقوا بالعرب في وادي سليط من أحواز طليطلة[2]. انقض عليهم الشاميون وهزموهم للمرة الثالثة، وطاردوهم في كل مكان وسحقوا الثورة... وهكذا انتقموا من البربر فاشتدت شوكتهم[3].

وانتهت مهمة بلج وجنده وطالبه عبدالملك بتنفيذ العهد ومغادرة الأندلس. ولكن بلج بعد الانتصار الذي حققه وأدرك قوته وضعف ابن قطن بدل موقفه، ورأى أن حكم الأندلس بات مضموناً له، فأخذ يماطل في الأمر وطلب من عبدالملك بأن يهيء له السفن في البيرة أو تدمير ليغادر إلى تونس، فاعتذر عن ذلك عبدالملك لأن السفن موجودة في الجزيرة الخضراء كي تنقلهم إلى سبتة. عندها قال له الشاميون: «تعرضنا لبربر طنجة، أقذف بنا في لجة البحر أهون لنا...[4]»، ولما تبين لهم قصده ثاروا عليه، واقتحموا قصره وهو في قلة من جنده. أخرجوه من القصر وأعلنوا بلجاً أميراً على الأندلس في ذي القعدة 125. انزوى ابن قطن في داره وقد ذهل لما حدث. سرت الفوضى في الأندلس، فقد امتنع حاكم الجزيرة الخضراء عن إمداد الرهائن بالطعام تضامناً

---

(1) أخبار مجموعة 39، الكامل 251.

(2) البيان المغرب 31.

(3) نفح الطيب 59، دوزي جـ 1 ص 163.

(4) الكامل 251، البيان المغرب 32.

مع ابن قطن فمات منهم رجل من بني غسان من الشام فاتهمت قبيلته بأن ابن قطن قد تسبب بهلاكه فثاروا، ، وطالبوا بلجاً بأن يسلمهم ابن قطن ليقتلوه ثأراً لقتيلهم. وحاول بلج عبثاً تهدئتهم، إتهموه بأن يحابي مضراً عليهم فخاف من تفرقهم عنه فنزل عند رغبتهم، أخرجه من داره فتسلموه وهو شيخ في التسعين وقتلوه عند رأس القنطرة وصلبوه[1].

غضب الأندلسيون لمقتل الوالي عبد الملك بن قطن، اتحدوا بقيادة قطن وأمية ابني عبدالملك، وتحالفوا مع البربر الذين كانوا يحقدون على الشاميين، انضم إلى هذا التحالف عبد الرحمن بن علقمة اللخمي والي أربونة[2]، وهكذا انقسمت الأندلس إلى معسكرين متباغضين، كل فريق يعمل على سحق الآخر. ونشبت المعركة بين الأندلسيين والشاميين في «أقوه برطورة» قرب قرطبة أبدى فيها الشاميون بطولة نادرة. وصمم عبد الرحمن بن علقمة على قتل بلج، فاخترق صفوف الشاميين إلى مكان بلج وأثخنه جراحاً توفي على أثرها. ولكن المعركة انتهت بهزيمة الأندلسيين عرباً وبربراً وانتصار الشاميين الذين عادوا إلى قرطبة، فولوا عليهم ثعلبة بن سلامة الجذامي في شوال 124 هـ/ [3] أيلول 742 م.

حاول ثعلبة إعادة النظام، ولكن نفوذه كان محدوداً، إذ بقيت أكثر أقاليم الأندلس خارج سلطته وخاصة الأقاليم الوسطى والشمالية حيث يعتصم فيها القادة الثائرون أمية وقطن ابني عبدالملك وعبد الرحمن بن علقمة اللخمي وعبد الرحمن بن حبيب الفهري يساعدهم العرب الأندلسيون والبربر[4].

وتجددت المعارك بينهما قرب ماردة انهزم فيها ثعلبة، واعتصم بقلعة المدينة، ولكنه ما لبث أن انقضى على خصومه، وهزمهم وأسر عدداً كبيراً منهم

(1) أخبار مجموعة 42 ابن القوطية 41، يشير إلى مقتله البيان المغرب 32، الكامل 251.
(2) البيان المغرب 65، ابن القوطية 41، الكامل 254.
(3) المصادر السابقة، نفح الطيب 59، 60.
(4) ابن القوطية 42.

حملهم إلى قرطبة وقرر إعدامهم، وحدث ما لم يكن بالحسبان إذ وصل إلى الأندلس والٍ جديد أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي ولاه والي افريقية حنظلة بن صفوان بناء على أمر الخليفة في دمشق هشام بن عبدالملك[1]، وذلك لإخماد الفتنة التي عمت الأندلس.

دخل أبو الخطار الأندلس في رجب 125 هـ/ 743. قبض على زمام السلطة أطلق سراح المعتقلين لدى ثعلبة[2]. أعاد الهدوء إلى البلاد. فرق الشاميين على مختلف قطاعات الأندلس، أرسل جند الشام إلى البيرة وجند حمص إلى أشبيلية وجند فلسطين إلى شذونة والجزيرة وجند الأردن إلى ريه وجند قنسرين إلى جيان ومصر إلى باجة[3]. قبض على ثعلبة ونفاه إلى افريقية، استأمنه أمية وقطن فأمنهما وعينهما حاكمين على الولايات الشمالية.

واعتصم عبد الرحمن بن علقمة في أربونة، وفر عبد الرحمن بن حبيب إلى تونس. سار أبو الخطار سيرة حسنة في البداية استعمل الحزم والاعتدال وساوى بين القبائل فأيده الجميع،ولكن النزعة العصبية خامرته إلى قومه اليمنيين متنكراً لخصومهم المضريين، وحدث أن أقدم أبو الخطار على إهانة وضرب الصميل بن حاتم بن الشمر بن ذي الجوشن الكلابي، وكان جده الشمر قد اشترك في قتل الحسين بن علي عليه السلام في كربلاء وفر إلى الشام أثناء ثورة المختار ودخل الأندلس في جيش بلج بن بشر والتف حوله المضرية وبعض اليمنيين. ولما أهانه أبو الخطار استنفر أنصاره المضريين وخاصة ثعلبة الوالي المعزول الذي تعهد بمحاربة أبي الخطار، وزحف نحو قرطبة والتقى مع أبي الخطار في شذونة في رجب 127 هـ/ . ودارت معركة انهزم فيها أبو الخطار ووقع في الأسر وتولى الإمارة ثعلبة من جديد، وافق عبد الرحمن بن حبيب والي افريقية على ذلك.ولكن استطاع أبو الخطار الفرار من سجنه وقصد باجة

(1) قضاة قرطبة ص 48، ابن عبدالحكم 221. ابن القوطية 142، فتوح البلدان 102، جذوة المقتبس 34، الكامل 260، البيان المغرب 33.

(2) الكامل 260.

(3) الكامل 261، ابن القوطية 44.

حيث أنصاره، وتوجه إلى قرطبة ودارت معركة كانت سجالاً. عندئذ دعا اليمنية من أنصار ثعلبة إلى وقف القتال، واتصلوا بأبي الخطار وجماعته ولاموهم لأنهم يقاتلون اليمنيين فتوقف القتال. واستعمل ثعلبة اللين مع أبي الخطار فعفا عنه، وأحدثت هذه السياسة أثرها فانفض انصار أبي الخطار عنه واضطر للعودة إلى باجة بانتظار الفرصة المناسبة[1].

توفي ثعلبة سنة 129/ بعد أن حكم الأندلس عاماً ونصف العام. وعاد الخلاف من جديد في الأندلس، فاليمنيون أصروا على أن يكون الوالي منهم وكذلك المضريون. ووقعت بينهم بعض المصادمات تولى أثناءها عبد الرحمن بن كثير اللخمي الحكم باتفاق الطرفين ورغم ذلك استمر الخلاف. خشي الأندلسيون من نتائج ذلك فأجموا على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهري[2] في ربيع الثاني 129 كانون الثاني 747 م دون الرجوع إلى الخلافة في دمشق لأنها كانت مشغولة بمشاكلها الخاصة، ولم يكن بمقدورها أن تعمل شيئاً لمساعدة الأندلس وغيرها فاستقلت الولايات النائية.

والوالي الجديد ابن عبد الرحمن الفهري[3] الذي كان قد استولى على افريقية، وهرب من أبيه إلى الأندلس لخلاف بينهما أخذ يبحث عن طالعه في الحكم، كان خطيباً، وقد اتفق مع الصميل بن حاتم[4].

تولى يوسف الإمارة بعد اتفاق بأن حكم الأندلس يتناوبه كل سنة المضريون واليمنيون فيمكث يوسف سنة في الحكم ثم يرده إلى اليمنيين، ولكن المضريين وعلى رأسهم الصميل لم يفكروا بإعطاء الأمر لليمنيين، وكذلك الوالي يوسف خاصة بعد أن ظفر بالإمارة، فأخذ يعمل على الاستئثار بالحكم وذلك بحصر كل السلطات بيده، فعزل يحيى بن حريث اليمني عن مقاطعة ريه،

---

(1) نفح الطيب 2/60 ـ 61 الكامل 291، البيان المغرب 35 و 36.
(2) الكامل 278، ابن القوطية 44.
(3) الكامل 278.
(4) ابن القوطية 44.

وكان منافسه، والتفت اليمانية حول الحاكم المعزول. وظهر على مسرح الأحداث من جديد الوالي السابق أبو الخطار المقيم في باجة عندما علم بتولي يوسف، فتفاوض مع ابن حريث ولكن دون نتيجة لأن كل واحد أصر على أن يكون الأمر له. ورغم ذلك اتفقا على قتال يوسف والمضرية، حشد كل فريق جيشه والتقيا في شقندة قرب قرطبة سنة 130/ 747 حيث دارت معركة رهيبة انتهت بانتصار المضريين ووقوع أبي الخطار وابن حريث في الأسر مع عدد كبير من أنصارهما، فأعدموا بأمر من الصميل[1]. وهكذا تجردت اليمنية من قيادتها، وخلا الأمر للمضريين. وكان يوسف يخشى من طموح الصميل فأقطعه ولاية سرقسطة في الشمال. وقبل الصميل بذلك.

تولى يوسف الولاية في ظروف لا يحسد عليها، فقد انهارت الأندلس واضمحلت السلطة المركزية، واستقلت النواحي، وبدأ نصارى الشمال أعمالهم العسكرية، وعرفت البلاد الجفاف الذي دام سنتين، فأجدبت الأرض وحل الجوع بين سنتين 131 ـ 133، فاضطر سنة 134 عدد كبير من المسلمين لمغادرة الأندلس إلى المغرب[2]. عمل يوسف بهمة عالية للتغلب على هذه المصاعب، زار الأقاليم وعزل الحكام الفاسدين، قمع الفوضى، أصلح الطرقات ليسهل تحرك الجيش عليها إذا اقتضى الأمر، عدل نظام الضرائب واقتطع ثلث الدخل من كل ولاية، وأمر بمراجعة السجلات القديمة وفرض الضرائب على الأحياء.

نظم الأندلس إدارياً فقسمها إلى خمس ولايات: الأندلس وطليطلة وماردة وسرقسطة وأربونة.

* اهتم بالجيش كثيراً، نظمه وأحسن تدريبه ليكون جاهزاً لقمع الفتن وحماية الحدود الشمالية. بدأ يوسف نشاطه العسكري بإرسال الجيش إلى الشمال بقيادة ابنه محمد وسليمان بن شهاب والحصين العقيلي لصد غارات

(1) البيان المغرب 37 جـ 2، الكامل 308 و 361، ابن القوطية 44.
(2) البيان المغرب 38، الكامل 461 جـ 4.

النصارى الذين استغلوا الفتنة الداخلية وأغاروا على أطراف الأندلس الشمالية ووصلوا إلى نهر دويرة. وكذلك ثار البشكنس، واستولى القوط بقيادة أميرهم انزيموند على سبتمانيا مؤسساً فيها إمارة قوطية من نيمة وأجدة وبزييه وماجلونة وآزره النصارى، ورأى أنه لا يستطيع الاحتفاظ بإمارته والعرب في اربونة، وكذلك كان يخشى امير اكوتين، ففضل الانضواء والخضوع لببين ملك الفرنج وطلب مساعدته.

كان ببين يشغل محافظ القصر الفرنجي، قبض على الملك شلدريك الثالث آخر ملوك الميروفنجيين، وأرسله إلى الدير وأعلن نفسه ملكاً 751 م/ 134 هـ. لبى الملك الجديد دعوة انزيموند ورأى فيها فرصة لإجلاء العرب عن فرنسا الجنوبية ،هاجم ما تبقى من سبتمانيا بيدهم مع انزيموند، فقاومته الحاميات العربية ببسالة 753/ ولكنها لم تصمد طويلاً لعزلتها وحرمانها من الإمدادات لانشغال الأندلسيين بمشاكلهم الداخلية فسقطت ما عدا أربونة لحصانتها.

فشل الجيش المرسل إلى الشمال بعد أن أصيب بخسائر فادحة إثر مقتل[1] قائده سليمان بن شهاب ونجاة الحصين العقيلي مع فرسانه تاركاً الشمال لقدره. وعادت الفتن تعصف بالأندلس من جديد، لأن الاتفاق على تولي الإمارة مداورة بانتظار وصول أمر الخلافة كان مؤقتاً. ولكن الخلافة سقطت من المشرق وأصبحت الولايات النائية مطمعاً لكل مغامر متغلب إذ كان بها عدد من القادة المشهورين الذين يحقدون على يوسف ويرون أنهم أحق بالأمر منه وعلى رأسهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي حاكم أربونة، كان يعتصم بمركزه يراقب الأحداث وأخذ يعد جيشاً لمهاجمة يوسف في قرطبة، ولكن إغتاله بعض أنصاره وحملوا رأسه إلى يوسف الذي كان وراء المؤامرة[2]، وتعرض يوسف لثورات عدة فقد ثار في أشبيلية يوسف بن عمرو بن زيد الأزرق تصدى له

(1) البيان المغرب 38.
(2) نفح الطيب جـ 2 ص 62، البيان المغرب 38 و 39.

يوسف وقتله. وخرج في باجة عروة بن الوليد الملقب بالذمي لتحالفه مع النصارى، استولى على أشبيلية وهزم الجيش الذي إرسله إليه يوسف، عندها اضطر للخروج بنفسه حيث قضى على الثورة وأعدم قائدها.

واندلعت ثورة جديدة ضد يوسف والصميل قادها عامر بن عمرو بن وهب العبدري وهو مضري كان صديقاً ليوسف الفهري يقود جيش الشمال•فلما تولى يوسف الحكم عزله، وكان ينقم على يوسف لاستئثاره بالحكم وأخذ يخطط لتولي الأمر، كان يبسط سلطانه على الجزيرة الخضراء ثم انتقل إلى قرطبة[1] يرقب الأحداث وراسل الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور طالباً منه مرسوماً بولاية الأندلس ومعترفاً بالدعوة العباسية•وكان يتقرب من اليمنية ويتهجم على يوسف والصميل لإسرافهما بسفك الدماء في معركة شقندة. فالتف حوله المعارضون. كان يوسف على علم بتحركاته،وحاول القبض عليه ففر إلى الشمال مع أنصاره. وكان زعيمان من المعارضين هما الحباب بن رواحة الزهري وتميم بن معبد الفهري قد ثارا في ولاية سرقسطة، واتفقا مع عامر وزحف الثوار الثلاثة بقوة من المضرية واليمنية والبربر على سرقسطة، وحاصروا الصميل فيها الذي استنجد بيوسف. وتردد يوسف في مساعدته لغايات في نفسه، لأنه كان يريد أن يتخلص منه[2]، فاضطر الصميل إلى التصدي لهم بأنصاره، ودامت المعارك بضعة أشهر انتهت بهزيمته وانسحب من سرقسطة ودخلها الثوار بقيادة عامر وحليفيه سنة 753/136 ودعا عامر لنفسه وبسط نفوذه على الشمال.

انسحب الصميل إلى طليطلة التي أسند إليه ولايتها يوسف بدل سرقسطة وأخلد يوسف إلى السكينة والهدوء، بعد الثورات التي تعرض لنا واستمر عامر يحكم ولاية سرقسطة مدة عامين.

وفي سنة 137 هـ/ 754 جهز يوسف جيشاً وهاجم سرقسطة وحاصرها

---

(1) البيان المغرب 39، الكامل جـ 4، ص 361.

(2) البيان المغرب 38 و 42.

بشدة، فاضطر سكانها إلى تسليم عامر وابنه وهب والحباب الزهري إلى يوسف فاعتقلهم، وعاد إلى طليطلة. وأثناء الطريق أعدمهم[1] وبذلك تخلص من آخر الثائرين. ويوسف في طليطلة وصلته رسالة من ابنه عبدالرحمن يخبره فيها بأن أحد أفراد الأسرة الأموية التي سقطت في المشرق قد دخل الأندلس ويدعى عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك، ذاع الخبر في صفوف الجيش فاضطرب وفر كثير منه،وكان يوسف يريد التوجه إلى الشمال لمحاربة نصارى جيليقية[2]. فعدل عن موقفه وأسرع بالعودة هو والصميل بمن بقي من جيش إلى قرطبة لتدارك الخطر الداهم أواسط 138/ 755 م.

سقوط أربونة

استغل الفرنج الفتن واستولوا على الأراضي الإسلامية في سبتمانيا ولانجدوك ما عدا أربونة التي كانت أمنع حصون الأندلس وراء البيرنيه، فقد صمدت في وجه كارل مارتل، ولما قتل فارسها عبد الرحمن اللخمي فقدت المدافع عنها.استولى الفرنج على سبتمانيا ما عدا أربونة،هاجم ببين مع حليفه القوطي انزيموند المدينة سنة 755 م/ وحاصرها حصاراً شديداً. فكانت المدينة محصنة تحصيناً منيعاً، وعزم المسلمون على الدفاع حتى آخر رجل، واضطر ببين أن يسحب قسماً من جيشه لقتال حفيد أودو دوق أكوتين تاركاً شأن أربونة لحليفه انزيموند. ثم عاد لمتابعة الحصار بعد القضاء على دوق اكوتين واستطاع المسلمون رد هجمات الفرنج طيلة أربعة أعوام رغم انقطاعهم عن الأندلس وكانت المساعدات تصلهم من جهة البحر.

وأخيراً رأى ببين أنه لا يستطيع احتلال المدينة بالقوة، فلجأ إلى التآمر مع القوط المقيمين فيها، فاتصل بهم وتعهد لهم بالإبقاء على قوانينهم وأنظمتهم، وأغدق عليهم الوعود.لجأ القوط إلى إشعال الثورة ضد المسلمين داخل المدينة وهاجموا الحرس وقتلوهم وفتحوا أبوابها للفرنج الذين دخلوا المدينة وقتلوا

---

(1) الكامل/ 140، البيان المغرب/ 43، دوزي/ 184 و 185.

(2) ابن القوطية 20، نفح الطيب/ 154.

سكانها المسلمين، وخربوا المساجد والمدارس وذلك سنة 759/ 142 هـ. وبسقوط المدينة سقطت آخر معاقل العرب في فرنسا وانهارت دولة المسلمين وراء البيرنيه بعد أن استمرت زهاء نصف قرن 92 ـ 711/142 ـ 759، وانتعشت قوى النصارى وأخذت تستعد للقضاء على دولة العرب الذين كانوا داخل الأندلس في حرب أهلية شرسة تمزق الجزيرة. واستفاد من خلافات العرب بقايا القوط الذين لجأوا إلى أقاصي جيليقية بجبال استوريا وأخطأ الفاتحون الأوائل بعدم القضاء عليهم. كان يقودهم بلاجيوس، فعمل على تأسيس إمارة صغيرة في أعماق الأودية في صخور كوفا دونجا. كانت مناعة الجبال تحمي تلك الإمارة من غارات المسلمين. ونمت مع الزمن. ولما توفي قائدها خلفه ابنه فافيلا، ولما سادت الفتن الأندلس وانصرف المسلمون إلى قتال بعضهم تجرأ القوط وهاجموا أطراف الأندلس الشمالية في عهده. وبعده دفع الفونسو الأول حدود إمارته حتى استورقه.

وحل القحط بالأندلس عام 133 هـ/ 750 فاضطر كثير من المسلمين في الشمال إلى الجلاء عن تلك المناطق النائية، وغادر بعضهم إلى المغرب فاستولى القوط على المنطقة ودفعوا حدودهم حتى أسترقه سنة 136 هـ/ 753 م[1].

ونمت تلك الإمارة توسعت. وبدأت منذ منتصف القرن الثامن حرب الاسترداد أي استرداد اسبانيا من العرب منذ ذلك الوقت.

(1) البيان المغرب 38، أخبار مجموعة 61 و 62.

الفصـــل الثــانـــي

الإمارة الأموية في الأندلس
حتى عهد عبدالرحمن الناصر

عهـد الإمارة

- سقوط الدولة الأموية في المشرق.
- فرار عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموي إلى الأندلس.
- الصراع بين عبدالرحمن ويوسف الفهري.
- هزيمة والي الأندلس يوسف الفهري وحليفه الصميل بن حاتم.
- اشتعال الثورات ضد عبد الرحمن - ست عشرة ثورة.

هشام بن عبدالرحمن

- حروبه في الشمال - وفرنسا.
- دخول المذهب المالكي إلى الأندلس - الأمر بتدريس اللغة العربية في معاهد أهل الذمة.

الحكم بن هشام

- حربه مع عميه.
- إخضاع ثورات الثغور.
- الاضطرابات في قرطبة.
- مؤامرة سنة 805 - فتنة 818.
- الحرب مع جيليقية.
- الحرب مع الفرنج.

عبد الرحمن بن الحكم

- هدوء الأزمة الداخلية.

- حروبه مع جيليقية والفرنج.
- النورمان في الأندلس.
- حركة المستعربين.
- العلاقات الدبلوماسية مع البيزنطيين.
- أعماله العمرانية.

محمد بن عبد الرحمن

- ثورة طليطلة.
- فتنة جنوب الأندلس.
- بداية تمرد ابن حفصون.

المنذر بن أحمد

- اشتداد ثورة ابن حفصون.
- تفاقم ثورة جنوب الأندلس.

عبدالله بن محمد

- محاولة الحفاظ على الأسرة الأموية.
- تمزيق الأندلس.
- الفتنة بين العرب والمولدين.
- تفاقم ثورة ابن حفصون.

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك

113 ـ 11/172

سقطت الدولة الأموية بعد معركة الزاب 11 جمادي الثانية سنة 132 هـ/ 25 كانون الثاني 750 م وبطش العباسيون بالأمويين إذ عهد الخليفة العباسي أبو العباس إلى عمه عبدالله بن علي باستئصال الأمويين انتقاماً منهم لما اجترموه بحق الهاشميين. فكانت مذبحة أبي غطرس في فلسطين حيث قتل منهم أكثر من سبعين شخصاً. وتشاء الظروف أن ينجو من المذبحة أحد أفراد تلك الأسرة وهو عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك.

ولد بدير خنان من أعمال قنسرين سنة 113 هـ/ 731م، توفي والده وهو طفل فاحتضنه جده هشام سنة 118 هـ/ . وعندما أمعن العباسيون بمطاردة الأمويين فر إلى الفرات واختفى مدة يتدبر الأمر. واكتشفت عيون الظافرين مخبأه مع أخيه الصغير فعبرا نهر الفرات يحاولان الفرار. واستطاع أن ينجو بنفسه بينما وقع أخوه بأيديهم حيث قتلوه وهو ينظر إليه بأسى.

واختبأ مدة، أخذ أثناءها يفكر بالمكان الذي سيلجأ إليه. كان المشرق مستبعداً، فهو عباسي الولاء ومنه انطلقت ثورتهم وكان المغرب هو المكان المقصود، اتصل بأخته أم الإصبغ وطلب منها أن ترسل في أثره مولياه بدر وسالم فأرسلتهما وزودتهما بجواهر وأموال زاداً للطريق. ويمم وجهه شطر المغرب، اجتاز فلسطين متخفياً إلى مصر[1]. وغادرها إلى برقة ملتجئاً إلى أخواله البربر بني نفزة في طرابلس[2]، فأمه نفزاوية تدعى راح، أقام عندهم يدرس الوضع ويفكر بالاستيلاء على افريقية، ولكن حاكمها عبد الرحمن بن

(1) أخبار مجموعة 51 ـ 53، نفح الطيب 312، البيان المغرب 42، الكامل 362.

(2) نفح الطيب 307، الكامل 362.

حبيب الفهري كان يقظاً، ويخشى على ملكه من الأمويين الفارين خاصة وأن ولاية افريقية كانت مستقلة عملياً عن سلطة الأمويين، فطاردهم وقتل ولدين للوليد بن يزيد بن عبدالملك.

حاول عبد الرحمن الفهري اعتقاله، ولكنه نجا وفر مع مرافقيه إلى المغرب الأقصى[1] رغم الصعاب، ولجأ إلى شيخ بربري يدعى وانسوس[2]، نال حظوة لديه فيما بعد. ثم حلّ في مليلة، وهو يدرس أوضاع الأندلس خاصة وأن للأمويين أنصارا فيها. وفي سنة 136 هـ/ 753م وصلته أخبـار مشجعة من الأندلس، فقد اشتد الخلاف بين اليمنية والمضرية، فأرسل مولاه بدراً إليها ليبث دعوة الأمويين بين أنصارهم الشاميين[3]. نزل بدر بساحل البيرة حيث كان يستقر الجنود الشاميون، بعد أن أرسلهم إليها يوسف الفهري وهو تدبير من التدابير التي أقدم عليها يوسف الفهري لإخماد الفتنة، كان يترأس الجنود زعيمان من أنصار الأمويين هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبدالله بن خالد.

اجتمع بدر بأبي عثمان وأطلعه على مهمته، وبلغه رسالة من عبد الرحمن وفيها مناشدة وترج لمساعدته. استجاب أبو عثمان للطلب، وكانت تربطه صلة بالصميل بن حاتم، سار لمقابلته في طليطلة حيث كان يقيم فيها بعد هزيمته في سرقسطة، ويلقي باللوم على يوسف لأنه قصر في مساعدته. عرض أبو عثمان الأمر على الصميل فأبدى فتوراً، واقترح على أبي عثمان بأن ينزل عبدالرحمن في كنف يوسف وأن يتزوج ابنته، وصرفه بوعود غامضة[4]. كان الصميل يفضل بقاء يوسف في الحكم لأنه يشاركه فيه.

غادر بدر الأندلس على ظهر مركب خاص من أبي عثمان يصحبه بعض

---

(1) البيان المغرب 41.

(2) نفح الطيب 312، الكامل 362، يذكر أن الزناتيين استقبلوه.

(3) نفح الطيب 307.

(4) البيان المغرب 45، نفح الطيب 307، ابن القوطية 22.

أنصار الأمويين، وأطلع سيله على الأمور، عندها تشجع عبدالرحمن وتفاءل. جاز المضيق إلى الأندلس، ونزل بثغر المنكب بساحل البيرة في ربيع آخر 138/ أيلول 755[1]، استقبله أبو عثمان واستضافه في قصره في طرش حيث استقر فيها ينظم أموره ويضع خططه للمستقبل[2].

كان يوسف الفهري حاكم الأندلس عائداً من سرقسطة إلى طليطلة بعد القضاء على المتمردين وإعدام قادتهم، وبينما هو على مقربة من طليطلة أتاه رسول من قبل ابنه عبدالرحمن الذي كان يتولى حكم قرطبة، يخبره بنزول عبدالرحمن الأموي في جنوب الأندلس، وهروع الناس إليه، ذعر يوسف للنبأ شاع الخبر في الجيش فاضطربت صفوفه وغادره كثير من أفراده.

أسرع يوسف إلى طليطلة للتشاور مع الصميل في الوسائل الملائمة لرد الخطر الداهم[3]. كانت دعوة عبد الرحمن الأموي قد انتشرت في جنوب الأندلس، والتف حوله عدد من شيوخ القبائل وقادة الجند منهم تمام بن علقمة اللخمي الذي حصل على تأييد جند فلسطين، ويوسف بن بخت مع جنود الأردن وجدار بن عمرو في ريه وحسان بن مالك الكلبي وأبو الصباح يحيى بن يحيى في اشبيلية[4].

واستقطب أبو عثمان أنصار الأمويين في الأندلس. تشاور يوسف مع الصميل فيما يجب عمله فكان رأيه التقرب من عبدالرحمن وإغراءه بمصاهرته وأرسل وفداً إلى طرش محملاً بالهدايا والعرض مع رسالة:

«أما بعد، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب وتأبش من تأبش إليك، ونزع نحوك من السراق وأهل الختر ونقض الإيمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا. وبه جل وعلا نستعين عليهم، ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية

(1) جذوة المقتبس 37، تاريخ علماء الأندلس 26، الكامل 362.
(2) البيان المغرب 46، نفح الطيب 307، ابن القوطية 47.
(3) نفح الطيب 308.
(4) الكامل 362.

عيش حتى غمضوا ذلك واستبدلوا بالأمن خوفاً وجنحوا إلى النقض والله من ورائهم محيط. فإن كنت تريد المال وسعة الجناب، فأنا أولى بك ممن لجأت إليه أكنفك وأصل رحمك وأنزلك معي إن أردت أو حيث تريد، ثم لك عهد الله وذمته بي ألا أغدر بك ولا أمكن منك ابن عمي صاحب افريقية ولا غيره[1]».

رفض عبد الرحمن العرض لأنه كان يطمع بحكم الأندلس الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى بعد التأييد الذي لاقاه وغادر طرش إلى ريه فاستقبله عاملها عيسى بن مساور مبايعاً،وتابع سيره إلى شذونة فبايعه عاملها علقمة اللخمي ثم إلى أشبيلية حيث تلقى بيعة أبي الصباح اليحصبي زعيم اليمنية وقد انضم إليه أثناء زحفه عدد كبير من الجنود حيث بلغ عدد جيشه في أشبيلية حوالي 3000 فارس. ولما آنس من نفسه القوة توجه نحو قرطبة للاستيلاء عليها كان في مطلع ذي الحجة 138/ 756 م[2].

كان يوسف والصميل قد حشدا جيشهما وأكثره من القيسيين.ولكنه كان مفككاً أنهكه القتال المتواصل في قمع الفتن والغزوات، وزاده ضعفاً دعوة عبدالرحمن الأموي. خرج يوسف إلى المصارة غرب قرطبة على ضفة نهر الوادي الكبير وكان عبدالرحمن قد خيم على الضفة الجنوبية في قرية بلة نوبا[3]، كان النهر يفصل بين الجيشين مدة ثلاثة أيام فشل أثناءها يوسف في عقد صلح مع الفريق الأموي. وفي اليوم الخامس وكان نهار الخميس هبطت مياه النهر صمم عبدالرحمن على قتال يوسف نهار الجمعة حيث صادف عيد الأضحى[4].

وعبر عبدالرحمن بجيشه النهر وكان في المقدمة جند الأمويين ونشبت معركة عنيفة. كان جيش الأندلس يتفوق بالفرسان على خصومه.ولكن انهيار معنوياته جعلت عبدالرحمن ينتصر عليه، إذ كان يقود جيشاً متماسكاً يلتهب

(1) البيان المعرب 45.

(2) الكامل 362.

(3) ابن القوطية 48.

(4) ابن القوطية 49، جذوة المقتبس 38.

حماسة، ودامت المعركة حتى الضحى حيث حلت الهزيمة بجيش يوسف وقتل كثير من قادته وفرسانه.

وهرب يوسف إلى طليطلة حيث ابنه عبد الرحمن والصميل إلى جيان ودخل عبدالرحمن العاصمة قرطبة وصلى صلاة الجمعة في الجامع، وتلقى البيعة بالإمارة في النصر نهار 10 ذي الحجة 138/13 أيار 756. واتبع سياسة الاعتدال مع خصومه ومنع الجنود من الاعتداء على أسر وحريم وأموال خصومه ما استطاع إلى ذلك[1].

وهكذا استطاع عبدالرحمن بعد تشرد وهوان أن يظفر بحكم الأندلس ويتربع على كرسي إمارتها، ولكن ذلك الحكم لم يتوطد إذ كتب عليه أن يقضي حياته بقمع الثورات التي هبت في وجهه، فقد غدت الأندلس وقبل أن تسقط الدولة الأموية نهباً للأقوياء الذين استقلوا ببعض أنحائها، وقضى يوسف الفهري طيلة حكمه يحاول عبثاً إخماد تمرد الزعماء.فكان على عبدالرحمن القيام بأعباء هذه المهمة وهي إعادة توحيد الأندلس، فكانت المعركة معركة الدولة الموحدة والإمارات المستقلة، معركة السلطة المركزية والإقطاع المحلي.

وكان البربر عنصراً مهماً في الفتنة منذ ثورتهم 124 هـ/ وكذلك نصارى أسبانيا الذين نظموا أنفسهم وبدأوا حرب الاسترداد ضد العرب. وكذلك الفرنج الذين استرجعوا سبتمانيا وطردوا العرب إلى ما وراء البيرنيه. وكانوا مع القوط الأسبان على صلة بالخارجين على السلطة المركزية متخذين منهم أدوات لتحقيق أطماعهم بالاستيلاء على أجزاء من الأندلس العربية فكان على عبدالرحمن القيام بهذه الأعباء لتدعيم سلطته.

فبعد النصر الذي أحرزه في المصارة كان عليه أن يطارد يوسف والصميل وحشد يوسف أنصاره في طليطلة يعاونه هشام بن عزرة الفهري، وانضم إليه الصميل بالمضرية، وسار الحليفان إلى جيان ثم إلى البيرة والتف حوله سكانها

---

(1) ابن القوطية 26، 27، 28، البيان المغرب 47، 48، 49، الكامل 363، أخبار مجموعة 86 ـ 90.

وأخذ يستعد لقتال عبدالرحمن، ولكن عبدالرحمن لم ينتظره بل سار إلى البيرة تاركاً في قرطبة حليفه أبا عثمان، وأرسل يوسف على الفور ابنه عبدالرحمن إلى قرطبة دخلها وأسر حاكمها وغادرها خشية من عودة عبد الرحمن إليها، ورغم ذلك تابع الأموي سيره إلى البيرة حيث حاصر يوسف والصميل فيها وشدد عليهما الحصار، فاضطرا إلى طلب الصلح والاستسلام للأمر الواقع والأمان على الأنفس والأموال والأهل، وأن يقيما تحت رعايته في قرطبة لبى لهما عبد الرحمن المطالب وقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمد رهينتين لديه وتم الصلح في صفر 139 هـ/ وأفرج يوسف عن أسرى قرطبة[1] وعاد الجميع إلى قرطبة وتفرق جند يوسف[2].

نزل يوسف في مقر الحر الثقفي، والصميل بالربض تحت رقابة عبدالرحمن الذي كان يتشدد في معاملتهما، ويعمل على تجريدها من وسائل السلطة.

شعر يوسف بأنه شبه معتقل، وكان عبدالرحمن يشجع خصومه عليه وينتزع منه أملاكه حتى أفقره[3]. وأخيراً فر من قرطبة بتشجيع من أنصاره إلى ماردة سنة 141 هـ/ 758 وحشد قواته من العرب والبربر بلغ عددها 20 ألف مقاتل ولم ينضم إليه الصميل فاعتقله عبدالرحمن.

سار يوسف بقواته إلى أشبيلية وكان حاكمها عبدالملك بن عمر بن مروان فحاصره فيها، ودارت معركة عنيفة انهزم فيها يوسف وانسحب إلى طليطلة. كان عبدالرحمن في حصن المدور، وصلته أخبار هزيمة يوسف وارتداده إلى طليطلة، فتوقف عن مطاردته. لبث يوسف بضعة أشهر في طليطلة يحاول تنظيم قواته ثم اغتاله بعض الخونة بتوجيه من عبدالرحمن سنة 142 هـ/ 759 وأرسلوا

(1) ابن القوطية 52، الكامل 363.
(2) نفح الطيب 66، الكامل جـ 4 ص 363، أخبار مجموعة 93 و 94، البيان المغرب 50.
(3) الكامل 364، نفح الطيب 66.

رأسه إلى قرطبة. وبذلك تخلص منه وكذلك أمر بقتل ابنه عبدالرحمن الرهينة عنده، ويرفع الرأسين أمام القصر ليرهب الخصوم[1].

فر محمد بن يوسف إلى طليطلة حيث عصبيته، فأرسل عبدالرحمن في إثره تمام بن علقمة وولاه حكم المدينة، فحاصرها حتى استسلمت، واعتقل محمد وأرسله إلى قرطبة حيث زجّ به في السجن.

وفر القاسم بن يوسف من المدينة قبل سقوطها، وأرسل عبدالرحمن إلى الصميل وهو سجين من قتله خنقاً أواخر 142/ [2]. وهكذا انتهت حياة يوسف الفهري الذي حكم الأندلس حوالي عشر سنوات في ظروف قاسية، وحافظ على وحدة البلاد وأبعد عنها خطر نصارى الشمال والفرنج، وكان أخطر خصم يهدد حكم عبدالرحمن الأموي. وكان عبدالرحمن يعتقد أنه بالتخلص من يوسف والصميل يخلص له حكم الأندلس، ولكن كتب عليه أن يقضي حياته في صراع مستمر مع خصومه، فكان أول الثائرين القاسم بن يوسف وحليفه رزق بن النعمان الغساني حاكم الجزيرة الخضراء وصديق أبيه يوسف. استولى القاسم مع حليفه على شذونة في أشبيلية، فأسرع عبدالرحمن إلى المتمردين ودارت معركة قتل فيها الغساني سنة 143 ولاذ القاسم بالفرار إلى شذونة فطارده والي طليطلة اللخمي وأسره وقضى على تمرده.

ونشبت ثورة من جديد في أشبيلية بعد أن غادرها عبدالرحمن بقيادة عبدالغافر اليماني، وانضم إليه البربر وهدد قرطبة. خرج عبدالرحمن لقتاله ودارت المعركة بوادي قيس قرب قرطبة ولجأ عبدالرحمن إلى رشوة البربر فانفضوا عنه وانهزم عبدالغافر وفر إلى لقنت ، طارده عبدالرحمن وقتل ألوفاً من أنصاره 144/ [3].

وتجددت الثورة في أشبيلية بقيادة حيوة بن ملامس الحضرمي، فقد سيطر

---

(1) البيان المغرب 49، أخبار مجموعة 100، الكامل 364.
(2) البيان المغرب 50، أخبار مجموعة 101، الكامل 364.
(3) البيان المغرب 51، أخبار 101.

عليها وعلى استجة وغرب الأندلس، وقوي أمره، سار إليه عبدالرحمن، نشبت معارك عنيفة كادت الدائرة تدور على عبدالرحمن، لكن الخلل تسرب إلى صفوف الثوار فانهزموا، وطلب حيوة الأمان فأمنه عبدالرحمن وذلك سنة 144 هـ/ 761 م[1].

ثم انتقلت الثورة إلى طليطلة معقل الفهريين، قادها هشام بن عزرة الفهري وسار إليه عبدالرحمن وحاصره فيها حتى اضطره إلى طلب الصلح، وقدم ابنه رهينة، واستجاب عبدالرحمن للطلب، وعاد ءلى قرطبة. وقبل أن يصل إليها عاد هشام إلى الثورة، فرجع عبدالرحمن لقتاله وحاصره وقطع رأس ابنه وأطلقه بالمنجنيق إلى داخل المدينة، ولكن هشام لم يستسلم،فاضطر إلى الانسحاب إلى قرطبة لتجهيز قواته من جديد ليعود إلى طليطلة، ولكن دهمه خطر جديد صرفه عن العودة،ذلك أن خصماً للأمويين هو العلاء بن مغيث الحضرمي[2] من زعماء باجه اتصل بالخليفة العباسي أبي جعفر المنصور في العراق بواسطة أنصاره في افريقية، وحصل على كتاب منه بولاية الأندلس، وعاد العلاء إلى الأندلس حاملاً كتاب الولاية، دعا لبني العباس، ورفع الراية السوداء، وأعلن أنه حاكم الأندلس الشرعي من قبل الخليفة الشرعي سنة 146 هـ/ 763 م[3].

أعلن العلاء الثورة في باجة وانضم إليه أعداء الأمويين في الأندلس من الفهريين وعلى رأسهم أمية وقطن واليمانية وجنود مصر. وحالفه غياث بن علقمة في شذونة. جهز عبدالرحمن الأموي قواته وسار بها إلى قرمونة واتخذها مركزاً للدفاع لحصانتها، وأرسل مولاه بدراً إلى شذونة فحاصرها حتى استجاب غياث بن علقمة للصلح.

وهاجم العلاء قرمونة حاصرها عدة أسابيع وعجز عن اقتحامها حتى خارت قوى جيشه، عندها تحول عبدالرحمن إلى الهجوم، وهاجم العلاء بخيرة

---

(1) البيان المغرب 51، نفح الطيب 73.

(2) الكامل جـ 5 ص 21، ابن القوطية 54.

(3) البيان المغرب 51، الكامل 21.

جنده فدارت معركة رهيبة عدة أيام انتهت بمقتل العلاء مع عدة آلاف من أنصاره وأسر ابن قطن الفهري. جمع عبدالرحمن رؤوس القادة وأرسلها مع بعض ثقاته إلى القيروان حيث ألقيت سراً في أسواقها فأحدثت ذهولاً[1].

كانت ثورة العلاء أخطر ثورة تعرض لها عبدالرحمن الأموي، لأنها لم تكن ثورة قبيلة أو عصبية، بل كانت تستظل بلواء الشرعية شرعية الخلافة، وكانت الثورة الوحيدة التي انضوى تحت لوائها خصوم عبدالرحمن[2].

بعد القضاء على ثورة العلاء، أرسل عبدالرحمن جيشاً بقيادة بدر وتمام بن علقمة إلى طليطلة حيث اشتد خطر ثورتها التي يقودها هشام الفهري، حاصرها الجيش بشدة، وأجبر سكانها على طلب الصلح وتسليم القادة الثائرين، اعتقل هشام مع عدد من أنصاره، وأرسلوا إلى قرطبة حيث أمر عبدالرحمن بإعدامهم وصلبهم. وهكذا تم القضاء على ثورة طليطلة[3].

وفي مطلع سنة 149/ 766 ثار سعيد اليحصبي الملقب بالمطري بمدينة لبلة مطالباً بثأر اليمانية الذين قتلوا مع العلاء، والتف حوله اليمانية واستولى على أشبيلية. وخرج في الوقت ذاته غياث بن علقمة اللخمي بمدينة شذونة.

سار عبدالرحمن إلى أشبيلية فغادرها سعيد إلى قلعة زعواق القريبة منها، فحاصره فيها وضيق عليه الحصار مانعاً الاتصال بينه وبين أنصاره، وحاول سعيد اختراق الحصار فدارت معركة قتل فيها، وعاد أنصاره إلى داخل القلعة، واختاروا خليفة بن مروان مكانه. واستمر عبدالرحمن بحصار الثائرين حتى استسلموا، وسلموا إليه قائدهم فقتله ودخل القلعة وهدمها وانتقل بعد ذلك إلى شذونة حيث قضى على الثورة فيها[4].

(1) البيان المغرب 54، ابن القوطية 54، نفح الطيب 67، الكامل جـ 5 ص 21.
(2) دوزي جـ 1 ص 234.
(3) البيان المغرب 53.
(4) الكامل 27، البيان 54.

وعادت اشبيلية إلى الثورة سنة 767/150، قادها أبو الصباح بن يحيى اليحصبي زعيم اليمانية. كان من المقربين من عبدالرحمن وقاتل معه يوم المصارة، وقد عينه عبدالرحمن على اشبيلية. ودب الخلاف بين الاثنين، إذ كان عبدالرحمن لا يريد وجود رجل قوي إلى جانبه. فعزل أبا الصباح عن المدينة متذرعاً بأنه عجز عن قمع الثورة فيها، والسبب أنه نمي إلى الأمير عبدالرحمن حديث نسب إلى أبي الصباح بأنه يجب القضاء على عبدالرحمن بعد القضاء على يوسف الفهري وإعادة الأمر لليمانية[1].

غضب أبو الصباح لعزله، وأعلن الثورة، التف حوله أنصاره، رأى عبدالرحمن أنه من الأفضل التخلص منه دون إراقة الدماء، بعث إليه تمام بن علقمة يدعوه للقدوم إلى قرطبة للتفاهم ولنيل ما يريد، انخدع أبو الصباح وسار إلى قرطبة يرافقه 400 من رجاله. دخل أبو الصباح القصر منفرداً وبقي الجيش خارجه. استقبله عبدالرحمن وعاتبه على ما أقدم عليه، فكان جواب أبي الصباح قاسياً، ونفذ الأمير ما أضمره، أمر الحرس بقتله فقتلوه طعناً بالخناجر وألقوا برأسه إلى رجاله فلاذوا بالفرار[2].

ونشبت ثورة تختلف عن سابقاتها في شمال شرق الأندلس قام بها البربر وتزعمها بربري يدعى شقيا بن عبدالواحد المكانسي، كان فقيهاً يمتهن تعليم الصبيان، ولما أعلن الثورة زعم أنه سليل أهل بيت النبي ﷺ وتسمى بعبد الله بن محمد، انتشرت دعوته بين البربر في تلك المنطقة حيث كانوا يشكلون أكثرية السكان. استولى على شنتابرية وقتل عاملها واتخذها مركزه ثم استولى على ماردة وقورية ومدلين وعلى المنطقة بين نهري التاجه ووادي يانة، وتحركت كذلك العناصر العربية المناهضة لعبدالرحمن، فطلب من حبيب بن عبدالملك والي طليطلة قمع الثورة البربرية فأرسل بدوره جيشاً بقيادة سليمان بن عثمان هزمه البربري وقتل سليمان بن عثمان، واستفحل أمره، فاضطر عبدالرحمن إلى

---

(1) نفح الطيب 66، ابن القوطية 30.
(2) البيان 55.

المسير بنفسه في سنة 152[1]، هزم الثوار الذين اعتصموا بالجبال مع قائدهم، وعاد عبدالرحمن إلى قرطبة تاركاً المهمة بمطاردته إلى مولاه بدر، ثم عاد عبدالرحمن مرة ثانية لقتاله سنة 154 هـ ولكنه عجز عن القضاء عليه فأرسل إليه عبيد الله بن عثمان واستمال شقيا جنوده البربر فدارت الدائرة على جيش عبيدالله الذي لاذ بالفرار واستولى البربري على معسكره سنة 155[2].

وعجز جيش الإمارة عن القضاء على البربر فقاد عبد الرحمن جيشاً من جديد إلى شنتابرية. ولجأ إلى خطة جديدة لتفريق الثوار إذ عين زعيم البربر هلال المديوني على المناطق التي يسيطر عليها شقيا. فدب الخلاف في صفوف البربر وانفض عن شقيا كثير من أنصاره فاضطر إلى الانسحاب إلى الجبال معتصماً بها. وفي هذه الأثناء بينما كان عبد الرحمن يطارده بلغه أن ثورات نشبت في أشبيلية وباجة ولبلة قادها حيوة بن ملامس وعبد الغافر اليحصبي وعمر بن طالوت وهم من أقارب أبي الصباح، انضم اليهم البربر. والتقى الفريقان في وادي منبس على نهر بمبيزار وعمد عبدالرحمن إلى تفريق صفوف الثوار بأن أرسل إلى البربر بعض زعمائهم يطلبون منهم التخلي عن الثوار، وخوفوهم من انتصار العرب وأخذوا عليهم المواثيق، ولما نشبت المعركة في اليوم التالي تخاذل البربر وانهزم الثوار هزيمة قاسية.

وفي سنة 159 هـ/ 775 عاد عبدالرحمن لقتال البربري الذي اعتصم بالجبال فغزا عند ذلك قورية وضرب نواحيها، وبقي الثائر يسيطر على ماردة وشنتابرية ويهدد سلطة قرطبة. وأرسل إليه كذلك حملة سنة 160 بقيادة تمام بن علقمة وعبيد الله بن عثمان هزمها، ثم لجأ إلى حصن شبطران قرب شنتابرية وانسحبت الحملة. فعاد إلى شنتابرية واستقر بقرية العيون. ولجأ عبدالرحمن إلى التآمر إذ عهد إلى بربريين من أصحاب شقيا باغتياله وهما داود بن هلال وكنانة بن سعيد فقتلاه وحملا رأسه إلى عبدالرحمن في قرطبة. وبذلك انتهت

---

(1) الكامل 34 و 35، البيان المغرب 56 و 57، ابن خلدون 123، الكامل 5/39، البيان 2/55.

(2) الكامل 39، البيان المغرب 55.

ثورته باغتياله بعد أن دامت عشر سنوات 150 ـ 160 هـ/ 766 ـ 776 م[1].

هزيمة الفرنج في الأندلس

في سنة 157 م/ 774 م ثار في الثغر الأعلى سليمان بن يقظان الأعرابي والي برشلونة وجيرونة، والحسين بن يحيى الأنصاري والي سرقسطة واتفق الثائران على خلع عبدالرحمن الأموي. ومما شجعهما على الثورة انشغال عبد الرحمن في قتال البربري شقيا وطبيعة أرض الثغر الأعلى الجبلية، أرسل عبدالرحمن جيشاً إلى مناطق الثورة بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامي هزمه الأعرابي وأسره، وارتد الجيش 158/ 775 م. واشتدت عزيمة الثوار ولكنهم كانوا يخشون بطش عبدالرحمن، فاتفقوا على الاستنجاد بملك الفرنج شارلمان، وعبر سليمان الأعرابي لمقابلة شارلمان 160/ 777 الذي كان في مدينة بادربون في وستفاليا شمال غرب المانيا حيث كان يشرف على تعميد السكسون وتنصيرهم، وهناك قابل الخارجي شارلمان وعرض عليه غزو المناطق الأندلسية الشمالية وأنه يساعده على أخذ سرقسطة، بدليل أنه لم يتنازل عن ولايتي برشلونة وجيرونة بل تنازل عن سرقسطة وجيش شارلمان لم يهاجم مناطق نفوذ الاعرابي بل سار مباشرة إلى سرقسطة حيث الانصاري. وهكذا رأى شارلمان أن العمل مؤاتٍ لعبور البيرنيه ومهاجمة الأندلس العربية بعد استرجاع سبتمانيا منهم فجهز جيشاً في ربيع 161/ 778 قسمه قسمين على أن يعبر القسم الأول جبال البيرنيه من الناحية الشرقية من ممر برشلونة، والثاني بقيادته يعبر من باب الشيزرى وذلك في شهر نيسان على أن يلتقي الجيشان أمام سرقسطة مع الخوارج العرب.

واجتاح شارلمان بلاد البشكنس ودخل بنبلونة عاصمتهم ودمرها ،وتابع سيره مع الاعرابي إلى سرقسطة. في الوقت نفسه اجتاز القسم الآخر من الجيش مناطق جيرونة وبرشلونة واتجه غرباً حيث انضم إلى شارلمان. كان شارلمان يعتقد أن سرقسطة ستفتح أبوابها لاستقباله. ولكن خاب أمله إذ أن الجيش

---

(1) أخبار مجموعة 111، الكامل 17/6، البيان المغرب 54/2.

الأنصاري كان قد حصن المدينة واستعد للدفاع عنها، إذ كيف يمكنه أن يقدم مدينته لقمة سائغة للفرنج ويفقد سلطته فيها وهو الذي ثار على امير الأندلس المسلم عبدالرحمن ليستقل في ولاية سرقسطة.

وامتنعت سرقسطة على شارلمان وردت هجماته[1] ولم يتجرأ ملك الفرنج أن يخوض حرباً في تلك المنطقة الجبلية الصعبة المسالك، فقبض على سليمان الاعرابي[2]، وعاد بجيشه من حيث أتى وذلك في شوال 161/ تموز 778 ومعه سليمان الأسير مع عدد من الرهائن والأسرى. وسار شمالاً إلى بلاد البشكنس الذين استعدوا لقتاله دفاعاً عن حريتهم. وشجعهم على ذلك صمود سرقسطة ودحرها لقوات الفرنج. وانضم إلى المقاومين البشكنس عدد كبير من المسلمين المقيمين في المناطق المجاورة ضد العدو المشترك إذ حركت فيهم حملة شارلمان الروح القومية الاندلسية إذ شعروا بأن شارلمان غريب ولا بد من إخراجه من مناطق الأندلس.

وهاجم شارلمان أثناء ارتداده بنبلونة بعنف فاق بسالة المدافعين واستولى على المدينة للمرة الثانية ودمر حصونها كي يفقدها الصمود والمقاومة. غادر بنبلونة عائداً إلى فرنسا عن الطريق التي جاء منها عبر ممر الشيزرى وكان عيشون ومطروح، ابنا سليمان الاعرابي قد جمعا قوات وتحالفا مع البشكنس المنكوبين. وقرر الجميع الهجوم على جيش شارلمان أثناء عبوره البيرنيه وكان جيش شارلمان يتألف من ٥ آلاف فارس ومثلهم من المشاة وساقة الجيش من ألف فارس. استطاع المهاجمون فصل ساقة جيش الفرنج عن القيادة وذلك أنهم عجزوا عن الدفاع عن أنفسهم، واستطاع المهاجمون تشتيت ساقة الجيش وغنموا كثيراً من جملتها الخزانة الملكية واستطاعوا تحرير الأسرى ومنهم سليمان الاعرابي.وقد هلك في تلك المعركة قادة الجيش الفرنجي كما ذكرهم أجنهارت مؤرخ شارلمان منهم إيجهارد رئيسه الخاص وانسلم محافظ القصر

---

(1) أخبار مجموعة 113.

(2) الكامل أحداث سنة 161 هـ.

وهردولاند حاكم القصر البريتاني مع عدد كبير من كبار رجال دولة الفرنج. وهردولاند هو رولان البطل في الملحة التي حملت اسمه، وتعتبر من الملاحم العالمية وهو ابن أخ شارلمان[1].

وقعت المعركة في 18 آب 778/ ذي القعدة 161 هـ وبقي ثعلبة بن عبيد الأسير الوحيد لدى شارلمان لأنه لم يكن معه في الحملة، افتداه فيما بعد الأمير عبد الرحمن. وهكذا فشلت حملة الفرنج على الأندلس وفقدوا فيها خيرة جندهم، وانشغل شارلمان بعد ذلك بالحرب مع السكسون الذي عادوا لقتاله بقيادة فيدو كنت التي استمرت 7 سنوات حتى هزمهم أخيراً. ورأى عبدالرحمن أن يتفاهم مع شارلمان فأرسل وفداً بهذا الخصوص، وطلب كذلك مصاهرة شارلمان استجاب شارلمان للصلح ولكن المصاهرة لم تتم، واستمر السلام بين العرب والفرنج حتى وفاة عبدالرحمن.

وهكذا باءت أول محاولة للفرنج لاجتياح الأندلس العربية وهذه المحاولة دلت على نوايا الفرنج في إخراج العرب من الأندلس بعد أن أخرجوهم من فرنسا.

ثورة الفهري الصقلبي

بعد أن أخمد عبد الرحمن ثورة شقيا البربري وتخلص من حملة شارلمان على سرقسطة، تعرض لثورة جديدة تستند إلى الدعوة العباسية، قادها عبد الرحمن بن حبيب الفهري الملقب بالصقلبي، وهو غير عبد الرحمن بن حبيب الذي انتزع افريقية من بشر بن صفوان.

عبر الصقلبي من افريقية إلى الأندلس ونزل في شرق الأندلس بساحل تدمير داعياً للخليفة العباسي 161 هـ/ .وقد تحالف مع سليمان بن يقظان الأعرابي[2]، واتفقا على قتال عبدالرحمن الأموي. ولكن الاعرابي خالف العهد

---

(1) دولة الاسلام جـ 1 ص 181.

(2) الكامل 60، البيان المغرب 56.

وامتنع عن مساعدة الصقلبي. عندئذ هاجم الصقلبي برشلونة ولكنه انهزم أمام الاعرابي.فعاد إلى تدمير ينظم قواته.ولكن عبدالرحمن الأموي بدأه بالهجوم وأحرق أسطوله في مرسيه،وانهزم الصقلبي واعتصم بجبال بلنسية وأوعز عبدالرحمن إلى بعض اصدقائه فاغتالوه وانتهت ثورته 163 هـ[1].

وقعت بعد ذلك عدة ثورات صغيرة قمعها عبد الرحمن بسهولة.منها ثورة دحية في البيرة تحالف مع شقيا البربري وبعد انتهاء ثورة شقيا أرسل عبدالرحمن جيشاً قتل الثائر. ثم ثار إبراهيم بن شجرة بحصن مورور أخمد ثورته بدر. وثار في طليطلة السلمي فسير إليه عبدالرحمن جيشاً بقيادة حبيب بن عبدالملك قتله. ثم ثار في الجزيرة الرماحي بن عبدالعزيز الكناني سار إليه عبدالرحمن بنفسه وهزمه فغادر إلى افريقية 164 هـ[2].

واستعد عبدالرحمن سنة 165 للقضاء على ثورة الشمال بعد أن دب الخلاف من جديد بين الثائرين الأنصاري والأعرابي. واستطاع الأنصاري التخلص من الاعرابي باغتياله في الجامع وخلا الأمر له في ولاية سرقسطة.سار عبد الرحمن إلى الشمال بجيش كبير وحاصر سرقسطة سنة 165 هـ/ 781 م وانضم إليه عيشون بن الأعرابي. واضطر الأنصاري إلى طلب الصلح من عبد الرحمن وقدم ابنه سعيد رهينة، لبى عبدالرحمن طلبه وأقره على ولاية سرقسطة وتابع سيره إلى الشمال الشرقي وهاجم منطقة نافار لتأديب سكانها بنبلونة وخرب حصونها. واجتاح ولاية شرطانية وهي مقاطعة شمال شرق الاندلس وأخضعها وفرض على سكانها الجزية ولقن النصارى في تلك المنطقة بأن الإسلام ما زال قادراً على اجتياح مناطقهم وإخضاعها وفرض الجزية عليها[3].

وعاد إلى قرطبة. وأثناء الطريق فر سعيد بن الأنصاري وعاد إلى والده فنكث الحسين الانصاري بعهده وعاد إلى الثورة. أمر عبدالرحمن بقتل عيشون

---

(1) البيان المغرب 58.

(2) أخبار مجموعة 112، البيان المغرب 58.

(3) أخبار مجموعة 114، الكامل 66.

ابن الاعرابي فقتل. وأرسل عبدالرحمن إلى قتال الأنصاري جيشاً بقيادة غالب بن تمام بن علقمة، ودارت معارك مع الأنصاري انهزم فيها وأسر ابنه يحيى مع بعض أصحابه، أمر عبدالرحمن بإعدامهم في قرطبة.

وأخيراً سار عبدالرحمن بنفسه للقضاء على الثائر الأنصاري سنة 167 هـ/ 783 م، حاصر المدينة بشدة وضربها بالمجانيق، وهدم أسوارها ثم دخلها. اعتقل الأنصاري مع أصحابه وقتلهم، وعين على المدينة ثعلبة بن عبيد الأسير الرهينة لدى شارلمان وبذلك انهارت ثورة الشمال[1].

مؤامرات الأمويين

بالرغم من كل الثورات التي تعرض لها عبد الرحمن، تعرض لمؤامرات داخلية قادها الأمويون. كان عبدالرحمن حريصاً على استدعاء ما تبقى من الأمويين إلى الأندلس للاستقرار فيها والمساعدة في تدعيم سلطة الأسرة. ولكن بعض هؤلاء القادمين غلب عليه الحسد، وحدثته نفسه بالخيانة لولي نعمتهم جميعاً، فقد تآمر عليه عبد السلام بن يزيد بن هشام وهو ابن عمه، وعبيد الله بن ابان بن معاوية وهو ابن أخيه، كان يشجعهما على ذلك كثرة الثورات التي هبت في وجهه، فأعدم المتآمرين. ثم تعرض لمؤامرة ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية وهذيل بن الصميل بن حاتم فأعدمهما، ونفى أخاه الوليد إلى المغرب، وقد اغتم عبد الرحمن من تصرفات أقاربه وأعمالهم الناكرة للجميل[2].

وآخر ثورة قامت ضده كانت ثورة أبي الأسود محمد بن يوسف الفهري بعد فراره من السجن، إذ ادعى العمى. وذهب إلى طليطلة حيث حشد أنصاره سنة 168 هـ/ 784 وأعلن الثورة، ثم سار إلى جيان. وقعت عدة معارك صمد فيها أبو الأسود، ثم دارت معركة شديدة في الوادي الأحمر بمخاضة الفتح قرب قسطلونة. ولجأ عبدالرحمن كعادته إلى الخونة في جيش أبي الأسود، فتخاذلوا

---

(1) الكامل جـ 6، ص 22. البيان المغرب 57.

(2) نفح الطيب 72 و 73، البيان المغرب 57.

وانهزم الثائر، وقتل من جيشه عدة آلاف[1] سنة168. ولكن محمد استمر بالثورة ونزل بقورية وسيطر على المنطقة، سار إليه عبد الرحمن فلاذ أبو الأسود بطليطلة حيث وافته المنية سنة 170 هـ/ 786. قاد الثورة أخوه أبو القاسم بن يوسف بعد أن اقترن بزوجته، زحف إليه عبدالرحمن.

أخيراً رأى أبو القاسم أن لا بد له من الاستسلام وطلب العفو، استجاب الأمير إلى ملتمسه واصطحبه إلى قرطبة. وبذلك انتهت ثورات الفهريين، وكانت آخر ثورة أخمدها عبدالرحمن، إذ وافته المنية بعد ذلك بعدة أشهر[2].

وهكذا أمضى عبد الرحمن حكمه الذي امتد ثلاث وثلاثين سنة 138 ـ 172 في كفاح مستمر تعرض خلاله إلى أكثر من ست عشرة ثورة لم تتح له فرصة للراحة والاستقرار فكان قاعداً على عرش من الجماجم[3].

اهتم عبد الرحمن بالجيش الذي كان عماد حكمه والأداة الفعالة في قمع الثورات العديدة، حتى بلغ عدده حوالي المئة ألف جندي[4]. بالإضافة إلى البربر والموالي وعددهم أربعون ألفاً[5].

واهتم كذلك بالبحرية، أقام دوراً لبناء السفن في الثغور البحرية والنهرية في اشبيلية وقرطاجنة وطرطوشة وغيرها. حتى أنه فكر بالعودة إلى المشرق بهذا الجيش، وكان ذلك عام 163 هـ/ 779. ولكن ثورة الشمال وعبور الفرنج إلى الثغر الأعلى حالا دون تنفيذ هذا القرار.

وأولى العاصمة قرطبة عناية خاصة، فأنشأ فيها منية الرصافة مقره، وفي سنة 150/ 766 بدأ بإنشاء سور قرطبة.

كذلك بنى كثيراً من المساجد، وقد بدأ ببناء المسجد الجامع في قرطبة

---

(1) الكامل 70، البيان المغرب 57.
(2) الكامل 70.
(3) علماء الأندلس 26.
(4) نفح الطيب جـ 2 ص 74.
(5) نفح الطيب 67.

على أنقاض كنيسة قوطية قديمة، أكمل بناءه فيما بعد ابنه هشام، وبلغ ما أنفقه عبدالرحمن على بنائه مئة ألف دينار وكذلك أنشأ داراً للسكة[1].

توفي عبدالرحمن بن معاوية بن هشام في 24 ربيع الآخرة 172 هـ/ 2 تشرين الأول 787 م وعمره ثمان وخمسون، وخلفه ابنه هشام بعهد منه[2].

هشام بن عبدالرحمن 172 ـ 180/ 788 ـ 796 م

ولد هشام عام 139 هـ/ 756 م[3]، وأمه أم ولد تدعى حلل، وقد عهد إليه والده عبد الرحمن بولاية العهد، وكان يقيم بماردة عند وفاة والده، أخذ له البيعة أخوه عبدالله الملقب بالبلنسي على مضض لأنه كان يرى أنه وأخاه سليمان أحق بولاية العهد منه. ودخل هشام قرطبة وبويع بالإمارة في مطلع جمادي الأولى 172 هـ/ 778 م وله من العمر 33 سنة[4].

اعترضته الثورات منذ أن تسلم الحكم، فقد ثار عليه أخوه سليمان أكبرهم سناً ودعا لنفسه في طليطلة. وكذلك أخوه عبدالله الذي حاول هشام استرضاءه وتحالف الثائران الأخوان ضد هشام، وتسلل سليمان إلى قرطبة يحاول إشعال الثورة فيها ففشل، ولجأ إلى ماردة فرده عاملها عنها، ففر إلى بلنسية واعتصم بجبالها، وأرسل هشام جيشاً إلى طليطلة لقمع الثورة ولما أدرك عبدالله فشل ثورة أخيه رحل إلى قرطبة طالباً العفو والأمان من هشام فلبى طلبه وأكرمه. وبعث جيشا بقيادة معاوية لمطاردة سليمان وتوغل الجيش في منطقة الثائر حتى أرغمه على طلب الأمان. وأجابه هشام إلى ما يريد، وأعطاه 60 ألف دينار شريطة أن يرحل إلى المغرب مع أهل بيته، ورافقه أخوه عبدالله في عملية الإبعاد وأقام الأخوان في العدوة، وهكذا انتهت ثورة الأخوة 174 هـ/ 790[5].

---

(1) البيان المغرب 60، نفح الطيب جـ 1 ص 155.
(2) جذوة المقتبس 78، الكامل جـ 5 ص 83.
(3) البيان المغرب 62 جذوة المقتبس 39.
(4) علماء الأندلس 27، الكامل 83.
(5) البيان المغرب 62، علماء الأندلس 27، الكامل 86.

انتهز ثوار الشمال وفاة عبدالرحمن وأضرموا الثورة من جديد، فثار بطرطوشة سعيد بن الحسين الأنصاري تساعده اليمنية فأبعد عاملها الأموي يوسف العبسي، ولكن خالفه في الأمر موسى بن فرقوق بمساعدة المضرية مؤيداً هشام، وكذلك خرج مطروح بن سليمان الاعرابي ببرشلونة واستولى على سرقطسة ووشقة، فبعث إليه عبدالرحمن جيشاً بقيادة عبيد الله بن عثمان أخضع طرطوشة وحاصر سرقسطة وشدد عليها. ولما ضاق السكان ذرعاً بالحصار اغتالوا مطروحاً وأرسلوا رأسه إلى عبيد الله الذي أرسله بدوره إلى هشام وفتحت سرقسطة أبوابها سنة 175 هـ/ وبذلك انتهت ثورة الشمال[1].

مع الممالك النصرانية (نصارى الشمال)

كان نصارى الشمال يستغلون فرصة الاضطرابات الداخلية وانشغال حكومة قرطبة بقمعها بحيث تتخلى عن حماية حدود الدولة مما يشجعهم على الإغارة على الأطراف المتاخمة لهم، وعندما انتهى هشام من قمع الثورات تفرغ للجهاد لحماية الحدود وتأديب الأعداء. فجهز جيشاً من 40 ألف جندي بقيادة عبيد الله بن عثمان اخترق قشتالة وهزم الجلالقة والنافاريين 175/ 791 وعاد إلى قرطبة محملاً بالغنائم والأسرى. ثم أرسل حملة ثانية بقيادة يوسف بن بخت إلى جيليقية وهزم ملكها برمودو الذي تنازل عن الحكم إلى الفونسو الثاني ابن فرويلا ولجأ إلى الدير[2].

بعد هزيمة نصارى الشمال استعد هشام للجهاد ضد الفرنج فبعث جيشاً كبيراً بقيادة الحاجب عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث الرومي، عبر جبال البيرنيه من جهة قطلونية واستعاد مدينة جيرونة. وكان الفرنج قد أخذوها سنة 169/ 785 وأخضع عدداً من الحصون المتمردة. وتابع سيره إلى سبتمانيا وهاجم مدينة أربونة وفتحها من جديد[3].

(1) الكامل 5/ 86 و 89، البيان المغرب 63.
(2) الكامل 89، البيان المغرب 63.
(3) نفح الطيب 316، الكامل 94.

فأرسل لويس ابن شارلمان أمير اكوتين جيشاً بقيادة جيوم كونت تولوز لصدهم، ودارت معركة غير حاسمة في فيل دني على نهر اوربينا تراجع بعدها المسلمون مع غنائمهم وسبيهم الكثير. وأرغموا النصارى الأسرى على حمل وجر الأحجار من سور أربونة إلى قرطبة حيث شيد بها هشام جناحاً جديداً في الجامع.

ثورة البربر

وثار البربر في رندة سنة 178/ 794 حيث كانوا يشكلون أغلبية السكان فأرسل إليهم حملة بقيادة عبد القادر بن إبان بن عبدالله أخضع الثورة بعنف وأحرق المزارع والمنازل حتى باتت المنطقة قاعاً صفصفاً سبعة أعوام[1].

وعاد هشام لمهاجمة نصارى الشمال فسير إليهم حملة بقيادة عبدالكريم بن عبد الواحد بن مغيث سنة 179 ـ 795 فوصل إلى استرقة، تصدى للحملة الفونسو الثاني ملك جيليقية مع حلفائه البشكنس ونشبت معركة بالصخرة انهزم المسلمون في البداية بكمين أعده لهم النصارى ثم كروا عليهم وهزموهم وعاثوا تدميراً في جيليقية، وعادوا إلى قرطبة بعد هزيمة الجلالقة الذين أخلدوا إلى السكينة وساد الأمن ربوع الشمال[2].

وكانت هذه آخر غزوة سيرها هشام إلى الشمال إذ توفي في 3 صفر 18 نيسان 796.

أثناء حكمه قام هشام بإنشاءات عديدة فقد أتم بناء مسجد قرطبة وأنشأ عدداً من المساجد، وجدد قنطرة قرطبة الشهيرة التي بناها السمح الخولاني. كان ينفق الأموال في افتداء الأسرى المسلمين حتى لم يبق اسير مسلم واحد في عهده، وخصص أموالاً لأسر الشهداء[3].

---

(1) البيان المغرب 64، الكامل 99.

(2) البيان المغرب 2/66. ابن خلدون 4/125. الجذوة 39، نفح الطيب 317، الكامل 5/99 و 5/100 ـ 101.

(3) الكامل 5/101، البيان المغرب 68.

وأقدم هشام على عمل مهم جداً لتعريب الأندلس، فقد جعل اللغة العربية لغة التدريس الأساسية في معاهد ومدارس أهد الذمة. فكان لهذا العمل أثر عميق، إذ اعتنق كثير من النصارى الإسلام بعد أن اطلعوا على أصوله وفروعه، وضيق الهوة بين الفاتحين والمغلوبين.

كان هشام يؤثر مجالس الفقهاء والمحدثين، وفي عهده انتشر مذهب الإمام مالك بن أنس (95 ـ 179 هـ). كان معاصراً لهشام وتربطه به كراهية الاثنين للعباسيين. وقد نقل مذهبه إلى الأندلس عدد من الفقهاء منهم يحيى بن يحيى الليثي وعيسى بن دينار وزياد بن عبدالرحمن، فقد رحلوا إلى المشرق ودرسوا في المدينة المنورة على يد مالك، وعادوا يحملون مذهبه إلى الأندلس وحل المذهب المالكي محل مذهب الأوزاعي الذي كان يعمل به الأندلسيون[1].

الحكم بن هشام 8صفر 180 ـ 206/ نيسان 796 ـ 822 م

تولى الإمارة الحكم بعهد من أبيه وبويع في يوم الخميس 8 صفر وعمره ست وعشرون سنة، إذ كانت ولادته بقرطبة سنة 154 هـ/ 771 وأمه أم ولد تدعى زخرف.

كان طاغية قاسياً على خصومه مع نزعة إلى الإنصاف والعدالة[2]. كان يميل إلى اللهو يؤثر الشعراء والندماء على الفقهاء الذين أدركوا أن نجمهم أفل مع تولية الحكم لذلك أخذوا يعملون في السر لإبعاد الأمير عن الحكم وانتزاع السلطة منه، وبدأوا يعرضون به في المساجد ويحرضون العامة عليه مستغلين نزعة الحكم إلى البذخ واللهو.ولاقت أقوالهم أذناً صاغية في صفوف الشعوبيين من بربر ومولدين الذين كانوا يكنون للعرب الحقد والكراهية لاستئثارهم

(1) أخبار مجموعة 120، الاستقصا جـ 1 ص 61، نفح الطيب 158.
(2) أخبار مجموعة 120، نفح الطيب 318، الكامل 101، الاستقصا جـ 1 ص 61، ابن القوطية 61، علماء الأندلس 28.

بالحكم، وكان هؤلاء وخاصة البربر على استعداد للثورة، وكان تحريض الفقهاء لهم حافزاً على ذلك.

غزو قشتالة

افتتح الحكم عهده، بالجهاد ضد الاسبان، ففي سنة 180/ 796 م غزا الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث قشتالة، استولى على قلهرة واجتاح بلاد نافار وسبى وغنم[1]. واضطر الحكم بعد تلك الغزوة إلى الانصراف لثورة الثغر الأعلى التي نشبت ضده إذ استغل عماه سليمان وعبدالله وفاة والده هشام وعادا من المغرب مستفيدين من توليه الحكم، وقد اتصل عبدالله بابن الاغلب صاحب افريقية وأطلعه على مشروعهما[2].

ولكن ابن الأغلب لم يعره اهتماماً، فاتجاه الثائران إلى الثغر الأعلى الذي يضم مدن سرقسطة ولاردة وتطيلة ووثقة وبرشلونة وطرطوشة، وكانت هذه المنطقة تجيش بالثورة منذ أيام عبد الرحمن الداخل، فقد ثار سنة 181 بهلول بن مرداس واستولى على سرقسطة. وكذلك ثار حاكم وشقة فاستغل الاخوان ثورة الثغر وعمل عبدالله على تحريض السكان ضد ابن أخيه الحكم، وسار على خطى سليمان بن يقظان الاعرابي، إذ عبر جبال البيرنيه يريد مقابلة شارلمان في اكس لاشابيل حيث كان يقيم. وتم له ما أراد إذ أكرم وفادته ووعده بتقديم المساعدة إذ وجد أن الفرصة سانحة للتدخل مرة ثانية في شؤون الأندلس والثأر من هزيمة باب الشيزرى، وعلى الفور أرسل جيشاً بقيادة ولده لويس، عبر البيرنيه واستولى على جيروندة ثم توغل في منطقة الثغر بمساعدة بعض المتمردين. وسار الحكم إلى الشمال للتصدي للجيش الفرنجي، وتراجع الفرنج بعد أن لاقوا صعوبات نحو الثغر وحاصروا مدينة وشقة دون جدوى فانسحبوا إلى بلادهم، عندها رأى المتمردون عبث المقاومة وأعلنوا الخضوع للأمير وعاد الثغر إلى سلطة حكومة قرطبة.

---

(1) نفح الطيب 318.

(2) البيان المغرب 69.

واستغل الأخوان انشغال الأمير بقمع ثورة الثغر الأعلى فحشد سليمان أنصاره من البربر وانضم إليه أخوه عبدالله، وسار الاثنان إلى قرطبة[1] يريدان دخولها، فالتقى بهما الحكم في فنجيط في شوال 182/ وانهزم سليمان وفر إلى استجه حيث هزم في صفر 183 للمرة الثانية. وتوجه إلى مارده فطارده الجيش وقبض عليه وأرسله إلى الحكم فأعدمه مع عدد من قادة التمرد سنة 184/ 800، ولجأ عبدالله إلى بلنسية حيث توارى عن الأنظار. وأخيراً اضطر إلى طلب الأمان من الحكم الذي استجاب له مشترطاً عليه الإقامة في بلنسية. ويعث عبدالله بابنه إلى قرطبة فأكرمه الحكم وزوجه إحدى أخواته وأخلد عبدالله إلى السكينة[2].

سقوط برشلونة

كانت سياسة الفرنج تقضي بتأمين جنوب فرنسا من غزو المسلمين لها، وذلك بإنشاء إمارة نصرانية في الشمال الشرقي من الأندلس تكون حاجزاً بينهم وبين العرب. وأنشئت هذه الإمارة باسم الثغر القوطي الذي كان يضم جيرونة وأوزونة وسولسونة. وكان شارلمان يطمح في الاستيلاء على ثغر برشلونة المنيع ليكون سداً منيعاً مع الأندلس وصلة اتصال مع بلاده.

فتحالف مع الفونسو الثاني أمير جيليقة 798/183.

وبادر فوراً إلى إرسال جيش كبير بقيادة ابنه لويس 801/185 للاستيلاء على برشلونة مغتنماً انشغال الحكم بمحاربة عميه وقسمه إلى قسمين، قاد أحدهما حاكم جيرونة لمحاصرة برشلونة، والقسم الثاني قادة جيوم كونت تولوز للمرابطة جنوب غرب برشلونة لمنع الإمدادات عنها.

كان والي برشلونة سعدون الرعيني في وضع سيء إذ كان ينتظر وصول الإمدادات إليه من قرطبة، وكان يائساً من مساعدة ولاة الثغر الأعلى له. ورغم ذلك صمدت المدينة بوجه الفرنج بقيادة واليها الشجاع الذي صمم على

(1) الكامل 105 .

(2) البيان المغرب 70 - الكامل 110 و 112 .

المقاومة منتظراً وصول المساعدات دون جدوى. بل جاء جيش فرنجي لتشديد الحصار، عندئذ رأى الوالي أن يذهب إلى قرطبة. فترك برشلونة ليلاً متسللاً يحاول اختراق صفوف العدو لكنه أسر، وكان العدو قد فتح ثغرات في سورها وهلك الآلاف من سكانها. فاضطرت إلى الاستسلام بعد حصار دام سبعة أشهر واتخذها الفرنج قاعدة للثغر القوطي الذي تحول إلى إمارة قطلونية. وهكذا خسر المسلمون أمنع ثغورهم في قاصية الأندلس الشمالية الشرقية. وتراجعت حدودهم إلى الثغر الأعلى بعد أن كان تتعدى جبال البيرنيه[1].

مؤامـرة الفقهـاء

رغم غزوات الفرنج وضياع ثغر برشلونة أقدم الفقهاء المتذمرين من الحكم على تدبير مؤامرة لخلعه،وعلى رأسهم يحيى بن يحيـى الليثي وعيسى بن دينار وطالوت الفقيه، مع بعض الزعماء ينقمون عليه لطغيانه وقسوته.وكان على رأس المتآمرين مالك بن يزيد التجيبي وموسى بن سالم الخولاني وابن عبد البر وأخوه عيسى وغيرهم. واتصل المتآمرون بمحمد بن القاسم المرواني واختاروه للإمارة[2].ولكن المرواني خانهم واطلع الحكم على تفاصيل المؤامرة، فبادر فوراً إلى إلقاء القبض على زعمائها وأعدم منهم 72 رجلاً وأفلت بعضهم منهم يحيـى بن يحيـى وعيسى بن دينار.وأظهر قسوة في الإعدام ليرهب من تسول له نفسه التآمر. وكان بين الذين أعدمهم عماه مسلمة وأمية. وبادر الحكم إلى تحصين قرطبة وترميم أسوارها وحفر خندقاً حولها وتشدد في مراقبة المواطنين، وبعد عدة أشهر على هذه التدابير الصارمة، اغتنم المتآمرون انشغال الحكم بحصار الثوار في ماردة وثاروا في الربض بقيادة رجل يدعى ديبل فعاد مسرعاً إلى قرطبة وألقى القبض على الثائرين وأعدمهم وصلبهم.فهدأت العاصمة وكان عددهم 72 رجلاً[3].

---

(1) الكامل 102 و 110. نفح الطيب 318.

(2) البيان 2/73 الكامل 5/172، القرطبة 68 طيب 318.

(3) البيان 71، كامل 5/119.

وعادت مارده إلى الثورة إذ كان يقطنها البربر، وتزعم الثورة أصبغ بن عبدالله بن وانسوس واستمرت الثورة سبع سنوات حتى اضطر قائدها إلى الصلح وعادت مارده إلى الطاعة(1).

ثورة طليطلة

كانت طليطلة قاعدة الثغر الأوسط تضم داخل أسوارها عدداً كبيراً من المولدين والمستعربين (النصارى المعاهدين) الذين احتفظوا بدينهم في ظل سيادة المسلمين. وكانت الحكومة تعاملهم معاملة حسنة وتخصهم ببعض الوظائف المهمة، ورغم ذلك فكانوا قليلي الولاء لها. حتى أنهم كانوا يتحالفون مع الثوار المسلمين ويعقدون الصلات بين الثوار وملوك النصارى كرهاً بحكومة قرطبة المسلمة.

وكانت طليطلة مركزاً للثورات منذ بداية العهد الأموي وملاذاً للثائرين وخاصة الفهريين، وفي مستهل عهد الحكم عادت طليطلة إلى الثورة سنة 181/797 بقيادة عبيدة بن حميد فأرسل إليه القائد عمروس بن يوسف.ودارت عدة معارك صمد فيها الثوار فلجأ عمروس إلى سلاح الاغتيال، اتصل بوجهاء المدينة من بني مخشى وحرضهم على عبيدة فاغتالوه وخضعت المدينة الثائرة مؤقتاً، ثم عادت إلى الثورة من جديد، فرأى الحكم أن خير وسيلة لإخضاعها تعيين عمروس حاكماً لها. وكتب إلى أهل طليطلة كتاباً هذا نصه «أي اختر لكم فلاناً وهو منكم لتطمئن قلوبكم إليه وأعفيتكم مما تكرهون من عمالنا ومواليناً لتعلموا جميل رأينا فيكم».

وتسلم عمروس المدينة فاطمأن سكانها إليه خاصة بعد أن تظاهر ببغضه للأمويين. ولتنفيذ سياسة الحكومة أنشأ بموافقة سكان المدينة قلعة بظاهرها لتكون معسكرات للجند حرصاً على راحة الأهالي.

---

(1) كامل 5/125.

وبعث إلى الحكم سراً لإرسال الجيش لتنفيذ الخطة المتفق عليها وهي إبادة الثوار دون قتال[1].

سار جيش الحكم بقيادة ابنه عبد الرحمن لقتال النصارى في الشمال وعرج هذا الجيش على طليطلة فخرج عمروس مع وجهاء المدينة لاستقباله، فأكرمهم عبد الرحمن. ونفذت المؤامرة بإحكام وذلك بأن أقام عمروس وليمة في القلعة الجديدة فدعا إليها أعيان طليطلة، ورتب الدخول من باب والخروج من باب آخر. وجعل الخدم يرافقون المدعوين عشرة عشرة إلى غرف الطعام، فكان كلما دخل فوج سيقوا إلى ناحية معينة وضربت أعناقهم وألقيت جثثهم في حفرة كبيرة أعدت لهذه الغاية، وكان يرافق ذلك قرع الطبول ليحول دون سماع أصوات الاستغاثة. وظل الأمر كذلك حتى علا النهار. ولم يبد أثر للداخلين ففر الباقون وعادوا أدراجهم بعد أن هلك في تلك المذبحة بضعة آلاف من وجهاء طليطلة وذلك 191/807[2].

وعاد الفرنج إلى غزو الأندلس بقيادة لويس وحاصروا مدينة طرطوشة سنة 192/808 فسير الحكم جيشاً بقيادة ابنه عبد الرحمن رد الفرنج على أعقابهم[3] ولكنهم عادوا إلى حصارها في العام التالي بقيادة لويس. سار عبد الرحمن لقتالهم ومعه عمروس عامل طليطلة وعامل الثغر الأعلى ونشبت معارك انتهت بهزيمة الفرنج وإنقاذ المدينة سنة193/809[4].

نصارى الشمال

كان نصارى الشمال حسب عادتهم يستغلون انشغال حكومة قرطبة بقمع

---

(1) الكامل 105. ابن القوطية 65.

(2) الكامل 124 و 125. ابن خلدون جـ 4 ص 126، ابن القوطية 66 و 67.

(3) نفح الطيب 318.

(4) الكامل 125. البيان المغرب 72.

الفتن الداخلية فأغار ملك جيليقية الفونسو الثاني الذي اشتهر بالتعصب الديني على أطراف الأندلس، وعبر نهر دويرة عدة مرات وعاث فساداً في أطراف الثغر الأدنى لبعدها عن حكومة قرطبة حتى وصل في إحدى حملاته إلى قلمرية وأشبونة، وعانى المسلمون من هجمات النصارى فاستغاثوا بالحكم ورفع إليه الشاعر عباس بن ناصح الجزيري قصيدة يصف فيها ما حل بسكان الثغر من ويلات فجهز حملة سنة 194/ 810 قادها بنفسه إلى قتاله، حتى وصل إلى غرب وادي الحجارة[1]. وهزم النصارى في عدة معارك فاطمأنت نفوس المسلمين.

غزو برشلونة

وفي سنة 195/ 811 أرسل الحكم جيشاً بقيادة عمه عبدالله البلنسي غزا قطلونية وهاجم مدينة برشلونة وفشل في استرجاعها من الفرنج[2]، وشعر الطرفان الفرنج والعرب بعدم جدوى هذه الحروب، فعقد صلح بين شارلمان والحكم استمر حتى وفاة شارلمان. وقد شجع على عقد هذا الصلح قيام دولة الأدارسة الطالبيين في المغرب الأقصى خاصة في عهد الإمام إدريس الثاني حيث وفدت عليه الوفود مبايعة ومؤيدة[3].

وفي سنة 697/ 812 أصاب الولايات الشمالية قحط شديد، أضر بالمسلمين ومات منهم جمهور غفير وفضل قسم[4] العودة إلى المغرب فأسرع الحكم إلى إعانتهم.

غزو الشمال

وفي سنة 200 ـ 815 بعث الحكم جيشاً إلى جيليقية بقيادة عبد الكريم بن

(1) البيان المغرب 73. الكامل 142.
(2) البيان المغرب 74.
(3) الاستقصا جـ 1 ص 71 و 72.
(4) نفح الطيب 319.

عبدالواحد بن مغيث لتأديب الجلالقة والنافاريين ودارت معارك مع النصارى، انهزموا على ضفاف نهر أرون وأسر عدد من رؤسائهم ولاذوا بالفرار معتصمين بالجبال[1].

الاضطرابات في قرطبة

كان سكان قرطبة ينقمون على الحكم لطغيانه وكبريائه وخاصة المولدون الذين كانوا يشعرون بأنهم أدنى من مستوى العرب الاجتماعي. يغذي هذا الشعور وهذه النقمة الفقهاء الذين فقدوا مكانتهم أيام الحكم وعلى رأسهم الفقيه طالوت المعافري، ويحيى بن يحيى الليثي فكانوا يحرضون المواطنين القرطبيين على الحكم وينسبون إليه ارتكاب المعاصي ومخالفة الشريعة الإسلامية بالانصراف إلى اللهو وشرب الخمر، حتى صارت وحشة بين الحكم وبين سكان العاصمة ازدادت مع الأيام، وصادف أن فرض الحكم ضريبة على المواد الغذائية فتجرأت العامة بذم الأمير، وكانوا يجتمعون ليلاً بالمساجد مع الفقهاء للتجريح بالأمير وسمعته السيئة وأخذوا يتعرضون له في الطريق. وصادف أن خرج الأمير يوماً عبر سوق الربض فأقدموا على شتمه وصفقوا له بالأيادي فأمر بإلقاء القبض على عشرة من زعمائهم وصلبهم. وكانوا من قادة المؤامرة: منهم يحيى بن نصر اليحصبي وموسى بن سالم الخولاني وابنه[2]، مما أثار شعور العامة وأخذوا يتعرضون للجيش. شعر الحكم بخطورة الوضع فاستعد لمواجهة الأوضاع المتردية فحصن القصر، وفجأة اندلعت الثورة في قرطبة على أثر خلاف بين أحد حراس الأمير وصيقلي للسيوف إذ تباطأ الصيقلي فقتله الحارس مما أدى إلى هياج العامة فأسرعوا إلى حمل أسلحتهم، وخاصة في حي الربض في الضاحية الجنوبية للعاصمة المسمى شقندة وذلك نهار 13 رمضان 202 هـ/ 25 آذار 818 م، وزحف الثائرون نحو القصر، وكان الحكم مستعداً لمثل هذه الحالة فأرسل قوات بقيادة عبيدالله بن عبدالله البلنسي والحاجب عبدالكريم ردت

---

(1) نفح الطيب 319. الكامل 180. البيان المغرب 75.

(2) ابن القوطية 68. الكامل 119.

المهاجمين ونفذت إلى الضاحية، وأشعلت النار فيها فارتد كثير من الثائرين يحاولون إطفاء الحرائق في منازلهم لإنقاذ عائلاتهم وممتلكاتهم. فأحاط بهم الجيش وأمعن فيهم القتل والأسر مدة ثلاثة أيام، نجا بعضهم مثل طالوت وغيره ولاذ آخرون بطليطلة. وأمر الحكم بصلب 300 من الثوار على النهر لإرهاب السكان. ثم أمر بهدم دور الثوار. وأشرف على الهدم القومس عامل أهل الذمة وقائد الغلمان فأصبح الألوف بلا مأوى. ثم أمر الحكم بترحيلهم من العاصمة. وبدأ الرحيل في 20 رمضان 202 فلجأوا إلى الثغور والولايات البعيدة، ومنهم من رحل إلى المغرب[1]. ويمم حوالي 15 ألف شطر المشرق، ونزلوا في الاسكندرية التي كانت تضطرم بالحرب الأهلية بين واليها السري بن الحكم وخصومه، واشتركوا في تلك الحرب حتى قدم عبد الله بن طاهر أميراً على مصر من قبل المأمون، حاصر الاسكندرية، وأجبر الأندلسيين على طلب الصلح والجلاء عن الاسكندرية، فساروا إلى جزيرة إقريطش بقيادة أبي حفص عمر بن عيسى البلوطي وفتحوها وأسسوا فيها مملكة مستقلة دامت حوالي قرناً وثلث. استردها البيزنطيون سنة 350/ 961[2]. وأرسل الأمير الحكم كتباً إلى سائر أنحاء الأندلس يشرح فيها للأندلسيين ظروف تلك الفتنة بكتاب طويل[3].

ومرض الحكم بعد ذلك فعهد بولاية العهد لابنه عبد الرحمن وتوفي في 26 ذي الحجة 206/ 22 أيار 822 م وهو ابن 58 سنة[4]. والحكم أول أمراء بني أمية أظهر فخامة الملك في الأندلس. إذ أقام حاشية كالملوك الحرس الخاص، واستخدم الصقالبة وأغلبهم من الرقيق والخصيان أقاموا في القصر وكان يجلبون من سائر أنحاء أوروبا النصرانية أطفالاً من الجنسين ويربون تربية إسلامية حتى بلغ عددهم حوالي 5 آلاف[5].

---

(1) الكامل 172 ـ 173. النجوم الزاهرة 177 و 178.
(2) البيان المغرب 74 و 77. نفح الطيب 318. جذوة المقتبس 39. دوزي 296 و 297.
(3) الأسير 6/101 البيان 77، 78.
(4) الحلة السيراء 69. جذوة المقتبس 39. الكامل 203.
(5) نفح الطيب 320. الكامل 203.

العلوم

رغم الاضطرابات ازدهرت العلوم في عهد الحكم، وبرز عدد من الشعراء والعلماء والأدباء منهم الشاعر الخاص للحكم عباس بن ناصح الجزيري الثقفي فقد كان شاعراً ولغوياً وفيلسوفاً بارعاً في الهندسة والفلك.

ومن مشاهير العصر عباس بن فرناس التاكرني الفيلسوف والعالم الرياضي والفلكي والكيميائي، استنبط الزجاج من الحجارة(1)، واخترع الميقاتة لتحديد الوقت ومن أروع اختراعاته أداة الطيران فصنع لنفسه جناحين طار بهما من ناحية الرصافة فحلق في الهواء وسقط في مكان بعيد. ومدحه الشاعر مؤمن بن سعيد:

يطم على العنقاء في طيرانه إذا ما كسى جسمه ريش قشعم

ورماه الجاهلون بالزندقة ولكن القضاء برأه من هذه التهمة لأنه لم يجد إلى إدانته سبيلاً وتوفي في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط.

عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط)(2)

ولد الأمير عبد الرحمن بطليطلة سنة 176 هـ/ 792 م، بويع بالإمارة في 27 ذي الحجة 206/ أيار 822 م وأمه أم ولد تدعى حلاوة. إهتم بتربيته والده.

ثورة عم أبيه عبدالله البلنسي

افتتح حكمه بثورة عم والده عبدالله البلنسي الذي كان يجرب حظه مع كل أمير. استولى على تدمير حيث كان أنصاره يجتمعون فيها ولكن المرض عاجله فتوفي لعام من ثورته 208 وبذلك تخلص منه بأيسر السبل(3).

ولكن تدمير شهدت فتنة من نوع آخر بين القيسية واليمنية بعد مقتل

(1) دولة الإسلام 1/252.
(2) ابن قرطبة 75. الجذوة 79. نفح الطيب 322.
(3) الكامل 203. علماء الأندلس 28.

مضري على يد يمني ذهب ضحيتها عدد كبير من الفريقين. وعبثاً حاول الأمير إخمادها، وقد تسلط على تدمير أبو الشماخ اليمني. واستمرت الحالة حتى سنة 213 هـ عندما عاد الجميع إلى طاعة الأمير[1].

وحاول أهل الذمة إضرام نار الفتنة في قرطبة، إذ قدموا عن البيرة وساروا إلى القصر مع نصارى قرطبة مطالبين برفع الضرائب التي فرضها عليهم ربيع الأسقف فأرسل عبدالرحمن الجيش إليهم لقمع فتنتهم وذلك في 207 هـ/ [2].

الحرب مع نصارى الشمال

استهل عبد الرحمن عهده بالجهاد ضد الإسبان فأرسل حملة صيف 208 هـ/ 823 م إلى قشتالة بقيادة عبدالكريم بن عبد الواحد بن مغيث، بعد أن أغار الفونسو الثاني ملك جيليقية على مدينة سالم، ونصارى بسكونية على أطراف الثغر الأعلى، فاخترق الحاجب قشتاله ودمر مدينة ليون، وفرض على النصارى جزية كبيرة وحرر الأسرى المسلمين وأخذ بعض زعمائهم رهائن. وعاد إلى قرطبة محملاً بالغنائم والأسرى، وكانت هذه آخر عزوة غزاها الحاجب إذ توفي في محرم 209/ 824[3].

وأصيب الفرنج بهزيمة بجوار بنبلونة عند باب الشيزري، وتفصيل ذلك أن لويس ملك الفرنج بعث جيشاً بقيادة الكونتين ازنار وإبلو لإخضاع البشكنس الذين استجاروا بالمسلمين، فلبى الدعوة بنوقسي أصحاب تطيلة بموافقة حكومة قرطبة وهزموا الفرنج وأسروا الكونتين ازنار وأبلو فأطلق سراح الأول وسيق إبلو إلى قرطبة أسيراً.

وعاد الفرنج إلى الإغارة على أطراف الثغر الأعلى بقيادة كونت برشلونة برنهارت. فبعث الأمير عبد الرحمن جيشاً بقيادة عبيد الله بن عبدالله البلنسي إلى

(1) الكامل 5/205 و 213 البيان المغرب 81.
(2) الكامل 205.
(3) نفح الطيب 323. البيان 2/82.

أراضي الفرنج 827/212 فاجتاح إمارة قطلونية وهاجم جيرونة وهزم الفرنج ولكنه لـم يحرز فتحاً ثابتاً فعاد إلى قرطبة بعد أن عاث فساداً في تلك الأنحاء[1].

ثورة مارده

وعادت طليطلة وماردة إلى الثورة، حيث كان الثوار يستغلون وعورة المنطقة وبعدها عن العاصمة بالإضافة إلى مجاورتهم للنصارى الذين كانوا يشجعونهم على الخروج على الحكومة ويقدمون إليهم المساعدات .وذلك لإضعاف حكومة قرطبة الإسلامية.

ثار في ماردة البربر بقيادة محمود بن عبد الجبار بن راحلة المصمودي وسليمان بن مرتين، وانضم إلى الثوار النصارى في تلك الأنحاء، استغل الملك لويس الفرنجي المناسبة وأرسل مساعدات للمتمردين، فقتل محمود عامل المدينة، وعاث فساداً في المنطقة، ولم تستطع الحكومة إخضاعه.وأخيراً سار إليه عبد الرحمن سنة 833/218 فهرب من ماردة مع أخته جميلة العذراء التي اشتهرت بالفروسية ومبارزة الفرسان،وصحبه زميله سليمان بن مرتين. ونزلوا في حصن فرنكش على ضفاف نهر يانة. وافترق سليمان عن محمود الذي انفرد بالثورة، هاجم بطليوس واكشونبة وباجة تصدى له أهلها ولكنه هزمهم بمساعدة أخته جميلة. وأخيراً خارت قواه أمام حملات الحكومة فلجأ مع أخته إلى جيليقية فأكرم ملكها الفونسو الثاني وفادته واستضافه. ولكن رأى أن الفونسو يستغله لمصالحه الخاصة فقرر العودة إلى موطنه الأصلي، واتصل بالأمير عبد الرحمن. وعلم الفونسو بنية محمود فأرسل إليه جيشاً ليمنعه من العودة ودارت معركة عنيفة أدت إلى مقتله وأسر عائلته ومنهم أخته جميلة 840/225 التي تزوجت من نصراني وارتدت عن الإسلام[2].

---

(1) البيان 2/83. الكامل 5/213. نفح الطيب 323.

(2) ابن القوطية 67. الكامل 5/217.

ثورة طليطلة

ونشبت الثورة في طليطلة سنة 214/ 829 بقيادة رجل من العامة يدعى هاشم ويلقب بالضراب. حمل إلى قرطبة بعد وقعة الحفرة وعمل حداداً حيث أخذ اللقب. وعاد إلى طليطلة فالتف حوله أسافل القوم، فغادر المدينة وأخذ يغير على جوارها. ذاع صيته فالتف حوله الأشرار وهاجم بربر شنت برية وهزمهم. فأرسل إليه الأمير جيشاً بقيادة محمد بن رستم هزم الثوار في حصن سمسطا وقتل الضراب 831/216. واستمرت الثورة في المدينة. فأرسل عبدالرحمن جيشاً لإخضاعها بقيادة أخيه أمية 834/219 دمر المنطقة ولم تستسلم المدينة. فغادرها بعد أن ترك الجيش بقيادة ميسرة الفتى في قلعة رباح. استغل الثوار ذلك وخرجوا لقتال ميسرة الذي هزمهم فعادوا إلى الاعتصام بأسوارها. وهاجمها الأمير سنة 220/ 835 فاستعصت عليه واضطر إلى مغادرتها إلى ماردة لمقاومة سليمان بن مرتين الثائر الذي قتل بسقوطه عن الجواد، وتفرقت جموعه. وأرسل قوة إلى طليطلة لإخضاعها بقيادة أخيه الوليد الذي إقتحم المدينة وأخضعها نهار السبت 8 رجب 223 هـ بعد سنوات من التمرد يقوده سكانها مع البربر والنصارى المعاهدين يغذيه الفرنج ونصارى الشمال[1].

العودة إلى الجهاد في الشمال

بعد إخماد الثورات تفرغ الأمير إلى مهاجمة نصارى الشمال ومن حالفهم من المسلمين. فقاد الصائفة بنفسه إلى جيليقية 840/225 وفي سنة 227/ 842 سار الأمير إلى الشمال لإخضاع موسى بن قسي الذي تمرد وتحالف مع أمير نافار وهاجم الأمير نافار حتى وصل إلى بنلبونة وعاد بعد أن دمر المنطقة[2].

ثم عاد الأمير إلى محاصرة تطيلة مركز بني قسي فهزمهم مع حلفائهم

(1) البيان المغرب 83. الكامل 233 و 245.
(2) نفح الطيب 323. البيان المغرب 85.

النافارين وخرب عبد الرحمن في هذه الحملة مدينة بنبلونة، حتى طلب النافاريون الصلح سنة 228/ 842.

النورمانديون

النورمانديون أو أمم الشمال موطنهم الأصلي اسكندينافية وشواطىء المانيا الشمالية اشتهروا بركوب البحر. وفي القرن الثامن كانت حملاتهم تجتاح شواطىء بريطانيا ووصلوا في أوائل القرن التاسع إلى سواحل فرنسا.

تطلعوا إلى الأندلس لغناها وخصبها. ولم تعرفهم الأندلس قبل ذلك. وأطلق المؤرخون المسلمون عليهم اسم المجوس. وكان ظهورهم في سواحلها لأول مرة سنة 229/ 843. ففي تلك السنة خرج أسطول منهم إلى شواطىء جيليقية فهزمهم الأمير فانسحبوا نحو سواحل الأندلس الجنوبية الغربية وهاجموا لأول مرة الدولة الاسلامية وكان ذلك سنة 230/ 844[1].

وتفصيل ذلك أن اسطولاً مجوسياً مؤلفاً من 80 مركباً رسا في أشبونة سنة 229 آب 843 فأعلم عاملها وهب الله بن حزم الأمير بهذا الخطر. استنفر الأمير عمال الثغور للاستعداد.وبقي النورمان 3 أشهر في أشبونة يخوضون معارك مع المسلمين، ثم ساروا جنوباً إلى قادس ومنها إلى شذونة،وساروا عبر النهر الكبير إلى أشبيلية.

ولم يكن بالأندلس اسطول قوي يتصدى لهؤلاء المغامرين، ونزل النورمان في ضواحي اشبيلية 8 محرم 230/ أيلول 843 وأثار ظهورهم هلعاً لدى سكانها خاصة أنها كانت دون أسوار فاقتحمها المهاجمون وعاثوا فيها فساداً ونهباً وسلباً مدة أسبوع[2]. ثم غادروها إلى قرية طلياطة الواقعة إلى الغرب منها،وأرسل الأمير قوات من الفرسان لنجدة المدينة بقيادة عبدالله بن كليب ومحمد بن رستم وتسارع المسلمون إلى الجهاد. وتولى نصر الخصي

(1) البيان المغرب 87. المقتبس 185. ابن القوطية 78، 79، نفح الطيب 324، 325.
(2) البيان المغرب 87.

قيادة القوات. وفي الوقت نفسه وصلت إمدادات إلى النورمان ودارت عدة معارك تفوق فيها الأعداء وقتلوا عدداً من المسلمين. دارت معركة في 25 صفر 230/ حاسمة فقد انهزم النورمان بعد أن سقط لهم ألف قتيل وأكثر من 400 أسير وإحراق 30 سفينة. وتراجعوا إلى ما تبقى لهم من السفن، وأقدم المسلمون على قتل الأسرى على مرأى منهم وصلبوهم على جذوع النخل لإلقاء الرعب في نفوسهم، فتراجعوا عن المدينة والمسلمون يطاردونهم ويحررون أسراهم. ثم غادروا مياه الأندلس بعد أن دامت حملتهم 42 يوماً[1].

وبادر عبد الرحمن بالكتابة إلى أمراء الأندلس يزف إليهم البشرى بهزيمة النورمان. كان لهذه الغزوة أثرها في الاهتمام بأمر الأسطول فاهتم الأمير بمدينة اشبيلية شيد حولها سوراً وأقام داراً لصناعة السفن الحربية.

السير نحو الشمال

بعد صد النورمان سير عبد الرحمن جيشاً إلى الشمال بقيادة ابنه محمد ومعه محمد بن يحيى بن خالد حيث لاقاه موسى بن موسى والي تطيلة وقدم الطاعة وطلب الأمان فأجابه الأمير محمد. وفي سنة 231/ 845 قاد الصائفة إلى الشمال الأمير محمد وحاصر ليون، فلاذى النصارى بالجبال فدمرها ثم توجه إلى بنبلونة واجتاحها وأنتسف زروعها[2].

وفي سنة 232/ 847 ثار على ملك الفرنج شارل الأصلع غليالم بن برباط القوطي وجاء إلى قرطبة يطلب المساعدة من عبد الرحمن الذي أكرم وفادته ولبى طلبه. أمده بقوات اجتاح الثغر القوطي سنة 234 وحاصر برشلونة ودمر أسوارها ووصل إلى جيرونه وطلب عبد الرحمن من عامليه على سرقسطة عبد الله بن كليب وعلى طرطوسة عبد الله بن يحيى مساعدة الثائر غليالم ضد ملك

---

(1) البيان 2/ 87 و 88، 2/ 338 و 337. 80 و 81 الكامل 272.

(2) المقتبس 1. كامل 5/ 285. البيان 2/ 89. نفح الطيب 324.

الفرنج[1]. وعاد موسى بن موسى إلى التمرد من جديد يساعده أخوه لأمه فرتون ابن ونقة ببنبلونة فأرسل إليه صائفة يقودها عباس بن الوليد طارده حتى أذعن إلى الطاعة[2] وقدم ابنه اسماعيل رهينة، فقبل ذلك منه عبدالرحمن. ودخل في الصلح أخوه فرتون (ابن ونقة) وسير الأمير قوة بحرية كبيرة تقدر بـ 300 سفينة إلى جزيرتي ميروقة ومنورقة لتأديبها لنقض ملكهما العهد والتعرض لمراكب المسلمين. أحرزت قوات عبدالرحمن نصراً عليهما واضطر سكانهما إلى تقديم الجزية، وجاء وفد إلى الأمير يطلب الأمان ويعلن الخضوع والطاعة ولبى الأمير طلبهم.

وفي سنة 237/151 نشبت الحرب في الشمال بين المسلمين والنافاريين الذين هاجموا أطراف الدولة الاسلامية تصدى لهم موسى بن موسى ودارت معركة جنوب بنبلونة في بقيرة انهزم فيها المسلمون في البدء، وأصيب موسى بجراح بلغت 35 جرحاً لكنه استأنف القتال في اليوم التالي وأصيب العدو بهزيمة منكرة في موقعة البيضاء، وقد استشهد فيها ونقة أخ موسى[3].

حركة المستعربين

استغل المستعربون تسامح حكومة قرطبة الإسلامية معهم. فهي لم تتدخل في شؤونهم الدينية بل تركت ذلك لرؤساء دينهم وقضاتهم وتبوأت جماعة منهم مناصب رفيعة في الدولة وكان فريق من المتعصبين يرون في حكامهم المسلمين أجانب ويلومون إخوانهم النصارى المعتدلين ويصمون آذانهم عن حقيقة الدين الإسلامي[4].

وكان اعتماد اللغة العربية في معاهد المستعربين أثار الذعر بين المتعصبين منهم لأن أبناءهم اطلعوا بواسطتها على أصول الدين الإسلامي وفروعه. وهذا ما أخاف زعماءهم.

---

(1) المقتبس 3.
(2) المقتبس 4، 5، الكامل 5/285.
(3) المقتبس 16.
(4) دوزي جـ 1 ص 317.

ولما كان مستحيلاً على المستعربين في قرطبة القيام بثورة مسلحة لجأوا إلى نوع جديد من المقاومة، وعمد القسس إلى بذر الفتنة الطائفية والفوضى الدينية للوصول إلى غاياتهم بوسيلة بسيطة وهي المجاهرة بسب النبي محمد ﷺ والدين الإسلامي، وهي جريمة عقوبتها الموت. وأخذ القسيسون متعمدين إلى المجاهرة بالسب في طرقات العاصمة علانية، وعندما كانوا يساقون للقضاء كانوا يكررون جريمتهم، وعبثاً حاول القضاة إقناعهم بالعدول عن أقوالهم التي أصروا عليها. واكتشف القضاة المؤامرة فأمروا بإعدام كل مذنب في صيف 237/ 851. وكان رؤساؤهم يسبغون عليهم صفة القدسية، وكان المدبر للحركة قس من قرطبة يدعى أولوخيو.

أدرك عبد الرحمن خطورة الموقف فعمل على معالجة الوضع بالشدة. أمر بعقد مجلس للأساقفة في قرطبة برآسة ريكافرد أسقف اشبيلية، مثل الأمير فيه جومث بن انطونيان بن خوليان عامل أهل الذمة[1]، وقد شرح جومث للأساقفة عاقبة هذه الأعمال على النصارى. لم يعترض المجلس على الانتحار، ولكنه استغرب سلوك المتطرفين وطالب باعتقال المخالفين، منهم بضع فتيات مسلمات من أمهات نصرانيات أضلهن القساوسة وتربية الأمهات[2] فكان الموت نصيبهن.

وتوفى عبد الرحمن في 3 ربيع ثاني 23/238 أيلول وله من العمر اثنتان وستون[3] سنة حكم نصفها. وفي عهده برزت الارستقراطية العربية حيث عرف بلاط قرطبة مظاهر البذخ والترف، أحاط نفسه بالأكفاء واستوزرهم منهم الحاجب عبدالكريم وعيسى بن شهيد ويوسف بن بخت وهاشم بن عبدالعزيز. وكان الوزراء يأتون إلى القصر بأوقات منظمة لبحث شؤون الأندلس ولهم مقر

(1) ابن القوطية 83.
(2) دوزي جـ 1 ص 340.
(3) الكامل 292.

خاص سمي «بيت الوزراء» ووصلت أعطياتهم إلى 350 ديناراً شهرياً[1].

وتولى الكتابة الحاجب عبدالكريم وعبد الله بن أبي حوثرة ومحمد بن أبي سليمان الثغراوي، الذي عرف بالأصمعي. والأسقف جومث بن انطونيان عامل أهل الذمة وكان عبدالرحمن يكلفه بالمهام الخطيرة.

وأكثر الأمير من استخدام الموالي والصقالبة، حتى أصبح عددهم خمسة آلاف مملوك ، ثلاثة آلاف يرابطون أمام القصر وألفان على أبواب القصر يسمون بالخرص، وكان قائدعم الفتى نصر الخصي المولد[2].

اهتم عبد الرحمن بالمنشآت العامة.زاد في جامع قرطبة بهوين.وقد تحول الجامع إلى كنيسة بعد طرد المسلمين من قرطبة.وموقعه في الطرف الجنوبي للمدينة على مقربة من القنطرة الغربية على الوادي الكبير طوله 185 م وعرضه 135 م[3].

وأنشأ مسجد أشبيلية وسـور المدينة بعد غزو النورمان.ووضع نظاماً للسلع، وازدهرت الحالة الاقتصادية، فبلغت الجباية وحدها مليون دينار سنوياً[4].

زريــاب

في عهده رحل إلى الأندلس مغني الرشيد علي بن نافع الملقب بزرياب النابغة الموسيقي. كان تلميذاً لمغني الرشيد، الموصلي، ولما ذاع صيته ضاق منه أستاذه فعمل على إبعاده، فغادر بغداد يريد المغرب. وراسل الحكم فرحب به، وأثناء سيره توفي الحكم، فوصله كتاب من عبد الرحمن يدعوه إليه فتابع سيره إلى قرطبة استقبله الأمير وأغدق عليه الأرزاق. أحدث زرياب ثورة فنية في

---

(1) ابن القوطية 82.

(2) الكامل 292.

(3) البيان المغرب 91. ابن القوطية 82. الكامل 292.

(4) ابن القوطية 67. أخبار 136. البيان المغرب 92 و 94.

الأندلس وذاع صيته فيها وقلده سكانها في لباسه وفنه توفي في ربيع الأول 238/ أب 852[1].

العلاقات الدبلوماسية

نتيجة القوة التي تمتعت بها الأندلس والازدهار الذي شهدته في عهد عبد الرحمن ذاع صيتها شرقاً وغرباً حتى أضحت محط أنظار الدول وخاصة الغربية للتقرب منها والتفاهم معها ولا سيما الدولة البيزنطية التي كانت في حالة حرب متواصلة مع العباسيين في الشرق، فكانت ترى أن تفاهمها مع الأمويين في الأندلس قد يؤدي إلى بعض النتائج الإيجابية، والوقوف في وجه العباسيين العدو المشترك للدولتين، فأرسل الامبراطور البيزنطي توفلس (تيوفليوس) قرطيوس سفيراً إلى قرطبة يحمل كتاباً وهدية للأمير، استقبله بحفاوة. وكان مضمون الكتاب إشارة إلى الصداقة الأموية البيزنطية القديمة وشكوى من المأمون والمعتصم ويذكرهما في الكتاب منسوبين إلى الأم ابن مراجل وابن ماردة، كما فيه شكوى من أندلسيي الربض واستيلائهم على جزيرة كريت وهي من أملاكه.

ورد الأمير بسفارة مماثلة إذ أوفد الشاعر يحيى الغزال ومعه يحيى بن حبيب إلى القسطنطينية، ووصل الوفد إلى العاصمة البيزنطية حيث استقبلهم الأمبراطور بحفاوة مماثلة لاستقبال الأمير لوفد الامبراطور.وكان مضمون كتاب الأمير الإشارة إلى الخلفاء العباسيين والعداء القديم بين الأسرتين الهاشمية والأموية. وقد أدى الغزال مهمته وعمل على إحكام الصلة بين الأمير والامبراطور[2].

وأوفد الأمير كذلك سفارة إلى بلاد النورمان رداً على رسالة ملكهم بعد هزيمتهم في أشبيلية الذي طلب الصلح والمهادنة.فأرسل الغزال كذلك في هذه المهمة الشاقة.

---

(1) ابن قوطية 83، 84، 85. نفح الطيب 323.

(2) نفح الطيب 324.

محمد بن عبد الرحمن 4 ربيع آخر 238/24 أيلول 852

ولد في ذي الحجة 207/ نيسان 823 كان والده يؤهله للحكم وهو في العشرين من عمره. كان يستخلفه في القصر ثم ولاه سرقسطة فضبط أمورها ورافق والده في غزوة بنبلونة حيث قاد ميمنة الجيش ثم أوكل إليه مهمة مقابلة الوفد الفرنجي كارل بن ببين. بويع نهار الجمعة 4 ربيع 238 أبقى أكثر المسؤولين في أيام والده في مراكزهم وخاصة الوزراء. ووضع نظاماً خاصاً للوزراء، وقرب الوزراء من أهل الشام على غيرهم، وكان يشرف على أعمال الوزراء والكتّاب(1).

ثورة طليطلة

استقبلته طليطلة كعادتها بالثورة وبها سعيد بن الأمير محمد وعاملها حارث بن بزيع، قاد الفتنة بين العابثين ابن بشير ومسوقة بن مطراف وقد تجمعوا في هضبة جبل الأخوين قرب المدينة، ولما علموا بوفاة عبدالرحمن حرضوا سكان المدينة على الحكومة نهار السبت 14 ربيع آخر بعد صلاة الظهر ـ وأقبل مسوقة بحشوده لمساعدتهم نهار الأحد وهزم الثوار الجيش وأسروا العامل واستطاع سعيد مغادرة المدينة من باب القنطرة ولم يطلقوا سراح العامل حتى أطلقت الحكومة رهائنهم(2).

وأرسل محمد أخاه الحكم بالصائفة إلى قلعة رباح وكانت مقفرة بعد أن خربها الثوار، دخلها الجيش فأعاد إعمارها من جديد ودعا من بقي من سكانها إلى العودة إليها، وكذلك فتح حصن شندلة(3)، وطهرت القوة المنطقة من المتمردين. ودارت معركة بين فرقة من جيش الحكومة وعصابات(4) خوارج

(1) ابن الأثير 141. ابن القوطية 95.
(2) ابن القوطية 1. البيان 2/94. المقتبس 292، 293.
(3) البيان المغرب 2/94.
(4) جذوة المقتبس 40. نفح الطيب 328. علماء الأندلس 29.

طليطلة في ضاحية أندوشر إنهزم فيها الجيش في شوال 239/ وخشي سكان جيان من شر الثوار الخوارج فغادروها معتصمين بالجبال فاضطر الأمير محمد إلى بناء حصن أندة أسكنه بالعرب الموالين له.

واستمرت الثورة. وشعر الأمير محمد بالخطر المحدق بالعاصمة فقرر أن يلقن الثوار درساً. وسار إليها في محرم 240/ حزيران 854 على رأس جيش كبير. وكان أكثر الثائرين من المولدين والنصارى. ولما أحسوا بالخطر استنجدوا بالنصارى الاسبان، بأردونيو ملك ليون وبملك نافار. أرسل إليهم اردونيو قوة بقيادة الكونت غاتون[1] وكان تدخل النصارى السافر إلى جانب الثوار عاملاً أذكى حماس المسلمين. وتسارع المتطوعون إلى الانضمام إلى الجيش لسحق الثورة وبينهم كثير من الفرسان والأشراف. ولجأ الأمير إلى الخديعة، فسار ببعض قواته إلى طليطلة وترك الباقي في كمائن بتلال وادي سليط، خرج سكان طليطلة لقتال الأمير مع حلفائهم النصارى وهم واثقون من النصر، وانسحب الأمير عند أول صدام إلى وادي سليط متظاهراً بالهزيمة، وعندما أصبح الثوار وسط الكمائن أطبق عليهم الجيش، وكانت معركة رهيبة استغرقت من الصباح حتى الضحى انتهت بهزيمة الثوار وحلفائهم الاسبان بعد أن قتل منهم أعداد كبيرة تقدر بـ 11 الفاً وأمر الأمير بإعدام الأسرى فوراً بينهم كثير من القساوسة. وجمعت رؤوس القتلى وأذن فوقها لصلاة الظهر[2]. ورغم ذلك لم تهدأ الفتنة في طليطلة. وذلك بتحريض النصارى بعد أن أصبحت المدينة ملجأ القسس المتعصبين للدين يبثون أحقادهم بين مواليهم[3] وخاصة أولوخيو. وكان الأمير يرقب تحركاتهم وهو مستعد لسحقها، فشحن قلعة رباح وطلبيرة بحاميات استعداداً لذلك. وأرسل سنة 242 ابنه المنذر إلى المدينة الثائرة فاعتصم سكانها بالأسوار، ولكنهم هاجموا في العام التالي طلبيرة لقتال حاميتها الحكومية فهزمهم قائدها مسعود بن عبدالله وتحركت الصائفة إلى

(1) المقتبس 293، 294.
(2) ابن خلدون 135. البيان المغرب 2/95. ابن قوطية 101.
(3) دوزي 1/355. البيان 95. المقتبس 296 و 297.

طليطلة وعاثت تدميراً في نواحيها.

وأخيراً قرر الأمير إخضاع المدينة المتمردة، فخرج بنفسه 244/ 858 وحاصرها وخرج سكانها لقتاله على الرغم من الهزائم التي منوا بها وقلة المؤن، ولجأ الأمير مرة ثانية إلى الخديعة إذ هدم المهندسون قواعد القنطرة مع بقائها قائمة وانسحب الجيش، فتشجع الثوار على القتال ولما تجمعوا على القنطرة انهارت تحتهم في نهر التاجه فغرق أكثرهم.

واستعمل الأمير الشدة في إخضاع المدينة خرب حصونها وأمعن في أهلها[1] قتلاً وتشريداً حتى أذعنوا وخضعوا له وذلك سنة 245/ 859.

وهكذا أخمد فتنة المولدين والمستعربين في طليطلة وانصرف إلى قمع فتنهم في قرطبة وحوكم القس أولوخيو رأس الفتنة فأعدم مع صاحبته ليوكريسا في اذار 859/ 245 واضطر المستعربون إلى الخلود إلى الهدوء والسكينة[2].

غزو نصارى الشمال

بالرغم من اشتداد ثورة طليطلة لم يهمل الأمير محمد نصارى الشمال فسار غازياً البة والقلاع 241/ 255 وكتب إلى موسى بن موسى وسكان الثغور لملاقاته، واجتاح المنطقة ودمرها وفتح حصوناً عدة للنصارى وبعث في 856/242 موسى إلى برشلونة فغزاها وخربها وأسر بعض أمرائها[3].

النورمان من جديد

في عهد الأمير محمد عاد النورمان إلى مهاجمة سواحل الأندلس الغربية سنة 245/ 859 بـ 62 سفينة وطاردتهم سفن الأندلس لأنها كانت مستعدة لمواجهة هذا الخطر. ووصل النورمان جنوبا تجاه مدينة باجة واستطاع الأندلسيون أسر سفينتين ورغم ذلك وصلوا إلى مصب الوادي الكبير ثم تابعوا

(1) دوزى 356 و 362. الكامل 294/5.
(2) المقتبس 307.
(3) دوزي 362/3.

سيرهم إلى الجزيرة الخضراء.

بعث الأمير الجيش على وجه السرعة إلى الغرب بقيادة الحاجب عيسى بن أبي الحسن وانضم إليه كثير من المتطوعين وتقدم الأسطول الأندلسي بقيادة أميري البحر خشخاش وابن شكوح وهو مزود بكافة الأسلحة، رد الغزاة عن أشبيلية. ثم دارت معركة قبالة شذونة انهزم فيها المسلمون.وقد قتل قائد البحرية خشخاش على ظهر سفينته وهاجم الغزاة الجزيرة الخضراء وأحرقوا حاميتها ووصلت بعض سفنهم إلى عدوة المغرب وتابعوا سيرهم نحو تدمير حتى اوريولة حيث دارت عدة معارك فقد فيها الطرفان كثيراً من القتلى، ثم ضعفت قوتهم ارتدوا شمالاً.وهاجموا نافار واحتلوا بنبلونة وأسروا ملكها غرسية ثم تابعوا سيرهم إلى سبتمانيا[1].

غزو الشمال

بعد صد النورمان عاد الاميرال إلى توجيه الحملات إلى النصارى فقد تحالف غرسيه النافاري مع اردونيو ملك قشتالة وهاجمت القوات المتحالفة أطراف الأندلس فرد الأمير بحملة على نافار واجتاح أراضيها وخرب بنبلونة وعادت محملة بالغنائم بينهم فرتون بن غرسيه[2]. واستمر الأمير محمد بإرسال الصوائف إلى الشمال فقد بعث حملة 247/ 861 اجتاحت أراضي النصارى.

وفي سنة 248 توفي موسى بن موسى بن قسي المولد بعد إصابته بجراح خطيرة على يد القشتاليين وخلفه ابنه لب الذي تحالف مع النصارى.

واستعد الأمير لمواجهة خطر النصارى فأرسل ابنه عبد الرحمن إلى البة والقلاع اشتبك مع النصارى في معركة انتهت بهزيمتهم وأسر عدد من قوادهم[3].

(1) البيان المغرب 2/96. نفح الطيب 328. الكامل 5/329. المقتبس 304.
(2) البيان 28. المقتبس 308 و 309.
(3) المقتبس 310. نفح الطيب 328.

ثم عاد الأمير وأرسل قوات بقيادة عبد الرحمن كذلك سنة 251/ 865 إلى البة والقلاع واجتاحت المنطقة. حاول اردونيو صدها بإقامة الكمائن ودارت معركة في «فج المركويز» انهزم فيها النصارى[1]. ثم أرسل حملة سنة 252/ 866 عاثت تدميراً في أراضي النصارى حتى أخلدوا إلى السكينة وتوفي ملكهم اردونيو وخلفه ابن الفونسو الثالث.

وكانت الفتنة تتنقل من مكان إلى آخر فقد ثار في ماردة وبطليوس المولد عبد الرحمن بن مرداس الجليقي سنة 261، واستولى على قلعة الحنش وزميله الثائر مكحول على جلمانة قربها وعاثا فساداً فسار الأمير بقوة لتأديبهما فاستنجدا بالمولد سعدون بن عامر السر نباقي وانضمت قواته إلى مكحول.

حاصر الأمير قلاع وحصون المتمردين وشدد عليها حتى اضطر عبد الرحمن أن يستنجد بالأمير عبدالله بن محمد فتوسط له مع والده فمنحه الأمان على أن يتنازل عن قلعة الحنش ويتوجه إلى بطليوس لإعمارها وأن يقدم رهائن، فقبل عبد الرحمن بالشروط وقدم ابنه محمد مع 30 من وجهاء قومه رهائن في قرطبة وانصرف إلى بطليوس[2]. ولكنه كان يضمر السوء فتحالف مع الفونسو ملك ليون وأعلن الثورة ودعا إلى بدعة جديدة هي مزيج من تعاليم الإسلام والنصرانية وأرهق السكان بالضرائب. قرر الأمير تأديبه فأرسل جيشاً بقيادة ابنه المنذر والوزير هشام بن عبدالعزيز إلى بطليوس 262/ 876 فغادرها الثائر، ومعه كثير من المولدين إلى حصن كركر[3]، واستنجد بسعدون السرنباقي الذي لبى النداء وقد وصلته قوات من الفونسو الثالث. وحاصر المنذر الحصن وكان هاشم يريد إحراز نصر سريع وتقدم للقاء الثوار والتقى الفريقان في مخاضة النهر جنوب بطليوس انتهت بهزيمة جيش الأمير ووقوع هاشم أسيراً لدى سعدون في 20 شوال 262/ حزيران 876. وكان المنذر يحاصر عبد الرحمن الجليقي فاضطر إلى فك الحصار بعد هزيمة هاشم.

(1) المقتبس 318.

(2) بيان 2/100. نفح الطيب 328. المقتبس 319، 320.

(3) ابن القوطية 101. المقتبس 344 _ 345 و 349 و 355.

وعاث الجليقي وسعدون فساداً في تلك النواحي، وحمل سعدون الأسير هاشم وقدمه إلى سيده ملك ليون حيث سجنه في أوبيديو مدة عامين حتى افتداه الأمير محمد لقاء 150 ألف دينار[1].

واستمر الجليقي في غاراته على منطقة بطليوس ثم تخلى عنه بعض أصحابه. ولما شعر بضعفه لجأ إلى الفونسو، فأسكنه في حصن بطرله حيث أقام أعواماً ثم صحبه في غزو منطقة بطليوس ولكنه فارقه بعد أن أمعن قتلاً في صفوف المسلمين وكانوا من أنصاره. وعاد الجليقي إلى بطليوس وتحصن بحصن استير وغيره وأحرق الأمير المنذر بطليوس. ولما أعيا الأمير إخضاع الثائر منحه الاستقلال ببطليوس وجوارها[2].

فتنة ابن حفصون

وفي عهد الأمير محمد نشبت ثورة غدت أخطر ثورة هددت الحكم الأموي في الأندلس، ففي ببشتر بين رندة ومالقة برز عمر بن حفصون أخطر وأقوى ثوار الأندلس وهو سليل أسرة من المولدين[3]. وكانت الجبال الواقعة في تلك المنطقة مأوى الأشقياء وقطاع الطرق، كان والده حفصون وجيهاً وثرياً ونشأ عمر فاسداً سيء السيرة قاد عصابة من الفاسدين ونزل في ببشتر شمال شرق رندة سنة 267/ 280 وقد وصفهم ابن حيان: إمامهم وقدوتهم عمر بن حفصون أعلاهم ذكراً في الباطل[4].

وسبب الثورة يعود إلى عنف يحيى بن عبيد الله عامل الأمير محمد في رية والتشدد بجباية العشور المتبقية لديهم، فاعتصموا بالجبال وطاردهم الوالي واستنجد بأخيه عامل الجزيرة وتشدد في مطاردتهم سنة 265/ 878 فأرسل

(1) الكامل جـ 6 ص 59. البيان 102 و 104. القوطية 101. المقتبس 370 ـ 372.
(2) البيان 2/103. دوزي 2/178. المقتبس 372 ـ 375.
(3) عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن أدفوش 4/134 بيان 2/106. ابن القوطية 103.
(4) المقتبس 393.

الأمير صائفة بقيادة ابنه عبدالله والقائد هاشم بن عبدالعزيز. فتشتت الخوارج. في هذا الظرف برز ابن حفصون وأخذ ينتهز الفرص ويغير على أراضي رية.فلما اشتد ضرره سار إليه عامل ريه عامر بن عامر وهزمه ابن حفصون. فاشتد ساعده وذاع صيته فانضم إليه الفجار والفسقة. استبدل الأمير العامل المهزوم بعبد العزيز بن عباس ودارت معركة انتهت بالصلح[1]. وسير الأمير الوزير هاشم إلى كورة رية بجيش كبير أرغم ابن حفصون على الاستسلام مع عصابته وحملهم إلى قرطبة[2]. فعفا عنه الأمير وضمه إلى جيشه. واصطحبه[3] معه في حملته سنة 1270/ 883 لقتال محمد بن لب، فغادر عمر جيش الأمير لأنه استمرأ حياة التمرد والحرية وعاد إلى ببشتر مستأنفاً ثورته.والتف حوله قرائنه من الخوارج 884/270. وعاث فساداً في المنطقة[4]. فخرج المنذر لقتاله وحاصر مدينة الحامة شمال شرق مالقة وفيها الثائر ابن حمدون حليف ابن حفصون وقد جاء لنصرته فضيق المنذر عليه الحصار، وأجبر الثوار على مغادرة المدينة والاشتباك في قتال مرير مع المنذر انتهى بهزيمتهم، وجرح ابن حفصون وارتداد الثائرين إلى الحامة والتحصن بها، وأثناء ذلك وصلت الأخبار بوفاة الأمير محمد في 28 صفر 273/ أب 886 فاضطر المنذر أن يعود إلى قرطبة متخلياً عن متابعة حصار الحامة فتنفس ابن حفصون الصعداء،واستأنف غاراته على المناطق المجاورة وبسط سلطانه على ريه ورندة وأستجه وغيرها[5].

المنذر بن محمد بن عبدالرحمن

ولد سنة 844/229 وبويع بالإمارة 8 ربيع الأول 273 آب 886 وهو في الرابعة والأربعين وعين على حجابته هاشم بن عبدالعزيز ولكنه انقلب عليه بعد

(1) بيان 105/2. الكامل 36/6.
(2) المقتبس 395.
(3) الكامل جـ 6 ص 61.
(4) ابن القوطية 105.
(5) البيان 106.

شهرين وقتله وسجن أولاده في جمادي الأول 273 وعين مكانه عبد الرحمن بن أمية بن شهيد.

كان على المنذر القضاء على ابن حفصون في الجنوب، وقد استغل وفاة الأمير محمد وعودة المنذر إلى قرطبة بعد أن فك الحصار عن ببشتر فبسط سلطانه على ريه وأرشذونة ومالقة وجيان واستجه. وتوافد عليه الخارجون على السلطة من كافة أنحاء الأندلس وخطط ليحكم الأندلس وأعلن الدعوة للعباسيين واتصل بابن الأغلب في افريقية لكنه لم يعره اهتماماً وكان ابن حفصون صاحب دعوة سياسية ترتكز على انتزاع الحكم من المسلمين وخاصة العرب وإعطائه للإسبان من مولدين ومستعربين ويثير في نفوس أنصاره النزعة إلى الحرية والتملص من الحكام الذين استغلوهم طويلاً وأن ثورته للثأر لهم[1].

واستمر ابن حفصون في توسعه حتى وصل إلى أحوازجيان واستولى على باغة وقبرة قرب جيان وعلى حصن أشرس في كورة رية. أرسل الأمير المنذر قوات استردت حصن أشرس. وفي سنة 274/ 887 خرج المنذر وهو عازم على القضاء على الثائرين إلى كورة رية، استعاد أرشذونة وقبض على حاكمها عيشون الموالي لابن حفصون وكذلك حصون باغة وأسر من بها من بني مطروح حلفاء الثائر وهم حرب وعون وطالوت وأرسلهم إلى قرطبة حيث أعدموا وصلبوا وصلب مع عيشون كلب وخنزير. وحاصر المنذر ابن حفصون في ببشتر وضيّق عليه حتى اضطره إلى الخضوع وطلب الأمان على أن يرحل إلى قرطبة مع الأمير فاستجاب لطلبه وأرسل إليه مئة بغل لنقل أهله وأمتعته. ورفع الأمير الحصار عن ببشتر وعاد بالجيش إلى قرطبة[2]، ولكن ابن حفصون انتهز الفرصة وفر من الجيش ليلاً وعاد إلى ببشتر متحصناً، وغضب الأمير لهذه الخيانة وعاد إلى محاصرة الحصن وهو مصمم على سحق الفتنة. وقتل قائدها. وحاصر ببشتر 43 يوماً مرض أثناء ذلك واستقدم أخاه عبدالله من قرطبة لمتابعة الحصار.

---

(1) البيان 2/114 ـ 115.

(2) البيان المغرب 117.

وتوفي المنذر مسموماً بتدبير من أخيه عبدالله في صفر 275/ حزيران 888[1].

على أثر وفاة المنذر اضطر الجيش إلى رفع الحصار عن ببشتر وعاد إلى قرطبة وتخلص ابن حفصون من مصيره المحتوم.

الأمير عبدالله بن محمد

ولد الأمير عبدالله سنة 229/844. بويع بالإمارة في اليوم الذي توفي فيه أخوه المنذر منتصف صفر 275/ حزيران 888 تحت أسوار ببشتر. كان أول عمل قام به العودة إلى قرطبة حاملاً جثمان أخيه حيث دفنه في مقبرة القصر. وتولى الحكم في ظروف صعبة جداً لم يحسده عليها أحد ولم يعترض إخوته على ذلك. وبدأ كفاحه الطويل مع الثورات التي عصفت بالأندلس في كل ناحية ومدينة حتى انحسرت سلطة الحكومة في قرطبة العاصمة وضواحيها. عمل طوال ولايته على قمع الثورات والحفاظ على الملك بأيدي الأمويين.

كانت أخطر الثورات ثورة المولد ابن حفصون الذي تنفس الصعداء بموت الأمير المنذر واضطرار الأمير عبدالله إلى رفع الحصار عنه بعد أن أوشك على الهزيمة ورأى أن يعقد هدنة مع الأمير الجديد يستطيع خلالها أن ينظم قواته وإنهاء الحكم العربي في الأندلس، لجأ إلى المخادعة أرسل وفداً مع ابنه حفصون، لعقد السلام مع الأمير على أن يبقى في منطقة ببشتر آمناً وفي طاعة الأمير. لبى عبدالله الطلب وأعاد إليه ابنه مع الوفد محملين بالهدايا وبعث معهم عبد الوهاب بن عبد الرؤوف من قبله والياً على مقاطعة رية ولكن نكث ابن حفصون بعد عدة أشهر بالعهد وطرد عامل[2] الأمير.

وأغار على المناطق المجاورة واستولى على ارشذونة. سار إليه الأمير بنفسه سنة 276/889 وهاجم منطقة ببشتر ودمرها ولكنه لم يقض على الثائر فعاد إلى قرطبة، وخرج ابن حفصون في إثره واستولى على استجه، فأرسل إليه

(1) ابن القوطية 113. البيان المغرب 118. جذوة المقتبس 41 يشير إلى الوفاة فقط.
(2) ابن الأثير جـ 7 ص 145. جذوة المقتبس 41. البيان المغرب جـ 121 و 123.

فرقة من الجيش ردته على أعقابه. واستمرت الثورة في الجنوب، فقد خرج في جيان خير بن شاكر استولى على المدينة وطرد والي الأمير عنها، سار الجيش إليه بقيادة أحمد بن محمد بن أبي عبدة فتك بالثوار ودمر جيان دون القضاء على الثائر، استغل هذا الوضع ابن حفصون وأرسل قوة إلى جيان لمعاونة خير ففتكت القوة به وأرسلت رأسه إلى ابن حفصون الذي أرسله بدوره إلى الأمير عبدالله لمصانعته ولم ينخدع الأمير هذه المرة. فسار ابن حفصون إلى جيان وعاث فيها فساداً وسادها الذعر.

معركة بلاي

بعد أن آنس في نفسه القوة توغل بقواته شمالاً حتى أطراف قرطبة وحاول إحراق مخيم الأمير في شقندة قرب العاصمة، عندئذ قرر الامير أن يخرج بنفسه لوضع حد لهذا الثائر، فحشد ما يمكن حشده من القوت وسار إلى قبرة في الجنوب حيث يعسكر ابن حفصون في حصن بلاي. كان حصن بلاي من أمنع الحصون جنوب شرق قرطبة، وزاد ابن حفصون في تحصينه متخذاً منه منطلقاً للإغارة على المدن والمناطق المجاورة تمهيداً للوصول إلى العاصمة. كان عدد قوات الثوار حوالي 30 ألفاً وقوات الحكومة تتراوح بين 14 ـ 18 الفاً[1].

ودارت المعركة على ضفاف نهر الفوشكة أحد فروع الوادي الكبير في 2 صفر 278/ 16 أيار 891 وقاد جيش الإمارة عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة، وتولى ابن حفصون قيادة قواته، واستطاع فرسان الإمارة من هزيمة الجناح الأيمن للثوار فدب الذعر في صفوفهم ولاذوا بالفرار والفرسان تطاردهم وتمعن فيهم قتلاً. ولجأ ابن حفصون إلى حصن بلاي للاعتصام به فوجده خالياً من الجنود الذين آثروا الفرار على صمود غير مأمون النتائج، فرأى من الأفضل الارتداد إلى الجبال الجنوبية بعد أن فقد عدة آلاف من قواته واحتل الأمير عبدالله حصن بلاي بعد أن قتل من حاميته حوالي الألف.

كانت معركة بلاي فاصلة في ثورة ابن حفصون الذي أصيب بضربة قاصمة

---

(1) البيان المغرب 122، 123.

وضعت حداً لمطامعه، ولم يطارده الأمير بل توجه إلى استجه الموالية له فحاصرها حتى استسلمت وأمن سكانها.

وسار الأمير إلى حصن بيشتر حيث عاد إليه ابن حفصون والتف حوله الخوارج، ولكنه لم يخرج لمواجهة الأمير، عاد الأمير إلى قرطبة فخرج ابن حفصون محاولاً مطاردته، وهاجم ساقة الجيش ولكنه انهزم ربيع الأول 278/،وقد أشاد الشعراء بالنصر الذي أحرزه الأمير ومدحوه بقصائد عديدة. ورفع الأمير قائد الجيش عبيد الله بن محمد بن أبي عبده إلى مرتبة الوزراء مكافأة له[1].

ونشبت ثورة في شرق الأندلس، قامت بها القبائل العربية التي رأت في سياسة بني أمية نوعاً من الامتهان لكرامتها. وكانت مقاطعة البيرة المركز الذي انطلقت منه ثورة العرب. ففي سنة 275/ 889 ثار في منطقة البراجلة في مقاطعة البيرة يحيى بن صقالة القيسي والتف حوله العرب. وطارد المولدين والنصارى ولكنه قتل. وحل مكانه سوار بن حمدون القيسي وكان شجاعاً شديد البأس انضوى العرب تحت لوائه، وهاجم مناطق النصارى والمولدين واستولى على معظم قواعدهم حتى قلعة رباح. ثم هاجم البيرة واستولى عليها سنة 276 وأسر واليها جعد بن عبدالغافر-ثم سار إلى غرناطة واستولى عليها. واتخذها قاعدة له. ونشبت بينه وبين ابن حفصون عدة معارك هزم فيها ابن حفصون، ولكن سوار قتل في كمين دبره له أسيره السابق جعد وحفص بن المرة قائد جيش ابن حفصون. فخلفه سعيد بن سليمان السعدي شيخ قبيلة هوازن وتصدى لابن حفصون وهزمه عدة مرات ولكنه وقع أسيراًبيده فأطلقه لقاء فدية كبيرة ولما رأى الأمير غلبة العرب في البيرة ولى سعيداً عليها ولكنه اغتيل بعد عدة سنوات بتدبير من الأمير عبدالله[2].

وقام بأمر العرب في البيرة محمد بن المهمذاني ونشبت بينه وبين أبن حفصون عدة معارك كانت سجالاً ولبث المهمذاني في حكم البيرة حتى عهد

---

(1) البيان المغرب 124. دوزي جـ 2 ص 68 و 73.

(2) المقتبس 50 ـ 60.

عبدالرحمن الناصر. وانتقلت عدوة الثورة إلى اشبيلية حاضرة اسبانيا أيام الرومان وكان سكانها مزيجاً من العرب والمولدين والمستعربين. وكان العرب فيها على قدر من الثراء والجاه والنفوذ. بقيت محافظة على الهدوء والسكينة حتى هبت عليها رياح الثورة وظهر الزعماء العرب الطامحون إلى الزعامة، وكان بنو أبي عبدة وبنو الحجاج وبنو خلدون أعلى القبائل العربية نفوذاً وجاهاً. فبنو عبدة فيهم كثير من رجال الدولة وكان يترأسهم أمية بن عبدالغافر وهو من المقربين إلى الحكومة في قرطبة. وبنو الحجاج يتسبون إلى لخم ومن ناحية الأم وإلى ملوك القوط عن طريق جدتهم سارة القوطية حفيدة وتيزا، وكان يتزعمهم آنذاك عبدالله بن حجاج وأخوه إبراهيم. وبنو خلدون يعود نسبهم إلى عرب حضرموت وزعيمهم كريب بن عثمان وأخوه خالد ومنهم المؤرخ العالم ابن خلدون[1].

كانت رياسة أشبيلية منذ عهد عبدالرحمن الداخل في بيت أبي عبدة. وكان وكيلها أيام الأمير عبدالله أمية بن عبد الغافر وكان إلى جانب أمية أحمد بن الأمير عبدالله. وفي سنة 889/276 أعلن بنو خلدون الثورة بقيادة كريب بن عثمان سيدهم يعضده المولدون والبربر، الذين كان يعملون في إذكاء الخلاف بين العرب، وتحالف كريب مع عبد الرحمن بن مروان الجليقي في بطليوس، وعاث كريب فساداً في أهواز المدينة دون أن يدخلها. ثم ثار المولدون ضد اليمانية لمقتل أحد زعمائهم، وتحرك كذلك بنو حجاج ودارت المعارك بين بني أمية وبين حجاج قتل أخيراً أمية فأرسل الأمير عبدالله عمه هشاماً إلى المدينة ولكنه فشل في إخماد الفتنة. وقتل الثوار ولده وسادت الفوضى المدينة فأرسل الأمير عبدالله ابنه المطرف ووزيره عبدالملك بن عبدالله بن أمية على رأس قوة إلى أشبيلية سنة 895/282. وأقدم المطرف على قتل الوزير وعين مكانه أحمد بن هاشم بن عبدالعزيز فأرسل كتاباً إلى والده يبرر عمله. ودارت معركة مع الثوار خارج أسوار المدينة هزمهم المطرف وردهم إلى داخلها بعد أن قتل عداً كبيراً منهم وأسر إبراهيم بن حجاج وخلدون بن خلدون وابن عبدالملك وقطع لسان سحنون الكاتب ولم يطلق سراح الأسرى حتى استسلمت المدينة،

(1) ابن خلدون جـ 7 ص 380. البيان المغرب جـ 2 ص 125.

ودفعت ما عليها وقدم زعماء الفتنة رهائن أهلهم، وجرى الاتفاق على أن يحكم المدينة إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون باسم الأمير[1]. ثم اتفق إبراهيم مع الأمير عبدالله سراً على حكم المدينة والتخلص من كريب فأوعز إلى أنصاره فاغتالوا كريباً وأخاه خالداً وانفرد بحكم أشبيلية 282/195 وأمره عبدالله على حكم أشبيلية وقرمونة، وسطع نجم بني حجاج في اشبيلية وحدث الخلاف من جديد مع حكومة قرطبة إذ طالب إبراهيم الأمير بإعادة ابنه عبد الرحمن الرهينة لديه، فتباطأ الأمير بتلبية طلبه، وأعلن الثورة على الأمير. وتحالف مع ابن حفصون وسار الحليفان لقتال قوات الحكومة 283 وخشي الأمير من خطورة الوضع فلبى طلب ابن حجاج وأعاد إليه ابنه عبد الرحمن مكرماً فجنح إبراهيم إلى الطاعة، واكتفى بدفع الخراج ونبذ حلف ابن حفصون.

تقبل الأمير الأمر الواقع وساد الهدوء أشبيلية[2]. وانصرف ابراهيم إلى الاهتمام بولايته فحصن قرمونة وجعلها معسكراً لخيله وأصلح نظام الحكم والقضاء وأقام صلات ودية مع الحكومة في قرطبة وكان يمد الأمير بالأموال والقوات.

بعد مضي عامين على هزيمة ابن حفصون في بلاي عادت الحكومة إلى إرسال الحملات لمطاردته، ففي سنة 281/ 894 سار المطرف ابن الأمير عبدالله إلى مقاطعة رية وحاصر ابن حفصون في ببشتر وخرج الثائر لقتال المطرف فأصيب بهزيمة وقتل في المعركة حفص بن المرة قائده الشجاع[3].

وكعادته كان ابن حفصون يستغل عودة الجيش إلى قرطبة فيخرج من معقله ويهاجم المناطق المجاورة فهاجم استجه واستولى عليها للمرة الثانية سنة 284/897[4] وهي قريبة من العاصمة، واستنفر الأمير الجيش وأرسل ابنه ابان

---

(1) العبر جـ 7 ص 381. البيان 135.

(2) البيان جـ 2، 126.

(3) البيان 2/142، دوزي 2/84.

(4) المقتبس 108.

سنة 898/285 ومعه القائد أحمد بن أبي عبدة لقتال ابن حفصون. فاجتاح المنطقة الجنوبية حتى جزيرة طريف ودارت معارك مع ابن حفصون لم تكن حاسمة وأخذت الحكومة تستعد لكي تضع حداً لهذا الثائر.

ووسع الثائر دائرة نفوذه وتحالفاته فعقد سنة 898/285 حلفاً مع محمد بن لب زعيم بني قسي. وتدعيماً لهذا التحالف أرسل ابن لب ولده لباً لنجدة ابن حفصون ولدى وصول لب إلى طليطلة بلغه نبأ وفاة والده فعاد دون أن يبرم التحالف مع ابن حفصون[1].

اعتناق ابن حفصون النصرانية

وحدث ما كان متوقعاً إذ أعلن ابن حفصون سنة 899/286 ارتداده عن الإسلام واعتناقه النصرانية مع أفراد أسرته متخذاً اسماً نصرانياً صموئيل وكان أبوه قد فعل ذلك من قبل. وابن حفصون لم يخلص للإسلام، وكان نصرانياً في السر والذي كان يمنعه من إعلان ذلك خشيته من تفرق أنصاره عنه، وحدث ما كان يخشاه، إذ هجره كثير من المسلمين وتبرأوا من عمله. أرسلوا بطاعتهم إلى الأمير ورأوا في قتاله جهاداً مقدساً[2]. وحاول ابن حفصون أن يعوض ما فقده من قوة بعقد تحالفات، ففاوض الفونسو الثالث ملك ليون وبني قسي واتصل بحكام المغرب من الأدارسة إذ اتصل بإبراهيم بن القاسم بن إدريس للحصول منه على غطاء شرعي من الأدارسة الطالبيين أعداء الأمويين، ولكن الأدارسة لم يستقبلوا حتى مبعوثه، خاصة عندما علموا بارتداده عن الإسلام[3].

وهذه المحالفات لم تحقق له ما كان يرجوه من المساعدة العسكرية ولكن المساعدة الحقيقية جاءته من اشبيلية من إبراهيم بن حجاج، إذ لما ساءت العلاقات مع الأمير عبدالله بسبب رفضه إطلاق سراح عبد الرحمن بن إبراهيم،

---

(1) المقتبس 127.

(2) البيان 2/143، حصين 128 دوزي 2/ 84 و 65.

(3) البيان جـ 2 ص 233.

خلع الطاعة وأعلن الثورة والتحالف مع ابن حفصون سنة 288/ 900 وغدا الاثنان قوة تهدد حكومة قرطبة[1]. خشي الأمير من هذا التحالف فرأى أن يصانع ابن حفصون عارضاً عليه شروطاً مغرية للصلح. قبل الثائر هذا العرض خاصة بعد هزيمة بلاي وتاكيداً على قبوله أرسل إلى قرطبة أربعة رهائن من كبار أصحابه منهم حليفه سعيد بن مستنة الثائر السابق في باغه[2].

ولكن حدث خلاف مع ابن حفصون حول تنفيذ الشروط وأعلن ابن حفصون الحرب وأمده حليفه ابن حجاج بقوة من الفرسان، أرسلت الحكومة جيشاً بقيادة أحمد بن أبي عبدة. ونشبت معركة مع الثائر في استبة الواقعة جنوبي أستجة، انهزم في البداية جيش الحكومة وقتل بضع مئات من الجنود. ولكنهم استعادوا المبادرة وأوقعوا هزيمة شديدة بقوات ابن حفصون سنة 902/289 وعلى إثر هذه الهزيمة أمر الأمير عبدالله بقتل رهائن ابن حفصون ما عدا ابن مستنة الذي أعلن الخضوع والطاعة. خاف ابن حجاج من عملية قتل الرهائن ففاوض الأمير طالباً العفو والصلح معلناً الولاء. قبل الأمير الطلب، أطلق له سراح ابنه الرهينة عبدالرحمن[3].

وتوالت الحملات على ابن حفصون سنة 904/291 و 905/292 و 910/297 و 912/299 أدت إلى إنهاك قواه، ولكنها لم تتمكن من القضاء عليه طيلة عهد الأمير عبدالله.

وتوفي الأمير عبدالله في مستهل ربيع الأول 300/ تشرين الأول 912 وهو في الثانية والسبعين من العمر بعد حكم دام خمساً وعشرين سنة مليئة بالفتن والثورات لم تشهد الأندلس لها مثيلاً منذ الفتح[4].

---

(1) مقتبس 129.
(2) دوزي 2/86. بيان 2/144.
(3) البيان المغرب 145.
(4) أعمال الإعلام 36. البيان المغرب 151.

ثورات الثغور

كان يحكم بطليوس منذ أيام الأمير محمد عبدالرحمن بن مروان الجليقي، وكان الأمير قد منحه الاستقلال فيها، وأقره الأمير عبدالله على ذلك. ويسط الجليقي حكمه على الأنحاء المجاورة وقد تحالف مع يحيى بن بكر المتسلط على شنتمرية الغرب ومع عبد الملك بن أبي الجواد الثائر بمدينة باجة[1].

وفي العام 889/276 نكث الجليقي بالعهد مع الأمير عبدالله، وساعد الثائر كريب بن خلدون على مهاجمة أشبيلية ونواحيها، ثم ثار البربر في الثغر الأدنى بقيادة محمد بن تاكيت المصمودي واستولى على مارده، أرسل إليه الأمير جيشاً من قرطبة فبعث إليه الجليقي قوة لمساعدته. وفشلت حملة الحكومة في استرجاع المدينة، وكانت تضم داخلها عرباً وبربراً من كتامة ومصمودة، فهجر العرب وكتامة منها ثم نشب الخلاف بينه وبين الجليقي فتغلب عليه الجليقي. وتوفي الجليقي فخلفه ابنه مروان الذي حكم بطليوس مدة شهرين وخلفه عبدالله ابن أخيه وظلت بطليوس مستقلة حتى 317/ 929عندما استعادها عبدالرحمن الناصر وقضى على استقلالها[2].

ثورة الثغر الأوسط

سيطر بنو ذي النون البربر على طليطلة أيام المنذر وهم من قبيلة هوارة بقيادة رئيسهم موسى بن ذي النون سنة 274 هـ/ 888 م. ثم تغلب عليهم محمد بن لب بن قسي 897/283 ولكنه قتل بعد عامين تحت أسوار سرقسطة عندما كان يحاول استرجاعها فخلفه ابنه لباً في طليطلة ولكنه أبعد عنها واستدعاه أهل طليطلة من جديد فأرسل أخاه المطرف تولى حكمها. ثم أبعده محمد بن إسماعيل بن موسى من أبناء عمومته وانفرد بحكم المدينة حتى 906/293. ثم استقل بحكم المدينة زعيم بربري ابن الطربيشة حتى انتزعها منه

(1) البيان 139.

(2) البيان 138. ابن خلدون جـ 4 ص 133.

عبدالرحمن الناصر. واستمر بنو ذي النون في حكم المناطق شرق طليطلة حتى أيام الناصر[1].

الثغر الأعلى

عندما ثار بنو قسي في الثغر الأعلى ـ سرقسطة وأحوازها ـ ذكر المقربون للأمير محمد نباهة بني تجيب وهم أولاد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المهاجر التجيبي، استدعاهم وبنى لهم قلعة قرب سرقسطة عين عليها عبد الرحمن بن عبدالعزيز وبنى للآخرين كذلك حصوناً في المنطقة لضبطها. وأجرى عليهم الأرزاق. ولما استرجع المنذر سرقسطة من بني قسي سنة 270/ 883 توالى عليها عمال الامير وكان يحكمها في بداية حكم الأمير عبدالله أحمد بن البراء. تظاهر محمد بن عبدالرحمن التجيبي بالخلاف مع والده والتجأ إلى سرقسطة في ظل ابن البراء واليها وهو يضمر الشر له، وذات يوم اغتال حاميه ابن البراء وانفرد بحكم سرقسطة في رمضان 276/ 889 وكان ذلك بتدبير الأمير عبدالله.

وحاول محمد بن لب استرجاعها من محمد التجيبي ولكنه قتل تحت أسوارها 285/ 898 وبذلك أفل نجم بني قسي وبقي التجيبي حتى وفاته أيام الناصر.

وخلف لب أباه محمداً في حكم تطيلة وقد هادن الأمير عبدالله فأمره على ما بيده، وتفرغ للجهاد ضد نصارى الشمال فغزا سنة 290/ 903 ليون وفتح بعض حصونها وهزم الفونسو الثالث ناحية بيارش واستولى على حصون ايلاكا وموله وقشينل وقتل عددا كبيراً من النصارى وغزا سنة 294/ 906 نافار وزحف على بنبلونة ولكنه انهزم وفقد كثيراً من جنده. وتوفي وهو ابن 32 سنة وخلفه أخوه عبدالله على حكم تطيلة الذي انصرف للجهاد ضد النصارى[2].

---

(1) المقتبس 85 و 86.

(2) البيان المغرب 143 دوزي 93.

وبرز في الثغر الأعلى محمد بن عبد الملك بن شبريط من المولدين. وعندما هوى نجم بني قسي ظهر شبريط، واستطاع محمد الملقب بالطويل أن يستقر في وشقة ودخل في طاعة الأمير عبدالله، وانتزع لاردة من بني قسي. ولكنه أعادها إليهم بإيعاز من الأمير، ثم انهزم أمام محمد بن لب وانصرف الطويل لمحاربة جيرانه النصارى في سفوح البيرنيه. وعندما توفي محمد بن لب استغل الطويل الفرصة واستولى على أملاك بني قسي في لاردة وفنشون وقد اشتد أمر الطويل وتزوج من دونيا سانتا ابنة الكونت اسنار أحد كونتات أراجون. وانصرف إلى مهاجمة أراضي النصارى فغزا سنة 296/ 908 منطقة بليارش وعاث قتلاً وتدميراً. ثم استولى على حصن روطة وهدمه. وعام 297/ 909 غزا المنطقة من جديد وعاد محملاً بالغنائم والسبي. ولما رأى ابن لب قوته تحالف معه واتفق الاثنان على مهاجمة نافار وسار كل منهما بطريق. فغزا الطويل الحصون وهدم الكنائس ولكنه تراجع عن مهاجمة بنبلونه عندما علم بمسير سانشو لقتاله. ثم غزا أراضي برشلونة ودارت معركة مع حاكمها الكونت سيز انهزم فيها الكونت وقتل كثير من أنصاره. ولكن الطويل قتل سنة 301/ 913 خلال غزوة منطقة قطلونية واستمر أولاده في حكم إمارته[1].

---

(1) البيان المغرب 148 و 152.

الفصـل الثالـث

الخلافة الأموية حتى قيام الدولة العامرية

الخليفة عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله (الناصر)

أعماله :

- توحيد الأندلس .
- حربه مع نصارى الشمال .
- الغزوة البحرية .
- ثورة سرقسطة .
- معركة الخندق وهزيمته ـ إعدام المتخاذلين .
- أعماله العمرانية : بناء مدينة الزهراء .
- العلاقات الدبلوماسية : مع البيزنطيين ـ مع أمبراطور ألمانيا اوتو ـ مع نصارى الشمال .

الحكم بن عبد الرحمن (المستنصر)

أعماله :

- توسيع المسجد الجامع في قرطبة .
- حربه مع نصارى الشمال .
- حربه مع النورمان .
- عصر الحكم العلمي : مكتبة وجامعة قرطبة .

الناصـــر

توفي الأمير عبدالله بن محمد أول ربيع الأول 300/ 15 تشرين الأول 912[1]، وخلفه في اليوم ذاته حفيده عبدالرحمن ابن ابنه محمد. ووصوله إلى الحكم بالرغم من وجود أعمامه نتيجة حادث. إذ كان الأمير عبدالله قد اختار لولاية عهده ابنه البكر محمداً. استاء أخوه المطرف، فأوغر صدر والده عليه متهماً إياه بالخيانة والاتصال بابن حفصون. وتسرع الأمير عبدالله وقتل ابنه محمدا الذي تبين له براءته بعد فوات الأوان. وكان عبدالرحمن قد ولد قبل مقتل والده بعدة أسابيع 22 رمضان 277/ كانون الأول ٨٩٠ م، تكفل جده بتربيته فعاش في كنفه مغموراً بالعطف والحنان، دربه على ممارسة الحكم. بويع بالإمارة يوم الخميس مستهل ربيع الأول 300 في قاعة المجلس الكامل بقصر قرطبة.

تسلم الحكم والأندلس قد أرهقتها الثورات وكان يرى أنه لا بد من سحق الثورات والقضاء على زعمائها بكافة الوسائل[2]. بعد تسلمه الحكم بعدة أسابيع وجه حملة إلى قلعة رباح بقيادة الوزير عباس بن عبدالعزيز القرشي وكان بها الثائر الفتح بن موسى بن ذي النون وحليفه محمد بن ارذبلش دارت معارك انهزم فيها الفتح وقتل حليفه وطهرت قلعة رباح من الثوار 11 ربيع آخر. وسارت حملة ثانية إلى استجه واستردتها من أنصار ابن حفصون ودمرت سورها وقنطرتها بقيادة أحمد بن حدير.

وفي 13 شعبان الخميس 300 هـ/ أذار 913 خرج الأمير بنفسه لقتال

(1) نفح الطيب 330.

(2) البيان المغرب 157 و 158.

الثوار وأثار وجوده بين الجنود الحماس والإقدام. سار الأمير إلى جنوب شرق الأندلس يرافقه زعماء البيرة الذين التجأوا إلى الأمير هرباً من ابن حفصون. واتجه إلى مقاطعة جيان استولى على حصن مرتش، أرسل قوة إلى مالقة لمساعدتها حيث كان يهددها الثائر فأمنها. قصد حصن المنتلون وبه المولد سعيد بن هذيل استولى عليه واستسلم الثائر رمضان 300/ نيسان 913, ثم سار إلى حصن شمنتان، . ويعتصم به عبد الله بن الشالية الذي استسلم دون مقاومة. أخذ حصن منيشة من إسحاق بن إبراهيم. وهكذا استعاد حصون مقاطعة جيان التي كانت بيد ابن حفصون[1]. بالإضافة إلى حصون كثيرة استأمن نازلوها[1].

ثم سار إلى مقاطعة ريه واستولى على جميع الحصون الخاضعة لابن حفصون ومنها حصن شبليس وقتل من كان به من أنصار الثائر، وفر منه جعفر ابن حفصون. ثم استولى الأمير على حصن اشتيين قرب البيرة. توجه إلى وادي آش وأخضع حصونه وتوغل في جبل الثلج (سيرانفادا). حاول ابن حفصون إشغال الأمير وزحف نحو غرناطة فتصدى له سكان البيرة مع قوة حكومية وردوه على أعقابه. واستمر الأمير في اقتحام الحصون في تلك المنطقة وتطهيرها من الخوارج وبلغ عددها حوالي سبعين حصناً. وبعد ذلك عاد إلى قرطبة ودخلها يوم عيد الأضحى بعد أن قضى 3 أشهر في حملته.

واندلعت الثورة من جديد في اشبيلية التي كان يحكمها بنو الحجاج الذين استقلوا بها أيام الأمير عبدالله. وكان حاكم اشبيلية ابراهيم بن حجاج قد توفي وخلفه ابنه عبدالرحمن فيها وابنه محمد في قرمونة ثم توفي عبد الرحمن 301 وحاول أخوه محمد أن يخلفه في حكمها ولكن سكان اشبيلية اختاروا أحمد بن مسلمة من بني الحجاج لحكم المدينة عندئذ سار محمد بن إبراهيم إلى قرطبة معلناً الولاء والطاعة للأمير عبد الرحمن فأوفد معه الجيش بقيادة الحاجب بدر دخل أشبيلية جمادي الأول 301 وعين الأمير سعيد بن المنذر والياً عليها من قبله وبذلك انتهت ثورة العرب والمولدين فيها.

---

(1) البيان المغرب 161.

وخرج عبد الرحمن في شوال 301/ أيار 914 إلى مقاطعة ريه والجزيرة وكان ابن حفصون قد استولى عليها بعد مغادرة عبد الرحمن لها. حاصر قلعة طرش 14 شوال وقدم الثائر لنجدتها. فدارت معارك شديدة أسفرت عن مقتل عدد كبير من جند ابن حفصون وأنصاره النصارى. ثم زحف الأمير نحو الجزيرة الخضراء ودخلها في ذي القعدة 301/ حزيران 914 ثم إلى شذونة وبعدها إلى قرمونة فاستسلم حاكمها حبيب بن سواده. وعاد إلى قرطبة بعد أن ألحق بالثوار ضربات شديدة دون أن يقضي عليهم.

وأصيبت الأندلس سنة 302/ 915 بالقحط فنفذت الأقوات وارتفعت الأسعار نتيجة انحباس المطر. وبلغ سعر قفيز القمح 3 دنانير ووقع الوباء. واستمرت الحال كذلك طيلة سنة 303، فمات كثيرون من سكان الأندلس.

ولما زالت المحنة، عاد الأمير إلى مطاردة الثوار، فسير الوزير اسحق بن محمد القرشي إلى مقاطعتي تدمير وبلنسية، افتتح حصن اريولة مركز الثوار في تدمير، ثم أخضع مدينة الحامة. وغزا الحاجب بدر مدينة لبلة وبها الثائر عثمان بن نصر، حاول الحاجب استمالته بدون قتال، لكنه رفض. وأرغمه على الاستسلام في 20 رمضان 303/ شباط 196[1].

وفي السنة ذاتها جنح عمر بن حفصون إلى السلم، بعد أن أدرك أن لا أمل له بالنصر، وكانت قوته قد ضعفت بعد الضربات القاسية التي تلقاها من الأمير، فبعث إلى عبد الرحمن يلتمس منه الصلح، ويذكر له حادثة لجوء والده محمد عندما فر من أبيه. وتوسط بالأمر يحيى بن إسحاق طبيب الأمير، وكان صديقاً لابن حفصون. استجاب الأمير للصلح مع الحذر. وأجرى يحيى اتصالاً مع جعفر بن مقسم اسقف ببشتر وعبد الله بن اصبغ بن نبيل ودنا بن عطاف وهم من خاصة ابن حفصون. وهؤلاء كانوا يؤيدون الصلح والجنوح إلى السلم. سار يحيى إلى ابن حفصون يحمل معه الشروط، وعاد بعدها إلى قرطبة حيث أقرها الأمير. وتنازل ابن حفصون نتيجة ذلك عن مئتين واثنين وستين حصناً.

---

(1) البيان المغرب 166 و 169.

واندلعت الثورة من جديد في قرمونة بقيادة حبيب بن سوادة بعد نقضه العهد[1]. سار إليه الحاجب بدر، اقتحم قرمونة واعتقل الثائر وأرسله مصفداً إلى قرطبة 305/ 917.

وفي سنة 306 توفي ابـن حفصون قائد ثورة المولدين الذين هددوا السلطة العربية في الأندلس بالزوال فقد قاتل الحكومة حوالي ثلث قرن وصل في بعض غاراته إلى ضواحي العاصمة قرطبة، وبوفاته تفككت الثورة التي أضرم نارها.

تخلف بأربعة بنين سليمان وعبدالرحمن وجعفر وحفص وابنة واحدة هي ارخنتا[2]، استقر سليمان في أبده وجعفر ببشتر بعهد من أبيه فأعلن للنصارى أنه على دينهم نصراني وأن والده كان كذلك، وضم حاشية من القسيسين والرهبان والثقاة ودفن والده على الطريقة النصرانية. أرسل الأمير جيشاً إلى أبده استولى عليها وأسر سليمان وحمل إلى قرطبة فعفا عنه وضمه إلى جيشه، وكذلك استسلم عبد الرحمن في طرش.فقد اختلف مع أخيه جعفر فاستنجد بالأمير عبدالرحمن وطلب الأمان مع تسليم حصنه للأمير فلبى طلبه وأغدق عليه[3]. وانفرد جعفر بحكم ببشتر وما حولها وآثر الأمير مهادنته وقُتل سنة 308/ 920 م بمؤامرة من أنصاره النصارى.فقد أعلن أنه سيعود إلى الإسلام لاكتساب مودة رعاياه المسلمين فأقدموا على اغتياله[4]. فقام في ببشتر أخوه سليمان وأقره الأمير على ذلك،ولكنه تمرد فحاصره عبد الرحمن مدة. وكذلك ثار أصحاب سليمان بطرش فهاجمهم عبد الرحمن حتى أخضعهم ودمر الحصن. ثم عاد إلى حصار سليمان سنة 311/ 923 واستولى على حصن الشط المنيع وضيق على سليمان الذي وطلب العودة إلى الطاعة مع ،الأمان، فأجابـه الأمير بعد أن أخذ بعض

(1) البيان المغرب 171 و 172.

(2) الإعلام 32. البيان المغرب 171.

(3) البيان المغرب 173.

(4) ابن خلدون 4/135، 2/174 بيان و 2/180.

حصونه، وهو يترقب الفرصة للقضاء عليه.وفي سنة 313 صلب الرامي النصراني صاحب ابن حفصون بباب السدة جزاء أعماله ضد المسلمين[1].

وسير سنة 314/ 924 حملة بقيادة الوزير ابن بسيل إلى ببشتر هزمت سليمان بن عمر وقتلته[2] فخلفه أخوه حفص فيها، فسار إليه الأمير بنفسه سنة 315، وشدد عليه الحصار حتى استسلم إلى القائد سعيد بن المنذر في ذي القعدة[3]. وعاد الأمير إلى ببشتر في محرم 316/ 928 لتنظيم شؤونها. فأمر بنبش قبر عمر بن حفصون، فوجده مدفوناً على الطريقة النصرانية، أمر بحمله إلى قرطبة حيث صلبت جثته مع ابنيه حكم وسليمان. وكذلك أمر بتعمير المساجد المهجورة وهدم الكنائس التي بناها ابن حصفون، وألقى القبض على ارخنتا ابنة عمر لأنها ارتدت عن الإسلام إلى النصرانية وأعدمت سنة 319/ 931[4].

كانت الثورة لا تزال مشتعلة في طليطلة وبها لب ابن الطربيشة المولد، حاصره جند الأمير مدة سنتين حيث استسلم.

وفي بطليوس كان بنو مروان الجليقي يسيطرون على المنطقة ويتصلون بالنصارى، ويتحالفون معهم ضد الحكومة في قرطبة، وقد قتل سنة 311/ 923 عبد الله بن محمد بن مروان فخلفه ابنه عبد الرحمن في حكم المدينة.

فرر الأمير إنهاء التمرد في الغرب، جهز حملة في ربيع الأول 317/ نيسان 929 قادها بنفسه، ومعه ولداه الحكم والمنذر، أنذر المتمردين ودعاهم للدخول في طاعة الحكومة وإنهاء العصيان، وصل الجيش إلى بطليوس آخر ربيع الأول، هزم المتمردين، فتحصنوا داخل المدينة، وعهد الأمير بحصارها إلى أحمد بن إسحاق القرشي، فشدد عليها الحصار وضربها بالمجانيق حتى

---

(1) البيان 181.
(2) البيان المغرب 192.
(3) البيان المغرب 195.
(4) البيان المغرب 196.

اضطر حاكمها الجليقي إلى الخضوع، فلبى الناصر طلبه. وأقام في قرطبة. عين الأمير عليها والياً من قبله عثمان بن عبدالله. وبذلك انتهى تمرد بطليوس وقضي على استقلالها الذاتي بسنة 318/ 930.

ثم سار الناصر إلى باجة في الغرب وفيها الثائر عبد الرحمن بن سعيد بن مالك. حاضرها، وتضايق سكانها من شدة الحصار، فاضطر الثائر إلى طلب الأمان فأرسله الأمير إلى قرطبة مع أهله، وعين والياً عليها عبد الله بن عمرو بن مسلمة وأبقى فيها قوة لحمايتها. ثم واصل سيره إلى اكشونبة وفيها الثائر خلف بن بكر الذي استسلم دون قتال، فأقره الناصر على المدينة وعاد بعدها إلى قرطبة[1].

وأرسل الأمير سنة 314/ 926 وزيره عبد الحميد بن بسيل إلى طليطلة لإخضاع بني ذي النون الثائرين استولى على معقلهم شنت برية وقتل زعيمهم محمد بن ذي النون وقضى على التمرد[2].

وفي سنة 317 تمكن درّى بن عبدالرحمن من إخضاع عامر بن أبي جوشن الثائر في شاطبة. وبالقضاء على هذه الثورة يكون الناصر قد أخمد جميع الثورات التي عصفت بالأندلس منذ نصف قرن تستهلك قواها البشرية ومواردها المادية وتثنيها عن قتال عدوها اللدود اسبانيا النصرانية.

مع نصارى الشمال

كان الأمير عبد الرحمن يؤثر في البدء مهادنة النصارى ليتفرغ للقضاء على الثورات الداخلية، والنصارى كانوا يستغلون الظروف ويغزون الأراضي الإسلامية ويؤججون نار الفتنة في الأندلس. وفي مطلع عهد عبدالرحمن أغار أردونيو الثاني ملك ليون على الأراضي الإسلامية العربية وهاجم مدينة يابرة في

(1) البيان المغرب 200.
(2) البيان المغرب 207.

13 محرم 301/ آب 913 بجيش يقدر بثلاثين ألف جندي فتصدى له عاملها مروان بن عبدالملك ودافع المسلمون عن مدينتهم دفاعاً مستميتاً ولكنهم انهزموا ودخل الاسبان المدينة وأفنوا من بها من المسلمين، إلاّ أقلية فرت ليلاً إلى مدينة باجة. وسبى أردونيو سكانها وكانوا حوالي 4 آلاف من الأطفال والنساء. وفي سنة 303/ 915 عاد أردونيو على مهاجمة الغرب في جيش تعداده ستون ألفاً، عبر نهر التاجه، وكان يرشده دليلان من المسلمين البربر اللذان ضللا الأسبان عن قصد[1] إذا قاداه في طريق وعرة صعبة المسالك، فأمر بإعدام الدليلين ووصل إلى حصن مدلين واستولى عليه. ثم تابع سيره إلى قلعة الحنش جنوب ماردة وفيها بربر كتامة، وهم مستعدون للمقاومة بقيادة ابن راشد، دافع المسلمون عن الحصن ولكنهم انهزموا في النهاية ودخل النصارى الحصن حيث دمروه وسبوا النساء والأطفال. وسار بعد ذلك إلى ماردة، فتراجع عنها لحصانتها واتجه نحو بطليوس فاسترضاه سكانها بالهدايا وقفل عائداً محملاً بالغنائم والأسرى دون أن يعترضه أحد[2].

وظلت يابرة خراباً حتى بعث صاحب بطليوس إليها حليفه مسعود بن سعدون مع قبيلته فأعاد تعميرها من جديد وبنى لها الجليقي صاحب بطليوس سوراً لتحصينها فعمرت بمن وفد إليها.

وقرر عبد الرحمن رد عدوان النصارى فأرسل حملة سنة 304/ 916 بقيادة الوزير أحمد بن محمد بن أبي عبيدة إلى أراضي ليون فعاثت الحملة تدميراً، وعاد محملاً بالغنائم فرد أردونيو بمهاجمة منطقة طلبيرة وخربها، فاستنجد المسلمون بالأمير الناصر فسير جيشاً بقيادة ابن أبي عبدة إلى قشتالة وهاجم قلعة شنت اشتيين، وأوشكت على السقوط فبادر أردونيو إلى نجدتها وكان الجيش الإسلامي متفوقاً بالعدد ولكنه متفكك لأن جلّى عناصره من البربر والمرتزقة الذين يفضلون الغنائم على القتال. وتراجع المسلمون وصمد الوزير

---

(1) ابن خلدون جـ 4 ص 141.

(2) ابن خلدون 2/141. البيان 2/172.

مع قلة من جنوده الشجعان حتى قتلوا جميعاً في 14 ربيع الأول 305/4 أيلول 917/ (1).

استغل أردونو انتصاره في شنت اشتيين 305 وعدم رد حكومة قرطبة فغزا الأراضي الإسلامية من جديد، فقد هاجم مع حليفه سانشو ملك نافار الثغر الأعلى 306/ 918 واجتاحوا تاجرة وتطيلة(2) واستولى سانشو على بلتيرة وأحرق جامعها.

غضب عبد الرحمن وقرر الثأر والانتقام، فجهز جيشاً كبيراً لردع النصارى بقيادة الحاجب بدر بن أحمد واستنفر المسلمين. وخرج الجيش من قرطبة في محرم 306/ تموز 918 وأسرع المسلمون للانضمام إلى صفوفه متلهفين للثأر والجهاد. وكذلك استعد النصارى لرد المسلمين ووصل المسلمون إلى مملكة ليون فاعتصم النصارى بالجبال، فراراً. ولكن المسلمين هاجموهم في مواقعهم ونشبت معركة قرب مطونية، وهزم النصارى هزيمة ساحقة، ونجا قليل منهم وذلك في 3 و 5 ربيع الأول 306/13 و 15 أب 918(3).

ورغم هزيمتهم في مطونية عاد النصارى إلى غزو الأراضي الإسلامية، فقرر عبدالرحمن أن يقود الجيش بنفسه لتأديبهم. فخرج من قرطبة 13 محرم 308/ حزيران 920 على رأس جيش كبير اخترق الثغر الأوسط من وادي الحجارة ومدينة سالم، وعين على وادي الحجارة سعيد بن منذر القرشي. ثم تابع سيره إلى البة والقلاع (قشتالة)، عبر نهر دويره وهاجم مدينة أوسمة وأحرقها وفر سكانها النصارى، ثم سار إلى قلعة شنت اشتيين التي انهزم فيها المسلمون سنة 305. احتلها ودمرها ثم إلى مدينة قلونية فهدمها مع كنائسها. ولم يحرك النصارى ساكناً وأسرع إلى مدينة تطيلة تلبية لنداء سكانها الذين أزعجتهم غارات النصارى المتكررة وبعث قوة بقيادة محمد بن لب بن قسي لاحتلال قلعة قلهرة

---

(1) البيان المغرب 170 و 171. دوزي 117.
(2) دوزي 2/117.
(3) البيان المغرب 2/173.

التي كانت مركزاً تنطلق منه قوات سانشو لمهاجمة أراضي المسلمين. وهاجم عبدالرحمن حصن قلهرة حيث كان يرابط به سانشو، ففر منه دون قتال ودخله عبدالرحمن ودمره. والنصارى لم يتصدوا للمسلمين. وكانت خطتهم تقتضي باستدراج المسلمين حتى يتوغلوا شمالاً فتسهل عندئذ هزيمتهم. وعبر عبدالرحمن نهر ايبرو فهاجم سانشو مقدمة الجيش. ولكن المسلمين كانوا حذرين ومتأهبين لمثل هذه المفاجآت وأوقعوا بالنصارى هزيمة، فلجأ ساشنو إلى حليفه ملك ليون واستعد الملكان لقتال المسلمين، وكمنوا في الجبال. علم عبدالرحمن بذلك فأمر ببقاء الجيش مستعداً لأي طارىء، وعندما توغل المسلمون في الشُعب هاجمهم النصارى وأحدثوا اضطراباً في مؤخرة الجيش فأسرع الأمير إلى الخروج من الجبال إلى السهل وخيم في خونكيرا غرب بنبلونة متأهباً للقاء النصارى الذين أملوا بإحراز نصر سريع، فانحدروا إلى السهل حيث هُزموا هزيمة قاسية وأمعن المسلمون المتعطشون للثأر بهم القتل حتى الفناء، وكان بين القتلى كبار القادة وبعض الأساقفة منهم الاسقفان دولثديو أسقف شلمنقة وأرمخيو أسقف توى، وأمر عبد الرحمن بإعدام النصارى الذين لجأوا إلى قلعة مويتس بعد أسرهم، وعددهم حوالي الألف. وبقي المسلمون أربعة أيام يجمعون الغنائم ويدمرون العمران في المنطقة. كانت المعركة في ربيع الأول 308/26 تموز 920[1].

وعاد الأمير بعد ذلك إلى قرطبة بعد أن أصلح حصون المسلمين وأنعم على أهل الثغور. على أن هذه الحملة لم تفت من عضد النصارى، فبعد سنتين 310/ 922 هاجم أردونيو تاجرة واحتلها وكذلك سانشو هاجم بقيرة وفيها عبد الله بن محمد بن لب واستولى عليها وأسر زعماءها واقتادهم إلى بنبلونة. واستطاع مطرف بن ذي النون النجاة. خيم الذعر على المسلمين من هذه الجرائم ولاموا الأمير لتقصيره في حماية الثغور. وليتجنب هو الموقف، بادر إلى إرسال الوزير عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر على رأس جيش قوي بينما يكون قد استعد للانتقام. فسار الوزير إلى نافار وهزم سانشو في عدة معارك سنة 311/923.

(1) البيان 178 و 179. دوزي 2/114.

وبعد أن أتم الأمير استعداده ترك قرطبة وفيها ابنه الحكم في 16 محرم 17/312 نيسان 924 م، وسار على رأس جيش كبير إلى مقاطعة تدمير ثم إلى بلنسية وأخضع مدينة لورقه وفيها عبد الرحمن بن وضاح وأرسله إلى قرطبة.ثم تابع سيره إلى مرسيه وأخضع يعقوب بن أبي خالد التوزري. وتقدم نحو سرقسطة فانضم إليه التجيبيون، ووصل إلى تطيلة حيث أسرع إلى لقائه زعماء الثغر الأعلى ودخل أراضي نافار في ربيع الآخر/ تموز، ولاذ النصارى بالفرار تاركين حصونهم وقلاعهم لقمة سائغة للمسلمين. وكان حصن قلهرة أول حصن احتله المسلمون.وأمر عبد الرحمن بهدمه. ثم اتجه بحصن قلهرة وقلعة قنطرة البة وقتل وسبى سكانها ثم زحف نحو بنبلونة. وكان سانشو يصاب بالهزيمة كلما حاول التصدي لهم. وفتح عبدالرحمن بنبلونة وقد فر منها سكانها فدمرها، وحاول سانشو مهاجمة المسلمين بعد تجميع قواته وبمساعدة القشتاليين على مقربة من شنت اشتيين وقلهرة فهزم في المعركتين وانهارت مقاومة النافاريين، وذلك في ربيع الثاني 312/ أب 924 م. وعاد عبدالرحمن بعد النصر المظفر الذي أحرزه في نافار إلى قرطبة، فمر على حصن مسره وهو أحد الحصون المهمة على حدود نافار فشحنه بالأطعمة. ثم انتقل إلى تطيلة وبعدها إلى شنت برية وفيها بنو ذي النون. وكان زعيمهم يحيى بن موسى قد خلع الطاعة فلما اقترب الأمير منه خرج نادماً تائباً، ووصل إلى قرطبة نهار الخميس 22 جمادي الأول 312/ بعد أن استمرت الحملة أربعة أشهر(1).

← وعرفت قشتالة صراعاً على السلطة بين ولدي اردونيو الفونسو وراميرو انتهت بفوز راميرو 932/ 320 م.

كان راميرو مقداماً وكانت خطته تقضي إلى إشعال الفتنة بين المسلمين لتشتيت قواهم. كانت طليطلة قد عادت إلى الثورة وأخذ راميرو يشجع الثوار ويعضدهم، أرسل الأمير وفداً من العلماء لهدايتهم بالإقلاع عن الثورة فرفضوا العرض معتمدين على مساعدة راميرو. عندها سار الأمير بجيش كبير إلى طليطلة

---

(1) البيان 195. دوزي 144.

930/318. حاصرها وعاث تدميراً في أراضيها ثم غادرها بعد أن ترك قوة لمتابعة الحصار. عاد إليها 932/320 وهو مصمم على إنهاء الثورة، فأسرع راميرو لإنجادها تلبية لنداء سكانها، واستولى على حصن مجريط واستطاعت القوات الإسلامية رده على أعقابه فترك المدينة لمصيرها. واضطر سكانها إلى الاستسلام بعد أن فقدوا الأمل في متابعة الثورة ضد الأمير وفي وصول المساعدة من النصارى. ودخلها الأمير ظافراً في رجب 320 وأمر بهدم حصونها وبذلك فقدت الثورة أمنع معاقلها.

وفي سنة 321/ 933 استولى راميرو على مدينة أوسمة وهي قاعدة دفاعية مهمة على نهر دويرة شرق شنت اشتيبن، فسار الأمير بجيش كبير لاستردادها في جمادي الأول 322/ أيار 934. وكان شعار الجيش العقاب لأول مرة. وسار إلى أراضي النصارى عن طريق وادي الحجارة لإخضاع محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة التي حاصرها ببعض قواته. وأرسل قوة ثانية إلى تطيلة وطرسونة، ولكنه فضل أن يهاجم أراضي نافار، فأرسلت إليه ملكة نافار «طوطة» ابنة شنير والوصية على ولدها غرسيه، تعرض عليه السلم والصداقة، واستجاب لطلبها، فوفدت عليه وهو في قلهرة محاطة بكبار مملكتها ورجال الدين. استقبلها بالحفاوة وأكرمها وتعهدت لديه بالطاعة والامتناع عن حرب المسلمين وعن محالفة أعدائهم. وثبت الناصر غرسية ملكاً على نافار. ثم سار الناصر إلى قشتالة فر النصارى إلى الجبال فاستولى على حصن المنار وهو أهم حصونهم ودمره. ثم حصن أنه واجتاح مناطق قشتالة ثم نزل على قلونية. وكان الناصر يريد مقابلة راميرو بمعركة فاصلة بعد أن ألحق الدمار ببلاده وهو عاجز عن القيام بأي عمل عسكري لإنقاذها.

وأخيراً قرر الخروج من معاقله الجبلية واجتمع بأنصاره في قلعة مزروته قرب قلونية لمواجهة المسلمين. ودارت معركة هلك فيها عدد من الطرفين ثم دارت معركة في وادي أوسمة ارتد فيها النصارى مهزومين وسار المسلمون إلى حصن غرماج قرب ليون ثم ارتدوا شرقاً وزحفوا على برغش عاصمة قشتالة وخربوها وقتلوا عدداً من أساقفة الأديرة 322/634 وقفل الناصر عائداً إلى

قرطبة بعد أن قضى في هذه الحملة 4 أشهر[1].

الغزوة البحرية

في سنة 323 وجه الناصر اسطولاً بقيادة أمير البحر عبدالملك بن سعيد بن أبي حمامة قوامه 40 مركباً بها عشرون تحمل النفط والأسلحة وعشرون تحمل المقاتلين وكان يضم ألف جندي من المشاة والفين من البحريين، خرج الأسطول من ثغر المرية 323/ أيار 935 فسار إلى جزيرة ميورقة حيث اتخذها قاعدة للانطلاق نحو الشاطىء الفرنسي. خرج منها إلى مدينة بالش. وهزم سكانها وقتل منهم 300 رجل ثم إلى مدينة اينتش وحاصروها براً وبحراً وأحرق أسطولها وقتل من سكانها 400 رجل. ثم أرسل عبدالملك 15 سفينة إلى مسنيط وسار في أثرهم وهزم الفرنج وقتل قائدهم. ووصل الأسطول إلى برشلونة عاصمة قطلونية وحاول الفرنج التصدي له بقيادة بليط و، لكنهم انهزموا وقد قتل بليط قائدهم. وتحصن سكان برشلونة داخل الأسوار. وعاد الأسطول أدراجه إلى طرطوشة مثقلاً بالغنائم والأسرى.

الصلح مع راميرو

وفي السنة ذاتها 323 تم عقد الصلح بين الناصر وراميرو ملك ليون فبعد الحملة المدمرة التي شنها الناصر على مملكة ليون اضطر راميرو إلى طلب الصلح، فبعث رسله إلى الناصر لهذا الأمر فأوفد الناصر وزيره يحيى بن يحيى إلى ليون للاجتماع براميرو حيث عقد معه شروط الصلح في 323/ أيار 935. وكان غرض الناصر من هذا الصلح إبعاد راميرو عن مساعدة التجيبي الثائر صاحب سرقسطة، ولكن نوايا راميرو لم تكن صادقة إذ كان يتحين الفرص لمساعدة الخارجين على حكومة قرطبة.

---

(1) ابن خلدون 142/2. دوزي 148/2.

ثورة سرقسطة

اندلعت الثورة في سرقسطة على يد محمد بن هاشم التجيبي الذي كان الناصر قد تحول عنه وسار إلى قتال راميرو ملك قشتالة. اغتنم محمد بن هاشم هذه الفرصة واتصل براميرو ودخل في طاعته لقاء مساعدته ضد الناصر. وسار راميرو يخضع الحصون التي بقيت على ولائها للناصر في الثغر الأعلى ويسلمها للتجيبي، وتوسع الحلف بانضمام طوطة ملكة نافار إليه وهاجمت قواتها الأراضي الإسلامية.

وفي الوقت نفسه غزا فرنج برشلونة الأراضي الإسلامية فتصدى لهم المسلمون بقيادة أحمد بن محمد بن الياس ودارت معركة شديدة انهزم فيها النصارى وذلك سنة شوال 324/أيلول 936. بعث الناصر الجيش بقيادة الوزير عبدالحميد بن بسيل إلى الثغر الأعلى ليدعم القوى المؤيدة للحكومة، ثم اتبعه بجيش آخر بقيادة الوزير سعيد بن المنذر القرشي للتضييق على سرقسطة. وحاول النصارى مهاجمة قلعة مجريط 324 فردوا عنها[1].

وأكمل الناصر استعداده لغزو الشمال فغادر قرطبة منتصف رجب 325/ أيار 937 على رأس جيش كبير. وكان النصارى يحشدون قواهم في الثغر الأعلى لمساعدة حليفهم التجيبي ومن ثم مهاجمة طليطلة لإشعال نار الثورة فيها. سار الناصر إلى طليطلة لتأمين الحماية لسكانها وإرهاب النصارى. عندها ارتد النصارى شمالاً مذعورين لما رأوا جيش الناصر وأثناء ذلك وصله كتاب من القائد أحمد بن محمد بن الياس يزف إليه البشرى بالقضاء على المتمردين في وشقة وبإخماد ثورة طلبيرة.

وسار الناصر إلى الشمال عبر وادي الحجارة وهاجم قلعة أيوب وبها مطرف بن منذر التجيبي ومعه 500 فارس من قشتالة، حاصر الناصر القلعة وطلب من مطرف الاستسلام ولكن مطرف رفض العرض. ودارت معركة قتل

(1) المقتبس 148 و 149.

فيها مطرف ولاذ أخوه حكم ومن معه من النصارى إلى قصبة القلعة. واستمر الهجوم عليهم حتى اضطر حكم إلى طلب الصلح والأمان لحلفائه فرسان قشتالة. واستجاب الناصر للطلب وأطلق سراح المستأمنين من النصارى وعددهم 500 وقتل الباقين ودخل الناصر القلعة 19 رمضان.

ثم هاجم أراضي قشتالة وفتح 37 حصناً تحول إلى أراضي نافار لمعاقبة ملكتها التي نقضت الصلح فسار إلى بنبلونة وعاث فيها تدميراً حتى اضطرت طوطه إلى طلب الصلح من جديد نادمة في شوال 325/ آب 937 م.

ثم سار إلى تطيلة. ومنها إلى سرقسطة، وضرب عليها الحصار، وعهد بالعملية إلى أحمد بن إسحاق القرشي قائد الفرسان ولكنه تهاون لمرض أصابه فعزله الناصر[1]. فاتفق مع أخيه أمية على الخروج على الناصر. واكتفى الناصر بنفيهما فسار أمية إلى شنترين واستولى عليها وتحالف مع ملك ليون فأمر الناصر أحمد بن محمد بن الياس المقيم في بطليوس بمراقبة الثائر أمية وبمهاجمة ليون. وانهزم الجلالقة وقتل عدد كبير منهم وخاصة أهل سموره 326/ ثم أمر الناصر القائد ابن بسيل بالانضمام إلى ابن الياس ومهاجمة النصارى. وسير الأسطول إلى شنترين لقتال أمية وتمكن أحد سكانها الموالين للناصر انتزاعها من أمية الذي التجأ إلى راميرو وحاول أحمد اللجوء إلى المغرب ولكنه وقع في يد الناصر الذي أمر بإعدامه.

واستمر حصار سرقسطة عدة أشهر حتى اضطر التجيبي إلى طلب الأمان واستجاب الناصر للطلب. وطلب أن يخرج إليه أخوه محمد ووجوه سرقسطة، وانتهز الناصر الفرصة وألقى القض على الوفد ليفت في عضد محمد بن هاشم. ومع ذلك استمر في المقاومة وأخيراً أرسل إليه الوزير محمد بن عبد الملك بن أبي عبدة اطمأن الثائر إليه وأذعن للتوبة، وذلك في عيد الأضحى 325 هـ/ 636 واستجاب الناصر للطلب، ومنح الأمان لمحمد بن هاشم بكتاب طويل مؤرخ في محرم 326/ تشرين الثاني 937.

---

(1) ابن خلدون 140. الكامل 8/115. نفح الطيب 332.

ودخل الناصر مدينة سرقسطة يوم الخميس 14 محرم 22/326 تشرين الثاني 937 أصلح أحوالها ونظم أمورها وأرسل قائده نجدة بن حسين الصقلبي لغزو أرض النصارى ورافقه محمد بن هاشم بعد استئمانه. وسار المسلمون رغم سقوط الثلوج إلى شنت اشتيين، وتفرقوا ثلاث فرق تغير على أماكن محددة. ثم تجمع الجيش أمام حصن شنت اشتيين وحاول النصارى التصدي للمسلمين ففشلوا. وتوغل المسلمون بعد ذلك في أراضيْ قشتالة يدمرون ويأسرون ويقتلون وعادوا محملين بالأسرى والغنائم إلى سرقسطة حيث كان الناصر يقيم ينظم شؤون الثغر الأعلى. وقفل عائداً إلى قرطبة في ربيع الأول 326/ كانون الثاني 937.

بقي على الناصر أن يسحق خصمه راميرو الثاني ملك ليون وأخذ يستعد لهذا العمل العسكري، فحشد جيشاً كبيراً يبلغ عدده مئة الف مقاتل وعين على قيادته نجدت بن حسين. وغادر الناصر قرطبة على رأس الجيش صيف 939/327 هـ إلى ليون وعبر نهر دويره سائراً نحو قلعة شنت منكش «سيمانقا» دون أن يعرف نقاط الضعف في هذا الجيش الكبير. وكان راميرو يرابط على مقربة من القلعة مستعداً لقتال المسلمين. وقد زوده حليفه الثائر أمية بن إسحق بخطط المسلمين، وقد انضمت نافار إليه. وهكذا توحدت قوى النصارى الإسبان لقتال المسلمين[1].

ودارت المعركة رهيبة نهار الجمعة 11 شوال 327 أول آب 939 على باب شنت منكش استمرت أياماً، كانت سجالاً. ثم كانت الغلبة للنصارى على المسلمين الذين تراجعوا إلى خندق عميق فسميت المعركة باسمه وتراجع الناصر واستولى العدو على مخيمه وفيه امتعته ومن بينها مصحفه ودرعه[2]. وسقط عدد كبير من المسلمين قتلى وأسرى فمن القتلى نجدة قائد الجيش بين 40 و 50

---

(1) نفح الطيب 332.
(2) أعمال الإعلام 36 و 37. نفح الطيب 332.

الف قتيل. ومن بين الأسرى محمد بن هاشم التجيبي الذي بقي في أسر ملك ليون مدة عامين افتداه الناصر حيث عاد إلى قرطبة في صفر 330/942 م، وأكرمه ورفعه إلى رتبة الوزارة وأعاده إلى سرقسطة.

والذي أدى إلى هزيمة المسلمين تقاعس بعض الجنود وتخليهم عن القتال وقت الشدة، وانسحابهم من المعركة كاشفين أجنحة الجيش للعدو، وقرر الناصر معاقبة الخونة فأمر قبل أن يصل إلى قرطبة بإقامة المشانق (المصالب). ولما دخل المدينة أمر بصلب 300 من الفرسان من بينهم ابن فرتون بن الطويل، وأمر بالنداء عليهم: «هذا جزاء من غش الإسلام وكاد أهله وأخل بمعاني الجهاد». وكانت معركة الخندق خاتمة أعمال الناصر العسكرية فلم يغز بعدها بنفسه.

الصلح مع النصارى

بعد معركة الخندق جنح راميرو إلى الصلح مع الناصر نتيجة اضطرابات حدثت في مملكته، فأجابه الناصر إلى طلبه وكان صلحاً قصير الأمد.

ثم عقد سلماً مع كونت برشلونة شنير بن منغريد وبعث إليه كاتبه حسداي بن اسحق الإسرائيلي لتنظيم شروط الصلح، منها أن يتخلى الكونت عن مساعدة النصارى الذين خارج الصلح، وأن يلتزم طاعة الناصر ويفك المصاهرة مع ملك نافار، وكان قد زوجه من ابنته فألغى ذلك الزواج. وأمر الناصر قواته بعدم التعرض لأملاك ومواطني الكونت[1]. وبالرغم من الهزيمة في الخندق بقيت الصوائف تتردد على أراضي النصارى ففي سنة 329/941 غزا المسلمون أراضي مملكة ليون. وحصن الناصر 335/946 مدينة سالم وشحنها بالمقاتلين. وفي سنة 339 كانون الثاني 950 توفي راميرو ودارت حرب أهلية بين ولديه أردونيو وسانشو واغتنم المسلمون هذه الحرب، وشنوا غارات تدميرية على أراضي ليون. وكان الفوز في الحرب الأهلية لأردونيو الذي عقد صلحاً مع الناصر[2] ولكن سانشو رفض هذا الصلح فاضطر الناصر إلى إرسال قائده أحمد بن يعلى

(1) أعمال الإعلام 37.
(2) جذوة المقتبسن 42.

على رأس جيش إلى ليون هزم النصارى وجدد الصلح مرة ثانية مع ملكها.

لقب الخلافة

لم يتلقب الأمويون منذ تأسيس دولتهم في الأندلس بالخلفاء بل اقتصروا على لقب الأمراء لأنهم لم يفكروا في اتخاذ اللقب ومنافسة بني العباس. ويعللون ذلك بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب وأن الخلافة تكون لمن يملك الحرمين الشريفين[1]. ولكن عندما قامت الدولة الفاطمية في افريقية وتسمى الفاطميون بالخلفاء لأنهم كانوا أجرأ من غيرهم على اتخاذ اللقب إذ يعتبرون أنفسهم أحق بالخلافة من دون سائر قريش لأنهم أحفاد النبي ﷺ دون أن يسيطروا على الحجاز، تجرأ الناصر على اتخاذ لقب الخليفة أسوة بالهاشميين من عباسيين وفاطميين، وصدر الأمر باتخاذ اللقب يوم الجمعة مطلع ذي الحجة 316 هـ/ [2] حيث دعا القاضي أحمد بن أحمد بن بقي بن مخلد لعبد الرحمن بالخلافة في جامع قرطبة وتلقب بالناصر.

أعمال الناصر العمرانية

بلغت الأندلس في عهد الناصر ذروة ازدهارها، فقد اهتم بالعمران وخاصة عمران العاصمة قرطبة حتى نافست عواصم العالم الإسلامي والنصراني في ذلك العصر. فقد بنى قصراً جديداً سماه «دار الروضة» جلب إليه المهندسين والبنائين من كل مكان وجر إليه المياه من الجبل في قناطر، وأنشأ فيه منتزهات رائعة[3].

وكانت قرطبة قد ضاقت بسكانها الـ 500 ألف، فرأى أن يقيم مؤسسات حكومية تتناسب مع وضع الدولة الجديد بعد القضاء على الثورات وإعادة توحيد الأندلس وردع عدوان النصارى، فأنشأ مدينة الزهراء في سفح جبل العروس

---

(1) ابن خلدون المقدمة 190 ـ المسعودي جـ 1 ـ 87.

(2) جذوة المقتبس 42.

(3) ابن حوقل 78. نفح الطيب جـ 1 ص 101.

شمال غرب العاصمة على مسافة ستة أميال[1].

بدأ العمل مستهل محرم 325/ تشرين الثاني 936 وعهد إلى ابنه وولي عهده الحكم بالإشراف على البناء[2].

أرسل في طلب المهندسين والصناع المهرة من بغداد والقسطنطينية[3]، وجلب الرخام الملون من المرية ورية ومن افريقية وبلاد الشام والقسطنطينية، وبلغ عدد سواري الرخام 4324 سارية[4] وعدد العمال الذين يعملون يومياً 10 آلاف رجل، والدواب 1500 وعدد الصخور المنحوتة 6000 صخرة يومياً. وقدرت النفقة كل سنة بـ 13 ألف دينار طيلة 25 سنة[5]. والأمناء الذين جلبوا الرخام عبدالله بن يونس وحسن القرطبي وعلي بن جعفر وكلفة البلاطة 3 دنانير والسارية 8 دنانير.

وبنى في الزهراء قصراً زخرفه حتى غدا تحفة فنية رائعة، وخاصة المجلس الملوكي، سماه قصر الخلافة. صنع جدرانه من الرخام المرصع بالذهب، وأبوابه الثمانية من الصاج والابنوس المرصع بالجواهر والذهب.

وزين الناصر مركز إقامته في القصر وهو الجناح الشرقي المعروف بالمؤنس بأغلى الذخائر والتحف أقام فيه الحوض المنقوش بالذهب وهو مهدى من امبراطور القسطنطينية، وجلب الوزير أحمد بن حزم حوضاً ثانياً عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب.

وعمر في عاصمته الجديدة مسجداً جامعاً استغرق بناؤه ثمان وأربعين يوماً. كان يعمل فيه ألف رجل من العمال والفنانين، وزوده بما يتطلبه البناء

(1) البيان المغرب 247. نفح الطيب 103.
(2) المصدر السابق 247. المصدر السابق 103.
(3) ابن خلدون 144.
(4) البيان المغرب 231. نفح الطيب 104.
في البيان العدد 4313 من افريقية 1013.
(5) نفح الطيب 103. أعمال الإعلام 38.

فجاء آية في الروعة والجمال[1].

كانت مدينة الزهراء تشغل مساحة 990 ألف ذراع، عدد سواريها 4 الاف سارية ومصاريع الأبواب 15 ألف مصراع. بلغ عدد سكانها 13750 فتى و 6300 من النساء والحشم، والصقالبة 3750، طعامهم اليومي 13000 رطل من اللحم.

بلغ عدد الدور في قرطبة 113000 داراً، ومساجدها 3 آلاف، ودور قصر الزهراء 400 وعدد الحمامات 300، وعدد الأرباض 28 ربضاً. وبلغت النفقة على بنائها 25 مداً من الدراهم القاسمية وستة أقفزة و 3 أكياس[2].

وقد وصفها ابن حوقل عندما زار الأندلس في عهد الحكم بن الناصر: «ليس لها نظير بالمغرب فخامة حال، وسعة تملك»[3].

اهتم الناصر بجامع قرطبة، جدد الواجهة وزاد فيها كثيراً سنة 346/ 957. هدم المئذنة وبنى مكانها المنارة سنة 340/950، وتمتاز بفخامتها وارتفاعها، وهي مربعة لها 14 شباكاً، على قمتها ثلاث تفاحات اثنتان من الذهب والثالثة من الفضة، بلغ الإنفاق عليها سبعة أمداد وكيلين ونصف من الدراهم[4].

الجيــش

اهتم الناصر بالجيش لأنه عماد الدولة وسياج الوطن، وقد أدى المهمة الموكولة إليه. قضى على الثورات، صد الأعداء، وطد الأمن ووحد البلاد. كان الناصر يغدق عليه، وأحياناً كثيرة كان يقوده فكان ظهوره بين أفراده يثير حماس الجنود، وكان يجهزه بالأسلحة المتطورة في ذلك العهد.

---

(1) نفح الطيب 106.

(2) نفح الطيب 102. البيان المغرب 230.

(3) ابن حوقل 78.

(4) الإعلام 38.

اهتم بالأسطول حتى بلغ عدد سفنه 200 سفينة فغدا من أقوى الأساطيل في ذلك العصر.

ازدهرت الحياة الاقتصادية في عهد الناصر خاصة بعد توحيد البلاد والقضاء على الثورات وازدادت موارد الدولة يدل على ذلك كثرة الأموال الطائلة التي أنفقها على المنشآت التي أقامها. وبلغت جباية الأندلس 5،4.00،000 من المقاطعات ومن السوق 765000 ديناراً عدا الغنائم وقد ترك 5 مليارات دينار في بيوت المال عند وفاته[1].

كان يقسم الجباية للإنفاق إلى ثلاثة أقام ثلث للجيش وثلث للبناء وثلث للطوارىء، وأقام داراً للسكة في قرطبة لضرب الدنانير والدراهم الصحيحة ابتداء من 17 رمضان 316 وولى خطتها أحمد بن محمد بن حدير وكان لهذا العمل أثره في تثبيت النقد.

انعكس ازدهار الحياة الاقتصادية رخاء على مدينة قرطبة، فبلغت ذروة التطور والتقدم فنمت المدينة نمواً كبيرا حتى بلغ سكانها أكثر من نصف مليون نسمة وعدد مساجدها 3 آلاف وبيوتها 100 ألف وحماماتها العامة 300 وأرباضها 28 وسبعة أبواب[2].

زهت شمس الأندلس في عهد الناصر وبلغت ذروة تطورها الحضاري وأضحت محط أنظار العالم فتسابقت الدول لإقامة علاقات ود وصداقة معها وكانت مؤهلة لهذا الدور لقيادة العالم الغربي.

وكانت الدولة البيزنطية في طليعة الدول التي أسرعت لإقامة علاقات دبلوماسية مع الأندلس بالرغم من نأي المسافة بينهما، ففي سنة 338/948[3] ووفدت على الناصر رسل امبراطور القسطنطينية قسطنطين السابع، استقبلهم الناصر بالحفاوة والتكريم، وكان الوفد يحمل هدية قدمها للناصر منها كتابان

---

(1) نفح الطيب 355. البيان المغرب 232. أعمال الإعلام 38.

(2) نفح الطيب 356. البيان المغرب 232.

(3) ابن خلدون 4/142. طبقات الأطباء 2/447 البيان 2/215.

أحدهما لديسقوريدس عن الأعشاب مكتوب باللغة اليونانية والثاني نسخة من تاريخ أوروسيوس باللاتينية ويتضمن تاريخ العالم القديم وقصص الملوك السالفين[1].

وأمر الناصر بإقامة احتفال يخطب فيه الأعلام والفقهاء يشيدون فيه بالإسلام وتسامحه منهم أبو علي القالي الذي تلعثم وصمت. فنهض الفقيه منذر بن سعيد البلوطي وارتجل خطاباً بليغاً معبراً[2].

وعاد السفراء إلى القسطنطينية وقد أوفد الناصر معهم سفيراً هشام بن هذيل إلى الامبراطور وقد أدى مهمته خير أداء[3].

سفارة أوتو

وأهم سفارة وفدت عليه كانت سفارة أوتو الأكبر امبراطور المانيا وتسميه الرواية العربية هوتو أوهيوتو[4] سنة 344/956.

فقد وصل إلى قرطبة الراهب يوحنا الجورزيني كان عالماً. هدف السفارة يتعلق بشأن المستعمرات العربية في جنوب شرق فرنسا وسويسرا. والطلب إلى الناصر بالعمل على الحد من نشاطها، وانتهز الراهب المناسبة ليطرح مسائل دينية لا علاقة لها بالعلاقات الدبلوماسية. وقد وصل إلى قرطبة عن طريق قطلونية مصحوباً براهب ومعه هدايا نفيسة للخليفة. استقبل بحفاوة ولكن رفض الناصر استقباله عندما عرف بموضوع الرسالة رافضاً البحث في المسائل الدينية وأصر يوحنا على المقابلة. فأعلمه الناصر بأن أوتو اعتقل سفيراً للناصر 3 سنوات وأنه سيعتقله أضعاف هذه المدة لأنه أرفع مقاماً من ملك النصرانية أوتو. وأخيراً قرر الناصر إيفاد سفير إلى أوتو ليعرف نواياه تجاه

---

(1) ديسقوريدس طبيب وكيميائي يوناني من كيليكيا عاش في القرن الأول الميلادي وباولوس أوروسيوس مؤرخ قوطي عاش في القرن الخامس وكتب تاريخاً باللاتينية.

(2) نفح الطيب 172 و 173. البيان المغرب 215.

(3) بيان 2/179. نفح الطيب 1/170 ـ 174.

(4) ابن خلدون 143. البيان المغرب 218.

الخليفة على أن يبقى يوحنا معتقلاً. وقام بهذه المهمة الراهب ربيع الأسقف. وكان مقرباً من الخليفة ورحل إلى ثورنجن حيث قابل الامبراطور الذي استقبله استقبالاً حافلاً. وأبدى تساهلاً في المواضيع التي بحثها معه. وعاد بعد سنتين عندها ارتاحت نفس الناصر وسمح ليوحنا بمقابلته، وقد أبدت حكومة قرطبة رأيها بالنسبة للمستعمرات بأنها لا سلطة لها عليها، والقائمون بها خارجون على سلطة الخليفة.

الحكم المستنصر

توفي الناصر في 2 رمضان 350/ 15 تشرين الأول 961 في مقر الزهراء عن عمر يناهز الحادية والسبعين وقد حكم حوالي 50 سنة وهو ثاني خليفة إسلامي يحكم هذه المدة بعد المستنصر بالله الفاطمي بمصر. وقد خلفه ابنه الحكم المستنصر بالله بعهد منه[1] في 3 رمضان وكان عمره 48 سنة تقريباً وقد شارك والده في الحكم. وأول عمل أقدم عليه توسيع المسجد الجامع وبلغت الزيادة مساحة الجامع الأول. وبنى ممراً به، رصفه بالفسيفساء من القسطنطينية وبنى إلى جانب المسجد داراً للصدقة وأخرى للعمال[2].

مع نصارى الشمال

350 ـ 366 هـ

وعاد النصارى ينكثون بعهودهم وينزعون إلى العدوان وكان الناصر قد ساعد سانشو الأول (شانجة) ملك ليون على استرداد ملكه من ابن عمه اردونيو الذي فر إلى برغش 349/960 مشترطاً عليه تسليم عدد من الحصون وهدم بعضها على الحدود. ولكن شانجه نكث بعهده عندما توفي الناصر وكان كونت قشتالة فرنان كونثالث رجلاً طموحاً أعلن انفصال قشتاله عن ليون وأخذ يشن الغارات على أراضي المسلمين ليكسب ود النصارى المتعصبين الذين توافدوا

---

(1) بيان 2/233، جزء 43.

(2) البيان المغرب 233.

عليه معتمداً على حصانة بلاده الجبلية[1] فلما رأى المستنصر ذلك تأهب للغزو والجهاد.

وكان اردونيو المخلوع قد وفد على الحكم في قرطبة يلتمس منه المساعدة ويعلن خضوعه للخليفة، فاستقبله الحكم بحفاوة بالغة وزاد في إكرامه، يرافقه مولى الحكم غالب صاحب مدينة سالم[2]. وتولى الترجمة بين الخليفة واردونيو وليد بن خيرون قاضي أهل الذمة بقرطبة، ووعده الخليفة بمساعدته. ولما علم سانشو بالأمر خشي عاقبة عمله فأرسل وفداً إلى الخليفة يعرض عليه الالتزام بطاعته وتنفيذ الاتفاق المعقود مع الخليفة الراحل الناصر[3]. ولكن توفي اردونيو بعد ذلك فعاد سانشو إلى التخلي عن تنفيذ الوعود. وشعر النصارى بخطورة الوضع فعقدوا حلفاً لمواجهة المسلمين مؤلفاً من سانشو ملك ليون وخصمه الكونت فرنان أمير قشتاله وغرسية سانشيز ملك نافار وكونت برشلونة.

وفي صيف 352/ 963 سار الحكم للجهاد على رأس جيش كبير يتجمع في طليطلة. اخترق جبال وادي الرملة إلى قشتالة واستولى على حصن شنت اشتيبن المنيع[4] واجتاح المسلمون قشتالة حتى أعلن فرنان كونثالث الخضوع وطلب الصلح ولكنه سرعان ما نكث فهاجم المسلمون بلده أنتيسه واستولوا عليها.

وفي الوقت نفسه بعث الحكم جيشاً بقيادة يحيى بن محمد التجيبي إلى نافار ليؤدب ملكها غرسيه الذي هاجم أراضي المسلمين، وأسرع حليفه ملك ليون سانشو لمساعدته. دارت معركة انهزم فيها النصارى واستولى غالب على مدينة قلهرة، وسار حاكم مدينة وشقة شمالاً إلى نافار واستولى على حصن بيه، وغنم ما به من سلاح ومواشي[5].

---

(1) ابن خلدون 4/144. أعمال الإعلام 375.

(2) البيان 2/235. نفح الطيب 360.

(3) ابن خلدون 4/145 نفح الطيب 360 و 367 بيان 2/235.

(4) البيان 236. نفح الطيب 1/359.

(5) ابن خلدون 4/145. نفح الطيب 359 و 1/360.

وفي سنة 965/354 هاجم أسطول النورمان من الدانمرك بقيادة رتشارد الأول حفيد رولو بـ28 سفينة شواطىء الأندلس الغربية ونزل المجوس النورمان قرب قصر أبي دانس ثم زحفوا نحو اشبونة وخربوها ودارت معركة مع الغزاة، وخرج الأسطول الأندلسي من الوادي الكبير بقيادة عبد الرحمن بن رماحس ووقعت المعركة عند مصب نهر شلب انتصر فيها المسلمون وأنقذوا جميع الأسرى. ثم عاد النورمان لمهاجمة سواحل الأندلس الغربية، وكان الحكم قد أمر بالاستعداد واتخاذ التدابير وأن يبقى الأسطول الأندلسي مستعداً لمواجهة النورمان وكانت عودتهم سنة 971/306 م[1].

وفود نصارى الشمال

أدرك النصارى أن لا طاقة لهم بمحاربة الحكم، فبادروا بإرسال السفارات لطلب الصلح وإعلان الخضوع له. وكان أول الوافدين أمير جيليقية وأشتوريش، ثم وفد نافار. أجابهم الحكم إلى ما طلبوا. وفي سنة 971/360 وصلت سفارة من كونت برشلونة ابن شونير يرأسها القومس بون فلي ومعها 30 أسيراً مسلماً كدليل على حسن النية، استقبلهم الحكم وزاد في تكريمهم. واشترط عليهم هدم الحصون التي تضر بالمسلمين وإطلاق سراح الأسرى. وعدم مساعدة النصارى ضد المسلمين[2] ثم قدمت في 6 ذي الحجة 360/ تشرين الأول 971 الراهبة البيرة عمة ملك ليون راميرو والوصية عليه احتفل الحكم باستقبالها[3].

وبعث قيصر القسطنطينية الدمستق رسالة إلى الحكم مع رسوله قسطنطين الملقي سنة 972/361. وكذلك وصلته رسالة من امبراطور ألمانيا أوتو الثاني يطلب تجديد العلاقات السلمية مع الأندلس.

---

(1) البيان المغرب 239 و 241.
(2) ابن خلدون 146. نفح الطيب 361.
(3) نفح الطيب 361.

توفي فرنان كونثالث وخلفه ابنه غرسيه فرناندز في حكم قشتالة. وكان منافقاً، استغل فرصة ذهاب جيش الأندلس إلى المغرب وأغار على المسلمين واستولى على حصن دسة شمال شرق مدينة سالم. وكان تابعاً لبني عمريل وذلك في ذي الحجة 363/974. وخرج في إثرهم زروال ومضاء إبنا عمريل قتلوا عدداً من النصارى واستردوا الأسلاب ولكن النصارى كروا عليهم وقتلوا زروال.

وعاد النصارى إلى مهاجمة الأندلس مغتنمين فرصة وجود الجيش في المغرب فهاجم في شعبان 364/ نيسان 975 جيش مشترك من جيليقية وقشتالة ونافار حصن غرماج قرب مدينة سالم وأمدتهم الراهبة البيرة بقوة ونشبت معركة حامية صمد فيها المسلمون. وأرسل الحكم على عجل قوة بقيادة غالب للدفاع عن الحصن وشدد المهاجمون الحصار وقدر عددهم بـ 60 ألف جندي، ولكنهم عجزوا عن اقتحامه فارتدوا عنه والمسلمون يطاردونهم حتى وصل إليه غالب وسار شمالاً وعاث تدميراً في قشتالة وحاول غرسيه صد المسلمين ولكنه انهزم.

عصر الحكم العلمي

ازدهرت العلوم والآداب في عهد الحكم وقد أنشأ المكتبة الأندلسية التي عدت من أعظم مكتبات العصور الوسطى. وقد حرص الحكم على اقتناء الكتب الأساسية، فكان يرسل الوفود لشرائها ويغدق العطايا والهبات على أصحابها. منها أنه أرسل إلى أبي الفرج الأصفهاني الف دينار ذهباً عن نسخة من كتابه الأغاني. وتسارع العلماء إلى إهدائه كتبهم، فأهداه الخشني كتاب قضاة قرطبة[1] وكذلك مطرف الغساني أهداه أخبار كورة البيرة وكان يرسل الكتبة إلى المشرق للبحث عن الكتب حتى بلغ عدد الفهارس 44 فهرساً في كل فهرس 20 ورقة فيها أسماء الدواوين فقط[2] وعدد الكتب 400/600 الف كتاب[3].

---

(1) قضاة قرطبة. نفح الطيب 362.
(2) نفح الطيب 362.
(3) نفح الطيب 371. دوزي جـ 2 ص 184.

وعهد بإدارة المكتبة إلى أخيه عبدالعزيز وبالإشراف على جامعة قرطبة إلى أخيه المنذر.واهتم الحكم بالتعليم فكانت البلاد في مرحلة نهضة علمية وكان أفراد الشعب يعرفون القراءة والكتابة وبنى عدداً من المدارس كان الفقراء يتلقون العلم فيها مجاناً.

وكانت جامعة قرطبة من أشهر جامعات العالم مركزها في المسجد الجامع تدرس مختلف أنواع العلوم والمعرفة، وكان يدرس الحديث فيها أبو بكر بن معاوية القرشي، وأبو علي القالي، تاريخ العرب قبل الإسلام وعن لغتهم وشعرهم. وابن القوطية النحو.وكان الطلبة بالآلاف[1] وبلغ عدد مكتبات الأندلس حوالي سبعين مكتبة. توفي الحكم المستنصر 2 صفر 30/366 أيلول 976[2].

(1) نفح الطيب 362.
(2) أعمال الإعلام 56. البيان المغرب 253.

الفصل الرابع

الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأموية

الدولة العامرية

ـ وفاة الحكم ـ مؤامرة الصقالبة وفشلها ـ مقتل المغيرة بن عبد الرحمن.
ـ مبايعة هشام بن الحكم بالخلافة.
ـ بروز محمد بن إبي عامر ـ قضاؤه على خصومه: جعفر المصحفي، الفتيان الصقالبة ـ غالب بن عبد الرحمن.
ـ اهتمامه بالجيش.
ـ حربه مع نصارى الشمال: غزواته اثنتان وخمسون لم ينهزم فيها خطته الحربية: الهجوم.
ـ التخلص من صبح.
ـ غزو جيليقية.
ـ بناء مدينة الزاهرة ـ وفاته.

عبد الملك بن محمد بن أبي عامر

ـ غزواته ـ وفاته.

عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر

ـ شخصيته ـ محاولة انتزاع ولاية العهد من الخليفة هشام.
ـ انقلاب الأمويين عليه ـ مصرعه.

توفي الحكم في 2 صفر 366/ فكتم فائق وجؤذر خادماه الخبر، وضبطا أبواب القصر. وكانت خطتهما تقضي بإبعاد ولي العهد الفتى هشام ابن الخليفة، ومبايعة عمه المغيرة بن عبدالرحمن. واستدعيا الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، وكان جؤذر يريد قتله فخالفه فائق، وأخبراه بوفاة المستنصر. وعرضا عليه الخطة بمبايعة المغيرة. تظاهر جعفر بالقبول، ووافق على ذلك، وتكفل بضبط باب القصر. وأسرع للعمل قبل أن ينفذ الصقالبة مشروعهم. ضبط أبواب القصر ثم جمع أصحابه من حاشية المستنصر زياد بن أفلح وقاسم بن محمد ومحمد بن أبي عامر، واستدعى القادة الموالين له، ونعى إليهم الخليفة ثم عرض عليهم مشروع الصقالبة موضحاً لهم خطورة هذا العمل، بأنه إذا تولى المغيرة الخلافة قضى على نفوذهم، وتسلط عليهم الصقالبة، فأشار بعض الحاضرين قتل المغيرة، فيتخلصون من شره وشر الصقالبة.

تطوع محمد بن أبي عامر لتنفيذ المهمة، بعث معه الحاجب جعفر مئة جندي، يرافقه بدر مولى الحكم المستنصر، أحاط الجميع بدار المغيرة، ودخلها محمد بن أبي عامر مع نفر من الجند، نعى إليه الخليفة، وأبلغه مبايعة ابنه الفتى هشام مكانه، ذعر المغيرة للأمر وأبلغ ابن أبي عامر بأنه موافق على كل هذه الأمور وتضرع إليه حقن دمه. رق له وأبلغ الحاجب جعفر بذلك، فكان الرد صريحاً يجب التخلص من المغيرة. عندها قتله الجند أمام زوجته ودفنوه في المكان نفسه[1].

وصل الخبر إلى فائق وجؤذر، استاءا من العمل ولكنهما أظهرا الرضا.

---

(1) نفح الطيب 372. فائق كان صاحب البرد والطراز ويليه جؤذر صاحب الصاغة والبيارزة. البيان 259.

وقال جؤذر لفائق نصحتك فلم تسمع مني، واعتذر إلى الحاجب جعفر. أخذ كل فريق يعمل ليظفر بالحكم. وانقسم سكان القصْر إلى فريقين، فريق الصقالبة بقيادة فائق وجؤذر، وفريق الأحرار بزعامة الحاجب جعفر ومحمد بن أبي عامر[1].

هشام بن الحكم

بويع هشام نهار الاثنين 3 صفر 366/1 تشرين الأول 976 وتلقب بالمؤيد بالله[2]. وتوارى المعارضون. وأضحى الحكم في أيدي ثلاثة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ومحمد بن أبي عامر وصبح والدة الخليفة الفتى هشام. وكان الجميع أيام زوجها الحكم يعملون على إرضائها. وكان أقوى الثلاثة محمد بن أبي عامر.

ولد محمد سنة 328 هـ، يتحدر من أصل عربي، فجده عبد الملك كان من أوائل الداخلين إلى الأندلس مع طارق بن زياد. ولد بطرش، كان والده عبدالله فقيهاً، نشأ على تقاليد أسرته في العلم، أمه من بني تميم، تتلمذ على يد أبي بكر بن القوطية وأبي علي القالي[3]. عينه الخليفة الحكم مشرفاً لإدارة أملاك ابنه عبدالرحمن، أعجبت به صبح محظية الحكم. كان راتبه 15 ديناراً في الشهر وذلك سنة 356 هـ/ 967 م[4]. وبعد وفاة عبدالرحمن عينه الحكم لإدارة أملاك ابنه هشام. ثم تقلد وظائف عدة في الدولة، فكانت آخر أيام الحكم صاحب الشرطة الوسطى والمواريث وقاضي اشبيلية[5].

تبوأ هذه المراكز في سنوات قليلة بفضل مواهبه وكفاءته، وعطف صبح

---

(1) البيان المغرب 261. الذخيرة 40 و 41.
(2) أعمال الإعلام 48. جذوة المقتبس 47. البيان المغرب جـ 2.
(3) البيان المغرب 257. الذخيرة جـ 4 ـ 243. الإحاطة 474. نفح الطيب 375.
(4) البيان 267.
(5) نفح الطيب 376.

عليه بشكل خاص وانتهت العلاقة بينهما إلى علاقة غرامية[1]. ولما ارتاب الخليفة بذلك وسعى بعض الخصوم بإبعاده باتهامه بتبديد الأموال العامة، طالبه الحكم بالكشف وكانت الخزانة في عجز، فلجأ إلى صديقه الوزير ابن جدير، وكان غنياً، فأعانه على العجز، وقدم الأموال إلى الخليفة كاملة، فزال شكه وازدادت ثقته به.

واستمر نجم محمد بن أبي عامر بالصعود فكان يحرص على إرضاء صبح ويساير الحاجب جعفر وكان كريماً جواداً، فأضحت داره في الرصافة مقصد الناس[2].

وكان يستغل العلاقة مع صبح لصالحه، فقد رقى الخليفة الجديد ابن أبي عامر إلى رتبة الوزارة وجعله معاوناً للحاجب[3] واحتج جعفر على ذلك وبدأ الصراع بين الرجلين. فكان الخليفة الجديد يميل إلى اللهو ويقضي وقته بين الخصيان ولا يصلح لإدارة شؤون الدولة وكان ابن أبي عامر وأمه صبح يشجعان هذا الاتجاه عنده[4]. وحجر عليه ابن أبي عامر، فلم يسمح لأحد برؤيته منذ أن تولى الحجابة[5]. ولكي يظفر بالسلطة بدأ يعمل على التخلص من منافسيه. وكان الخطر في القصر الفتيان الصقالبة. فأخذوا يدبرون انقلاباً داخل القصر، فعمل الحاجب جعفر مع أبي عامر على إضعافهم، فوضعهم تحت المراقبة فأغلق الباب الذي كان مخصصاً لدخولهم وهو باب الحديد، وأصبحوا يدخلون مع سائر الناس من باب السدة.وفصل الغلمان وعددهم 800[6] وألحقهم بابن أبي عامر فرحب بهم، وانحاز بنو برزال البربر وكانوا من أنصار الحاجب اليه. ولما شعر الصقالبة بأن نفوذهم قد انتهى تآمروا والتفوا حول الفتى دري. واستدعى دري إلى القصر لمحاسبته على بعض الأموال. ولما رأى كثرة الجند حاول

(1) البيان 268.
(2) الذخيرة م 424 بيان 2/275.
(3) البيان المغرب 2/270.
(4) دوزي 2/227.
(5) الإعلام 58.
(6) البيان 2/263. الذخيرة 44 م 4. نفح الطيب 373.

العودة فمنعه ابن أبي عامر، ولكنه أراد أن يبطش به فصاح ابن أبي عامر بأنصاره من بني برزال ألقوا القبض على دري وقتلوه في داره. وسنحت الفرصة لسحق الصقالبة فأمر بمطاردتهم حتى قتل عدد كبير منهم، ونفى فائقاً إلى ميورقة وبذلك زال نفوذ الصقالبة وانزوى جؤذر ببيته[1].

وسار ابن أبي عامر من ظفر إلى ظفر ساعدته الظروف على توطيد سلطانه والتخلص من أعدائه، وأن يقوي مركزه في الجيش لأنه القوة الحقيقية التي يستطيع بها أن يحكم، وذلك أن القشتاليين استغلوا مرض الحكم وشنوا غارات على الأندلس حتى وصلوا إلى قرب العاصمة ولم يحرك الحاجب جعفر ساكناً. رأى ابن أبي عامر أن الفرصة سانحة لإحراز نصر يوطد بواسطته سلطته في الأندلس، فاضطلع بمهمة محاربة القشتاليين، جهز الجيش وأشرف بنفسه على اختيار عناصره، وترك قرطبة في رجب 366/ شباط 977 إلى قشتالة حتى وصل إلى شلمنقة، استولى على حصن الحامة وعاد بعد 53 يوماً إلى قرطبة محملاً بالغنائم والأسرى. كان لهذا النصر الذي أحرزه أكبر الأثر في نفوس الجيش والشعب فقد رأى الجيش فيه القائد الشجاع فتفانوا في خدمته والشعب رأى فيه المدافع والحامي عن الأندلس فأيده.

واستغل ابن أبي عامر النصر الذين أحرزه فقاد حملة إلى الشمال بعد عدة اسابيع في عيد الفطر 366/ أيار 977. وقد حدثت ظروف أدت إلى تقوية نفوذ محمد بن أبي عامر وإضعاف موقف الحاجب جعفر. فقد كان جفاء بين الحاجب والقائد غالب بن عبدالرحمن أشهر فرسان الأندلس وصاحب مدينة سالم، وزاد في ذلك الاتهام الذي وجهه الحاجب جعفر إلى غالب بتقصيره في الدفاع عن الحدود ضد النصارى، إنتهز ابن أبي عامر هذا الخلاف وقرب إليه غالب واستصدر له مرسوماً من الخليفة بترقيته إلى خطة ذي الوزارتين وأن يكون قائداً لجيش الثغر وهو قائد لجيش العاصمة[2].

---

(1) البيان المغرب 2/263. الذخيرة 44 م 4. نفح الطيب 373.

(2) الذخيرة 4 م 45. البيان المغرب 265. دوزي 2/208. نفح الطيب 1/376.

وبعد ذلك انطلق محمد في حملته الثانية إلى الشمال والتقى بغالب في مجريط. اخترق الجيش قشتالة واستولى على حصن مولة وأحرز نصراً على النصارى، كان الفضل فيه لغالب ولكنه تنازل عنه لابن أبي عامر. وافترق القائدان بعد أن اتفقا على التخلص من الحاجب جعفر. عاد محمد بن أبي عامر إلى قرطبة محملاً بالغنائم والسبي، فارتفعت مكانته لدى الخليفة ولدى الشعب[1].

وعمل ابن أبي عامر على تقوية مركزه في العاصمة فاستصدر أمراً من الخليفة بعزل محمد بن الحاجب جعفر عن حكم قرطبة وتقليده لابن أبي عامر، وكانت قرطبة تعاني من الفوضى والفساد واضطراب الأمن فضبط أمورها ونظمها وعين مكانه ابن عمه عمرو بن عبدالله، وحاول جعفر تقوية مركز المنهار باستمالة القائد غالب وذلك بطلب يد ابنته اسماء لابنه محمد، وقبل غالب ولكن ابن أبي عامر أفسد الخطة وأرسل إلى غالب يطلب أسماء لنفسه وبرغبة من القصر فعدل غالب إلى مصاهرة ابن أبي عامر وذلك في محرم 367/ 977.

ثم خرج إلى غزوته الثالثة فسار إلى طليطلة حيث التقى مع غالب وسار الجيش المتحد إلى شلمنقة وجنوب غرب ليون واقتحمها وسبى وأسر وقفل ابن أبي عامر إلى العاصمة بعد 34 يوماً من خروجه ومعه عدد من رؤوس النصارى، فسر الخليفة ورفعه إلى مرتبة ذي الوزاريين وراتبه إلى 80 ديناراً. ثم اقترن بعد ذلك بابنة غالب[2].

وأخيراً قرر ابن أبي عامر التخلص من جعفر المصحفي، فاستصدر أمراً من الخليفة هشام في 13 شعبان 367/ 978 م، بإعفاء جعفر من الحجابة، وأسرع بإلقاء القبض عليه مع أفراد عائلته وصادر أموالهم، وقد زج به في السجن، وبالغ في إذلاله، ثم دس إليه السم فمات في سجنه 372/ 982[3].

وكان جعفر قد رثى نفسه وهو سجين بقصائد وجدانية منها:

(1) بيان 2/ 266. الذخيرة 4/ 46 و 47 ونفح طيب 1/ 376.
(2) ذخيرة 1/ 46 و 47 نفح الطيب 1/ 376 2/ 215. البيان 2/ 367.
(3) البيان المغرب 285. نفح الطيب جـ 1 ص 1320.

صبرت على الأيام حتى تولت — وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
فيا عجباً للقلب كيف اصطباره — وللنفس بعد العز كيف استذلت
وكانت على الأيام نفسي عزيزة — فلما رأت صبري على الذل ذلت
وقلت لها يا نفس موتي كريمة — فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت[1]

بعد ذلك استبد بأمور الدولة وانفرد بها. ثم حجر على الخليفة هشام ومنعه من الظهور. تركه يلهو بين النساء والخصيان. وشاعت في قرطبة أقوال عن الخليفة وأمه صبح والقاضي ابن السليم[2].

وهكذا استطاع القضاء على خصومه بغطاء شرعي وباسم الخليفة[3]. حتى قال أحد الشعراء:

أبني أمية أين أقمار الدجى — منكم وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكم عن غابها — فلذاك حاز الملك هذا الثعلب[4]

الجيــــش

بعد أن قضى على منافسيه، وجه اهتمامه إلى الجيش، استخدم المرتزقة من البربر والنصارى، قدم البربر وأبعد العرب ووزعهم على ألوية الجيش بعد أن كانوا يقاتلون صفاً واحداً[5].

خشي ابن أبي عامر من المؤامرات عليه خاصة وصل إلى مركزه بعد القضاء على خصومه فاحتاط من أنصارهم وأقاربهم. وقرر إقامة مدينة خاصة به تتناسب مع السلطة التي وصل إليها وتكون مأمناً من الأعداء فأنشأ مدينة الزاهرة

---

(1) البيان المغرب 270.
(2) البيان 280.
(3) البيان 281.
(4) نفح الطيب 123.
(5) نفح الطيب 137.

368/978 شرق قرطبة، وبنى فيها القصر الملكي والمسجد ودواوين الإدارة ومراكز للحرس وخزائن السلاح، وانتقل إليها سنة 370 هـ/ 980. وحلت محل مدينة الزهراء[1]. وهنا بدأ الخلاف مع صبح التي كانت لها اليد الطولى في الذي وصل إليه ابن أبي عامر. وكانت العلاقة المتينة التي تربط الاثنين قد وهت لما تقدمت صبح في العمر وسلبها ابن أبي عامر كل سلطة ونفوذ وحجر على ولدها الخليفة، وكان قد أهملها بعد أن استغلها للاستئثار بالسلطة، فلجأت إلى التآمر واستعانت بغالب صاحب مدينة سالم وكان يتمتع بشهرة واسعة في الأندلس وهو ما كان يسبب له كراهية صهره ابن أبي عامر. فاستقدم جعفر بن علي بن حمدون الزناتي من العدوة وقلده الوزارة[2]، عندئذ قرر غالب التخلص من صهره فدعاه أثناء الصائفة إلى وليمة في مدينة أنتيسة، ولبى ابن أبي عامر الدعوة وانفرد به غالب، ودار جدال حاد شهر أثناءه غالب سيفه على صهره وأصابه في رأسه وأنامله، ولكنه نجا من هذه المؤامرة. وفر من القلعة إلى مدينة سالم حيث استولى على أموال وأمتعة غالب وعاد إلى قرطبة مصمم على الانتقام. واعتصم غالب بالقلعة، ودارت معارك بين الاثنين انهزم في أكثرها ابن أبي عامر ولجأ غالب إلى الاستعانة براميرو الثالث ملك ليون الذي أمده ببعض القوات. ودارت المعركة الفاصلة بين الاثنين أمام حصن شنت اشتيبن قرب انتيسه، كاد النصر يكون إلى جانب غالب، لولا أن وافته المنية فجأة، إذ سقط عن جواده ميتاً دون أن يصاب بسهم. فانهارت قواته وانهزمت، وأمعن ابن أبي عامر قتلاً فيها وخاصة في النصارى فهلك منهم عدد كبير. وحدثت المعركة في 4 محرم 371/ آب 981. وقد مثل ابن أبي عامر بجثة غالب وأمر بصلبها[3].

الغــزوات

بعد أن تخلص من غالب، انصرف إلى غزو ممالك النصارى حتى بلغت

---

(1) البيان 2/ 275 ابن خلدون 148 نفح الطيب 121 و 122. أعمال الإعلام 62.

(2) البيان 378.

(3) أعمال الإعلام 63. البيان المغرب 279. دوزي 233.

غزواته اثنتين وخمسين غزوة «لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش ولا أصيب له بعث ولا هلكت له سرية[1]».

كان هدفه سحق الممالك النصرانية وإخضاعها لسلطان الخلافة العربية، وقد اتبع خطة الهجوم خلافاً لأسلافه الذين كان معتمدين أسلوب الدفاع. فبعد القضاء على غالب سار إلى ليون لمعاقبة ملكها راميرو الذي تدخل في شؤون الأندلس بإمداده غالب بالقوات، فقصد مدينة سمورة وحاصرها في محرم 371/ 981 م، ولكنه فشل في دخولها، فرفع عنها الحصار، وعاث تدميراً وأحرق المنطقة، استنجد راميرو بكونت قشتالة غرسيه فرنانديز وبسانشو ملك نافار. وسار التحالف النصراني لقتال العامري، ونشبت معركة في روضة قرب مدينة شنت منكش انهزم فيها النصارى، ودخل محمد المدينة، ثم زحف إلى العاصمة ليون وحاصرها، ولكنه ارتد عنها بسبب الثلوج فعاد إلى قرطبة[2] حيث اتخذ لقب المنصور.

بعد التخلص من غالب قرر القضاء على جعفر بن علي بن حمودن وكان قد استقدمه ليقف في وجه غالب، وبعد القضاء على غالب انتهت مهمة ابن حمدون، فلا بد من إبعاده.أرسل إليه سراً معن بن عبدالعزيز التجيبي اغتاله سنة 982/372. وأظهر عليه الحزن. ثم أوعز باغتيال معن لإخفاء معالم الجريمة. وهي عادته بالتخلص من خصومه[3]. واضطربت أحوال مملكة ليون النصرانية نتيجة الهزائم التي مني بها راميرو على يد المنصور، فأخذت الولايات تنفصل عنها واندلعت الثورة في جيليقية إذ قرر كونتاتها خلع راميرو وتنصيب ابن عمه برمند مكانه في تشرين الأول 982/371 هـ. ودارت معارك بين الاثنين انتهت بانتصار «برمند» فالتجأ راميرو إلى المنصور وطلب منه المساعدة معترفاً بطاعته. ولكنه توفي، وأدرك برمند أنه لن يستطيع الاحتفاظ بالحكم أمام المعارضين له، فطلب المساعدة من المنصور معلناً الطاعة، لبى المنصور طلبه

---

(1) ابن خلدون جـ 4 ص 148. الكامل جـ 8، 224.

(2) دوزي 234.

(3) نفح الطيب 383. البيان 279.

وأمده بجيش يرابط في العاصمة ليون وهكذا غدت مملكة ليون النصرانية مقاطعة تابعة لحكومة قرطبة.

الغزوة الثالثة والعشرون

غادر المنصور قرطبة في ذي الحجة 374/ أيار 985 إلى جنوب شرق الأندلس، أقام في مرسية بضيافة أحمد بن عبد الرحمن مدة 23 يوماً، ثم غادرها إلى قطلونية. إخترقها المنصور وهزم قوات أميرها بوريل، ووصل إلى برشلونة مطلع تموز. اقتحم المسلمون المدينة نهار الاثنين منتصف صفر 375/ 6 تموز 985، دمروها، وقتلوا معظم سكانها وأسروا الباقين أحياء. وغادرها العامري بعد أن تركها قاعا صفصفاً. كان من بين الأسرى أودلرادو نائب بوريل. لم يحتفظ المنصور بالمدينة بل كان هدفه تدمير قوتها، كي لا يتجرأ حكامها على مهاجمة أراضي الأندلس.

استقرت الأحوال في مملكة ليون فقرر برمند طرد الحامية الاسلامية التي كانت تساعده ضد أعدائه هاجم المسلمين وطردهم من بلاده، استاء المنصور من أعمال برمند وغزا ليون واحتل مدينة قلمرية 378/ حزيران 987 وتركها خراباً دام سبع سنوات. وكان البشكنس قد أغاروا على أراضي الثغر الشمالي فسار إليهم المنصور ووصل إلى بنبلونة وعاث في المنطقة تدميراً[1].

ثم عاد المنصور إلى مهاجمة أراضي النصارى، فسار على رأس جيش كبير 378/988 اخترق أراضي ليون وسار إلى العاصمة واقتحمها بعد معركة رهيبة قتل فيها قائدها الكونت جونزالفو كونثالث. وقد دمرها المسلمون وأبادوا سكانها، ثم اتجه بعد ذلك إلى سموره حيث يرابط برمند فغادرها سراً واضطر سكانها إلى الاستسلام بعد إحراق أديرتها منها ديرا اسلونزا وسهاجون وانحصر ملك برمند في رقعة ضيقة جبلية في أقصى الشمال الغربي من جيليقية[2].

---

(1) البيان 302/2.

(2) ابن خلدون 181/4. دوزي 245/2.

مـؤامـرة ابنه عبدالله

تعرض المنصور لمؤامرة دبرها ابنه عبدالله، لأن المنصور كان يؤثر ابنه عبد الملك عليه. فغادر عبدالله قرطبة إلى سرقسطة ونزل على صاحبها عبد الرحمن التجيبي الذي انتهز الفرصة. واتفق الاثنان على الثورة على المنصور واقتسام الأندلس بينهما، وانضم إلى المؤامرة الحاقدون على المنصور منهم الوزير عبد الله بن عبدالعزيز المرواني حاكم طليطلة.

وصلت أخبار المؤامرة إلى المنصور قبل تنفيذها، فاحتال على ولده عبدالله واستدعاه من سرقسطة وعزل المرواني. ثم خرج بالصائفة إلى قشتالة واستدعى أمراء الثغور فلبوا الدعوة ومنهم التجيبي عبد الرحمن بن مطرف، فعزل التجيبي وعين مكانه ابنه يحيى صفر 379، إستمالة للتجيبي، ثم أعدم بعد أيام قلائل[1].

واصطحب معه في الغزوة ابنه عبدالله خشية من تصرفاته، وسار إلى حصن شنت اشتيبن ولكن عبدالله فر من معسكر والده ولجأ إلى فرناندیز كونت قشتالة الذي وعده بالمساعدة، ورفض فرنانديز تسليم عبدالله إلى المنصور فسار المنصور لقتاله واستولى على أوسمة والقبة حتى اضطر إلى الخضوع لأمر المنصور، وأرسل إليه عبدالله مع جماعة من قشتالة استقبله سعد الخادم مع فرقة من الفرسان وأعدم بأمر من والده الأربعاء 14 جمادى الآخرة 38/ 9 أيلول 990. ضربه بالسيف ابن خفيف. ثم تخلص المنصور من ابن خفيف وسعد[2].

وقرر المنصور تأديب كونت قشتاله فرنانديز لتآمره وحماية عبدالله بن عبدالعزيز المرواني. وكانت الثورة قد اندلعت في ليون بتشجيع من المنصور واقتسم أراضيها الأشراف. سار المنصور إلى ليون فاضطر برمند إلى مغادرتها إلى استرقة ثم غادرها ملتمساً الصلح مع المنصور وتعهد بدفع الجزية وسلمه

(1) البيان 283 و 285.

(2) البيان المغرب 284. دوزي 247 و 248.

المرواني فأجابه المنصور، ثم استولى على سمورة وعين عليها أبا الأحوص معن بن عبدالعزيز التجيبي[1].

التخلص من صبح

شعرت صبح أن إبعادها عن الحكم على يد المنصور أضحى حقيقة واقعة، فعملت ما بوسعها للحفاظ على مركزها واتصلت بزيري بن عطية المغراوي في المغرب وأرسلت إليه الأموال لتجهيز جيش لقتال المنصور. وكان عطية من أنصار الأمويين ويحقد على المنصور لخلافات شخصية، إذ أساء المنصور استقباله في قرطبة وأخذ عليه حجره على الخليفة هشام فلبى دعوة صبح[2]. عرف المنصور بالأمر. وأول عمل أقدم عليه رفع يد صبح عن المال بموافقة الخليفة هشام، فنقله المنصور إلى الزاهرة وكان بالملايين[3] وهكذا فشلت خطة صبح في مقاومة المنصور خلدت إلى السكينة والعزلة وغاب اسمها من تاريخ الأندلس.

وعاد المنصور لقتال زيري بن عطية، فأرسل إليه جيشاً بقيادة واضح عبر المضيق إلى المغرب ودارت معركة بوادي زرارات جنوب طنجة أسفرت عن هزيمة جيش المنصور ولجوء واضح إلى طنجة، واستنجد بالمنصور فبعث جيشاً بقيادة ابنه عبد الملك عبر إلى سبته ودارت معركة في منى قرب طنجة انتهت بهزيمة زيري وفراره إلى الصحراء بعد إصابته بجراح.ودخل عبد الملك مدينة فاس شوال 387/ 997 وعين على المغرب عيسى بن سعيد.

غزو جيليقية

جهز منصور حملة تعد أهم الحملات التي قادها لغزو الممالك النصرانية هي الثامنة والأربعون وكان هدفه جيليقية المنطقة الحصينة في شمال اسبانيا

(1) ابن خلدون 181. دوزي 249.
(2) البيان 302. نفح طيب 123.
(3) ذخيرة 452 نفح الطيب 124.

والتي لم يطرقها العرب الفاتحون منذ أيام طارق بن زياد لوعورة مسالكها ومناعتها الطبيعية ولهذا كانت ملجأ لملوك ليون عندما كانوا يصابون بالهزائم وكان بها مزار يعقوب وقد أنشئت حوله مدينة بإسمه أضحت مقصد النصارى للتبرك.

خرج من قرطبة 23 جمادي الآخرة 387/3 تموز 997 على رأس جيش من الفرسان وأمر الأسطول بالانطلاق شمالاً من قصر أبي دانس حاملاً الرجال والذخائر، وسار شمالاً حتى وصل إلى قورية وانحرف نحو الشمال الغربي استولى على مدينتي بازو وقلمرية. ووفد عليه بعض كونتات النصارى معترفين بطاعته. وتابع سيره حتى نهر دويره حيث وافاه الاسطول، ثم عبر نهر منيو وسار قرب الشاطىء، وهو يفتح الحصون ويخرب الأديرة والمسلمون يأسرون ويغنمون[1]. حتى وصل إلى شانت ياقب نهار الأربعاء 2 شعبان/ 11 آب فكانت خالية من السكان الذين فروا منها لدى اقتراب المسلمين، وأمر المنصور بتدمير أسوارها وهدم كنيستها ومبانيها. واقتلع المسلمون أبواب المدينة ونواقيس الكنيسة وأمر النصارى الأسرى بحملها إلى قرطبة[2] وعاث بعد ذلك تخريباً في جيليقية ولم يعترضه أحد. ثم انحدر جنوباً إلى أراضي الكونتات الموالين له فأمر الجيش بعدم التعرض لها وقرر العودة إلى قرطبة. على اثر هذه الحملة اضطر برمند إلى طلب الصلح فبعث ابنه بلايو مع معن بن عبدالعزيز حاكم سمورة ولبى المنصور طلبه وأعاد إليه ابنه[3].

وفي العودة اخترق أراضي قشتالة ووصل إلى مدينة برغش.وعاد بعد ذلك جنوباً وقد اشتد به المرض فحمله القادة على محفة حتى مدينة سالم.وكانت أمنيته الشهادة خلال الغزو كان يحمل معه أكفانه من غزل بناته ومن ماله الحلال الموروث. فما كاد يحل بمدينة سالم حتى استدعى ولده عبد الملك وألقى إليه بنصائحه.وفاضت روحه ليلة الاثنين 27 رمضان 392/ 11 آب 1002 ودفن في صحن قصر مدينة سالم بعد حكم دام 27 سنة. ونقش على قبره هذان البيتان:

---

(1) نفح الطيب 1/391. البيان 2/294 و 295، 2/296.

(2) ابن خلدون 4/181، أعلام 67. نفح الطيب 1/393.

(3) ابن خلدون 4/181. نفح الطيب 393.

آثـاره تنبيـك عـن أخبـاره حتـى كـأنـك بـالعيـان تـراه
تـاللّـه لا يـأتـي الـزمـان بمثلـه أبداً ولا يحمي الثغور سواه[1]

الجيـش

اهتم المنصور بالجيش لأنه أدرك أنه عماد الحكم في القضاء على الثورات وحماية البلاد من الأعداء، فأدخل نظاماً جديداً عليه فقد جند البربر لما يتصفون به من الشجاعة والخشونة وبذل لهم الأموال[2] وكذلك المرتزقة من النصارى. واعتمد على الجيش النظامي المدرب وترك الخيار للمتطوعين، وأصدر عام 388/ 998 أمراً بإعفاء الناس من الخدمة الإلزامية مكتفياً بالجيش المرابط.

وكان تعداد الجيش المرابط: الفرسان 12100 فارس والحرس الخاص 600 فارس، والمشاة 26000 وكان عدد الجيش يتضاعف أثناء الغزو حتى يصل إلى 100،000 وقد زوده بأحدث الأسلحة المعروفة في ذلك الزمن من الخيام والسهام والدروع والتراس والمجانيق[3]. وبهذا الجيش خاض المنصور أكثر من خمسين غزوة كان النصر فيها حليفه[4] وكان من نتائج هذه الغزوات كثرة السبي في بنات الاسبان حتى امتلأت الأسواق وركد سوق الزواج لكثرة الجواري[5].

وكان المنصور يجمع الغبار الذي يغطي جبينه ويعلق بثيابه أثناء المعارك في منديل، وأوصى أن يدفن معه[6].

بعد وفات المنصور في مدينة سالم، رجع ابنه عبدالملك مسرعاً إلى قرطبة، قابل الخليفة واستصدر منه كتاباً بتوليه الحجابة نهار الاثنين 27 رمضان 392 هـ/ .

---

(1) نفح الطيب 1/375. البيان 2/301.
(2) البيان 299، 316715.
(3) أعمال الإعلام 68، 99، 100، 101.
(4) الجذوة 74. المعجب 21. الإعلام 98.
(5) المعجب 21.
(6) المعجب 21. البيان 2/310. نفح الطيب 385.

ذاع خبر الوفاة في الأندلس، فحزن الأندلسيون لأنهم فقدوا حامي الثغور بينما استبشر الناقمون وعلى رأسهم الأمويون بأن الفرصة سنحت لاستعادة نفوذهم المسلوب، ولكن عيون عبدالملك العامري كانت بالمرصاد فألقى القبض على قادة المتآمرين ونفاهم إلى المغرب فساد الهدوء الأندلس.

عبد الملك بن منصور

ولد عبد الملك بقرطبة سنة 364 هـ، يكنى بأبي مروان. تلقب بالمظفر بالله، أمه حرة تسمى الذلفاء. كان قد تدرب على الحكم أثناء حياة والده المنصور الذي كان يشركه في إدارة شؤون البلاد[1].

بدأ حكمه بالتقرب من العامة بأن أسقط سدس الجباية عنها فكان لذلك الأثر الطيب في أنحاء الأندلس.

سار عبد الملك على نهج والده بمتابعة الجهاد ضد النصارى. غادر مدينة الزاهرة في 8 شعبان 393/ حزيران 1003 على رأس جيش كبير[2] إلى طليطلة، ثم إلى مدينة سالم، وانضمت إليه قوة نصرانية أرسلها أمير قشتالة بموجب معاهدة معقودة سابقاً مع والده المنصور، وكذلك قوة أرسلها شانشو بن غرسية، ملك نافار توجه نحو برشلونة، استولى على حصني مدنيش وممقصر بعد إبادة حامية الحصن الأخير، وسبى وغنم، ثم قفل عائداً إلى قرطبة حيث قابل الخليفة[3].

بعد هذه الحملة أرسل كونت برشلونة بوريل الثالث سفارة إلى قرطبة لطلب الصلح أجابه المظفر إلى طلبه[4].

ثم كانت الغزوة الثانية، فسار بقواته سنة 394/ 1004 إلى قشتالة، اجتاح أراضيها، فاضطر ملكها سانشو إلى طلب الصلح، ووفد بنفسه إلى قرطبة حيث

---

(1) البيان المغرب جـ 103. أعمال الاعلام 84، 85.

(2) البيان المغرب 5.

(3) أعمال الاعلام 87.

(4) الذخيرة جـ 4 ص 64. البيان المغرب 5 و 6.

استقبله المظفر استقبالاً حافلاً. وتم الاتفاق على أن يعاون سانشو عبدالملك في غزواته ضد ليون وبني قومس.

بعد الاتفاق مع سانشو خرج عبد الملك بالصائفة سنة 2 شوال 395/ 1005 م إلى ليون ومعه سانشو، واستولى الفتى واضح على سمورة واجتاح عبدالملك أراضي ليون وأراضي بني غومس وعاد محملاً بالغنائم والأسرى[1].

وفي سنة 1006/396 12 شوال غزا عبدالملك غزوته الرابعة إلى بنبلونة واجتاح ولاية ريبا جرسا الفرنجية ودمرها وهبت عليه عاصفة رعدية مصحوبة ببرد قارس فاضطر إلى العودة إلى قرطبة[2]. وفي طريق عودته احتفل بعيد الأضحى في مدينة سالم وفيها وافاه سفير الأمبراطور البيزنطي بسيل الثاني يحمل كتاباً مخطوطاً بالذهب يطلب فيه إعادة العلاقات الودية التي كانت مع الأمويين، ورافق السفير عدداً من أسرى المسلمين لدى الامبراطور[3].

وسار سنة 397/ 1003 عبدالملك في غزوته الخامسة نحو قشتالة حيث قابل (نازل) تحالف الممالك النصرانية المؤلف من سانشو غرسيه ملك قشتالة والفونسو الخالص ملك ليون وسانشو ملك نافار وزعماء بني غومس. ودارت المعركة قرب مدينة قلونية شمال نهر دويره حيث أحرز عبد الملك نصراً مبيناً على النصارى تلقب على أثر ذلك بالمظفر بالله[4] استصدره من الخليفة 15 محرم 1006/398 م.

ورغم الهزيمة التي لحقت بالنصارى فقد استمر ملك قشتالة بعدوانه على الأندلس. فخرج المظفر على رأس جيش ليضع حداً لتعديات شانسو غرسيه في صفر 398/ تشرين الأول 1007 إلى قشتالة وسار مباشرة إلى حصن شنت مرتين الحصين قرب قلونية. وباءت بالفشل محاولات النصارى بالتصدي للمسلمين

(1) البيان المغرب جـ 3 ص 11. الذخيرة جـ 4 ص 65.
(2) أعمال الاعلام 87.
(3) البيان المغرب 13.
(4) ابن خلدون 182. البيان المغرب 14 و 15.

فلجأوا إلى الحصن. وهاجمه المظفر بعنف حتى أجبر المدافعين على الاستسلام. فأمر بقتل الجنود وسبي النساء وعاد إلى قرطبة في ربيع الآخر[1].

وفي شوال من السنة ذاتها صيف 1008 غزا المظفر غزوته الأخيرة (السابعة) وتسمى بغزوة العلة، إذا سار بالجيش إلى الشمال ومرض في مدينة سالم، فاضطر للعودة إلى قرطبة. ولما شعر بالتحسن جهز الجيش في محرم 399/ 1008 لاستئناف الغزو. خرج من العاصمة في صفر، ولكنه أصيب بنوبة سعال شديدة على أثر تناول شربة مسمومة بتحريض من أخيه عبدالرحمن.وتوفي في 16 صفر 399/21 تشرين الأول 1008[2] وخلفه أخوه عبد الرحمن.

عبد الرحمن بن المنصور

كان ضعيف الشخصية مغروراً، تسلم الحكم في 17 صفر 399/22 تشرين الأول 1008. مثل بين يدي الخليفة المؤيد في اليوم ذاته، فقلده الحجابة وكان عمره 25 سنة. كان يلقب بشنجول لأنه حفيد سانشو غرسية ملك نافار، وأمه بعدما اقترنت بالمنصور اعتنقت الإسلام، أقام علاقة متينة مع الخليفة واستصدر منه لقب المأمون ناصر الدولة. أنكرت العامة ذلك لأنه من ألقاب الخلافة. وكان يرمي من وراء ذلك إلى انتزاع ولاية العهد من الخليفة، فاجتمع به وعرض عليه المشروع حتى وافق المؤيد على ذلك[3] وأراد أن يشغل العامة بالغزو فجهز حملة إلى جيليقية. ولكن الأمويين حاكوا مؤامرة للقضاء على العامريين معتمدين على كثير من أفراد الجيش، ولما قرر عبدالرحمن السير إلى الشمال حذره كبير الفتيان الصقالبة من مغادرة العاصمة وأطلعه على تحرك الأمويين، فلم يصغ إليه، وغادرها بعد أن أناب عنه في حكمها ابن عم أبيه عبدالله بن أبي عامر الملقب بعسكلاجة، وهاجم جيليقية فاعتصم ملكها الفونسو الخامس بالجبال، ولم يجرؤ على مواجهة المسلمين، وقفل عبدالرحمن عائداً

(1) البيان المغرب جـ 3، ص 21.

(2) البيان المغرب 37. أعمال الاعلام 89. الكامل جـ 8 ص 225.

(3) البيان المغرب 38. أعمال الاعلام 90.

إلى قرطبة وعندما وصل إلى طليطلية وصلته أخبار الانقلاب الأموي في قرطبة، فقد استولى الثوار على مدينة الزاهرة ونهبوها وأحرقوها، واضطرب الجيش لدى شيوع الخبر فاضطر عبدالرحمن إلى التوجه إلى قلعة رباح.

كان يرأس الانقلاب الذلفاء والدة عبدالملك المظفر لأنها كانت تؤمن بأن عبدالرحمن هو الذي دس السم إلى ابنها (أخيه) ويشاركها محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر وكان المظفر قد أمر بإعدام والده هشام، وحرضت الذلفاء الأمويين على الانتقام من العامريين ثأراً لابنها بالرغم مما أغدقه عليها وعلى عائلة أخيه عبدالرحمن، وكانت الاتصالات تتم بين المتآمرين بواسطة فتى صقلبي يدعى بشر، وقد اختار الأمويون محمد بن هشام زعيماً لهم وهو فتى جري، له من العمر 33 سنة إذ كان مولده 366 هـ وتلقب بالمهدي.

وقد تهيأت الفرصة لهذا الانقلاب بعد خروج عبدالرحمن بالجيش إلى الغزو، ولم يبق منه في الزاهرة سوى فرقة قليلة، شعر العامريون بالخطر فشددوا الحراسة حول القصر. وفي 16 جمادي الأولى 399/15 شباط 1009 إقتحم المتآمرون قصر قرطبة وهجم طرطوس المجوسي، وهو من فتيان محمد بن هشام على عسكلاجة واعتقله واقتاده إلى محمد الذي أمر بقتله. ثم وزع المهمات على أقاربه، وأمر بإحضار الخليفة المؤيد وأمره بخلع نفسه أمام الأمويين فوافق على ذلك. وهاجم عبد الجبار بن المغيرة بأمر من المهدي مدينة الزاهرة على رأس جموع غفيرة من العامة والجند، فاقتحموها ودمروها.

وصلت أخبار الانقلاب إلى عبدالرحمن العامري وهو في طليطلة فأسرع إلى قلعة رباح وأعلن تنازله عن ولاية العهد. وحاول أن يأخذ عهداً من البربر بمساعدته فهم القوة الرئيسة في الجيش، فتآمروا عليه. وأخيراً قرر السير إلى قرطبة ومعه زعيم من بني قومس النصارى، وصل إلى مقر ارملاط قرب قرطبة، ودع عائلته ولاذ بدير قريب اعتقل مع ابن قومس. فحاول الانتحار فمنعه الجند من ذلك. وأمر المهدي بقتله مع ابن غومس في 3 رجب 399/ 13 أذار 1009م[1].

---

(1) البيان المغرب جـ 3، 49 و 74.

الفصل الخامس

الـدولة الحموديـة

صراع الأمويين على السلطة بعد سقوط الدولة العامرية

- انقلاب محمد بن هشام بن عبد الجبار (المهدي على الخليفة هشام).
- انقلاب سليمان بن الناصر على المهدي.
- البربر يبايعون سليمان بن الحكم ـ المستعين) ـ دخوله قرطبة توزيع المقاطعات على أنصاره.
- علي بن حمد في سبته وأخوه القاسم في الجزيرة الخضراء.

نسب الحموديين

- علي بن حمود يطمح إلى الخلافة ـ مبايعة البربر له بالخلافة ـ اغتياله.
- القاسم بن حمود في قرطبة.
- الفتيان العامريون يعيدون الأمويين إلى الحكم.
- يحيى بن علي بن حمود.

عودة الأمويين إلى الحكم

- الخليفة عبد الرحمن بن هشام (المستظهر).
- محمد بن عبد الرحمن (المستكفي).

عودة الحموديين إلى الحكم

- يحيى بن علي ـ مصرعه.
- إدريس بن علي.
- إلغاء الخلافة في الأندلس.

استيلاء علي بن حمود
على السلطة في الأندلس

اشتد الصراع على السلطة بين الأمويين في الأندلس بعد وفاة الحاجب محمد بن أبي عامر. فقد خلفه في الحجابة ابنه عبدالملك ثم عبدالرحمن[1] الذي تلقب بالناصر وأعلن نفسه ولياً لعهد الخليفة الأموي هشام المؤيد[2].

لم يرض الأمويون بخروج الأمر من أيديهم واستئثار أبناء المنصور العامري بالسلطة، فثار محمد بن هشام بن عبدالجبار على الخليفة هشام المؤيد وخلعه وذلك نهار الثلاثاء 18 جمادي الآخرة 399 هـ/ 5 شباط 1009 م[3] وانضم الجيش إليه فألقى القبض على عبد الرحمن بن المنصور العامري وصلبه وتلقب بالمهدي[4].

وتلاحقت الأحداث بعد ذلك بسرعة مذهلة، فلم يكد الخليفة الجديد يستقر في الحكم حتى ثار عليه هشام بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر ومعه قوة من البربر نهار الخميس 5 شوال 399 هـ/ حزيران 1009 م[5].

---

(1) جذوة الاقتباس ص 47 ـ ابن خلدون 4/150 ـ أعمال الاعلام ص 89.

(2) الخليفة هشام المؤيد ابن الحكم السمتنصر ابن عبد الرحمن الناصر.

(3) جذوة الاقتباس ص 47 ـ أعمال الاعلام ص 109 ـ بغية الملتمس ص 22.

(4) جذوة الاقتباس ص 47 ـ أعمال الاعلام ص 113 ـ بغية الملتمس ص 22.

(5) جذوة الاقتباس ص 48.

أمـام هذه الأحداث نظر سكان قرطبة إلى دولتهم التي شيد بنيانها سياسيون عباقرة وقادة أفذاذ تنهار خلال أشهر معدودة حتى كأنها لم تكن. فالصرح العربي في الأندلس الذي أنشيء منذ الفتح توالت عليه الأحداث والنكبات.. وأضحى سكان قرطبة يعيشون ليومهم فقط. لذلك أجمعوا على أن يكون لهم رأي في مصير مدينتهم لانقاذها من المصير الذي ينتظرها على يد هؤلاء المغامرين الأمويين، فانحازوا إلى جانب محمد بن هشام المهدي، وانهزم الجيش البربري، ووقع هشام بن سليمان وأخوه أبو بكر في الأسر فقتلهما المهدي[1].

لكن البربر لم يسلموا بالهزيمة بل ثاروا وبايعوا سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر ابن أخ هشام القتيل وذلك في ربيع الأول سنة 400 هـ[2]، فتلقب بالمستعين، واعداً جيشاً من النصارى وقادهم مع البربر إلى قرطبة[3]. ودارت معركة رهيبة بين المتنازعين بجبل قنتيش قُتل فيها من سكان قرطبة حوالي عشرين ألفاً منهم أئمة المساجد والمؤذنين[4]. وقد أمعن النصارى القتـل في أهل قرطبة إذا قتلوا ثلاثة آلاف. فكانت أولى ثاراتهم من المسلمين[5].

واضطر المهدي للهرب إلى طليطلة وعليها واضح الحكمي[6] وكانت الثغور لا تزال تؤيده، واستنجد كذلك بالنصارى وشكل جيشاً[7] منهم هاجم به مدينة قرطبة حيث سليمان والبربر. وهكذا أصبح النصارى القوة المقاتلة في جيش الأمويين المتصارعين فانتهزوا الفرصة للانتقام من المسلمين الذين أذلوهم

(1) جذوة الاقتباس ص 48 ـ ابن خلدون 105/4 ـ أعمال الاعلام ص 113.
(2) ابن الأثير ص 248 ـ الذخيرة 36/1.
(3) بغية الملتمس ص 22 ـ المعجب ص 43.
(4) ابن خلدون 150/4 ـ الذخيرة ص 43 العدد 10 آلاف وأزيد.
(5) أعمال الاعلام ص 113 ـ الذخيرة ص 44.
(6) أعمال الاعلام ص 114 ـ بغية الملتمس ص 22 الذخيرة ص 45.
(7) جذوة الاقتباس ص 48 ـ ابن خلدون 151/4 ويذكر: واستجاش بابن اذفونش.

كثيراً. ودارت معركة بين الفريقين في عقبة البقر على مسافة بضعة أميال من المدينة[1]. انهزم سليمان الذي فر من المعركة ولحق بالبربر. ودخل المهدي العاصمة ومكث فيها علة أيام، ثم خرج لقتال البربر والتقى بهم بوادي آره[2] فهزموه وقتلوا من أنصاره النصارى حوالي ثلاثة آلاف[3] وتراجع إلى قرطبة حيث حاصروه فيها. وتآمر عليه العبيد مع واضح الصقلبي وقتلوه نهار الأحد 7 ذي الحجة 400 هـ/ 1111 م وكان عمره 34 سنة[4]. واجتمع سكان قرطبة على تجديد البيعة لهشام المؤيد عله يعصمهم من البربر ويضع حداً لتعدياتهم. فأقام واضح العامري على حجابته[5]. واستمر البربر بقيادة المستعين يحاصرون المدينة[6]، ويقومون بأعمال السلب والنهب (والبربر معه لا تبقي على صغير ولا كبير ولا امرأة...)[7] وسقطت المدينة بأيديهم بعد ثلاث سنوات من الحصار في 26 شوال 403 هـ/ أيار 1013 م، وتلقب سليمان بعد ذلك بالظافر بحول الله[8]. ونال سكان قرطبة الكثير من أذى البربر في الأنفس والأموال والأعراض والممتلكات[9] ثم انتقل سليمان إلى مدينة الزهراء مع حاشيته وجيشه فدخلوها واستقروا فيها.

ونزل القاسم وعلي ابنا حمود الإدريسي في شقندة ضاحية قرطبة وكان المستعين قد عينهما على قيادة المغاربة في جيشه[10]، وأخذ سليمان ينظم

---

(1) جذوة الاقتباس ص 48.
(2) معجم البلدان 1/49 و 60 ـ أعمال الاعلام ص 115 ويسميه وادي يارو من احواز مربلة أي السقائين ـ بغية المتلمس ص 23.
(3) جذوة الاقتباس ص 49 ـ أعمال الاعلام ص 115.
(4) جذوة الاقتباس ص 49 ـ بغية الملتمس ص 23.
(5) ابن خلدون 4/151 ـ أعمال الاعلام ص 116.
(6) ابن خلدون 4/151.
(7) جذوة الاقتباس ص 49.
(8) جذوة الاقتباس ص 49 ـ ذخيرة 37. معجب 43.
(9) ابن خلدون 4/151 ـ الأعمال الاعلام ص 118.
(10) ابن حزم 1/197، البيان المغرب 3/113، نفح الطيب 1/406، معجب 43.

الدولة المضطربة، إذ كانت تعمها الفوضى ونفوذها لا يتجاوز ضواحي العاصمة.

وقبض البربر على السلطة الفعلية وتولوا جميع المناصب المهمة واستولوا على المدن الكبيرة[1]. لذلك رأى سليمان أن يبعدهم عن العاصمة قرطبة، فوزعهم على ولايات الأندلس وثغورها، فولى علي بن حمود ثغر سبتة وأخاه القاسم ثغور الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا[2]، ووزع بقية المدن على القبائل البربرية، فأعطى صنهاجة البيرة (غرناطة) ومغراوة جوف البلاد، وقرمونة كانت من نصيب بني برزال[3] ولما بلغ عبدالله بن برزال[4] تقديم علي والقاسم ابني حمود الإدريسي دخل على الخليفة سليمان الظافر وقال له: «يا أمير المؤمنين بلغني أنك وليت بني حمود العلويين على المغرب! قال: نعم. قال أليس العلويون طالبيين؟! قال: نعم. قال: تأتي إلى أحناش تردهم ثعابين! قال: نفذ الأمر في ذلك»[5].

وبهذا الأمر بدأ تاريخ الدولة الحمودية في الأندلس.

«رأي ذهل عنه ونبذها إلى ضد له مكاشح شريك في الدعوة والقرابة»[6].

ينتسب الحموديون إلى حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي

---

(1) ابن خلدون 4/151.

(2) البيان المغرب 3/113 و 114 ـ ابن خلدون 4/151 ـ ابن حزم 1/198 ابن الأثير 7/284، بغية الملتمس ص 24 ـ الذخيرة 38 و 39 ـ معجب 43.

(3) نفخ الطيب 1/405. ويورد توزيعاً آخر للقبائل. أعمال الاعلام ص 119. ابن خلدون 4/151.

(4) عبدالله بن برزال أحد زعماء بني برزال البربر وقد ولاه سليمان مدينة قرمونة.

(5) البيان المغرب 3/114 ـ أعمال الاعلام ص 128 و 129.

(6) الذخيرة ص 385.

طالب[1]. وبالرغم من هذا النسب الشريف وهذه الأرومة الطيبة العربية الأصيلة، فإنهم في الواقع يعودون من حيث العصبية والمصير والمنشأ إلى البربر، إذ كانوا بعد سقوط دولتهم في المغرب اختلطوا بالبربر في بلاد غمارة وأصبحوا منهم[2] وخاصة أنهم يمتون من حيث الخؤولة إلى بربر أوربة في وليلي هم أخوال جدهم إدريس الثاني. وتعصب لهم الكثير من البربر وأطاعوهم، إذ كانوا يعتبرون الأدارسة من لفيفهم ويتشيعون لهم[3]. وهذا ما شجع الحموديين على التطلع إلى الخلافة معتمدين على عصبيتهم الجديدة من البربر وكانت حال الأندلس المضطربة وفقدان هيبة الخلافة واستئثار البربر بالأمر وضعف السلطة المركزية وانتشار الفوضى مناسبات يمكن اغتنامها للوصول إلى حكم الأندلس، ولا بد للطامحين إلى الخلافة من التمتع بشروطها وخاصة النسب القرشي. والحموديون هم الوحيدون المؤهلون لهذه المهمة خاصة وأنهم أحفاد الرسول محمد ﷺ وكان علي بن حمود والي سبتة من قبل المستعين الأموي يطمح إلى أكثر من ولاية ثغر أو مدينة، كان يتطلع إلى الخلافة، وإلى القضاء على الدولة الأموية في الأندلس[4].

بدأ علي بالبحث عن الحلفاء والأنصار لبلوغ مرامه، وكان في الأندلس فريقان يقرران مصير خلافتها البربر والفتيان العامريون من الصقالبة. بالنسبة للبربر كان الأمر محسوماً لصالحه كما بينت سابقاً، إذ كانوا يشعرون بأن فوز علي بن حمود بالخلافة انتصار لهم فهو من عصبيتهم نشأة ومصيراً. أما الفريق الآخر وهم الفتيان العامريون، فكان يرى فيهم حلفاءه الطبيعيين إذ أنهم خصوم الخليفة الأموي سليمان الظافر وخاصة خيران وهو أحد قادتهم البارزين وكان قد

(1) جذوة الاقتباس ص 50 ـ البيان المغرب 3/119 ـ ابن خلدون 4/153 ـ ابن حزم 1/197 ـ أعمال الاعلام ص 118 ـ ابن الأثير 7/284.
(2) ابن خلدون 4/153.
(3) ابن خلدون 4/153.
(4) ابن الأثير 7/284. بغية الملتمس ص 24.

استقر بشرق الأندلس واستولى على المرية ومرسية، وكان من مؤيدي الخليفة هشام المؤيد بن الحكم المستنصر، وقد دعا له في المناطق التي سيطر عليها[1].
راسله علي وأظهر له كتاباً تلقاه من الخليفة المؤيد هشام المحاصر في قرطبة من قبل سليمان الظافر[2] يوليه فيه عهده ويطلب منه إنقاذه من أعدائه: (ذلك أن هشام لما رأى ما آلت إليه الأمور في دولته قد منح علي بن حمود ولاية عهده وأوصى إليه بالخلافة من بعده وأرسل إليه ذلك بسبتة سراً وولاه طلب دمه واستكتمه السر حتى يحين الأوان لذلك)[3]. وسواء كان هذا الأمر صحيحاً أم ادعاء، فالحاكم مهما كان يتمتع بقوة فإنه يبحث عن الوسيلة الشرعية لتدعيم سلطته أمام رعيته.

ولكن عين سليمان الظافر لم تكن غافلة عما يجري حوله، فبالرغم من أنه هو الذي ولى الحموديين المغرب فإنه أخذ يخشى طموح علي بن حمود فبث حوله العيون والجواسيس لمراقبة تحركاته، فكلف قاضي سبتة محمد بن عيسى والفقيه ابن يربوع بهذه المهمة[4]. ويبلغ الخبر علي بن حمود وهو يستعد لتنفيذ مخططه للاستيلاء على السلطة، فأمر بقتلهما سنة 404 هـ/ 1014 م[5] وأعلن الدعوة لنفسه.

شاعت في الأندلس دعوة علي بن حمود فأيدها حكام الثغور المعارضين للخليفة سليمان الظافر وعلى رأسهم عامر بن فتوح الفائقي[6]. وكتب إليه كذلك خيران العامري يدعوه إلى الأندلس لتولي الأمر فيها بعد أن أرسل إليه

---

(1) ابن الأثير 7/284. الذخيرة 41.
(2) جذوة الاقتباس ص 50 ـ البيان المغرب 3/120 ـ ابن حزم 1/198 ـ بغية الملتمس ص 24.
(3) البيان المغرب 3/114 ـ جذوة الاقتباس ص 50 ـ أعمال الاعلام ص 121. ابن الأثير 7/284.
(4) البيان المغرب 3/115 ـ أعمال الاعلام ص 121.
(5) البيان المغرب 3/115 ـ أعمال الاعلام ص 121.
(6) جذوة الاقتباس ص 50 ـ ابن الأثير 7/284 ـ بغية الملتمس ص 24.

الكتاب المرسل من الخليفة هشام المؤيد[1] لإنقاذها من الحالة المتردية التي وصلت إليها.

لقد اكسبت هذه الدعوة والنداءات علي بن حمود قوة وشرعية. فمن حيث القوة، الفتيان العامريون يسيطرون على أكثر ثغور الأندلس فازداد قوة بانضمامهم إليه. وكذلك من الناحية الشرعية فهم من مؤيدي الخليفة هشام المؤيد بن الحكم وهو الخليفة الشرعي، وكل من ادعى الخلافة أثناء حياته هو مغتصب لها من صاحبها الشرعي في نظرهم.

لبى علي بن حمود الدعوة، إذ رأى أن حكم الأندلس مفتوحاً أمامه. عبر المضيق من سبتة إلى الجزيرة الخضراء أواخر 406 هـ/ 1016 م وسار إلى مالقة وفيه عامر بن فتوح مولى فائق[2] فأطاعه وسلمه المدينة فدخلها علي وتملكها[3]. وكان خيران قد سار في قواته والتقى بعلي في ثغر المنكب الصغير ما بين مالقة والمرية وبايعه على طاعة هشام المؤيد. وأعلن علي أن هدفه من العملية نصرة الخليفة هشام[4]، فانضم إليه جماعة من المؤيدين للخليفة[5]. وهناك نظم القائدان قواتهما ووضعا الخطة للزحف على قرطبة. سارت القوات نحو العاصمة للاستيلاء عليها، وأخذ عددها يزداد بانضمام المؤيدين لعلي بن حمود. فقد انضم إليه أثناء الزحف زاوي بن زيري وحبوس بن ماكسن الصنهاجي مع إخوته وأقاربه الصنهاجيين[6].

كانت أخبار القوات الزاحفة قد بلغت سليمان الظافر الأموي فخرج ابنه محمد من قرطبة للقائهم، والتقى الفريقان على مسافة عشرة فراسخ من العاصمة[7]،

---

(1) البيان المغرب 3/116 ـ ابن الأثير 7/284. بغية الملتمس ص 24.
(2) جذوة الاقتباس ص 50 ـ ابن حزم 1/198 ـ الذخيرة 41.
(3) جذوة الاقتباس ص 50 ـ بغية الملتمس ص 24.
(4) البيان المغرب 3/120 ـ ابن الأثير 7/285.
(5) البيان المغرب 3/120.
(6) البيان المغرب 3/120 ـ ابن الأثير 7/285. لم يذكر الأسماء.
(7) ابن الأثير 7/285 ـ معجب 44.

ونشبت معركة شديدة انتهت بانتصار علي بن حمود وهزيمة محمد بن سليمان الظافر الذي وقع في الأسر مع والده الحكم وأخيه عبدالرحمن وذلك نهار الأحد محرم 407 هـ/ حزيران 1016 م[1]. ودخل علي بن حمود قصر قرطبة وبحث عن الخليفة هشام فلم يجده. وكان الاعتقاد السائد في قرطبة أن سليمان أخفاه ولم يقتله. ولكن بعد أن تبين أنه قتله أمر علي بن حمود بإخراجه من القبر وعرضه على الشهود فشهدوا أنه هشام طلب بإحضار الأسرى سليمان وأبيه وأخيه وطلب من سليمان هشاماً فأجابه بأن ابنه محمد قد قتله مع الوزير أحمد بن يوسف الدب[2]. عندئذ قتلهم بيده ثأراً للخليفة القتيل هشام، وقال بلهجة بربر زناته «الزلطان يقتل الزلطان»[3] وذلك أمام حشد من البربر والأندلسيين[4] وأخرج رؤوس القتلى الثلاثة ووضعهم في طست وأمر بإخراجها من مكانها إلى القصر ينادي عليها: هذا جزاء من قتل هشاماً[5]، وقد علقت رقاع بآذانهم تحمل أسماءهم وفي أعلاها رأس الوزير أحمد بن الدب[6] وذلك إرضاء لحلفائه البربر الذين أيدوه على طاعة المؤيد، فبهذا العمل يكون قد تخلص من منافسه القوي الخليفة الأموي سليمان.

كان ذلك نهار الأحد محرم 28 محرم 407 هـ/ أول تموز 1016 م.

وبقتل سليمان ظهر علي بن حمود وكأنه حامي الشرعية في الأندلس والمدافع عنها وبذلك يكون قد مهد الطريق لنفسه لتولي الخلافة على أنه ولي عهد الخليفة القتيل هشام المؤيد.

بعد مقتل سليمان أعلن علي بن حمود وفاة الخليفة هشام المؤيد رسمياً.

---

(1) الجذوة ص 50 ـ نفح الطيب 406 ـ المغرب ص 133 ـ أعمال الاعلام ص 121 ـ بغية الملتمس ص 25 ـ البيان المغرب 3/120 ـ ابن خلدون 4/152 ـ ابن الأثير 7/285.
(2) البيان المغرب 3/117 ـ الذخيرة 41.
(3) أعمال الاعلام ص 121 ـ ابن الأثير 7/285 ـ معجب 44.
(4) البيان المغرب 3/117.
(5) أعمال الاعلام ص 121. الذخيرة 42.
(6) البيان المغرب 3/117.

ودعا إلى بيعته فبويع بالخلافة[1] بباب السدة من قصر قرطبة في اليوم التالي لمقتل سليمان. ولم يتخلف عن بيعته أحد وتلقب بالناصر[2].

هكذا زالت دولة بني أمية من الأندلس بعد أن عاشت منذ دخول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام حتى مقتل المستعين 268 مئتين وثمان وستين سنة، أنهاها الهاشميون الحموديون الخصوم التقليديون للأمويين. وتربع على عرش قرطبة الخليفة الحمودي علي.

بدأ الخليفة الجديد بوضع حد للفوضى والفتن. فقد تشدد في معاملة البربر الذين كانوا يجنحون إلى التمرد والشغب بالرغم من أنهم أيدوه وطلبوا منه العبور إلى الأندلس وكانوا القوة الرئيسة في جيشه. ولكن السيفان لا يجتمعان في غمد واحدة فلا بد من حاكم واحد لسلطة واحدة. والحاكم لا يرضى أن يقاسمه السلطة أحد. من هنا بدأ الصراع بين الخليفة وبين حلفائه السابقين من البربر. فالبربر كانوا يريدون الإبقاء على حالة الفوضى التي عاشوها منذ سقوط دولة العامريين وقد استمرأوا هذه الحالة فكانوا يدعمون خليفة ضد خليفة آخر طبقاً لما تقتضيه مصلحتهم، ثم يعودون فينقلبون على من أوصلوه إلى الحكم. لذلك عمل الخليفة الجديد على تقوية السلطة المركزية، واستعمل الشدة والقوة مع العصاة وفتك بالمعارضين من عرب وبربر[3] حتى خشوا من سلطته خاصة الجنود البربر، حتى تبين أنهم أطوع الناس لمن يستعمل الشدة معهم[4]. وتقرب من سكان قرطبة[5] أحسن معاملتهم وأقام العدل، فتح باب قصره لهم وسار فيهم سيرة الخلفاء الراشدين حتى أصبح دانيهم يقاضي كبيرهم في قرطبة وخاصة كبار البربر، فتجري الأحكام عليهم دون محاباة أحد من أعيان الدولة[6]. كان

---

(1) ابن خلدون 4/153. الذخيرة 97.
(2) نفح الطيب 407 ـ البيان المغرب 3/119 ـ جذوة الاقتباس 1/52 ـ بغية الملتمس ص 27. معجب 49.
(3) أعمال الاعلام ص 129.
(4) البيان المغرب 3/122 ـ الذخيرة 97.
(5) البيان المغرب 3/122 ـ أعمال الاعلام ص 129.
(6) البيان المغرب 3/123.

يجلس لمظالم الناس فاتحاً بابه أمام الرعية مرفوع الحجاب يقيم الحدود بنفسه وفق أحكام الشريعة الإسلامية ولا يجرؤ أحد على مخالفته بذلك[1]. ومن الأمثلة على إقامة الحدود بنفسه أن جماعة من قادة البربر اعتدوا على مواطنين آمنين فأمر الخليفة بضرب أعناق الجناة أمام وجوه قبائلهم وهم ينظرون إليهم ولا يجرأون على طلب الشفاعة لهم. وقد ضرب عنق رجل بربري لأنه سلب مواطناً حمل عنب، وأمر بأن يطاف برأسه في العاصمة[2].

بفضل هذه السياسة السمحاء أمن أهل قرطبة على أنفسهم وأملاكهم فعادوا إلى مباشرة أعمالهم وهم ينعمون بالأمن، يشجعهم على ذلك عدل الخليفة[3]. واتخذ كذلك كبار سكان قرطبة أعواناً له مثل أبي الحزم بن جهور وأحمد بن برد، وعين على القضاء ابن الحصار[4].

على أن الأمور سارت عكس ما تشتهي السفن. فقد خشي الفتيان العامريون من سطوة الخليفة الحمودي فانقلبوا عليه حسب عادتهم في التقلب[5].

ذلك أن خيران العامري كان يأمل عند دخول قرطبة مع علي بن حمود أن يجد الخليفة الأموي هشام المؤيد حياً، فلما أيقن من وفاته تخوف من سطوة الخليفة الحمودي الناصر واستراب منه وحذره. وعلم الخليفة بذلك وأراد قتله[6]، ففر من قرطبة إلى شرق الأندلس حيث العامريون وأنصارهم الذين أعادوا الدعوة للأمويين من جديد بشخص عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر[7] الذي كان قد هرب من قرطبة عند سقوطها بيد

---

(1) البيان المغرب 3/123 ـ أعمال الاعلام ص 129 ـ الذخيرة 98.
(2) البيان المغرب 3/121 ـ الذخيرة 98.
(3) أعمال الاعلام ص 129.
(4) البيان المغرب 3/123.
(5) جذوة الاقتباس ص 52.
(6) البيان المغرب 3/121 و 122 ـ أعمال الاعلام ص 130 ـ ابن الأثير 7/285.
(7) جذوة الاقتباس ص 52 ويسمي عبدالله مكان عبدالملك الاعلام ص 130. ابن الأثير 7/285.

علي بن حمود، إلى جيان. استدعاه خيران وبايعه مع الفتيان العامريين وأنصارهم بالخلافة ولقبوه بالمرتضى[1] وانضم إلى حركة التمرد الجديدة المنذر بن يحيى التجيبي وابن ذي النون وزهير العامري[2]. فلما آنس المرتضى الأموي القوة من نفسه أعلن الثورة وسار بقواته إلى غرناطة[3] يريد الاستيلاء عليها وأميرها يومئذ زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي[4].

أما سكان قرطبة فإن سياسة الناصر الحكيمة التي اتبعها معهم مدة 8 أشهر لم ترضهم، إذ أحس منهم الميل إلى المرتضى الأموي[5]، فأيقن أن سياسة التقرب منهم لم تجد نفعاً فانقلب عليهم، جردهم من سلاحهم وأغرمهم ضروب المغارم وزج بوجهائهم في السجون وسلط عليهم أشرارهم وعاملهم معاملة قاسية. وعزم على إخلاء قرطبة وإبادة سكانها ولا يكون فيها خليفة من المروانيين[6]. فاضطر القرطبيون إلى لزوم بيوتهم في النهار، وقلما كانوا يخرجون منها حتى خلت الأسواق من الناس وكانوا ينتظرون المساء للخروج من منازلهم لقضاء حاجاتهم تحت جنح الظلام[7].

لقد جنى سكان قرطبة على أنفسهم، وجروا عليهم هذه السياسة القاسية بعد أن رفضوا سياسة العدل.

عاد الخليفة الناصر الحمودي إلى التقرب من حزبه البربري وآثره على غيره وأطلق يد أنصاره في العاصمة يسومون سكانها ضروب الظلم والتعسف انتقاماً وتشفياً[8].

---

(1) جذوة الاقتباس ص 52 ـ المعجب 50 البيان المغرب 3/122 ـ رسائل ابن حزم 1/262 ـ ابن الأثير 7/285 ـ بغية الملتمس 27.
(2) أعمال الاعلام ص 130.
(3) أعمال الاعلام ص 130 ـ جذوة الاقتباس ص 52 ـ المعجب 50 ـ الذخيرة 409.
(4) أعمال الاعلام ص 130 ـ ابن الأثير 7/285.
(5) البيان المغرب 3/121.
(6) الذخيرة 99.
(7) البيان المغرب 3/123 ـ الذخيرة 100.
(8) البيان المغرب 3/123.

وشرع في الاستعداد للقاء الثائر الأموي المرتضى الذي زحف نحو غرناطة. ولكن القدر كان له بالمرصاد إذ تآمر عليه ثلاثة من فتيانه الصالقبة هم منجح وصاحباه لبيب وعجيب[1] وكانوا من أنصار الأمويين إذ سدوا باب الحمام عليه وقتلوه، وتسللوا دون أن يشعر بهم أحد. ولما استطال نساؤه بقاءه في الحمام دخلوا عليه فألفوه قتيلاً والدم يسيل منه[2]، وكان ذلك نهار السبت 2 ذي القعدة 408 هـ/ 23 أذار 1018 م[3] وله من العمر خمس وخمسون سنة. وقد مدحه الشعراء منهم ابن دراج القسطلي[4].

استدعى أنصاره أخاه القاسم من اشبيلية[5]. خاف القاسم من أن يكون الأمر حيلة، فبعث بعض أعوانه المخلصين للاطلاع على حقيقة الأمر، ولما تيقن من ذلك توجه إلى قرطبة[6].

---

(1) البيان المغرب 3/122 ـ المغرب ص 133 ـ الذخيرة 101 ـ المعجب 50 ـ نفح الطيب 1/407 ـ ابن الأثير 7/286 لم يذكر الأسماء.
(2) أعمال الاعلام ص 129 ـ جذوة الاقتباس ص 53 ـ ابن خلدون 4/153.
(3) جذوة الاقتباس ص 53 ـ الذخيرة 101.
(4) البيان المغرب 3/124.
(5) أعمال الاعلام ص 129 ـ الذخيرة 101.
(6) البيان المغرب 3/122.

القاسم بن حمود

كان القاسم والياً على الجزيرة الخضراء، منذ عهد المستعين الأموي، انتقل إلى قرطبة بعد مقتل أخيه علي، بويع بالخلافة نهار الثلاثاء 8 ذي القعدة 408 هـ/ 29 آذار 1018 م(1)، وكان له من العمر 65 سنة تلقب بالمأمون وكان شيعياً(2). أخرج جسد أخيه صلى عليه ثم أرسله إلى سبتة حيث دفن. أول عمل قام به محاكمة الذين اغتالوا أخاه الخليفة علي، قبض على اثنين من القتلة، فقتلا وصلبا. ولم يثبت التحقيق معهما اشتراك غيرهم في الجريمة فهدأت الأحوال(3). بعد أن تلقى البيعة سار في الرعية سيرة حسنة(4)، أحسن استقبالهم وأمنهم، تبرأ ممن يعتدي عليهم، أسقط ما كان أخوه قد فرضه عليهم عندما شعر بميلهم إلى الأمويين. ثبت الحكام والقاضي في مراكزهم، اتخذ بطانه من السودان وأسند إليهم أعماله(5).

أول أمر مهم اعترضه بعد أن تولى الخلافة تمرد المرتضى الأموي في شرق الأندلس، وقد زحف على غرناطة بجيش من العرب والنصارى(6) وكان

(1) أعمال الاعلام ص 29 ـ البيان المغرب 3/130 ـ رسائل ابن حزم 1/38، 263 ابن خلدون 4/153.

(2) جذوة الاقتباس ص 53 ـ نفح الطيب ص 407 ـ ابن الأثير 7/286.

(3) أعمال الاعلام ص 129 ـ البيان المغرب 3/130 ويذكر أنه قتل الثلاثة.

(4) جذوة الاقتباس ص 53 ـ ابن الأثير 7/286.

(5) البيان المغرب 3/130 ـ أعمال الاعلام ص 130 ـ الذخيرة 101.

(6) البيان المغرب 3/126. الذخيرة 102.

أميرها زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي(1) أرسل المرتضى الأموي إلى زاوي كتاباً يدعوه فيه إلى الطاعة والبيعة(2). فلما قرىء الكتاب عليه أمر كاتبه بأن يكتب على ظهره السورة الكريمة: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين﴾. وأرسله إلى الخليفة الأموي الذي قرأه وأعاده إلى زاوي وفيه تهديد ووعيد. فكان رد زاوي السورة الكريمة: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون. كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسئلن يومئذٍ عن النعيم﴾(3). فازداد المرتضى غيظاً ويئس منه. ونشب القتال بين الفريقين أياماً انتهى بمقتل المرتضى الأموي وفرار أعوانه من المعركة وخيل زاوي تطاردهم(4). وغنم الصنهاجيون معسكر المرتضى بما فيه من العتاد والخيل وفساطيط الأمراء ومضارب الرؤوساء، من بينها سرادق المرتضى الخاص. وقد غنم الجيش الصنهاجي غنائم كثيرة بعد انتصاره، فكانت حصة الفارس عشرة أبغال موقرة، إذ كان جيش المرتضى قد أتى إلى المعركة ومعه ما يملك الأمراء لأنهم كانوا واثقين من النصر(5)، فكانت الهزيمة. كان أول المنهزمين من معسكر المرتضى منذر بن يحيى وخيران العامري(6). ذلك أن المرتزقة الإسبان كانوا قد حذروا منذراً من غدر الموالي العامريين، ففت ذلك في رجاله، فلما تراجع من المعركة مع جيشه لم يعرف أحد السبب. ومر بسليمان بن هود وحرضه على الفرار ثم تبعهم خيران(7) وبقي

(1) أعمال الاعلام ص 130 ـ جذوة الاقتباس ص 52 ـ ابن الأثير 7/287 ـ دوزي ص 5.
(2) أعمال الاعلام ص 130 ويذكر: كان بينه وبين القوم محاورات. البيان المغرب ص 126.
(3) البيان المغرب 3/126.
(4) جذوة الاقتباس ص 53 ـ اعمال الاعلام ص 131 ـ ابن الأثير 7/285.
(5) البيان المغرب 3/126 ـ الذخيرة 454.
(6) البيان المغرب 3/126 ـ الذخيرة 454.
(7) البيان المغرب 3/126.

المرتضى - رغم جبنه - يقاتل مع العامريين الذين صمدوا قليلاً في المعركة، ثم فروا بعد أن كثر فيهم القتل[1] وتركوه وحيداً عندئذٍ خاف أن يقع في الأسر فولى هارباً. وكان خيران قد بث عيوناً حوله فلحقوا به قرب وادي آش[2] وقتلوه بعد أن أمنوه على نفسه[3]، وحملوا رأسه إلى خيران ومنذر وقد لحقا بالمرية ومعهما الرأس[4]. ونجا من تلك المعركة أخوه أبو بكر بن هشام الذي التحق بالفتيان العامريين، ثم انتقل إلى حصن البونت واستقر عند صاحبه ابن قاسم بعد أن شعر أن الفتيان العامريين متضايقون منه، وكان ابن قاسم من أنصار الأمويين فأكرم وفادته وأجاره. وبقي أبو بكر مقيماً في البونت حتى مبايعته بالخلافة فيما بعد[5]. وقد علق ابن عذاري على هذه المعركة لأنها كانت رهيبة على الأندلسيين (مصيبة أنست ما قبلها، ولم يجتمع لهم جمع بعد وأقروا بالإدبار وباؤوا بالصغار)[6]. وقد انهارت دولة المروانيين الأمويين في الأندلس وقتل من ظهر منهم بأقاصي الأندلس وزهد الناس من دولتهم وتفرق من بقي منهم في أنحاء الأندلس، (وامتهنوا وأهينوا) ودخلوا في عداد الناس[7].

أرسل زاوي بن مناد كتاباً إلى الخليفة الحمودي القاسم يشرح فيه سير المعركة ويزفه البشرى بمقتل المرتضى الأموي وهزيمة الأندلسيين ومع الكتاب سهمه من الغنائم ومعه سرادق المرتضى[8].

سر القاسم بذلك وضرب السرادق على نهر قرطبة ليراه الناس الذين

(1) البيان المغرب 3/ 127.
(2) وادي آش يقع بالقرب من مدينة غرناطة. الذخيرة 455.
(3) جذوة الاقتباس ص 53 - نفح الطيب 1/ 407.
(4) البيان المغرب 3/ 127. الذخيرة ٤٥٥.
(5) البيان المغرب 3/ 127 - ابن الأثير 7/ 285. ويسميه باسم هشام.
(6) البيان المغرب 3/ 127 - الذخيرة 455.
(7) البيان المغرب 3/ 127 - الذخيرة 556 في غمار الناس.
(8) أعمال الاعلام ص 131. الذخيرة 456.

توافدوا لمشاهدته وهم بين مسرور ومحزون[1]. وقد حدثت هذه المعركة سنة 409 هـ/ 1018 م[2].

وهنأ الشعراء القاسم بمقتل المرتضى الأموي[3]:

لك الخير خيران مضى لسبيله ... وأصبح ملك اللّه في ابن رسوله
وقام لواء الدفع فوق ممنع ... من النصر جبريل أمام رعيله
وأشرقت الدنيا بنور خليفة ... به لاح بدر الحق بعد أفوله
ولما دعا الشيطان في خيل حزبه ... وأقبل حزب الله فوق خيوله
كتائب من صنهاجة وزناته ... تضايقن في عرض الفضاء وطوله
تقدم خيران إليها بزعمه ... ليدرك ما قد فاته من دخوله
فأحجم تحت النقع والخيل تدعي ... كما ازدلفت الليث الهزبر لقيله
وولى وألقى منذر من ورائه ... يقيم لأهل العذر عذر نكوله

كان من نتائج هذه المعركة أن زاوي بن زيري الصنهاجي الذي أحرز النصر على المرتضى الأموي والأندلسيين، صمم على مغادرة الأندلس إلى افريقية، فأرسل يستأذن ابن عمه المعز بن باديس[4] في العودة. فأذن له بذلك. ورحب بذلك أيضاً بنو عمه الصنهاجيون في القيروان. وغادر الأندلس سنة 416 هـ/ 1025 م من ثغر المنكب على مجموعة من سفنه محملة بالذخائر والأموال. واستقر في القيروان في كنف ابن عمه المعز عزيزاً مكرماً حتى مماته[5].

وسبب مغادرة زاوي الأندلس تعود إلى أنه أحرز كثيرا من الغنائم والأموال أيام الفتنة[6]. وتخوف من كر الأندلسيين عليه. إذ أن النصر الذي

---

(1) أعمال الاعلام ص 136 ـ البيان المغرب 3/ 128.
(2) أعمال الاعلام ص 131.
(3) البيان المغرب 3/ 129.
(4) الذخيرة 458.
(5) أعمال الاعلام ص 131.
(6) البيان المغرب 3/ 129.

أحرزه على المرتضى لم يكن لتفوقه عليه بالعدة والعدد، وإنما لتخاذل أصحابه وأنصاره وفرارهم من المعركة بدون قتال[1]. (إن انهزام من رأيتموه لم يكن عن قوة منا، إنما مع القضاء غدر ملوكهم لسلطانهم ليهلكوه كما فعلوا. فإني رأيت ذلك من يوم نزولهم. ولذلك كنت أقوي أنفسكم. وقد نجانا الله منهم، ومضى القوم ولم يقدموا إلا رئيسهم واستخلافه هين عندهم. ولست آمن عودهم حملة إليكم فيما بعد، فلا يكون لنا قوام بهم. فالرأي الخروج عن أرضهم واغتنام السلامة مع إحراز الغنيمة والرجوع إلى الجملة التي انفصلنا عنها كانفين للعيال والذرية مباعدين لما وراءنا من زناتة أعدائنا الذين لا يغفلون عنا لا سيما وقد فرقنا قومهم ونبشنا أحقادهم المدفونة بيننا، فإن فرغوا لنا على قلة عددنا أو ظاهروا علينا الأندلس وقعنا منهم بين لحيي أسد فاصطلمونا وها أنا قد أديت لكم النصيحة وأنا راحل عن الأندلس. فمن أطاعني فليرحل معي)[2].

وعندما قتل علي بن حمود سليمان بن الحكم الأموي، طلب زاوي من الخليفة الحمودي رأس المستعين ثأراً لرأس والده زيري المهدي لبني أمية سابقاً، فأعطاه إياه علي، وقد نقله معه إلى افريقيا مفتخراً به ومظهراً لأهل بيته بأنه ثأر لوالده[3].

بعد مضي أربع سنوات على خلافة القاسم، تسرب الضعف إلى دولته إذ انقلب عليه رؤساء البربر وأمراء الثغور والفتيان العامريون[4]. وهم على عادتهم في التقلب والانتقال من مبايعة خليفة إلى آخر لأنهم ليسوا من الذين يتحملون المسؤولية في تلك المرحلة الصعبة ويعتبرون أنفسهم كذلك صانعي الخلفاء.

أرسل القاسم سراً كتاباً إلى منذر بن يحيى صاحب سرقسطة يطلعه على الأمر ويستنهضه للوقوف إلى جانبه، لكن المنذر لم يستجب لطلبه[5].

---

(1) أعمال الاعلام ص 131.
(2) البيان المغرب 129/3.
(3) البيان المغرب ص 129.
(4) أعمال الاعلام 130 ـ الذخيرة 481.
(5) البيان المغرب 130.

ثم هبت رياح الثورة عليه من أقرب المقربين إليه الذين كان من المفترض أن يكونوا عوناً له ودرعاً لتثبيت الدولة الهاشمية في الأندلس التي قامت بعد تخطيط دقيق ومغامرة. فقد ثار عليه إبنا أخيه علي الذي أسس الدولة، يحيى حاكم سبتة وإدريس حاكم مالقة، وكانا يظهران الولاء لعمهما[1]، فكانا قد بايعاه سنة 410 هـ/ [2]، وطلبا منه التنحي عن الحكم، واتصل يحيى الشاعر ابن دراج القسطلي وأرسل إليه قصيدة يدعوه فيها إلى الجواز إلى الأندلس[3].

استقر يحيى بمالقه[4] بعد أن جاز المضيق.

واستخلف أخاه إدريس علىٰ سبتة[5]. وجهز يحيى جيشاً من أنصاره البربر وتوجه نحو قرطبة للاستيلاء عليها وطرد عمه منها. استنجد الخليفة القاسم برؤساء البربر، ولكنهم تقاعسوا عن نجدته[6]. بل عملوا على زيادة الشقاق بين الحموديين[7] ولما عجز القاسم عن المقاومة غادر قرطبة إلى إشبيلية في ربيع الآخر 412 هـ/ 1022 م واستقر بها وبايعه القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد[8]. دخل يحيى مدينة قرطبة وتلقى البيعة فيها نهار الإثنين مستهل جمادي الأول 412 هـ/ 1022 م وتلقب بالمعتلي بالله[9]. التف حوله العرب والبربر أقر أصحاب الخطط على مراتبهم[10] فعلى الكتابة أحمد بن برد وعلى الوزارة أبا عمر بن موسى اليماني ومحمد بن العرضي وسما أبو بكر بن ذكوان وأخوه

---

(1) نفح الطيب 1/407 ـ ابن خلدون 4/153 ـ جذوة الاقتباس 53.
(2) الذخيرة 481.
(3) ديوان ابن دراج القسطلي ص 528 ـ 529.
(4) المعجب ص 50 ـ بغية الملتمس ص 28.
(5) أعمال الاعلام ص 131 ـ نفح الطيب 1/407 ـ ابن الأثير 7/286.
(6) جذوة الاقتباس ص 54 ـ ابن الأثير 7/286.
(7) البيان المغرب 3/131.
(8) ابن خلدون 4/153 ـ ابن الأثير 6/286. ويذكر انتقاله إلى اشبيلية.
(9) نفح الطيب 1/407 ـ ابن خلدون 4/153 ـ ابن الأثير 7/286.
(10) الذخيرة 482.

أبو العباس إلى الوزارة-استقر الخليفة الجديد في عاصمته وقد تصالح مع عمه القاسم. وقال في ذلك ابن حزم: «خليفتان تصالحا وهو أمر لم يسمع بأذل منه ولا أدل على إدبار الأمور يحيى بن علي بن حمود بقرطبة والقاسم بن حمود في إشبيلية»[1].

وسار الخليفة الجديد سيرة حسنة في الرعية. كان يتحبب إلى الناس ويجزل العطاء لمن يفد عليه ويمدحه[2]. نشر الأمن وحقق العدالة وتجنب العصبية[3].

ولكن الضعف تسرب إلى دولته وساءت أحواله فاضطر إلى مغادرة قرطبة في 12 ذي القعدة 413 هـ/ 1023[4]. فكانت مدة خلافته الأولى بقرطبة سنة وستة أشهر ونصف، خلال هذه المدة استوزر يحيى بن علي محمد بن الفرضي الكاتب الذي كان وبالاً على الدولة لأنه كان «سافلاً»[5] وعين كاتباً أحمد بن برد. ومن الذين وصلهم جعفر بن فتح وكان من أصحابه، وإبراهيم بن الافليلي كبير أدباء قرطبة. واشتهر في أيامه أبو بكر بن ذكوان[6].

غادر يحيى قرطبة إلى مالقة[7] بعد أن خلعه البربر، واستدعى الثائرون الخليفة السابق القاسم من إشبيلية إلى قرطبة فدخلها نهار الثلاثاء 18 ذي القعدة 413 هـ/ 1024 م. وأصبح يحكم قرطبة وإشبيلية وابن أخيه يحيى مالقة.

بعد سبعة أشهر من ولايته الثانية ساءت العلاقات بينه وبين سكان قرطبة بسبب تسلط حاشيته من البربر[8]، ثار عليه القرطبيون وخلعوه بالإجماع نهار

(1) أعمال الاعلام ص 131 ـ البيان المغرب 3/133 ـ ويورد صاحب الاعلام صيغة مختلفة.
(2) البيان المغرب 3/133.
(3) أعمال الاعلام ص 131.
(4) أعمال الاعلام ص 132 ـ البيان المغرب 3/133 ـ ابن الأثير 7/286.
(5) البيان المغرب 3/132.
(6) البيان المغرب 3/132 ـ مطمح الأنفس ص 207.
(7) جذوة الاقتباس ص 55 ـ ابن خلدون 4/153 ـ ابن الأثير 7/286.
(8) أعمال الاعلام ص 133 ـ البيان المغرب 3/133.

الثلاثاء 21 جمادي الآخرة 415 هـ/ 1025[1] وحاصروه في القصر، فاضطر إلى مغادرته إلى الربض الغربي، وحاصره الثوار ومن معه من البربر مدة خمسين يوماً[2] إلى أن تم لهم النصر عليه بعد هزيمة البربر. وغادر القاسم العاصمة إلى إشبيلية وفيها ولداه محمد والحسن[3] مع الوزير محمد بن خالص. لم يستقبله الاشبيليون، أغلقوا أبواب مدينتهم بوجهه ومنعوه من دخولها وأخرجوا إليه ولديه من القصر مع أنصاره من البربر. وكان القاسم قد طلب منهم إخلاء ألف دار للبربر أنصاره فرفضوا[4]. وقد ترأس الإشبيليين القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد ومحمد بن مريم الألهاني ومحمد بن محمد بن الحسن الزبيدي[5]. ثم انفرد محمد بن اسماعيل بن عباد بالحكم[6].

اتجه القاسم نحو الغرب واستقر في مدينة شريش واستولى يحيى على الجزيرة الخضراء وكانت معقل عمه القاسم وفيها امرأته وذخائره وكذلك استولى أخوه إدريس على سبتة وطنجة. فحاصره فيها مدة عشرين يوماً ابن أخيه يحيى المعتلي بالله، ثم دخل المدينة واعتقل عمه ونقله مقيداً إلى مالقة وسجنه مع ولديه عند أخيه إدريس[7] وأوكل أمرهما إلى رجل مغربي يدعى أبو الحجاج وبقي القاسم في سجنه ومات خنقاً سنة 431 هـ/ 1039 م. ونقل جثمانه إلى الجزيرة الخضراء حيث دفنه فيها ابنه محمد[8].

وهكذا انتهت قصة حياة القاسم بن حمود ودخلت الأندلس في فوضى جديدة.

---

(1) ابن خلدون 4/153 ـ أعمال الاعلام ص 133 ـ دوزي جـ 1 ص 5.

(2) البيان المغرب 3/133 ـ ابن خلدون 4/153 ـ ابن الأثير 287.

(3) جذوة الاقتباس ص 54 ـ نفح الطيب 1/407 ـ دوزي ص 5 ـ الذخيرة 485. بغية الملتمس ص 30.

(4) نفح الطيب 1/407 ـ دوزي ص 6 ـ ابن الأثير 7/287.

(5) أعمال الاعلام ص 133 ـ نفح الطيب 1/407 ـ دوزي ص 5 ـ ابن الأثير 7/287.

(6) ابن الأثير 7/287 ـ معجب 51.

(7) بغية الملتمس ص 38 ـ جذوة الاقتباس ص 54 ـ معجب 51 ـ دوزي ص 5 ـ ابن الأثير 7/287.

(8) نفح الطيب 1/107 ـ أعمال الاعلام ص 133 ـ ابن الأثير 7/287 ـ معجب 51.

عودة الأمويين إلى حكم الأندلس

عمد القرطبيون إلى إعادة الأمور إلى الأمويين، فاختاروا أفضل الأمويين في تلك المرحلة الصعبة سليمان بن عبدالرحمن[1] ولقبوه بالمرتضى كذلك. وشرعوا بأخذ البيعة له في المسجد[2].

في هذه الأثناء هاجم المسجد ـ حيث المرتضى يتلقى البيعة ـ عبد الرحمن بن هشام بن عبدالجبار ـ شقيق المهدي ـ في حشد من أنصاره، يحيط به أمير الدائرة محمود وغيره وكانوا مكلفين بحماية قرطبة من القاسم والبربر[3]. ودعا لنفسه. فبايعه الحضور مكرهين، ومحوا اسم سليمان من الرق وكتبوا اسم عبد الرحمن بن هشام. كان ذلك يوم الثلاثاء 16 رمضان 414 هـ/ كانون الأول 1023 م[4]. كان قد حاول الحصول على الخلافة بعد فرار القاسم بن حمود من قرطبة، فبث دعاته وأنصاره. وتصدى لهم الوزراء وألقوا بهم في السجون ولم يخرجوا منها إلا عندما بويع صاحبهم بالخلافة[5]. وكان سكان قرطبة قد جعلوه

(1) أعمال الاعلام ص 134.
(2) البيان المغرب 3/135.
(3) أعمال الاعلام ص 134 ـ البيان المغرب 3/136.
(4) جذوة الاقتباس ص 56 ـ ابن الأثير 7/287.
(5) البيان المغرب 3/136.

الثالث بعد سليمان المرتضى ومحمد بن العراقي. ولكنهم اضطروا لمبايعته لبراعته[1].

بعد أن تلقى عبدالرحمن البيعة غادر المسجد ومعه ابنا عمه سليمان المرتضى ومحمد بن العراقي وسجنهما وتلقب بالمستظهر بالله[2].

ساء هذا الأمر وجهاء قرطبة من وزراء وشيوخ. ولكنهم خضعوا للأمر الواقع وبايعوه[3]، وأخذوا منه الأمان. ولما استتب له الأمر اعتقلهم وأغرمهم الأموال وسجنهم في المطبق. ثم أطلق ابن عمران أحد المعتقلين بعد أن غير رأيه فيه[4].

وازدادت الأمور سوءاً عندما استقبل المستظهر وفداً من البربر وأكرمهم وأنزلهم في القصر[5]. فثارت العامة وقالت: «نحن الذين قهرنا البرابرة وطرنادهم عن قرطبة. وهذا الرجل يسعى في ردهم إلينا وتمكينهم من نواصينا»[6]. وهاجم الثوار القصر وقتلوا من به من البربر، ولم يشعر المستظهر إلا والثوار قد استولوا على القصر. وسمع المساجين صيحات الناس فاستغاثوا بهم[7]. وحطم الثائرون الإقفال وأطلقوا السجناء. عندئذ علم عبدالرحمن المستظهر أنه مقتول لا محالة[8]. وحاصرته الجماهير الغاضبة، فحاول الخروج من باب الحمام فل يستطع، وارتد على عقبه. وترجل عن فرسه وخلع ثيابه إلا من قميص يستر به جسده، واختبأ في أتون الحمام[9]. وتبعه البربر يختبئون

(1) أعمال الاعلام ص 134 ـ الذخيرة 50.
(2) البيان المغرب 3/ 137 ـ ابن الأثير 7/ 287 ـ بغية الملتمس ص 31 معجب 54.
(3) أعمال الاعلام 134 ـ البيان المغرب 3/ 137.
(4) البيان المغرب 3/ 138 ـ ابن الأثير 7/ 287.
(5) أعمال الاعلام ص 135 ـ البيان المغرب 3/ 138.
(6) أعمال الاعلام ص 135 ـ البيان المغرب 3/ 138.
(7) البيان المغرب 3/ 138 ـ ابن الأثير 7/ 287. الذخيرة 53.
(8) جذوة الاقتباس ص 56.
(9) البيان المغرب 3/ 139.

كذلك في الحمام وغرف القصر، وألقى الثوار القبض على أكثرهم وقتلوهم الفور[1].

وتمادى الثوار بتصرفاتهم السيئة كثيراً، فانتهكوا حريم الخليفة الرحمن وسبوهن ونقلوهن إلى منازلهم «وجرى عليهن ما لم يجر على سلطان في مدة تلك الفتنة»[2].

وأخيراً اكتشف الثوار أمر المستظهر فاعتقل وحمل إلى محمد عبدالرحمن الذي بويع بالخلافة بعده فأمر بقتله على الفور وذلك نهار الـ الثالث من ذي الحجة 414 هـ/كانون الثاني 1024 م[3]. كان عبد الر- المستظهر ذكياً أديباً حسن الكلام بليغاً شاعراً. كان نسيج وحده وخاتمة فة أهل بيته من سلالة الخليفة عبد الرحمن الناصر[4].

كان الخليفة الجديد محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر قد ؛ البيعة وهو ابن إحدى وخمسين سنة، تلقب بالمستكفي بالله وقد توافق لقبه لقب الخليفة العباسي عبدالله الذي تلقب باللقب ذاته المستكفي[5]. و بالخلافة نهار السبت 3 ذي القعدة 414 ه.

كان بين الخليفتين ـ الأموي والعباسي ـ جامع مشترك من الصفات الاستظهار بالفسقة، واعتداء كل منهما على ابن عمه، وتسلط امرأة خبيثة كل واحد منهما، فللعباسي حسناء الشيرازية وللأموي بنت المرورية[6].

ومن العجيب اتفاق الاثنين في الاخلاق والعهر، فقد عاش كل واحد ا

---

(1) البيان المغرب 3/139 ـ ابن الأثير 7/287.

(2) البيان المغرب 3/139 ـ الذخيرة 54.

(3) أعمال الاعلام ص 135 ـ البيان المغرب 3/139 ـ معجب 55 ـ ابن حزم 4/346 الأثير ص 287.

(4) اعمال الاعلام ص 135 ـ البيان المغرب 3/139 ـ ابن الأثير 7/287 ـ بغية الما ص 32.

(5) البيان المغرب 3/140 ـ أعمال الاعلام ص 135 ـ ابن الأثير 7/287.

(6) البيان المغرب 3/141 ـ أعمال الاعلام ص 135 ـ الذخيرة 433.

وخمسين سنة وملك سنة وخمسة أشهر[1].

اشتهر المستكفي الأموي باللهو والفسق والفجور[2] ولم يجلس في الإمارة مدة تلك الفتنة أسقط منه ولا أنقص. استوزر حائكاً أحمد بن خالد قتلته العامة[3].

(1) البيان المغرب 3/141 ـ ابن حزم 2/47.

(2) اعمال الاعلام ص 135 ـ ابن الأثير 7/287 ـ بغية الملتمس ص 33.

(3) المعجب 56 ـ الذخيرة 434.

عودة الحموديين للحكم
ونهاية دولتهم في الأندلس

كان يحيى بن علي بعد التغلب على عمه القاسم لم يدخل مدينة قرطبة، وعين عليها عبد الرحمن بن عطاف اليفرني[1] وأقام في مالقة يترقب الفرص للعودة إلى قرطبة. وبلغته أخبار المستكفي الأموي ونقمة العامة عليه، فتحرك نحو العاصمة للاستيلاء عليها[2]. ولما علم أهل قرطبة بتحرك يحيى الحمودي دخلوا على المستكفي وأبلغوه أنهم مضطرون للخروج لقتال يحيى وطلبوا منه الخروج معهم[3]. فتخاذل، خلعوه وبايعوا ابن عمه محمد بن العراقي[4]. فما كان من المستكفي إلا أن قتل الخليفة الجديد ابن العراقي، وعزم على الهروب من قرطبة، ارتدى ثياب امرأة وخرج متخفياً مع امرأتين، فاغتاله رجال كانوا برفقته طمعاً بالأموال في أقليج بعد سبع وعشرين يوماً من خلعه[5].

ودخل يحيى بن علي بن حمود مدينة قرطبة يوم الخميس 16 رمضان 416 هـ/ 1025 م وبقي مقيماً فيها إلى آخر السنة[6]، ثم غادرها نهار الثلاثاء

(1) جذوة الاقتباس ص 55 ـ نفح الطيب 1/408 ـ ابن الأثير ص 288.
(2) البيان المغرب 3/142 ـ أعمال الاعلام ص 288.
(3) أعمال الاعلام ص 136.
(4) البيان المغرب 3/142 ـ الذخيرة 436.
(5) البيان المغرب 3/142 ـ الاعلام ص 136 ـ ابن الأثير 7/288.
(6) أعمال الاعلام ص 136.

الثامن من المحرم 417 هـ/ 1026 م إلى مالقة وترك فيها وزيره وكاتبه أبا جعفر أحمد بن موسى ودوناس بن أبي روح[1]، فهاجمها زهير وخيران العامريان من قبل حبوس بن ماكسن[2]. ولما علم أهل قرطبة بوصول العامريين هاجموا البربر المقيمين فيها وقتلوهم وعددهم حوالي الألف رجل، وذلك نهار الثلاثاء 20 ربيع الأول 417 هـ/ 1026 م، وفر منها الوزير الحمودي أحمد بن موسى مع أخوين له ولحق بمالقة. أما دوناس فلجأ إلى غرناطة[3].

أما الخليفة يحيى بن علي فقصد قرمونة لقتال محمد اسماعيل بن عباد[4] وكان ابن عباد يريد القضاء عليه لأنه كان يطمع في حكم جنوب الأندلس[5]. فوجه إلى الخليفة جيشاً بقيادة ابنه اسماعيل[6]. وصل جيش ابن عباد إلى أحواز قرمونة وأقام الكمائن بانتظار خروج الخليفة إليهم[7]. وصل إليه الخبر فقال: «وابياض بختي الليلة وابن عباد زائره»[8] وخرج لقتال الجيش القادم من اشبيلية، وكان في مقدمة الجيش ومعه ثلاثماية فارس[9]. وكادت الهزيمة تحل بجيش ابن عباد لولا الكمائن التي أعدها سابقاً وانهزم الخليفة وسقط صريعاً[10]، فاحتز رأسه وأرسل إلى ابن عباد في اشبيلية الذي أظهر السرور وعم الفرح المدينة[11]. وبقي رأس الخليفة مع رؤوس عديدة لم تدفن، إلى أن دخل المرابطون اشبيلية عندما ضموا الأندلس إلى المغرب 484 هـ/ 1091 م

---

(1) اعمال الاعلام ص 136 ـ البيان المغرب 3/143.
(2) اعمال الاعلام ص 136 وحبوس.
(3) البيان المغرب 3/143.
(4) بغية الملتمس ص 31 ـ دوزي ص 9.
(5) اعمال الاعلام ص 31 ـ دوزي ص 15.
(6) دوزي ص 15 ـ ابن الأثير 7/288.
(7) البيان المغرب 3/188 ـ دوزي ص 15.
(8) الذخيرة 317 ـ اعمال الاعلام ص 137.
(9) البيان المغرب 3/188 ـ الذخيرة 317 ـ دوزي ص 15.
(10) تاريخ قضاة الأندلس ص 90.
(11) بغية الملتمس 32 ـ أعمال الاعلام ص 137 ـ ابن الأثير 7/288 ـ دوزي ص 15.

واكتشفوها فهالهم الأمر وأرسلوا إلى من بقي من ذريتهم لدفن الرؤوس. وأعطي رأس الخليفة يحيى إلى أحفاده لدفنه[1].

بعد مصرع الخليفة تولى حكم قرمونة السودان من أنصاره، فأرسل محمد بن إسماعيل إليها محمد بن عبدالله البرزالي من وجهاء البربر، فدخلها بالحيلة واستولى على أموال ونساء الخليفة القتيل يحيى[2].

اجتمع أهل قرطبة وقرروا خلع الحموديين وإعادة الأمويين من جديد[3]. وكان الذي تولى الأمر أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور[4] وذلك بشخص هشام بن محمد بن عبدالملك بن عبد الرحمن الناصر أخ المرتضى القتيل. وكان هشام قد لجأ إلى حصن البونت مستجيراً بصاحبه عبد الله بن القاسم الفهري[5]. وبايعوه نهار الأحد 25 ربيع الآخر 418 هـ/ 1027 م[6] وهو بالحصن المذكور، وتلقب بالمعتد بالله، وخطبوا له بقرطبة وهو غائب عنها، ثم قدم إليها 8 ذي الحجة سنة 420 هـ/ 1029 م[7].

ولم يطل الأمر للخليفة الجديد، إذ أقدم القرطبيون على خلعه نهار الثلاثاء 12 ذي الحجة 422 هـ/ 1031 م[8] بسبب سوء سيرة وزيره حكم بن سعيد المشهور بالقزاز[9]. فقد أساء معاملة الوجهاء والرعية، فكان يأخذ أموال التجار ويعطيها للبربر وهو أمر يسيء إلى سكان قرطبة، فدسوا إليه من يريد

---

(1) البيان المغرب 3/207.
(2) البيان المغرب 3/199 ـ دوزي ص 15.
(3) جذوة الاقتباس ص 56 ـ اعمال الاعلام ص 137.
(4) جذوة الاقتباس ص 59.
(5) جذوة الاقتباس ص 59 ـ أعمال الاعلام ص 138 ـ معجب 57.
(6) نفح الطيب 1/408 ـ البيان المغرب 3/145. بغية الملتمس ص 34 ـ معجب 57.
(7) أعمال الاعلام ص 138 ـ جذوة الاقتباس ص 59. بغية الملتمس ص 34.
(8) البيان المغرب 3/145 ـ جذوة الاقتباس ص 6 ـ بغية الملتمس ص 34.
(9) اعمال الاعلام ص 138 ـ البيان المغرب 3/146 ـ ابن الأثير 7/290 ويكنى بأبي عاصم.

نصحه، وكان الوزير «أطرشاً» فقرب أذنه من الناصح المتآمر فرماه عن فرسه وقتله في أحد أزقة المدينة»[1].

وكانت المعاملة الحسنة لسكان قرطبة من الأمور المهمة لبقاء الخليفة في الحكم لجرأتهم على الثورة وتمردهم على السلطة وضعف الخلافة وعدم مقدرة أي خليفة على ضبط الأمور[2]. وبعد أن بطشوا بالوزير خلعوا هشاماً. وكان الذي أغراهم على قتله أمية بن عبدالرحمن العراقي. وكان متهوراً سولت له نفسه الاستيلاء على السلطة. فلما قتل الوزير اجتمعت العامة حول أمية وتقدم نحو القصر[3] وهشام مقيم فيه. فلما بلغه الخبر صعد إلى أعلى القصر ممتنعاً به، ونهبت العامة محتويات القصر إلى أن نهاهم عن ذلك الشيخ أبو الحزم بن جهور[4].

وجلس أمية مكان هشام يشجع العامة على ابن عمه، فنصحه البعض بالفرار خشية عليه من القتل. فقال: «بايعوني اليوم واقتلوني غداً»[5] بسبب سوء الحالة، اجتمع زعماء قرطبة من وزراء ومشايخ وأهل رأي واتفقوا على خلع الأمويين ونفيهم وإبطال رسم الخلافة[6]. وكان الذي تولى الأمر أبو الحزم بن جهور شيخ قرطبة[7]، فكان هشام آخر خلفاء الأمويين في الأندلس[8].

وأمر المجتمعون الخليفتين الأمويين بمغادرة قرطبة. أنزل هشام من القصر إلى الجامع المفضي إلى المقصورة محاطاً بأفراد أسرته مستغيثاً بالجماعة لحفظ حياته[9] وقال: «ليتني قرب البحر يرمونني في اللجة فيكون أخف لشأني،

(1) البيان المغرب 3/146.
(2) اعمال الاعلام ص 138.
(3) البيان المغرب 3/150 ـ ابن الأثير 7/290.
(4) البيان المغرب 3/150 ـ اعمال الاعلام ص 139.
(5) البيان المغرب 3/151 ـ ابن الأثير 7/290.
(6) اعمال الاعلام ص 139.
(7) اعمال الاعلام ص 139 ـ البيان المغرب 3/151.
(8) ابن الأثير 7/290 ـ بغية الملتمس ص 36 ـ انقطعت الخطبة لبني أمية.
(9) اعمال الاعلام ص 139.

فافعلوا ما شئتم واحفظوني في أهلي وولدي»[1]. وطلب هشام من الحاضرين كسرة خبز لإطعام طفلة صغيرة له وكان يقيها البرد بكمه ثم طلب سراجاً للإنارة[2].

وبات ليلته على هذه الحال حتى يقرر الوزراء مصيره، ثم أمروا بإخراجه إلى حصن ابن الشرف من غير أن يخلعوه[3]. ثم سار إلى سرقسطة وأقام عند حاكمها ابن هود حتى وفاته سنة 427.

أما أمية بن العراقي فقد غادر القصر مكرهاً وهو يحمل على الوزراء[4] وقد اختفى في المدينة ولم يعرف عنه شيء[5].

«ونودي في الأسواق والأرباض لا يبقى بقرطبة أحد من بني أمية ولا يكنفهم أحد»[6]. والذي تولى نفيهم من قرطبة أبو الحزم بن جهور[7].

وبذلك انتهت دولة الأمويين في الأندلس وزالت خلافتهم. واقتسم البلاد رؤساء الطوائف وأمراء الثغور، وزالت وحدة الأندلس وانقسمت إلى دويلات.

بعد مقتل الخليفة يحيى بن علي الحمودي حاول القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد الاستيلاء على جنوب الأندلس خاصة بعد أن تخلص من منافسه، فأرسل ابنه اسماعيل على رأس جيش كبير إلى قرمونة فحاصرها واستولى على أشونة واستجة[8].

---

(1) اعمال الاعلام ص 139.

(2) البيان المغرب 3/151 ـ اعمال الاعلام ص 139.

(3) البيان المغرب 3/151 ـ اعمال الاعلام ص 139.

(4) البيان المغرب 3/152.

(5) البيان المغرب 3/153 ـ اعمال الاعلام ص 7/290.

(6) البيان المغرب 3/152 ـ اعمال الاعلام ص 139 ـ ابن الأثير 7/290 ـ جذوة الاقتباس ص 60 ـ يذكر نهاية الأمويين.

(7) اعمال الاعلام ص 139.

(8) جذوة الاقتباس ص 62.

وكان قد عاد إلى مالقة بعد مقتل الخليفة ابن بقنة أحمد بن أبي موسى ونجا الصقلبي، واستدعيا أخاه إدريس بن علي من سبتة، فجاز المضيق إلى مالقة وبايعاه بالخلافة واشترطا عليه أن يكون حسن ابن أخيه يحيى والياً مكانه على سبتة[1]. وبايعه كذلك حبوس بن ماكسن الصنهاجي وزهير العامري في المرية وخطب له فيها ومحمد بن عبدالله البرزالي الزناتي في حصن القصر قرب اشبيلية[2]. وتعهدوا بمساعدته. ثم توجهوا إلى قرمونة واشبيلية وأمعنوا فيهما النهب[3]. ثم تفرقوا، عاد زهير إلى المرية وحبوس بن ماكسن إلى غرناطة في ذي الحجة 427 هـ/ 1036 م. وتلقب الخليفة الجديد بالمتأيد بالله[4].

في هذه الأثناء استنجد محمد بن عبدالله البرزالي بالخليفة ادريس وبصاحب غرناطة للوقوف بوجه ابن عباد الذي هاجمه[5]. أرسل إليه الخليفة جيشاً بقيادةِ ابن بقنة وكذلك قدم لنجدته أمير غرناطة، ولكنهم تخوفوا من لقاء جيش ابن عباد فتفرقوا[6]. عندئذ اشتد ساعد ابن عباد وسار بجيشه لقطع الطريق على أمير صنهاجة الذي بلغه الخبر فطلب النجدة من ابن بقنة وكان قد فارقه لساعة، فعاد لنجدته ودارت معركة بين الفريقين البربري والأندلسي انتهت بهزيمة الأندلسيين ومقتل اسماعيل بن محمد بن عباد قائد الجيش وحمل الظافرون رأسه إلى الخليفة ادريس وذلك في محرم 431 هـ/ 1039 م[7].

بقي الخليفة في مالقة حتى وفاته 431 هـ/ 1039 م[8] وحاول ابن بقنة

(1) بغية الملتمس ص 37 ـ ابن الأثير 7/288 ـ دوزي ص 16 ـ تاريخ قضاة الأندلس 91.
(2) اعمال الاعلام ص 140 ـ البيان المغرب 4/190.
(3) اعمال الاعلام ص 140.
(4) جذوة الاقتباس ص 62 ـ نفح الطيب 1/408.
(5) المعجب ص 62 ـ بغية الملتمس ص 37.
(6) جذوة الاقتباس ص 63 ـ المعجب ص 62.
(7) جذوة الاقتباس 63.
(8) بغية الملتمس ص 38.

أخذ البيعة لابن ادريس يحيى، ولكنه تراجع عن الأمر(1) ولجأ يحيى إلى حصن قمارش حيث توفي سنة 434 هـ/ 1042 م(2). وخلفه أخوه حسن بن علي صاحب سبتة وتلقب بالمستنصر بالله(3). وتوفي مسموماً بيد ابنة عمه إدريس ثأراً لأخيها يحيى(4) الذي قتله حسن وكانت زوجة له. وخلفه ابنه يحيى بن حسن الذي حكم مدة سنتين(5). وخرج عليه ابن عمه حسن بن يحيى بن علي فخلعه وقتله بسبتة(6)، واستولى على مالقة واعتقل أخاه إدريس فيها(7). ثم توفي مسموماً(8). وترك ولداً صغيراً بسبته، فقام بأمره نجا الصقلبي أبو الفوز قائد والده في سبته وبايعه. وجاز أبو الفوز المضيق إلى الجزيرة الخضراء وفيها ابنا القاسم بن حمود وأراد إخراجهما منها، فخرجت إليه أمهما سبيعة وقالت له: (يا أبا الفوز أتقطع مواليك وتكشفهم عن البلاد ما هذا بحسن)(9). عندئذ تراجع الوزير عن عمله وعاد إلى مالقة. وتآمرت عليه قبيلة برغواطة في الطريق وكان البرغواطيون أخوال حسن بن يحيى فأبوا أن يتخلوا عن الحموديين ويتبعون عبداً مملوكاً خصياً (أبا الفوز) فقتلوه(10) وعلقوا رأسه على شجرة(11)، ودخلوا مالقة، وقتلوا الوزير أباجعفر أحمد بن أبي موسى وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه وبايعه أمراء البربر وأعلنوا الخطبة باسمه سنة 434 هـ/ 1042 م وتلقب بالعالي(12). وقد مدحه

---

(1) جذوة الاقتباس ص 64.

(2) نفح الطيب 1/408.

(3) نفح الطيب 1/408 ـ أعمال الاعلام ص 140 ـ البيان المغرب 3/192.

(4) نفح الطيب 1/408 ـ بغية الملتمس ص 39.

(5) البيان المغرب 3/216 ـ اعمال الاعلام ص 140.

(6) البيان المغرب 3/216 ـ اعمال الاعلام ص 140 ويذكر فقط «أنه خلعه».

(7) أعمال الاعلام ص 141 ـ بغية الملتمس ص 39.

(8) البيان المغرب 3/216 ـ اعمال الاعلام ص 141.

(9) البيان المغرب 3/216 ـ اعمال الاعلام ص 141 ـ بغية الملتمس ص 39.

(10) اعمال الاعلام ص 141 ـ بغية الملتمس ص 39 ـ يشير على اغتياله.

(11) اعمال الاعلام ص 141 ـ البيان المغرب 3/217.

(12) نفح الطيب 1/408 ـ اعمال الاعلام ص 141 ـ ابن الأثير 7/289.

الشعراء منهم الشاعر عبد الرحمن بن مقانا الاشبوني[1]. وحكم العالي حتى سنة 438 هـ/ 1046 م عندما خلعه ابن عمه محمد بن إدريس بن علي بن حمود في شعبان من تلك السنة. وبويع محمد بالخلافة وتلقب بالمهدي[2]. وخرج الخليفة السابق إدريس بن يحيى إلى قلعة ببشتر، ثم انتقل إلى سبته مع أهله وأقام عند سواجات البرغواطي قائده عليها[3]. ثم رجع إلى الأندلس وأقام في رنده عند صاحبها أبي نور بن أبي قرة اليفرني حيث دعا له بالخلافة[4].

كان محمد بن إدريس سفاكاً للدماء قتل جماعة من البربر. فلما رأى الحجاب ذلك تآمروا عليه، ودس إليه باديس بن حبوس الصنهاجي أمير غرناطة كأساً مسموماً مع رجل من كتامة وقال له: (هذه كأس جلبت للحاجب المظفر باديس فلم يرها تصلح إلا للخلافة فاختصك بها)[5]. فأعجب بها محمد وملأها شراباً ورفعها إلى فمه فأحس أن بالأمر شيئاً. فأمر حاملها بشرب ما فيها فمات لساعته[6].

ومات محمد بعد ثلاثة أيام من رائحة الكأس آخر سنة 444 هـ/ 1053 م[7] وتولى الأمر بعده ابن أخيه إدريس بن يحيى بن إدريس بن علي بن حمود وبويع بالخلافة وتلقب بالسامي[8]. وأقام بمالقة. ثم غادرها إلى العدوة

---

(1) نفح الطيب 1/408 مطلع القصيدة:

البـــرق لائـــح مـــن أنـــدريـن ذرفـت عينـاك بـالمـاء المعيـن

ولما وصل إلى البيت:

انظـرونـا نقتبـس مـن نـوركـم أنـه مـن نـور رب العـالميـن

كان الشاعر ينشده القصيدة من وراء حجاب فأمر برفع الحجاب وأجزل له العطاء.

(2) اعمال الاعلام ص 141 ـ نفح الطيب 1/408 ـ بغية الملتمس ص 40.

(3) اعمال الاعلام ص 141.

(4) البيان المغرب 3/217.

(5) اعمال الاعلام ص 141.

(6) اعمال الاعلام ص 141.

(7) البيان المغرب 3/218 ـ اعمال الاعلام ص 142.

(8) اعمال الاعلام ص 142.

المغربية بزي تاجر ونزل بريف غماره[1] فقبض عليه سواجات البرغواطي في سبته وقتله[2].

بعد مقتل السامي عاد إدريس بن يحيى العالي إلى مالقة خليفة واستمر في الحكم حتى وفاته 446 هـ/ 1054 م. وخلفه ابنه محمد وتلقب بالمستعلي[3] ثم نكث البعية للمستعلي معظم زعماء البربر وعلى رأسهم باديس أمير غرناطة الذي أرسل جيشاً استولى على مالقة وضمها إلى إمارته سنة 449 هـ/ 1057 م[4] وغادرها إلى العدوة المغربية واستقر في مليلة حتى وفاته 456 هـ/ 1064 م والمستعلي آخر حاكم من الحموديين حكم مالقة.

واجتمع زعماء البربر وقادتهم إسحاق بن عبدالله البرزالي[5] ومحمد بن نوح صاحب موررور وعبدون بن خزرون صاحب أركش، وعلى رأسهم باديس بن حبوس صاحب غرناطة واستجه ومالقه، وقرر الجميع مبايعة محمد بن القاسم حاكم- الجزيرة الخضراء ولقبوه بالمهدي[6]. وسار الخليفة الجديد على رأس مبايعيه لقتال المعتضد بن عباد في اشبيلية وحاصروا المدينة[7]. وقد انضم إليهم محمد بن الأفطس صاحب بُطليوس[8] وفتح الله بن يحيى حاكم ولبه الغرب[9]. وقاموا بعملية تخريب واسعة من تدمير وانتساف المزارع وإحراقها ولكنهم فشلوا في حملتهم من الاستيلاء على اشبيلية فعادوا إلى مدنهم سنة 449 هـ/ 1057 م[10]. وتوفي محمد بن القاسم سنة 450 هـ/

---

(1) اعمال الاعلام ص 142.
(2) البيان المغرب 3/218 ـ اعمال الاعلام ص 142.
(3) اعمال الاعلام ص 142 ـ البيان المغرب 3/218.
(4) نفح الطيب جـ 1.
(5) أعمال الاعلام ص 142 ويسميه الزناتي.
(6) البيان المغرب 3/230 ـ اعمال الاعلام ص 142 ـ بغية الملتمس ص 41.
(7) البيان المغرب 3/230 ـ اعمال الاعلام ص 142.
(8) البيان المغرب 3/230.
(9) اعمال الاعلام ص 142.
(10) اعمال الاعلام ص 142 ـ البيان المغرب 3/230.

1058 م بعد حكم دام سنة وثمانية أشهر. وخلفه ابنه محمد الذي تلقى البيعة من أنصار أبيه(1). ثم خلفه ابنه القاسم بن محمد بن محمد بن القاسم الذي تلقب بالمستعلي(2) واستقر بالجزيرة الخضراء وهي المقاطعة الأندلسية الوحيدة التي بقيت بيد الحموديين(3).

وقرر ابن عباد ضم الجزيرة الخضراء إلى مملكته، فأرسل جيشه وأسطوله لقتال المستعلي القاسم(4) بقيادة الوزير عبد الله بن سلام(5) ولم يستطع المستعلي المقاومة، فتنازل عن ملكه بعد أن تلقى الأمان من ابن عباد. ورحل إلى المرية بحراً واستقر فيها إلى أن مات سنة 450 هـ/ 1058 م.

بوفاة القاسم المستعلي انقرضت دولة الحموديين في الأندلس بعد أن عاشت ثلاثاً وأربعين سنة من 407 ـ 450 هـ/ 1016 ـ 1058 م. الذي يمكن قوله في إحداث تلك المرحلة المظلمة ما أورده الضبي في بغية الملتمس:

(فصار الأمر في غاية الأخلوقة والفضيحة أربعة كلهم يسمى بأمير المؤمنين في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخاً في مثلها)(6).

---

(1) اعمال الاعلام ص 142.
(2) البيان المغرب 3/230 ـ اعمال الاعلام ص 142.
(3) اعمال الاعلام ص 142.
(4) اعمال الاعلام ص 142.
(5) اعمال الاعلام ص 143 ـ البيان المغرب 3/231.
(6) بغية الملتمس ص 41 ـ المعجب ص 68.

الفصل السادس

دويــلات الطوائــف

- دويلة بني جهور في قرطبة
- دويلة بني عباد في اشبيلية

دويلة بني جهور في قرطبة

- مؤسس الدولة أبو الحزم بن جهور - إلغاؤه الخلافة الأموية.
- أبو الوليد بن أبي الحزم - الخلاف بين ولديه.
- بنو عباد يستولون على قرطبة ويسقطون الدويلة.

دويلة بني عباد في اشبيلية

- القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد يؤسس الدويلة.
- الصراع مع الحموديين.
- المعتمد محمد بن عباد - ضم قرطبة.
- سقوط طليطلة بيد الإسبان.
- الإسبان يهددون المعتمد.
- الاستنجاد بالمرابطين.

دولة بني جهور في قرطبة

بعد سقوط الخلافة عمت الفوضى الأندلس، قرر القرطبيون في ذي القعدة 422 هـ/ الغاءها والتخلص من الأمويين. ونودي في الأسواق والأرباض لا يبقى بقرطبة أحد من بني أمية ولا يكنفهم أحد. «وقد تولى نفيهم أبو الحزم بن جهور[1].

ينتمي أبو الحزم بن جهور إلى يوسف بن بخت بن أبي عبده الفارسي مولى عبد الملك بن مروان تولى الكتابة لعبد الرحمن العامري. وغدا بعد ذلك زعيم قرطبة القوي «وشيخ الجماعة» فيها. اختاره القرطبيون بعد الغاء الخلافة رئيساً لحكومة تبسط سيادتها على منطقة تمتد من جبل الشارات شمالاً إلى حدود غرناطة جنوباً ومن منابع نهر الوادي الكبير شرقاً إلى استجه غرباً وتشمل مدن قرطبة وجيان وابده وبياسة والمدور وأردونة واندوجر.

شكل أبو الحزم مجلس الشورى من صفوة الزعماء يتحدث باسمهم، وكان لا يقدم على أمر إلا بعد استشارتهم وموافقتهم. وقد عرفت هذه الحكومة «بحكومة الجماعة». كانت هذه الحكومة فريدة من نوعها في التاريخ الاسلامي، كانت تشكل حكومة الأقلية في عصر سادت فيه النزعة الفردية والملكية المطلقة.

عمل أبو الحزم على توطيد الأمن وقمع الشغب. استمال البربر ليأمن

(1) البيان المغرب ص 152 و 186 جـ 3. الكامل جـ 7 ص 290، جذوة المقتبس 60. أعمال الاعلام 139.

غدرهم. أصلح القضاء جند الشعب. حافظ على الأموال العامة وشجع التجارة فعم الرخاء في عهده[1].

استمرت حكومة الجماعة برئاسته اثنتي عشرة سنة ساد الهدوء في عهدها وأضحت قرطبة ملاذاً للزعماء الفارين المخلوعين عن إماراتهم[2] لكنه استجاب لمزاعم القاضي ابن عباد صاحب اشبيلية عندما ادعى بأن الخليفة الأموي هشام بن الحكم حي يرزق وذلك لدحض دعوى الحموديين سنة 426 هـ/ فندم على الموافقة على هذه الأكذوبة خاصة عندما حصل ابن عباد على مآربه من هذا العمل وطلب منه الدخول في طاعته[3].

توفي الرئيس أبو الحزم في محرم 435 هـ/ 1044 م.وخلفه ابنه محمد أبو الوليد الذي تلقب بالرشيد. سار الرشيد بادىء الأمر على خطى والده، أبقى كبار الموظفين في مراكزهم، كان من معاونيه المؤرخ الكبير أبو مروان بن حيان، والشاعر الوزير أبو الوليد بن زيدون، وقد عهد إليه بالنظر على أهل الذمة. وكان سفيره إلى حكام الأندلس. ثم ساءت سمعته لعلاقته بولادة بنت المستكفي الأموي، فسخط عليه أبو الوليد وسجنه، فأرسل إليه من السجن قصائد يستعطفه فيها ولكنه لم يلن له.

وأخيراً فر ابن زيدون من سجنه، وقصد اشبيلية 1049/441 ودخل في خدمة المعتضد بن عباد فولاه الوزارة[4].

لم يستطع أبو الوليد الاستمرار بحكومة الجماعة التي سار عليها والده، إذ تسلط عليه ابنه عبد الملك فعينه ولياً لعهده وتلقب بذي السيادتين المنصور بالله. أساء عبد الملك السيرة وقرب إليه الأشرار. ورغم ذلك فوض النظر في أمور الحكم إلى وزير والده ابراهيم بن السقاء سنة 440/ 1049 الذي أصلح

---

(1) الذخيرة ق 1 م 2، ص 116 و 117.
(2) البيان المغرب جـ 3، ص 213 و 237 و 240.
(3) البيان المغرب جـ 3 ص 190 و 198 و 201.
(4) الذخيرة م 1، ق 1 ص 290. البيان جـ 3 ص 232.

الأمور وعمل على تهدئة الأحوال وتوطيد الأمن.

استاء من عمل ابن السقاء المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية الذي أدرك أن استمرار هذا الوزير في الحكم يقضي على مشاريعه في ضم قرطبة إلى مملكته. فسعى سراً لدى عبدالملك بالوشاية. واغتال وزيره ابن السقاء في كمين سنة 455/ 1063 م[1].

بعد مقتل الوزير النابه دب الفساد في أجهزة الحكم. وزاد الأمور سوءاً التنافس بين عبد الملك وأخيه الأكبر عبدالرحمن، فأخذ كل منهما يعمل على استمالة الجنود إليه. وخشي أبو الوليد من العواقب فقسم السلطة بينهما خص عبدالرحمن بالجباية والأشراف، وعبدالملك بالنظر بأمور الجيش. لكن عبدالملك لم يلبث أن اعتقل أخاه وانفرد بالحكم. وتسلطت حاشيته الفاسدة على الحكم مما أساء إلى سكان قرطبة الذين بدأوا ينصرفون عن آل جهور.

كان عبد الملك يعتمد على صداقة ابن عباد، فقد زاره في اشبيلية. وبالغ ابن عباد في إكرامه والاحتفاء به. كان هدف عبدالملك الاعتماد على ابن عباد لمساعدته ضد بني ذي النون الذين كانوا يريدون ضم قرطبة إليهم. وفي الوقت نفسه كان بنو عباد يرمون إلى الغرض ذاته ألا وهو الاستيلاء على قرطبة.

وأخيراً هاجم المأمون يحيى بن ذي النون قرطبة واستولى على حصن المدور، وكان المعتمد محمد بن عباد قد تولى الحكم بعد وفاة أبيه المعتضد سنة 461 هـ/ . فاستنجد به عبدالملك، بادر على الفور بإرسال جيش من اشبيلية بقيادة خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين. ومهمتهما الاستيلاء على قرطبة. نزل جيش اشبيلية بالربض الشرقي من قرطبة. ولما أشرف ابن ذي النون على المدينة وجد أن لا طاقة له على قتال جيش ابن عباد والقرطبيين. فعاد أدراجه خائباً بعد مناوشات خفيفة.

ووفقاً للخطة التي وضعها ابن عباد لضم قرطبة، فقد تظاهر جيشه بالانسحاب إلى اشبيلية. وسار القائدان لوداع عبدالملك مع بعض قواتهما.

---

(1) البيان المغرب جـ 3 ص 251. أعمال الاعلام 149.

واقتحما المدينة وملكاها في شعبان 462 هـ/ 1070 م.

أدرك ابن جهور خطورة الأمر فطلب الأمان، واعتقل مع أبيه وأخيه، ونفاهم ابن عباد إلى جزيرة شلطيش[1].

وهكذا سقطت دولة بني جهور بعد أن دامت أربعين سنة. وكانت أول دولة كبيرة من دول الطوائف تسقط. وعين عليها المعتمد ابنه عباداً الملقب بالظافر. وأصبحت قرطبة تابعة لمملكة اشبيلية.

وتوفي عبد الملك بعد 40 يوماً من محنته وكان قد رثا نفسه بقصيدة جاء فيها:

من يجعل الضرغام للصيد بازه   تصيده الضرغام فيمن تصيدا[١]

دولة بني عباد

ينتسب العباديون إلى قبيلة لخم العربية والذي أسس الدولة القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم وعطاف كان من جند بلج بن بشر القشيري الذين دخلوا إلى الأندلس بعد معركة بقدورة واستقر في اشبيلية[2].

وظهر بنو عباد على مسرح الأحداث أثناء الفتنة التي عمت الأندلس بعد سقوط الدولة العامرية.وسطع نجمهم على يد اسماعيل قاضي اشبيلية الذي كان يتولى القضاء منذ أيام المنصور العامري، وقد عمل على ضبط الأمور وحفظ النظام إلى جانب القضاء أثناء الفتنة لما له من نفوذ وأخذ يعمل على توطيد نفوذه في الرئاسة.وبعد أن غدا شيخاً هرماً تخلى عن القضاء لابنه محمد أبي القاسم، وكانت الخلافة في جنوب الأندلس للحموديين،فقد تولى الخلافة القاسم بن حمود بعد مقتل أخيه علي سنة 408/ ژلكن ثار عليه ابن أخيه يحيى بن علي فغادر قرطبة إلى اشبيلية وأثناء إقامته فيها قرب إليه القاضي أبي

---

(1) البيان المغرب جـ 3 ص 258 و 259.

(2) البيان المغرب جـ 3 ص 194.

القاسم وأقره على القضاء.وبعد سنة 413 عاد القاسم إلى قرطبة بعد خلع ابن اخيه وكان أبو القاسم محمد بن اسماعيل يخشى الحموديين.فلما غادر القاسم بن حمود إلى قرطبة استقر رأي أهل اشبيلية على ثلاثة زعماء يولون إدارة المدينة: القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد والفقيه أبو عبدالله الزبيدي والوزير أبو محمد بن عبدالله بن مريم. كان ابن عباد أقوى الثلاثة نفوذاً وأكثرهم ثراء فعمل على توطيد سلطانه.

وعاد القاسم إلى اشبيلية بعد أن خلعه القرطبيون وحاول دخولها، فمنعه زعماؤها من ذلك، وعلى رأسهم أبو القاسم محمد الذي أخرج منها أولاد القاسم وزعماء البربر. واتفق سكان اشبيلية على إعطاء القاسم مبلغاً من المال اتقاء لشره مع البربر وينصرف عنهم على أن تكون له الخطبة. فقدم عليهم عند ذلك القاضي أبي القاسم محمد فأصبح الحاكم الفعلي والشرعي للمدينة سنة 414/ 1023 م[1].

ونظم القاضي ابن عباد شؤون اشبيلية معتمداً على تأييد العرب فيها.ثم انصرف إلى ضم الدويلات المجاورة وخاصة في الغرب إليه، فهاجم بمعاونة محمد بن عبدالله البرزالي صاحب قرمونة مدينة باجة التابعة لابن الأفطس صاحب بطليوس وقتلت قوات التحالف وأسرت معظم جنود ابن الأفطس، وكان بين الأسرى ولداً لابن الأفطس بقي سجيناً لدى البرزالي مدة، وأخ لابن طيفور صاحب ميرتله صلب باشبيلية 421 هـ/ 1030 م ثم تجددت الاشتباكات بين ابن عباد وابن الأفطس وهزمت قوات اشبيلية التي كان يقودها اسماعيل ابن القاضي 425 هـ/ 1034 م.

وكان الخليفة يحيى بن حمود المعتلي مستقراً في مالقة. وكان يخشى مشاريع ابن عباد التوسعية، فهاجم قرمونة واستولى عليها، لجأ صاحبها محمد البرزالي إلى اشبيلية مستنجداً بحليفه ابن عباد، وأخذ المعتلي يشن الغارات على مناطق ابن عباد، عندها لجأ ابن عباد إلى حيلة بأن أعلن أن هشام المؤيد بالله

(1) البيان المغرب جـ 3 ص 196.

الأموي حي لم يمت 426/1035، فقد أظهر شخصاً يشبه هشاماً كان مؤذناً في مسجد قرية من قرى اشبيلية يدعى خلف الحصري. أشهد الحزم على ذلك وأرسل الكتاب بالدعاء للخليفة المزعوم[1].

وقد ندد الفيلسوف ابن حزم بهذه الخرافة «اخلوقة لم يقع في الدهر مثلها»[2] ولم يلبث ابن عباد أن استعاد قرمونة من الخليفة الحمودي المعتلي وأعادها إلى حليفه محمد البرزالي محرم 427 هـ/ . ثم أرسل ابنه اسماعيل إليها وضمها إلى مملكة اشبيلية مع مدينة استجه، فاستعان البرزالي بالزعماء البربر ولبى دعوته باديس بن حبوس صاحب غرناطة وادريس الحمودي صاحب مالقه وهاجم المتحالفون الأراضي الاشبيلية وهزموا الاشبيليين وقتلوا إسماعيل بن القاضي محمد واحتزوا رأسه وأرسلوه إلى باديس الصنهاجي وذلك في محرم 431/1039 م[3]. وتوفي القاضي أبو القاسم في جمادي الأولى 433/ كانون الثاني 1042. وخلفه ابنه عباد بن محمد بن إسماعيل[4]. تلقب بالمعتضد بالله ولد سنة 407/ 1016 م يصفه ابن حيان بأنه زعيم جماعة أمراء الأندلس أسد الملوك بدأ عهده بالعنف منذ قتل وزير أبيه حبيب ثم نكب حليفي والده الفقيه أبا عبدالله الزبيدي وأبا محجن عبد الله بن مريم، ووضع خططه للسيطرة على غرب الأندلس. بدأ بمدينة لبلة ضمها إليه بعد صراع طويل سنة 445/1053[5] ثم استولى على ثغر ولبة وجزيرة شلطيش 443 هـ/ 1050 وشنتمرية 443/1051[6]، وشلب 455/1063 م والجزيرة الخضراء 446/1054[7].

ورغم القوة التي وصلت إليها مملكة اشبيلية على يد ابن عباد فقد اضطر

(1) البيان المغرب 199 و 200 جـ 3. أعمال الاعلام 154.
(2) رسائل ابن حزم 83.
(3) البيان المغرب جـ 3 ص 202.
(4) البيان المغرب جـ 3 ص 203 و 204.
(5) البيان المغرب 3/202 و 3/209.
(6) المصدر السابق 209.
(7) المصدر السابق 214 جـ 3.

عام 455/1063 أن يدفع الجزية إلى فرناندو ملك قشتالة. توفي المعتضد بن عباد في 2 جمادي الآخرة 4610/ آذار 1069 وخلفه ابنه محمد، ولما استولى المرابطون على اشبيلية وجدت جوالق مملوءة رؤوساً فهال الأمر الأمير يوسف بن تاشفين وأمر بدفع الرؤوس إلى ذراريهم وكان من بينها رأس الخليفة يحيى بن علي بن حمود فأخذته سبيعه حفيدة الخليفة من زوجها سير بن أبي بكر ودفنته في المسجد الذي قتل فيه عبد العزيز بن موسى بن نصير. ومن بينها رؤوس محمد البرزالي وابن خزرون وابن نوح وغيرهم[1].

المعتمد محمد بن عباد

2 جمادي الآخرة 461/آذار 1069

خلف محمد والده عباد تلقب بعدة القاب منها الظاهر والمؤيد بالله والمعتمد على الله وهو اللقب الذي اشتهر به. ولد بمدينة باجة 431/1040 م في ربيع أول[2].

كان في حياة والده والياً على مدينة شلب منذ سنة 455/1063 يعاونه وزيره أبو بكر بن عمار وقد قضى فترة ممتعة من شبابه في تلك المدينة.

وأول عمل عسكري أقدم عليه ضم قرطبة إلى مملكته، فقد هددها المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة فاستنجد عبد الملك بن جهور بالمعتمد الذي أرسل إليه جيشاً بقيادة خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين استولى على قرطبة وضمها إلى مملكة اشبيلية 462/1070 وعين المعتمد عليها ابنه عباداً[3] وهاجم المعتمد سنة 466/ 1074 جيان واستولى عليها من عبد الله بن بلقين فاضطر إلى الاستنجاد بالنصارى بواسطة المأمون بن ذي النون وتحالف

---

(1) المصدر السابق ص 199 جـ 3.

(2) دوزي جـ 2 ص 131.

(3) عن عملية الاستيلاء على قرطبة راجع «دولة بني جهور».

معه لقاء جزية سنوية واستطاع المأمون انتزاع قرطبة من المعتمد العبادي 467. وخرج بعد ذلك عبد الله بن بلقين إلى مهاجمة أراضي اشبيلية. وحذا المعتمد سبيل خصومه فاتصل بالنصارى وأرسل سفيراً إلى الفونسو السادس أبا بكر بن عمار، وعقد اتفاقاً معه مقابل خمسين ألف دينار، وبموجبه يتعاون ابن عباد مع الفونسو عل أخذ مدينة غرناطة على أن تكون المدينة لابن عباد والذخائر لألفونسو.وهاجم النصارى أراضي غرناطة وعاثوا فيها تدميراً وتخريباً.

بعد عقد الاتفاق مع الفونسو السادس برز الوزير ابن عمار، هو أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار الفهري ولد في شلب 1031/422 م حيث تلقى دراسته الأولى، ثم رحل إلى قرطبة ونظم الشعر وهو فتى.ولما تولى المعتمد حكم شلب أيام أبيه اتصل به ابن عمار، فأعجب بشعره وأدبه فوزره. ولما تولى المعتمد الحكم عينه على شلب ثم استدعاه إلى اشبيلية وعينه وزيراً، وكان المعتمد يعهد إليه بالمهام الصعبة، ويؤديها الوزير على أحسن وجه إلى أن ساءت الأمور أخيراً بين الملك ووزيره.

ومن المهام الصعبة التي حققها استيلاؤه على مدينة مرسيه باسم المعتمد. كان يحكمها ابن طاهر ثم ابنه عبدالرحمن بن طاهر الذي لم يستطع القضاء على العناصر الناقمة التي استنجدت بابن عباد فانتدب لهذه المهمة وزيره ابن عمار[1]، عقد الوزير اتفاقاً مع أمير برشلونة الكونت رامون برنجار يعاونه الكونت على فتح مرسيه لقاء 10 آلاف مثقال من الذهب. ولضمان الاتفاق يقدم الفريقان رهائن، قدم المعتمد ابنه الرشيد والكونت ابن أخيه، وحاصر الطرفان مرسيه.وتأخر ابن عباد بتأدية المال فاعتقد الكونت أنه خُدع فقبض على ابن عمار والرشيد وتخلى عن الحصار. علم المعتمد بالأمر أسرع إلى إرسال الأموال مع الرهينة ابن أخ الكونت فأفرج الكونت عن الأمير وابن عمار وفشلت الحملة. وجهز المعتمد بإشارة ابن عمار حملة على مرسيه بقيادة الوزير فاتصل بطريقه إلى مرسيه بابن رشيق، وسار معه بعد أن ندبه للقيادة وحاصر ابن رشيق مرسيه

(1) قلائد العقيان ص 9.

ودخلها بالحيلة سنة 471/ 1078 م[1]. وسولت لابن عمار نفسه بالاستقلال بحكم المدينة النائية وأخذ يتصرف كحاكم مستقل دون الرجوع إلى مليكة، واستغل ابن رشيق فاتح المدينة الحقيقي فرصة خروج ابن عمار لتفقد بعض الحصون الأمامية فاستولى على المدينة ومنع ابن عمار من دخولها. فر ابن عمار إلى بلاط الفونسو السادس يطلب المساعدة ورفض الفونسو الطلب. فرحل إلى سرقسطة وكان أميرها ابن هود الذي توفي فخلفه ابنه المؤتمن 475/1081 م الذي أغرى ابن عمار بمهاجمة حصن شقورة مع جماعة من أصحابه. وكان حاكم الحصن رجلاً داهية يدعى ابن مبارك فدعا ابن عمار مع صحبه إلى دخول الحصن، وانخدع لحفاوة الاستقبال فما كان من ابن المبارك إلا أن ألقى القبض عليه ربيع الأول 477/1084م.

علم بالأمر ابن عباد فطلب من ابن مبارك تسليمه ابن عمار لقاء هدية كبيرة من المال والخيل، فسلمه لرسل المعتمد وزج به في غياهب السجن. وأخذ ابن عمار يرسل إليه القصائد الوجدانية مستعطفاً. وكاد المعتمد أن يطلق سراحه لولا وشاية أعدائه في البلاط وعلى رأسهم الوزير أبي بكر بن زيدون وأبرزوا للمعتمد قصيدة يعرض فيها باعتماد الرميكية زوجة المعتمد[2].

عندها أقدم المعتمد على قتل وزيره بيده سنة 477/1085 م[3]. وبعد أن استولى الفونسو السادس على طليطلة سنة 478/1085 رأى أن يضاعف الجزية التي كان يدفعها إليه المعتمد ومن قبله والده المعتضد فأرسل اليهودي ابن شالب لهذا الأمر الذي كان بداية نهاية دولة بني عباد.

(1) أعمال الاعلام 161. المعجب 65.

(2) نفح الطيب جـ 451 و 452.

(3) المعجب 68.

الفصـــل السابـع

المرابطون في الأندلس

أوضاع الأندلس بعد سقوط طليطلة ـ ضعف الأندلس

ـ المعتمد يستنجد بالمرابطين ـ عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ـ معركة الزلاقة ـ النصر للمرابطين.

يوسف يضم الأندلس إلى المغرب.

ـ علي بن يوسف.

سقوط سرقسطة بيد الإسبان.

ـ موقعتا القلاعة وإفراغه.
ـ تاشفين بن علي بن يوسف.
ـ انقسام الأندلس إلى دول طوائف من جديد.
ـ حركة المريدين.
ـ الثورات على المرابطين: ثورات قرطبة وغرناطة ووادي آش.
ـ سقوط دولة المرابطين.

الأندلس قبل الزلاقة

تطلع يوسف نحو الأندلس: الدافع الاستراتيجي وضع الأندلس السياسي بعد سقوط الخلافة الأموية ـ دول الطوائف ـ سقوط طليطلة بيد الفونس ـ الضغط على ملوك الطوائف ـ «المتوكل والمعتمد بشكل خاص» الهدف من ذلك ـ مع المتوكل: طلبات الفونس المتزايدة ـ اتصال المتوكل بالأمير يوسف.

المعتمد والفونس: سفارة الفونس إلى المعتمد برئاسة اليهودي ابن شالب ـ مقلتها على يد المعتمد ـ حملة الفونس الانتقافية على مملكة اشبيلية ـ الفونس يحاصر سرقسطة ـ الخوف يعم الجزيرة.

التحرك الشعبي: مؤتمر قرطبة ـ الأثر: مؤتمر اشبيلية ـ اتصال المعتمد بالمتوكل اتصال المعتمد بالأمير يوسف ـ بعثة المعتمد إلى يوسف ـ الرسالة ـ موقف يوسف: استشارة المرابطين ـ استشارة الكاتب ابن أسبط، المطالبة بالجزيرة الخضراء ـ جواب الأمير يوسف للمعتمد ـ المعتمد يهب الجزيرة ـ استعداد المرابطين للعبور ـ العبور الأول إلى الجزيرة ـ يوسف في الأندلس.

بعد جهاد دام ربع قرن جنى يوسف ثمرة أتعابه وبسط سيطرته على المغرب ونشر الأمن في ربوعه، واختارت قبائل الملثمين المناطق الخصبة وسكنتها، ومع ذلك ظلت محافظة على قوتها وتراثها البدوي، ودفعها طموحها الذي لا يحد إلى البحث عن مناطق جديدة تنشر فيها المبادىء التي اعتنقتها لأنها لم تؤمن بانتهاء دعوة ابن ياسين.

كانت ميادين الجهاد أمام المرابطين متعددة، فهناك الجنوب وأفريقية السوداء، ولكنهم أقلعوا عن هذا الاتجاه بسبب وجود الأمير أبي بكر بن عمر

الذي اختار تلك الديار ميداناً لجهاده، وكان هناك مجال آخر نحوِ الشرق حيث توقف الفتح عند حدود بجاية التي يحكمها بنو حماد الصنهاجيين، فآثر يوسف التوقف ولم يتقدم شرقاً بسبب القرابة التي تربطه ببني حماد، وكان بإمكانه بسط نفوذه على تلك النواحي بسهولة خاصة بعد أن دمرتها غارات عرب بني هلال[1] وتركتها في حال من الفوضى والضعف لا تحسد عليها، ويوسف لم يكن يطمح إلى ضم أراضٍ جديدة أو إلى أي كسب مادي، بل كان يصبو إلى تحقيق مبادىء إمامه ابن ياسين، في إحياء تراث الإسلام ومحاربة البدع والفساد والذود عن حياض المسلمين.

لقد وجه العامل الجغرافي طاقات المرابطين بعدما أطلت دولتهم على شواطىء البحر المتوسط التي كانت عرضة لغارات الفرنجة، إذن فلا بد من اتخاذ الإجراءات الوقائية لصد هذه الغارات، يضاف إلى ذلك أوضاع الأندلس المضطربة بعد سقوط الخلافة الأموية[2] وقيام دول الطوائف، فقد كان الأمويون

(1) عرب بني هلال وسليم من القبائل العربية القوية الشكيمة التي استقرت في مصر، وقد أكرههم الخليفة الفاطمي العزيز على الانكفاء من الدلتا إلى الصعيد، وهناك اتصلوا بالقرامطة وأضحوا خطراً على الفاطميين، فوجههم العزيز مرة أخرى إلى القيروان 444 هـ/ 1052 م فاجتاحوا الأراضي السهلية وعاثوا فيها فساداً وقضوا على الحركة الثقافية فيها وبذلك مهدوا السبيل لانتصار المرابطين، وكان العزيز يهدف «من إرسالهم إلى القيروان» الاقتصاص من المعز بن باديس الذي حارب التشيع في بلاده وخلع طاعة الفاطميين، وقد اعتصم المعز في عاصمته المهدية.

(2) العوامل التي أدت إلى سقوط الخلافة الأموية عديدة منها: الصراع بين العرب أنفسهم والصراع بين العرب والبربر وهذا النوع الأخير كان له أسوأ الأثر على المسلمين وتسبب بأكثر هزائمهم خاصة في فرنسا ـ معركة بلاط الشهداء، وقد أكثر المنصور العامري من البربر في جيشه فكانت الأغلبية منهم، ومعارك المنصور العامري كذلك وإن أدت إلى إرهاق نصارى إسبانيا إلا أنها أكلت زهرة شباب الأندلس المسلمين، يضاف إلى ذلك العامل الجغرافي الذي لعب دوره فقد أدت طبيعة الأرض إلى قيام حكم إقطاعي، وكثيراً ما كان يلجأ الاقطاعيون إلى العصيان على الحكومة المركزية في قرطبة مما كان كلفها جهوداً مضنية لإخماد مثل هذا التمرد ويؤدي إلى إضعاف هيبة الحكومة المركزية. ومما كان يزيد الأمور تعقيداً. والمستعربون الذين كانوا يؤلفون جاليات كبيرة في المدن، وقد=

ينشرون عليها الوحدة الشرعية ويؤلفون بين الأحزاب المتنافرة، فإسم الخليفة ـ ولو كان الخليفة ضعيفاً ـ يبعث الاحترام في نفس الشعب ويظل الرمز لوحدة البلاد ويتهيأ من يقود الجيش باسمه إلى ميادين الجهاد، وبسقوط الخلافة انتهى وجود السلطان الشرعي الذي يجمع بين القوى المتنافرة من عرب وبربر ومولدين ومستعربين، فانتثر السلك وانفصمت عرى الوحدة وقامت في كل مدينة دويلة، وقد تكونت بعد معركة دامية بين الأحزاب ثلاث وعشرون دويلة(1) سميت بدول الطوائف تناحرت فيما بينها، وعرف حكامها بملوك الطوائف تلقبوا بالألقاب الخلافية كالمأمون والمعتمد والمستعين والمعتصم والمتوكل. . . إلى غير ذلك من الألقاب. وفي ذلك يقول أبو علي الحسن بن رشيق(2):

مما يزهدني في أرض أندلس   سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

مما سهّل لهؤلاء الملوك السيطرة على هذه المدن، إنها كانت إبان الخلافة الأموية محكومة حكماً إقطاعياً ناجماً عن طبيعة البلاد الجغرافية وتنوع بيئاتها، فلما سقطت الخلافة انقطع ذلك الوصل الشرعي الذي يربط البلاد ببعضها، وآلت أوضاع الأندلس إلى السوء وأصبحت لا حول لها ولا قوة مما شجع النصارى على توجيه ضربات إلى المسلمين، وقد شنوا حرباً لا هوادة فيها نابعة

= أخلدوا إلى السكينة بانتظار الفرص المناسبة، وكانوا يبثون الدعايات والإشاعات للتفرقة ويزودون نصارى الشمال بالمعلومات ويكشفون عورات المسلمين/ ، وقد ساهم ذلك في إضعاف الحكومة وساعد فيما بعد على إسقاطها، وكثيراً ما كان هؤلاء المستعربون يقومون بثورات وفتن دينية ضد الخلافة (ثورة عمر بن حفصون).

(1) البستاني: دائرة المعارف م 5 ص 238 ـ ومن هذه الدويلات: دولة بني هود في سرقسطة ودولة بلنسية ودولة طليطلة وقرطبة وإشبيلية ومالقة وغرناطة والمرية ودانية وبطليوس وغيرها. . . وفي ذلك يقول ابن الخطيب:

حتى إذا سلك الخلافة انتثر   وذهب العين جميعاً والأثر
قام بكل بقعة مليك   وصاح فوق كل غصن ديك

المراكشي: المعجب ص 70 ـ 74.

(2) المعجب ص 70 ـ ابن الكردبوس: تاريخ ابن الكردبوس ص 89.

من شعورهم العدائي للعرب والمسلمين تهدف إلى طردهم من اسبانيا، وقد بدأت هذه الحرب بدافع الدين أضافوا إليها مع الزمن عامل القومية وأسموها حرب الاسترداد[1].

وترنحت الأندلس تحت وطأة هذه الضربات وأضحت نهايتها قاب قوسين أو أدنى. ومع ذلك لم يهتم حكامها الجدد بما يجري حولهم وظلوا منغمسين بملذاتهم وفسادهم. يتحاربون ويحالفون النصارى ضد إخوانهم ويؤدون لهم الجزية، مقابل الاحتفاظ بعروشهم التي تهتز تحتهم، ويستخدمون المرتزقة النصارى لحماية أنفسهم بعد أن فقدوا الأمل بمواطنيهم: «وجعل الله بين أولئك الأمراء من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات، فلم تتصل لهم في الله يد ولا نشأ على التعاضد عزم[2]. «لذلك انهارت الروح المعنوية للشعب الأندلسي بعدما رأى من أمرائه التخاذل والخيانة حتى كاد هذا الشعب الصابر يفقد القدرة على القتال بما كان يرهقه حكامه من الضرائب للتنعم بالعيش الرغيد ودفع الجزية للنصارى وأصبح بين حاكم مبتزّ وعدو متربص، فقد ارتقى عرش اسبانيا النصرانية الفونس السادس بن فرديناند الذي كان يرغب باحتلال الجزيرة الأيبرية. وعادت حرب الاسترداد قوية على يده[3]، وقد بدأ أعماله الحربية بمدينة طليطلة فحاصرها مدة سبع سنوات

---

(1) سميت بحرب الاسترداد لأنها كانت تهدف إلى استرداد الأندلس من العرب، وقد بدأت هذه الحرب مع بداية ضعف الأندلس، فقد انحسر المد الإسلامي عن جنوب فرنسا وتراجع إلى ما وراء البرتات لجهة إسبانيا، وكانت هذه الحرب تشتد حيناً وتخمد حيناً آخر حسب الظروف السياسية للأندلس المسلمة. وفي القرن الحادي عشر دخلت حرب الاسترداد في دور جديد من أدوارها على يد الملك سانشو، فقد وحد الدويلات النصرانية عن طريق المصاهرة وبدأ بشن الحرب من جديد بقوة وتنظيم جديد، ويعتبر بحق باعث حرب الاسترداد التي استمرت قوية على يد ابنه فرديناند حتى وفاته 1065 م وتعثرت بعد وفاته بسبب انقسام دولته بين أبنائه ولكنها قويت مع ابنه الفونس السادس.

(2) أعمال الاعلام تحقيق د. عبادي ص 241.

(3) وحد الفونس السادس إسبانيا النصرانية وتقرب من البابوية في روما حتى إنه استبدل الطقوس الكنسية الإسبانية بالرومانية وذلك لدعم حرب الاسترداد بالكنيسة حتى إن البابا=

حتى سقطت بيده في 25 أيار 1085 م/ مستهل صفر 478 هـ[1]، وقد أحدث سقوطها دوياً هائلاً في العالم الإسلامي الغربي وبات المسلمون في حال من الضياع التام[2]، لا يعرفون كيف يتصرفون وبدأوا بمغادرة المناطق المتاخمة لألفونس. وفي ذلك يقول عبدالله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال الطليطلي[3]:

يا أهل الأندلس حثوا مطيكم   فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى   ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لنا لا يفارقنا   كيف الحياة مع الحيات في سفط

واقفرت مملكة طليطلة من السكان الذين هجروها جماعات إلى بطليوس[4] هرباً من الاضطهاد وحفاظاً على دينهم، وشعر الفونس بأنه أضحى قادراً على تحدي دول الطوائف جميعاً والقضاء عليها[5]، فغير من خطته السابقة

= أوربانوس أصدر أمره للإسبان للجهاد في بلادهم واعتبر جهادهم هذا أرقى من الذين يشاركون في الحملات الصليبية المتوجهة إلى المشرق (القدس) ولا غرو فالكنيسة كانت تحضر للحروب الصليبية في الغرب والشرق على حد سواء.

(1) تاريخ ابن الكردبوس ص 85 ـ دوزي: ملوك الطوائف ص 272 وتاريخ مسلمي إسبانيا ج 3 ص 118. وكان الفونس قد لجأ إلى طليطلة هرباً من أخيه، ودخل في خدمة صاحبها ابن ذي النون، وأثناء إقامته فيها درس طبيعتها واطلع على منافذها. وبعد أن خرج منها جهز جيشاً وسار إليها وحاصرها حتى سقطت في يده:الضبي، بغية الملتمس ص 31.

(2) وصل التخاذل بملوك الطوائف إلى حد إرسال وفود لتهنئة الفونس على أخذ طليطلة حتى أن ابن رزين حسام الدولة صاحب شنتمرية ذهب بنفسه لتهنئته يحمل إليه الهدايا النفيسة، فجازاه بأن أعطاه قرداً احتقاراً له، بينما اعتبر رزين ذلك مفخرة ابن الكردبوس ص 288.

(3) المقري: نفح الطيب ج 6 ص 84 ـ ابن خلكان وفيات الأعيان م 5 ص 28 وقد ورد عنده «من جاور الشر لم يأمن عواقبه».

(4) تاريخ مسلمي إسبانيا ج 3 ص 120.

(5) قال الفونس لابن مشعل اليهودي رسول ابن عباد: كيف أترك قوماً مجانين تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم المعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل=

التي كانت تقوم على أخذ الأموال إلى محاولة للاستيلاء على الحصون والمدن، فقد رأى أن زمام الأندلس قد صار في كفه، فشن الغارات على جميع البلاد ونجح بالاستيلاء على المدن والقرى ما بين وادي الحجارة إلى طلبيرة وفحص اللجج وأعمال شنتمرية كلها[1]. ولاح له أن نهاية الطوائف قد دنت وأنه سوف يتبع نصراً بنصر. بدأ بالضغط على الدول الكبرى المجاورة له أي مملكتي بطليوس وإشبيلية، فقد أرسل إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب إليه تسليم بعض الحصون والقلاع المتاخمة لحدوده مع تأدية الجزية ويتوعده بشر العواقب إذا رفض، ولكن المتوكل لم يكن عند حسن ظنه فقد رفض التهديد ورد عليه برسالة تفيض شجاعة ونبلاً: «. . . ولو علم (أي الفونس) إن لله جنوداً أعز بهم كلمة الإسلام وأظهر بهم دين نبينا محمد ﷺ أعزه على الكافرين. . . وأما تعييرك للمسلمين فيما وهى من أحوالهم فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك علمت أي أصاب أذقناك كما كان آباؤك تتجرعه. . . وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك أهدى ابنته إليه مع الذخائر التي كانت تفد كل عام عليه[2]». وندب المتوكل قاضيه الفقيه أبا الوليد الباجي ليطوف على حواضر الأندلس يدعو إلى لم الشعث وتوحيد الكلمة ومدافعة العدو. ولكن مهمة القاضي لم تكلل بالنجاح لأن ضعف الأمراء وانهيار مقومات الدولة وتخاذل الشعب فرضت على الحكام استرضاء العدو عندئذ كتب المتوكل إلى الأمير يوسف بن تاشفين[3] يصور له محنة الأندلس ويستنصره[4]، «لما كان نور الهدى أيدك الله دليلك وسبيل الخير سبيلك ووضحت في الصلاح معالمك ووقفت على الجهاد عزائمك وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز

= والمستعين والأمين والمأمون، وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه سيفاً ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً: ابن الكردبوس ص 89.

(1) تاريخ ابن الكردبوس ص 87.

(2) الحلل ص 21 «نص الكتاب».

(3) الحلل ص 20 ـ تاريخ ابن الكردبوس ص 88.

(4) عنان: دولة ازسلام في الأندلس، دولة الطوائف ص 91، 92 الحلل: ص 20 «وكان ممن كتب إليه حين ذلك المتوكل على الله بن الأفطس».

ناصر وعلى غزو الشرك أقدر قادر وجب أن تستدعى لما عضل الداء وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها عند إفراط تسلطها واعتدائها وشدة كلفها واستشرائها تلاطف بالاحتيال وتستنزل بالأموال ويخرج لها عن كل ذخيرة وتسترضي بكل خطيرة، ولم يزل دأبها التشكك والعناد ودأبها الأذعان والانقياد حتى نفذ المطارف والتلاد وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، واضطرمت في كل جهة نارهم ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ومن أخطى القتل منهم فإنما هم بأيديهم أساراً وسبايا يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد هموا بما أرادوه من التوثب وأشرفوا على ما أملوه من التغلب، فيا لله ويا للمسلمين، أيسطو هكذا بالحق الأفك ويغلب التوحيد الشرك ويظهر على الإيمان الكفر ولا يكشف هذه البلية النصر، إلا ناصر لهذا الدين المهتضم، إلا حامي لما استباح من الحرم، وأنى لله على ما لحق عبيده من ثكل وعزه من ذل، فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء، والبلية التي ليس مثلها بلاء، ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك أعزك الله بالنازلة في مدينة قورية[1]، أعادها الله وإنها مؤيدة للجزيرة بالخلا ومن فيها من المسلمين بالجلا. ثم ما زال التخذل يتزايد والتدابر يتساند حتى تخلصت القضية وتضاعفت البلية وتحصلت في يد العدو مدينة سرية وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في الحصانة والامتناع، وهي من المدينة كنقطة الدائرة تدركها من جميع نواحيها، ويستوي في الأرض بها قاصيها ودانيها، وما هو إلا نفس خافت ورمق زاهق استولى عليه عدو مشترك وطاغية منافق إن لم تبادروا بجماعتكم عجالاً وتتداركوها ركباناً ورجالاً وتنفروا نحوها خفافاً وثقالاً وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله فإنكم له أتلى ولا بما في حديث رسول الله ﷺ إنكم إلى معرفته أهدى، وكتابي إليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ يفصلها ويشرحها، ومشتمل على نكت هو يبينها ويوضحها، فإنه لما توجه نحوك احتساباً وتكلف المشقة إليك طالباً ثواباً،

---

(1) مدينة قورية منذ أعظم من البرتغال فتحها المنصور العامري عام 375 وسقطت بيد فرناندو عام 456 كان يحكمها مولى لابن الأفطس يدعى رانده. عنان: دول الطوائف ص85.

عولت على بيانه ووثقت بفصاحة لسانه والسلام».

ثم وجه الفونس اهتمامه نحو المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية وقرطبة، فقد كان أقوى ملوك الطوائف، وكان مُنتظراً منه أن يقوم بمهمة حماية الأندلس، ولكنه لم يفعل ذلك بل قضى معظم أيامة بصراعات داخلية أضعفت المسلمين، وكل ما فعله أنه استولى على حصن ونازل مدينة واشتبك مع متغلب على ناحية، وخاض صراعات عديدة في قرطبة حتى أخضعها لنفوذه وكذلك مع ابن رشيق صاحب مرسية، وكان المعتمد يتعامل مع العدو معتمداً على المهارة الدبلوماسية ـ كسائر ملوك الطوائف ـ ودفع أذاه بالجزية، وقد كتب إلى الفونس ألا يتعدى حدود طليطلة[1] ويبدو أن الفونس حينما اختار مملكة المعتمد كان يهدف إلى ضرب القوة الرئيسة لدى المسلمين وبعد ذلك يتمكن بكل سهولة من إخضاع باقي الدويلات الإسلامية، خاصة وإنها أضعف من أن تقاوم وأكثرها يدور في فلكه، ومع ذلك فقد راعى شروط المعاهدات المعقودة مع المعتمد، فلم يهاجمه مباشرة بل طلب منه أموراً مستحيلة التنفيذ، فسأله أن يتخلى له عن معاقل وحصون على الحدود كان الموت عنده أولى من إعطائها[2]. وإمعاناً في الاذلال والتجني طلب منه السماح له بإدخال إمرأته القمطيجة إلى جامع قرطبة لتلد فيه بناءً على نصيحة الأساقفة، لأن الطرف الغربي منه كان موضع كنيسة قوطية قديمة، وسأله أن تنزل بالزهراء مدينة الخليفة الناصر لتكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة الموصوف[3]، وأرسل إليه بعثة من خمسماية فارس برئاسة اليهودي ابن شالب[4] لأخذ الجزية. وتجرأ السفير

(1) أشباخ: الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص 60.

(2) مذكرات الأمير عبد الله: ص 102 ـ المقري: نفح الطيب ج 6 ص 88 ـ ابن خلكان وفيات الأعيان جـ 5 ص 28.

(3) الحميري: الروض المعطار ص 84 ـ ابن الأبار: الحلة السيراء ص 350 ـ الاستقصاء ج 1 ص 113 ـ المقري: نفح الطيب ج 6 ص 89 و 90.

(4) ابن الأثير: الكامل ج 10 ص 142 ـ الاستقصا ج 1 ص 112 ـ تاريخ مسلمي إسبانيا ج 3 ص 119.

وخرج على اللياقات الدبلوماسية وأغلظ في القول للمعتمد: «لا تعتقدني بسيطاً لأقبل مثل هذه العملة المزيفة؟ لا آخذ إلا الذهب الصافي، والسنة القادمة ستكون مدناً»[1]. فما كان من المعتمد وقد أخذته العزة العربية إلا أن أمر بقتل البعثة وصلب اليهودي[2].

أثار هذا التصرف حفيظة الفونس وكان متجهاً لحصار قرطبة[3]، فعدل عن ذلك «وأقسم بآلهته ليغزون المعتمد بإشبيلية»[4]، وجهز جيشين جعل على أحدهما أحد قواده وأمره بالمسير على كورة باجة غرب الأندلس لتخريب تلك التخوم حتى إشبيلية، وزحف هو بالجيش الآخر وسلك طريقاً مغايراً، فخرب ودمر في طريقه حتى وصل إلى طريف - أقصى جنوب الأندلس على المضيق - وأدخل قوائم فرسه في البحر قائلاً: هذا آخر بلاد الأندلس قد وطأته»[5]. ومن هناك أرسل إلى الأمير يوسف بن تاشفين خطاباً جاء فيه[6]: «من أمير الملتين[7] بن برهذة إلى الأمير يوسف بن تاشفين. أما بعد فلا خفاء على ذي عينين أنك أمير المسلمين بل الملة الإسلامية كما أنا أمير الملة النصرانية، ولم يخلف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخاذل والتواكل والإهمال للرعية والإخلاد إلى الراحة وأنا أسومهم الخسف، فأخرب الديار وأهتك الأستار وأقتل الشبان وأوسر الولدان ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم إن أمكنك معرفة هذا، وأنتم تعتقدون أن الله تبارك وتعالى فرض على واحد منكم بعشرة منا وإن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار، ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم وأعاننا عليكم

---

(1) Dozy: Hist, des Musulmans D'Espagne t 3 P. 119.

(2) وفيات الأعيان ج 5 ص 28.

(3) وفيات الأعيان ج 5 ص 28.

(4) الحميري: الروض المعطار ص 85 - الحلة السيراء ص 351 - الاستقصا ج 1 ص 113 - نفح الطيب ج 6 ص 90.

(5) الاستقصا ج 1 ص 110 - دائرة معارف القرن العشرين: مادة لثم ص 323.

Dosy: his des Musulmans D'Espagne t 3 P. 120.

(6) الحلل ص26 و 27 ويبدو أحد المسلمين الضالعين باللغة العربية كتبه له.

(7) تسمى الفونس بأمير الملتين بعد أخذ طليطلة ويقصد بالملتين: الإسلامية والنصرانية.

ولا تقدرون دفاعاً ولا تستطيعون امتناعاً، وبلغنا عنك وأنك في الاحتفال عن نية الاستقبال فلا يدري أكان الجبن يغطي بك أم التكذيب ما أنزل عليك، فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إليّ ما عندك من المراكب نجوز إليك، أناظرك في أحب البقاع إليك، فإن غلبتني فتلك نعمة جلبت إليك ونعمة شملت بين يديك، وإن غلبتك كانت لي اليد العليا واستكملت الإمارة والله يتم الإرادة». ولما قرىء الكتاب على الأمير يوسف بان له غرور عدوه والاستهانة بقوة المرابطين، فأعلمه يوسف بجوابه أن قوة المرابطين سيراها الفونس في ساحة المعركة لا كما ينقلها إليه أتباعه مزورة بعيدة عن الحقيقة(1)، ثم أمر بالجواب على ظهر الكتاب ذاته: «ما ترى لا ما تسمع إن شاء الله تعالى» وأردف:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ولا رسل إلا الخميس العرمرم(2)

وعاد الفونس إلى إشبيلية حيث التقى بجيشه الآخر أمام قصر المعتمد بن عباد بضفة النهر، وحاصر المدينة ثلاثة أيام وكتب إلى المعتمد يسأله أن يرسل إليه مروحة لطرد الذباب، ولم يتحمل المعتمد هذه الإهانة فرد عليه: «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك وسأنظر إليك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك ولا تروح عليك»(3).

ترك الفونس إشبيلية وسار نحو سرقسطة وحاصرها، كانت شبه ضائعة تنتظر مصيرها المؤلم، وصاحبها ابن هود لا يستطيع الدفاع كثيراً، ثم أخذ بلنسية وأعطاها لعهيده القادر بن ذي النون صاحب طليطلة السابق، وهاجم مملكة المرية ووصل القشتاليون إلى نابار قرب غرناطة(4). كان الخطر على الأندلس

(1) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 104.
(2) الحلل ص 27 ـ وأعمال الأعلام تحقيق د. عبادي ص 239 و 240 ـ تاريخ ابن الكردبوس ص 91.
(3) الحميري: الروض المعطار ص 80 ـ الحلة السيراء ص 351 ـ الاستقصا ج 1 ص 113 ـ نفح الطيب ج 6 ص 91 وفي الروض المعطار زيادة «في أيدي الجيوش المرابطة».
(4) Dozy his des Musulmans D'Espagne t 3 P. 122 - 123.

شديداً وقلة الشجاعة وانهيار الروح المعنوية تثبط العزائم إذ أن ثمانين قشتالياً هزموا اربعمائة من المرية[1]. وأصبح الناس بين خيارين أحلاهما مر الخضوع للنصارى أو الهجرة جماعات؟ وكان الخيار الأخير هو المرجح لأن البقاء في شبه الجزيرة من الجنون[2].

أمام هذه الحالة السيئة التي وصلت إليها الأندلس المسلمة اجتمع مشايخ قرطبة وزعماؤها للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم - وكانت بلا حامية - وسائر بلاد الأندلس خاصة بعد غلبة النصارى عليها، وعرضوا على قاضي المدينة عبيد الله بن أدهم الذي توفي عام 486 هـ/ 1093 م ما وصل إليه المسلمون من الذلة والصغار[3]، واقترحوا عليه الاستنجاد بعرب افريقية الهلاليين[4]. ولكن القاضي تخوف من وصولهم وتخريبهم للبلاد كما فعلوا بأفريقية، وأشار عليهم الاتصال بالمرابطين لأنهم أصلح منهم وأقرب إلى الأندلس، فطلبوا منه استدعاء الأمير يوسف لإنقاذهم وفوضوه بالأمر[5].

كان مؤتمر قرطبة أول إجماع شعبي للخروج بالأندلس من محنتها بزعامة الفقهاء ملاذ الأمة في الظروف الصعبة. وتجاوز المسلمون حكامهم السياسيين والتجأوا إلى قادتهم الروحيين من أجل الخلاص وللحفاظ على الدين ولصيانة الأندلس المسلمة التي روتها دماء المجاهدين الأوائل الذين حملوا راية الإسلام ودوخوا النصارى منذ مطلع القرن الثاني الهجري.

وحرك مؤتمر قرطبة ما تبقى من استعداد للمقاومة في نفوس بعض الملوك الذين لم تطغ عليهم الخيانة ولم يصرفهم التهديد عن الاستعداد إلى التخاذل

---

(1) تاريخ ابن الكردبوس ص 89.

(2) his des Musulmans T 3 - P. 123.

(3) ابن الأثير: الكامل ج 10 ص 142 - وفيات الأعيان ج 5 ص 28 الاستقصا ج 1 ص 112.

(4) His, Des Musulmans D'Espagne P. 123.

(5) الكامل ج 10 ص 152.

والاستسلام كالمتوكل ابن الأفطس والمعتمد بن عباد[1]. فقد لاحت للمعتمد طوالع المصير الذي ينتظره وأدرك فداحة الأخطاء التي تردى فيها بمصانعة الفونس، فجد في تقوية جيشه وترميم الحصون والقلاع وقرر أن يستصرخ أخوانه المسلمين في المغرب[2]، وتشاور بالأمر مع ابنه الرشيد وزعماء إشبيلية الذين أشاروا عليه بمداراة الفونس[3] والرضوخ لشروطه التي يمليها، فذلك أولى من الاستنجاد بالمرابطين. ولكن هذا الرأي لم يعجب المعتمد فخلا بابنه الرشيد ـ وكان ولي عهده ـ الذي كان يرى رأي أهل إشبيلية وقال له: «أنا في هذا الأندلس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله. وإن أخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس فيهم نفع ولا يرجى منهم نصرة ولا حيلة أن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل وهو اللعين اذفونش فقد أخذ طليطلة ما يرفع عنا حتى يأخذ إشبيلية. ونرى من الرأي أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدوة نستدعيه للجواز إلينا ليدفع عنا الكلب اللعين إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا، فقد تلف لجاؤنا وتدبرت بل تبردت أجنادنا وبغضتنا العامة والخاصة[4]. فأجابه الرشيد يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا؟ فقال: أي بني والله لا يسمع عني أبداً إني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم عليّ اللعنة من على منابر الإسلام مثل ما قامت على غيري[5]، والله خرز الجمال عندي خير من خرز الخنازير».

شاع في الأندلس رأي المعتمد بن عباد الاستنجاد بالمرابطين. ولما تحقق ملوك الأندلس من ذلك حذروه عاقبة ذلك وقالوا له: «الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد»[6]. وقد عارض بشدة الاستنجاد بالمرابطين عبد الله بن سكوت والي مالقة الذي كان يرى أن المرابطين أشد خطراً من النصارى ويجب

---

(1) وفيات الأعيان ج 5 ص 28.
(2) بغية الملتمس ص 23.
(3) ابن الخطيب: الحلل ص 27.
(4) الحلل ص 27 و 28.
(5) الحلل ص 28.
(6) الحلة السيراء، ص 351 ـ الروض المعطار ص 85 ـ نفح الطيب ج 6 ص 91.

الاعتماد على القوى الذاتية للأندلسيين[1]. فأجابهم المعتمد: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير»[2]. وأضاف: أن دهينا من مداخلة اوضداد لنا فأهون الشرين أمر المثلمين[3]. وقال للذين لاموه على هذا الرأي: يا قوم إني في أمري على حالين: حالة يقين وحالة شك ولا بدّ لي من أحدهما. أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكن أن يفيا لي ويبقيا عليه، ويمكن أن لا يفعلا فهذه حالة شك. وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فإني أرضي الله وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى. فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأي شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه؟ حينئذٍ قصر أصحابه عن لومه[4].

ولما عزم على الاستنجاد بالمرابطين اتصل المعتمد بالمتوكل بن الأفطس صاحب بطليموس[5] وعبد الله بن بلقين الصنهاجي صاحب غرناطة وطلب منهما أن يرسل كل منهما قاضي حضرته لتشكيل بعثة تذهب إلى المغرب لمقابلة الأمير يوسف بن تاشفين، واستحضر قاضي قرطبة ابن أدهم وكان أعقل أهل زمانه[6]. وعلى هذا النحو تشكلت البعثة الرسمية[7] إلى الأمير يوسف، وأضاف المعتمد

(1) أشباخ: الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص 69.
(2) دائرة المعارف للبستاني م 5 ص 238 ـ وفيات الأعيان ج 7 ص 115 ـ الحلة السيراء ص 351 ـ الروض المعطار ص 85 ـ نفح الطيب ج 6 ص 91.
Dozi; hist. Des Mus, D'Espagnet. 3 P. 124.
(3) وفيات الأعيان ج 7 ص 115 ـ دائرة المعارف ج 5 ص 238 مادة: أبو يعقوب.
(4) الروض المعطار ص 86 ـ المقري: نفح الطيب ج 6 ص 92 ـ الحلة السيراء ص 351 ـ الاستقصا ج 1 ص 113.
(5) Dozi: hist. de Mus. D'Espagnet. 3 P. 124.
(6) الروض المعطار ص 86 ـ نفح الطيب ج 6 ص 92 ـ الحلة السيراء ص 352 ـ الاستقصا ج 1 ص 113.
(7) تشكلت البعثة من القضاة: ابن أدهم قاضي قرطبة وابن مقانا قاضي بطليوس وابن القليعي قاضي غرناطة.

إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون[1] وأطلعهم المعتمد أنهم رسله إلى الأمير يوسف، وأسند إلى القضاة وعظ الأمير وترغيبه في الجهاد وإلى الوزير بن زيدون أبرام العقود[2]. وحملت البعثة معها رسالة مكتوبة من المعتمد إلى الأمير يوسف مؤرخة عام 479[3] وهذا نصها[4]:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، إلى حضرة الإمام أمير المؤمنين وناصر الدين محيي دعوة الخليفة، الإمام أبي يعقوب يوسف بن تاشفين القائم بعظيم أكبارها الشاكر لإجلالها المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها اللائذ بحرامها المنقطع إلى سمو مجدها المستجير بالله وبطولها محمد بن عباد. سلام كريم يخص الحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته.

كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية في غرة جمادي الأولى 479 هـ/ 1086 م وإنه أيد الله أمير المسلمين ونصر به الدين، فأنا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا وتغيرت أنسابنا بقطع المادة عنا من ضيعتنا فصرنا شعوباً لا قبائل وأشتاتاً لا قرابة ولا عشائر، فقل نصرنا وكثر شامتنا، وتولى علينا هذا العدو المجرم اللعين إذفنش وأناخ علينا بطليطلة ووطئها بقدمه وأسر المسلمين وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، ولو شاؤوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال. وأنت أيدك الله سيد حمير ومليكها الأكبر وأميرها وزعيمها نزعت بهمتي إليك واستنصرت بالله ثم بك واستغثت بحرمكم لتجوز لجهاد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة الأسلام وتدينون على دين محمد ﷺ ولكم عند الله الثواب الكريم والأجر العظيم والسلام الكريم على حضرتكم السامية ورحمة الله وبركاته

---

(1) Hist. Des Mus. D'Espagnet. 3 P. 124.

(2) الاستقصا ج 1 ص 113 و 114 ـ دائرة المعارف م 5 مادة أبو يعقوب ص 320.

(3) الكامل ج 10 ص 152 الحلل ص 28 ـ ابن وفيات الأعيان ج 5 ص 28.

(4) الحلل ص 28 و 29.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». إلى جانب الكتب الرسمية وردت على الأمير يوسف كتب شعبية منها كتاب من إنشاء أبي بكر بن الجد كتبها عن المعتمد وقد ورد نصها في الحلل ص 30: «إلى الملك المؤيد بفضل الله أمير المسلمين وناصر الدين وزعيم المرابطين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين نور الله به الآفاق وجمل ببهاته الجيوش والرفاق، من الملك المفضل بنعمة الله المستجير برحمة الله المعتمد على الله محمد بن عباد. سلام على حضرة تجدد إيمانها واشتهر أمانها وبعد فإن الله أيد دينه بالاتفاق والائتلاق وحرم مسالك الشتات ودواعي الاختلاف وأمن على عباده بأمن جديد وقوم أولي بأس شديد وتطول علينا بمعلوم جدك وقد جعلك الله رحمة تحيي عينها ربوع الشريعة وخلفك سلما إلى الخير وذريعة وقد طرأ على الإسلام حادث أنسى كل هم وهمت النكبات بوقوعه وذلك عدو أطمعه في البلاد شتات وبين اختلاف سببه من لم تطروا له الدعوات غير تقوى تضعف وتتقي وتختلف مطمئنين من آفات الزمان وتناسخ الأمان. وقد جاءنا أفراقه وأوعاه ووعده وإيعاده لنسلم له المنابر والصوامع والمحاريب والجوامع ليقيم بها الصلبان ويستنيب بها الرهبان. ومما أطمعه استمالته أيانا بالدعوى وإملاؤها في الرحب والسعة، الله استجير لما أبطنه وإعجاماً علينا وطنه وقد وطن الله لك ملكاً شكره الله عليه جهادك وقيامك بحقه واجتهادك ولديك، وليت الخير باعث يبعثك إلى نصرة فاره واقتباس أنواره. وعندك من جنود الله من يشتري الجنة بحياته ويحضر الحرب بآلاته، فإن شئت الدنيا فقطوف دانية وجنة عالية وعيون آنية والآن إن أردت الآخرة بجهاد لا يفتر وجلاد يحيز الغلاصم ويستر هذه الجنة ذخر هذه الجنة ذخرها الله لضلال سيوفكم وإجمال معروفكم نستعين بالله وملائكته وبكم على الكافرين، كما قال سبحانه وهو أكرم القائلين: قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويجزهم وينصركم عليهم ويشفي صدور قوم مؤمنين. والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها ونعمة الإسلام نشكرها ورحمة الله نتحدث بها وننشرها. والسلام الموصل الجزيل على أمير المسلمين[1].

(1) الحلل ص 30.

وعبر السفراء البحر إلى المغرب قاصدين الأمير يوسف في مراكش. والظاهر إن هذه السفارة لم تلتمس العون دون شروط، فقد كانت مزودة بتعاليم واضحة. وأثناء اجتماعها مع الأمير جرت بين الفريقين محادثات ومراوضات[1]. وفي هذه الأثناء كانت وفود عديدة من الأندلس تؤم بلاط الأمير يوسف مستغيثة مستعطفة[2]، فيصغي الأمير إليهم وترق نفسه لهم ويعدهم خيراً.

أطلع الأمير يوسف حاشيته على المحادثات لاستشارتهم بالأمر، وكان المرابطون متشوقين لدخول الأندلس والجهاد ضد النصارى[3]، وكان رأيهم: أما ما ذكرتم من استغاثة هذا الرجل (أي المعتمد) بكم فواجب على كل مسلم يؤمن بالله ورسوله إغاثة أخيه المسلم، وأخرى فإنه لا يخل لنا أن يكون جارياً وبيننا وبينه ساقية ماء فسقوه طعمة للعدو وهذا ما ترونه. والأمر لله ولأمير المسلمين[4].

واستشار الأمير يوسف كاتبه ووزيره الأندلسي عبد الرحمن بن أسبط (أو إسباط) فنصحه الكاتب بأن يتسلم الجزيرة الخضراء لكي تكون أمينة لعبور الجيش ولحماية خطوط التموين[5]. وقال له: أن الأمر لله تعالى ولكم وواجب على كل مسلم إغاثة أخيه المسلم والانتصار له. غير إن لي كلاماً أنهيه إليكم، أيد الله الأمير تعمرون الثمن وسبعة أثمان يعمرها النصارى هي ضيقة عرجة حريجة سجن لمن دخلها لا يخرج منها إلا تحت حكم صاحبها. وإن أنت جزت إليها وحصلت فيها ما يكون لك في نفسك شيء. وهذا الرجل الذي استدعاك ما

(1) الاستقصاء ج 1 ص 114 ـ الروض المعطار ص 87 ـ نفح الطيب ج 6 ص 92 ـ الحلة السيراء 352.
(2) الاستقصاء ج 1 ص 114 ـ الروض المعطار ص 87 ـ نفح الطيب ص 92 ـ الحلة السيراء ص 352.
(3) الحلل ص 31.
(4) الحلل ص 31.
(5) الحلل ص 32.

بينك وبينه عتاب قديم ولا صداقة متصلة ويتقى إذا قضى الله الغرض من العدو أمسك بها. والحال كما ترونه والنظر إليكم فاكتبوا إليه فإنه لا يمكنك الجواز إلا أن يعطيك الجزيرة الخضراء فتجعل فيها أثقالك وأجنادك ويكون الجواز بيدك متى شئت. فقال له الأمير: صدقت يا عبد الرحمن لقد نبهتني على شيء لم يخطر ببالي. أكتب إليه بذلك»[1]. وكتب ابن أسبط إلى المعتمد بن عباد الكتاب التالي نصه[2]:

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. من أمير المسلمين وناصر الدين معين دعوة أمير المؤمنين، إلى الأمير الأكرم المؤيد بنصره لله تعالى المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد أدام الله كرامته بتقواه ووفقه لما يرضاه. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد فإنه وصل خطابك الكريم فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا لنصرتك وما ذكرته من كربتك وما كان من قلة حماية جيرانك، فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك وواجب علينا ذلك في الشرع وكتاب الله تعالى. وأنه لا يمكننا الجواز إلا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء تكون لنا لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا، فإن رأيت ذلك فاشهد على نفسك بذلك وابعث إلينا بعقودها ونحن في أثر خطابك إن شاء الله تعالى».

أطلع المعتمد ابنه الرشيد على خطاب الأمير يوسف فقال له: يا أبت ألا تنظر إلى ما طلب، فقال له المعتمد: يا بني هذا قليل في حق نصرة المسلمين[3]. ثم جمع المعتمد القاضي والفقهاء وكتب عقد هبة الجزيرة الخضراء للأمير يوسف وتسليمها له بحضورهم، وكان يحكمها يزيد الراضي بن المعتمد، فبعث إليه يأمره بإخلائها وتسليمها للمرابطين لتكون رهن بتصرف الأمير يوسف[4]. وبعد حصوله على الجزيرة حزم الأمير يوسف أمره وقرر تلبية

---

(1) الحلل ص 32.
(2) الحلل ص 32 و 33.
(3) الحلل ص 33.
(4) يذكر الأمير عبد الله صاحب غرناطة في مذكراته ص 102 و 103 أن المعتمد تلكأ في=

نداء أهل الأندلس تحدوه نزعة للجهاد وكتب أمانا إلى أهلها على ألا يتعرض لأحد منهم في بلده وقال: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى الأمر أحداً إلا أنا بنفسي»[1]. واستنفر سائر قواته للجهاد وبعث إلى مراكش في طلب الجنود فأقبلت إليه[2] وكذلك من الصحراء والقبلة وبلاد الزاب[3] ومختلف نواحي المغرب، وحشد السفن لعبور هذه القوات وأصدر أوامره بالعبور إلى بلاد الأندلس وكانت طليعة العابرين قوة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة[4] إلى الجزيرة الخضراء فتمركز فيها وفقاً لما تم عليه الاتفاق. وتوالى عبور بقية الجيش تباعاً، وقد أمر الأمير يوسف بعبور الجمال بأعداد[5] كثيرة، وقد أثار ظهورها دهشة الأندلسيين لأنهم لم يكونوا قد رأوها من قبل، وقد أثر وجودها على الخيل فأخذت تجمح لدى رؤيتها[6]. ولما تكامل الجيش المرابطي بساحل الجزيرة الخضراء عبر الأمير يوسف في أثره بموكب من قادة المرابطين وأنجادهم وصلحائهم. ولما استولى على ظهر السفينة رفع يديه نحو السماء مناجياً: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا إصلاحاً للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا

= تسليم الجزيرة وأمسك رسل المعتمد مدة منهم القاضي عبد الملك المصمودي وابن الأحسن، ثم أطلق سراحهم وأرسلهم مع شيوخ أشبيلية ليطلبوا من يوسف التريث مدة 30 يوماً لإخلائها، فما كان من يوسف إلا أن هاجم الجزيرة واستولى عليها عنوة بقيادة داود بن عائشة.

(1) المعجب ص 131.

(2) المعجب ص 131 ـ الكامل في التاريخ ج 10 ص 152 الحلل ص 31.

(3) الاستقصاء ج 1 ص 111.

(4) المعجب ص 131 ويذكر أن عدد الفرسان سبعة الاف ـ وفيات الأعيان ج 5 ص 29 ـ أشباخ: تاريخ الأندلس ص 79.

(5) الروض المعطار ص 87 ـ المقري ـ نفح الطيب ص 94 ج 6 ـ الحلة السيراء ص 352.

(6) كان الأمير يوسف يهدف من عبور الجمال استخدامها في القتال، وقد جعلها فيما بعد في مقدمة الجيش (أثناء معركة الزلاقة) لحماية الجنود من سهام الأعداء فهي بمثابة الدروع في وقتنا الحاضر.

نجوزه»[1]. وسهل الله عليهم العبور في أسرع وقت وكان ذلك يوم الخميس بعد الزوال منتصف ربيع الأول 479 هـ حزيران 1086 ك[2] ونزل بالجزيرة الخضراء، فصلى بها الظهر، واستقبله سكانها بالترحاب وخرجوا إليه بما عندهم من الأقوات والضيافات وأقاموا الأسواق لذلك وامتلأت المساجد والرحبات بالمتطوعين[3]. وشرع يوسف في تحصين الجزيرة وترميم أسوارها وما تصدع من أبراجها، وشحنها بالأسلحة والأطعمة أوكل حراستها إلى نخبة من رجاله[4]. وبعد أن استراح قليلاً ونظم أمور الجزيرة سار يوسف نحو إشبيلية.

---

(1) الاستقصا ج 1 ص 111 ـ الأندلس في عهد المرابطين ص 79 «وقد ورد الدعاء بصيغة المفرد ابن أبي زرع: روض القرطاس ص 93.

(2) الاستقصا ج 1 ص 111.

(3) الروض المعطار ص 87 ـ نفح الطيب ج 6 ص 93 ـ الحلة السيراء ص 352 الاستقصا ج 1 ص 114.

(4) الحلل ص 34.

Dosz: hist. des Mus. D'Espagane T 3 - P. 125.

معركة الزلاقـة

لقاء يوسف والمعتمد ـ يوسف في أشبيلية ـ استنفار الأندلسيين ـ التوجه نحو بطليوس ـ اللقاء مع المتوكل بن الأفطس ـ الجيش الإسلامي «المرابطين والأندلسي» في سهل الزلاقة ـ ترتيب الجيش وتوزيع القيادات ـ الفونس يحاصر سرقسطة ـ وقع النبأ عليه ـ محاولة استغلال الفرصة ـ التراجع عن المدينة ـ التحالف مع أمراء إسبانيا النصرانية ـ المساعدات الخارجية ـ تشكيل الجيش الإسباني وعدده ـ مسير الفونس نحو الزلاقة والهدف من ذلك ـ الجيوش المتحاربة في الزلاقة ـ أهداف المتحاربين ـ المقارنة بين الجيشين عرض يوسف على الفونس ـ رفض الفونس ـ تحديد يوم المعركة ـ غدر الفونس ـ المعركة سحر الجمعة 12 رجب/ 23 تشرين الأول ـ انسحاب غارسيا من المعركة ـ هجوم الفونس ـ تراجع المسلمين ـ النجدة المرابطية ـ يوسف يزج بحرسه ـ النصر للمسلمين ـ فرار الفونس مع 500 فارس ـ جمع الأسلاب ـ عودة يوسف إلى إشبيلية ـ وصيته للأندلسيين ـ 3 آلاف مرابط في الأندلس ـ عودة يوسف إلى المغرب وأسبابها ـ يوسف في المغرب وفاة الأمير أبي بكر بن عمر.

سارع المعتمد لملاقاة الأمير يوسف في مئة من فرسانه ووجوه أصحابه[1] والتقى به على بعد مرحلة من الجزيرة الخضراء[2]، ركض المعتمد نحو

---

(1) الروض المعطار ص 87 ـ نفح الطيب ج 6 ص 95 ـ الحلة السيراء ص 352 الاستقصا ج 1 ص 114.

(2) الحلل الموشية ص 34.

المرابطين فبرز إليه الأمير يوسف وحده والتقيا منفردين وتعانقا طويلاً وأظهرا أمام الجيش المودة والإخلاص، وشكرا نعم الله تعالى وتواصيا بالصبر[1]. وقدم المعتمد بعد ذلك للأمير يوسف الهدايا وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات للجيش المرابطي فعمت الحملة مما بعث السرور في نفس الأمير. واستعرض المعتمد الجيش المرابطي فرأى «عسكراً نقياً ومنظراً بهياً»[2] وتابع الأمير يوسف سيره نحو إشبيلية حيث كان يستقبل بالترحاب مع جيشه المرابطي على امتداد الطريق حتى وصل إلى حاضرة المعتمد فأقام فيها ثلاثة أيام للاستراحة[3] ثم قال للمعتمد: «إنما جئت ناوياً جهاد العدو فحيثما كان توجهت»[4]. وخلال إقامته القصيرة في إشبيلية بعث الأمير يوسف إلى ملوك الأندلس يستنفرهم للجهاد[5]، فكان أول من لبى الدعوة عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة الذي خرج إليه بأمواله ورجاله والتقى بالأمير يوسف بجريشه على طريق بطليوس[6]، وأخوه تميم صاحب مالقة، واعتذر ابن صمادح صاحب المرية لكبر سنه ولمجاورة العدو له في حصن لييط وأرسل ابنه معز الدولة في فرقة من جيشه[7]. وسار الجيش المرابطي بقيادة الأمير يوسف مع الجيش الأندلسي نحو بطليوس فاستقبلهم صاحبها المتوكل بن الأفطس على ثلاث مراحل من المدينة[8] وقدم لهم الهدايا والقرى والعلف، وأقام هناك الأمير يوسف أياماً عدة حتى يصل باقي المتطوعين، ثم علم أن أكثرهم مشغول

---

(1) الروض المعطار ص 87 ـ نفح الطيب ج 6 ص 95 ـ الحلة السيراء ص 352 الاستقصا ج 1 ص 114.
(2) الحلل ص 34.
(3) الحلل ص 34 ـ ويشير أشباخ أن إقامة يوسف كانت 8 أيام، الأندلس في عهد المرابطين 79.
(4) المعجب ص 131 و 132.
(5) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 104 ـ بغية الملتمس ص 31.
(6) مذكرات الأمير عبدالله ص 104.
(7) ابن الحلل ص 34.
(8) الحلل ص 35.

بمدافعة النصارى فتابع سيره حتى وصل إلى سهل الزلاقة[1]، وهو سهل حرجي فسيح على مسيرة ثمانية أميال تقريباً إلى الشمال الشرقي من بطليوس، وهناك نظم يوسف جيشه، فجعل الأندلسيين جيشاً قائماً بذاته أسند قيادته إلى المعتمد بن عباد الذي تولى في الوقت ذاته المقدمة، وعين المتوكل بن الأفطس على الميمنة وأهل الشرق كانوا على المسيرة. وحشد سائر أهل الأندلس في الساقة[2]، وخيم هذا الجيش أمام المرابطين. أما الجيش المرابطي، فقد تولى قيادة فرسانه داود بن عائشة والحشم سير بن أبي بكر وبقية المرابطين مع الحرس الأمير يوسف بن تاشفين إلى جانب قيادته للجيش الإسلامي، وعسكر المرابطون خلف الأندلسيين تفصل بينهم ربوة بقصد التمويه[3].

وبلغ عدد الجيش الإسلامي من مرابطين وأندلسيين أكثر من 24 ألف جندي[4].

---

(1) الحلل ص 35 ـ ابن الكردبوس ص 93 ـ العبر ج 6 ص 186 ـ الكامل ج 10 ص 153 ـ وفيات الأعيان ج 5 ص 29 وج 7 ص 116 ـ المعجب ص 133 ويذكر أن المكان أول بلاد الروم ـ دائرة المعارف الإسلامية ج 10 مادة زلاقة ص 370 ـ دائرة معارف القرن العشرين: مادة لثم ص 324 ـ دائرة المعارف ج 5 مادة أبو يعقوب ص 238 ـ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص 320 ـ أشباخ: الأندلس في عهد المرابطين والموحدين من 38 المكان الزلاقة بالعربية و Sacralias النصرانية ـ حتى وجبور: تاريخ العرب ص 643 ويسمى المكان Sacralias الروض المعطار ص 93 ويحدد المكان في إقليم بطليوس من غرب الأندلس.

Hamet: his. du Maghreb P. 86.

Dozy: his. des mus. D'Espagnet. 3. P. 126.

بغية الملتمس ص 31.

وقلما يخلو كتاب يتعرض للأندلس إلا ويأتي على ذكر معركة الزلاقة.

(2) الحلل الموشية ص 41.

(3) روض القرطاس ص 94 ـ ابن الكردبوس ص 93 ـ دائرة معارف القرن العشرين: مادة لثم ص 324.

(4) يحدد دوزي عدد الجيش المسلم بعشرين ألف جندي: ملوك الطوائف ص 301.

=Dozy: Hist. des Mus. D'Espagne T 3 - P. 127 - hamet: hist. du mag. P. 86.

كانت أنباء عبور المرابطين إلى الأندلس قد وصلت إلى الفونس وهو محاصر سرقسطة[1]. فارتاع، ولكنه حاول أن ينتهز الفرصة وطلب من صاحبها المستعين بن هود مبلغاً من المال لرفع الحصار عن المدينة معتقداً أن المستعين لا علم له بالعبور. ولكن النبأ السعيد قد عم الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها وكأنه رحمة نزلت من السماء على المستعين الذي رفض إعطاءه درهماً واحداً[2] خشية أن يتقوى به، فرحل عن سرقسطة مسرعاً إلى طليطلة للاستعداد لدفع الخطر الذي دهمه على غفلة، هذا الخطر أملى عليه التحالف مع أمراء إسبانيا النصرانية، فبعث إلى سانشو راميرز ملك أراجون يستعديه لنجدته وكان سانشو يحاصر طرطوشة، وإلى الكونت برنجار ريموند صاحب بنبلونة، كما أرسل إلى قائده البرهانس يستدعيه من بلنسية[3]. استنفر الكبير والصغير، لم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على حمل السلاح إلا استنهضه[4]، جاء يجر الشوك والحجر[5]...

= أما صاحب الحلل ابن الخطيب فيذكر أن العدد أربع وعشرين ألفاً من الفرسان يضاف إليهم مثل هذا العدد من المشاة ص 38 ـ ومن العودة إلى الأرقام نجد أن العدد أكثر من 24 ألف، فعدد الفرسان الذين قادهم داود بن عائشة 10 آلاف ويوسف أمر بأن يترجل من حرصه الخاص 4 آلاف عدا الحشم والأندلسيين.

(1) روض القرطاس ص 93 ـ الاستقصا ج 1 ص 111ك ـ ابن الكردبوس ص 91 ـ تاريخ المغرب الكبير ص 724 ـ دائرة المعارف م 5 مادة أبو يعقوب ص 238 ـ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص 320. أشباخ: الأندلس في عهد المرابطين ص 79 ـ دوزي: ملوك الطوائف ص 294.

Hist. des mus. D'Espagne T3 P. 126.

بغية الملتمس ص 31.

(2) ابن الكردبوس ص 92 ـ دوزي: ملوك الطائف ص 295.

Hist. des Mus. D'Espagne T3 P. 126.

(3) روض القرطاس ص 94 ـ الأندلس في عهد المرابطين ص 80 الاستقصا ص 111 ـ تاريخ المغرب الكبير ص 724.

(4) الروض المعطار ص 88 ـ الحلة السيراء ص 352 ـ نفح الطيب ج 6 ص 95 ـ الاستقصا ص 111 ـ ابن الكردبوس ص 92.

(5) المعجب ص 133 يذكر الضبي أن العدد كان 40 ألف فارس ومئة ألف راجل ص 31.

وطلب النجدة من وراء جبال البرتات من لانجدوك وجويانة وبرجونية وبروفانس[1]، فأتته من تلك البلاد أفواج عديدة من المتطوعين[2]. وقسم الفونس جيشه إلى قسمين كبيرين، أسند قيادة الجيش الأول إلى ابن عمه الكونت غارسيا ورودريك، وما لبث أن انسحب قبل بدء المعركة أثر خلاف مع الفونس الذي أبقى رودريك في القيادة، واحتفظ بقيادة الجيش الثاني وعين على جناحيه سانشوراميرز والكونت برنجار ريموند وتولى هو القلب[3]. وكان الفرسان يشكلون العمود الفقري في جيش الفونس الذي اعتمد على الفارس كفرد أكثر من الاعتماد على الفرسان كمجموعة، كان الفارس يلبس الزرد والدروع التي تغطيه من الرأس إلى القدم كأنه حصن من الحديد يتحرك[4]، لقد تحصن بالحديد واتخذ من السلاح ما يزيد من جرأته وشجاعته[5]. استعرض الفونس جيشه فأعجبته كثرته وأخذه الغرور فقال: «بهذا الجيش ألقى محمد وآله محمد والأنس والجن والملائكة»[6]، وتقدم الرهبان والقسيسون أمامه وهم يرفعون الأناجيل والصلبان لإذكاء الحماس الديني في نفوس الجنود[7] الذين بلغ عددهم أكثر من ستين ألفاً[8].

---

(1) الأندلس في عهد المرابطين ص 80 ـ سالم: تاريخ المغرب الكبير ص 724.
Dozy: hist. des mus. D'Espagne T3. P. 126.

(2) الروض المعطار ص 88 ـ الحلة السيراء ص 352 ـ نفح الطيب ج 6 ص 95 ـ الاستقصا ج 1 ص 115.

(3) الأندلس في عهد المرابطين ص 83.

(4) الأندلس في عهد المرابطين ص 56.

(5) حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص 282.

(6) الكامل ج 10 ص 153.

(7) الروض المعطار 88 ـ الحلة السيراء ص 353 ـ نفح الطيب ج 6 ص 96 الاستقصا ج 1 ص 115.

(8) وفيات الأعيان ج 5 ص 29 «عدد الجيش النصراني أربعون ألف فارس ما عدا ما ينضم إليه ـ الكامل ج 10 ص 153 العدد خمسون ألفاً وأربعون ألفاً في الحلة السيراء 353 والاستقصا ص 115 والروض المعطار 88 والأربعون ألفاً دارع ولا بدّ لمن صفته هذه أن يتبعه واحد أو اثنان ـ الحلل 80 ألفاً منهم 40 ألف فارس ـ والنصارى يقدرون أن=

خرج الفونس بجيشه نحو بطليوس، وكتب إلى المعتمد بن عباد كتاباً جاء فيه: «إن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده وخاض البحار، وأنا أكفيه العناء فيما بقي ولا أكلفكم تبعاً، أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم»[1]. وكان الفونس يقصد من خروجه إلى بلاد أعدائه أن تكون المعركة في أرضهم كي لا تخرب الحرب بلاده بينما يصيب ذلك بلاد المسلمين، فإذا انهزم ولحقوا به يكون مسيرهم في أرضهم ولا بدّ لهم من الاستعداد لاكتساح بلاده، وبذلك تنجو من التدمير، وإذا انتصر حدث ذلك في أرض أعدائه[2]. وصل الفونس إلى بطحاء الزلاقة وخيم على بعد ثلاثة أميال من الجيش المسلم يفصل بينهما نهر بطليوس يشرب منه المتحاربون[3].

كانت الأحوال تنذر بأن المعركة ستكون حاسمة بالنسبة للأندلس، فقد بلغت القوى النصرانية ذروة قوتها تذكيها نزعة صليبية تهدف إلى طرد العرب من إسبانيا، وبالمقابل فإن الحماس الذي بثه المرابطون قد جدد عزائم الأندلسيين وأحيى أموات الآمال فيهم.

كان الفونس يهدف إلى ضرب القوى المحلية في الأندلس لأنهم سكان البلاد الأصليين، وبالقضاء عليهم تخلو له الساحة من أية قوة مناوئة في المستقبل، فيبسط سيطرته على شبه الجزيرة وبذلك يحقق الهدف من حرب الاسترداد الهادفة إلى إعادة إسبانيا إلى النصرانية، كان ينظر إلى الأندلسيين نظرة احتقار وازدراء فهو الذي اقتضى منهم الجزية سنين عدداً وتلاعب بمصيرهم

= العدد كبير: نفح الطيب ص 96.

Hamet: hist. du maghreb P. 86 le nombre est 60 milles.

(1) الحلة السيراء ص 353 ـ الروض المعطار ص 88 ـ نفح الطيب ج 6 ص 96 ـ الاستقصا ج 1 ص 115.

(2) الحلة السيراء ص 353 ـ الروض المعطار ص 88 ـ نفح الطيب ج 6 ص 96 ـ الاستقصا ج 1 ص 115.

(3) روض القرطاس ص 94 ـ ابن الكردبوس ص 93 ـ دائرة معارف القرن العشرين مادة لثم ص 324.

مترقباً الفرصة المناسة لاستئصالهم من الأندلس وها هي قد أتت.

أما المرابطون فبنظره طارئون على الأندلس ولا بدّ لهم من العودة إلى وطنهم الأصلي المغرب. وأنهم وإن كانوا مقاتلين أشداء، فإنه بالقضاء على الأندلسيين تنفتح الطريق أمامه لهزيمتهم بسبب جهلهم بالطبيعة الجغرافية للبلاد.

في المقابل كان الأندلسيون يظهرون حماسهم للجهاد والقتال ولكن الخنوع والحياة الهنيئة بلغت منهم مبلغاً، كانوا حريصين على حياتهم ولا يرغبون في الاستشهاد، فقد خضعوا للنصارى طويلاً ودفعوا لهم الجزية للاحتفاظ بعروشهم وجندوا المرتزقة لقتال بعضهم بعضاً، فهم لا جدوى منهم ولا يمكن الاعتماد عليهم، ما عدا القلة منهم كالمعتمد بن عباد ملك إشبيلية والمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس اللذين رفضا الانصياع لمتطلبات الفونس المتكررة وقررا امتشـاق الحسام، فمن ظفر عاش سعيداً ومن مات كان شهيداً، فهم أبناء ثلاثة قرون ونصف في الأندلس، وقد روى أجدادهم بطاح الأندلس ووهادها بدمائهم ـ وكم بذل العرب من الدماء رخيصة للبقاء في الأندلس والمحافظة على طابعها الإسلامي وحضارتها ـ لقد أكلت حروب الأندلس وما وراءها زهرة الشباب العربي منذ الفتح حتى تلك اللحظة، وقد أتى الآن من يحافظ على هذا التراث الثمين. وبعض الأندلسيين يريد أن يضرب النصارى بالمرابطين وبذلك يتخلصون من أعدائهم المحليين بأسهل الطرق وعلى يد غيرهم، ويعود المرابطون بعد ذلك إلى المغرب فتبقى لهم الأندلس خالصة فتسلم لهم دويلاتهم دون خسائر تذكر.

أما المرابطون وهم المضطرمون حماساً دينياً، تلقوا الإسلام الصحيح على يد الإمام ابن ياسين وخاضوا معارك الواحات وأودغشت وغانة تحت لوائه وهي لا تزال ماثلة في أذهانهم كانوا متشوقين إلى الاستشهاد معتمدين في القتال على أنفسهم خاصة وأنهم غرباء في بلاد بعيدة وقد أدرك الأمير يوسف أن لا جدوى من الأندلسيين ولا يمكن الاعتماد عليهم بعدما لمس من أكثرهم التردد والمماطلة.

ونتائج القتال مصيرية في نظرهم، فإذا انهزموا أمام الإسبان فذلك يعني أن المغرب ستعمه الفوضى على يد أعدائهم المتربصين بهم وهم كثر، وإذا عادوا ظافرين فقد يقلع أعداؤهم المغاربة عن فكرة التمرد والثورة ليقينهم برسوخ دولة المرابطين وقوتها، خاصة أنها أثبتت كفاءتها في معارك الجهاد خارج المغرب. وبالنسبة للأندلس يتم إنقاذها من الانحطاط الذي تردت فيه وبذلك يكون المرابطون قد حفظوا الإسلام والحضارة في ذلك الصقع النائي من العالم الإسلامي.

كانت جميع الدلائل تشير إلى تفوق الجيش الاسباني على الجيش المرابطي من حيث العدة والعدد، ومن الميزات التي تجعله متفوقاً أن بلاده قريبة بحيث يستطيع قائده طلب المزيد من المتطوعين والأسلحة حتى من بلاد الفرنجة وبلاد البابوية، وكانت تحميه من الوراء سلسلة من الحصون المنيعة يلجأ إليها في حال الهزيمة. أما الجيش المرابطي فقد كان محدود العدد، وليس باستطاعة الأمير يوسف استدعاء المزيد من الجنود من المغرب، فقد زج في المعركة بكامل قواته التي استطاع تجنيدها، خاصة وأنه لا يرغب بإخلاء المغرب من المرابطين وقد أخضعه بالسيف، وأعداؤه لم يزولوا نهائياً عن مسرح الأحداث المغربية، واعتماده على الأندلسيين كان ضعيفاً، فلم يستطيعوا تجنيد عدد كبير من المقاتلين[1]، وكانوا في حالة من الانهيار المعنوي أمام الفونس الذي أذلهم، وقد عوض الأمير يوسف هذا الضعف في جيشه بالحماس الذي بثه في نفوس الجنود.

وعلى مقتضى الشريعة الإسلامية قدم يوسف إلى الفونس كتاباً يعرض عليه الدخول في الاسلام أو دفع الجزية أو الحرب، وهي الطريقة الإسلامية المتبعة مع أهل الكتاب. ومما جاء في كتاب الأمير[2]: «بلغنا يا أذفونش أنك

---

(1) لقد كان الجيش الأندلسي قليلاً جداً لا يتجاوز عدة آلاف.

(2) الحلل ص 35 ـ وفيات الأعيان ج 7 ص 116 ـ الروض المعطار ص 90 ـ الحلة السيراء ص 354 ـ نفح الطيب ج 6 ص 97 ـ الاستقصا ج 1 ص 116. دوزي: ملوك=

تحوت[1] الاجتماع بنا وتمنيت أن تكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا فقد جزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك وترى عاقبة ادعائك: وما دعاء الكافرين إلا في ضلال[2]».

قرأ الفونس الكتاب فزاد من غضبه وذهب بعقله وقال: «أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة؟»[3] وقال لرسول الأمير يوسف: «قل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك[4] وإننا سنلتقي في ساحة المعركة[5] ومعنى ذلك أن الفونس اختار الحرب.

والحرب خدعة، فقد حاول الفونس بمكره الشديد أن يخدع الأمير يوسف في تحديد يوم المعركة فكتب[6]: «إن غداً يوم الجمعة لا نحب مقابلتكم فيه لأنه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود وهم كثير في محلتنا، وبعده الأحد عيدنا، فنحترم هذه الأعياد ويكون اللقاء يوم الاثنين». فكان جواب الأمير: «اتركوا اللعين وما أحب»[7].

تنبه المعتمد إلى خديعة الفونس وقال للأمير يوسف: «إنها حيلة منه وخديعة إنما يريد غدرنا فلا تطمئن إليه، وقصده الفتك بنا يوم الجمعة فليكن

= الطوائف ص 298 ـ يذكر عرض يوسف.

Dozy: hist. des mus. D'Espagne T.3 P. 126.

(1) وفي وفيات الأعيان كلمة «دعوت بل نحوت».
(2) القرآن الكريم: سورة غافر الآية ٥٠.
(3) الحلل ص 35. Hist. des mus. D'Espagne P. 126.
(4) روض القرطاس ص 94.
(5) الأندلس في عهد المرابطين ص 82.
(6) الحلل ص 35 ـ نفح الطيب ج 6 ص 98 ـ الروض المعطار ص 90 ـ الحلة السيراء ص 354 ـ الاستقصا ج 1 ص 116 ـ ابن الكردبوس: ص 93 ـ دوزي: ملوك الطوائف ص 299.
(7) الحلل ص 36.

الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار»[1]. وقد حرص المعتمد على سلامة المرابطين من غدر الإسبان فبث عيونه حول معسكرهم خوفاً من تسلل العدو إليهم، فهم غرباء يجهلون الأرض الأندلسية حتى أن المعتمد نفسه كان يشرف على الحراسة، فكان الجندي المرابطي إذا تجول خارج معسكره يرى المعتمد أو بعض رجاله يقومون بأعمال الحراسة[2]. وأخذت جواسيس الفريقين تتردد بين المعسكرين، وأرسل ابن عباد طلائع من جيشه لرصد تحركات العدو، وأثناء الليل عاد بعض الجواسيس ليخبر المعتمد بأن الفونس يوصي أصحابه بالمعتمد لأنه أشعل هذه الحرب فيجب القضاء عليه[3]. وعند السحر من يوم الجمعة أقبل فارسان من فرقة الاستطلاع يخبران المعتمد ببدء تحرك العدو نحوهم إذ أن الضوضاء وقعقعة السلاح تملآن أرجاء المعسكر[4].

أنقض الجيش الذي يقوده رودريك بمنتهى العنف على معسكر الاندلسيين فاصطدم بفرسان المرابطين الذين يقودهم داود بن عائشة أرسلهم الأمير يوسف على عجل لدعم الأندلسيين، وصمد داود أمام الهجوم وأرغم النصارى على الارتداد إلى خط دفاعهم الثاني، ولكن ذلك كلفه خسائر فادحة «استأثر الله فيها بأرواح شهدت لها الرحمة وخطبتها الجنة»[5]. فاضطر إلى التراجع. وفي الوقت نفسه زحف الفونس ببقية جيشه نحو المسلمين واقترن زحفه بصياح هائل أثار الذعر في قلوب الأندلسيين قبل خوضهم المعركة وروعوا أيما روع فلاذوا

---

(1) الحلة السيراء ص 354 ـ الروض المعطار ص 90 ـ نفح الطيب ج 6 ص 98 ـ الاستقصا ج 1 ص 116 ـ أشباخ ص 83 ـ ابن الكردبوس ص 93 ـ أعمال الأعلام تحقيق د. عبادي ص 242.

(2) الروض المعطار ص 91 ـ الحلة السيراء ص 355 ـ نفح الطيب ج 6 ص 98 و 99 ـ الاستقصا ج 1 ص 116 ـ دائرة معارف القرن العشرين: مادة لثم ص 324.

(3) الروض المعطار ص 91 ـ الحلة السيراء ص 355 ـ نفح الطيب ج 6 ص 98 و 99 ـ الاستقصا ص 116 ـ بغية الملتمس ص 31.

(4) الروض المعطار ص 93 ـ الحلة السيراء ص 355 ـ نفح الطيب ج 6 ص 98 و 99 ـ الاستقصا ص 116 ـ دائرة معارف القرن العشرين: ص 324.

(5) الحلل ص 41.

بالفرار حتى أسوار بطليوس للاحتماء بها، ولم يصمد منهم إلا المعتمد ومعه الأشبيليون[1] استطاعوا إنقاذ شرف المسلمين، وأصيب المعتمد بجراح بليغة حتى قيل أن ثلاث أفراس قد عقرت تحته[2]. ودارت معركة رهيبة صمد فيها المعتمد وابن عائشة، فقد فلت السيوف وتكسرت الرماح، وصبر المسلمون في المعركة «صبر الكرام لحرب اللئام»[3]، وأيقن الفونس ببلوغ النصر معتقداً أن هذه هي قوة المسلمين المقاتلة وقد أخذت تضعف واشتدت حركة الفرار منها، ولم يعلم ببقية الجيش المرابطي الذي يقوده الأمير يوسف، ففي تلك اللحظة الحاسمة وثب الجيش المرابطي إلى ميدان المعركة في وقت أخذت فيه القوى النصرانية بالهبوط نتيجة الخسائر الفادحة التي أصابتها لدى الهجوم الأول، وأرسل يوسف القائد سير بن أبي بكر على رأس الحشم لمساندة القوات الاسلامية[4]، فتقوت بذلك معنوياتهم في معركة مالت إلى هزيمتهم، وزحف الأمير بحرسه المرابطي وقام بعملية التفاف سريعة باغت فيها معسكر العدو من الخلف، ووصل إلى خيامه وأحرقها وأباد حراسها ولم ينج منها إلا القليل، وكانت طبول المرابطين تدق بعنف فترتج منها الأرض، ورغاء الجمال يتصاعد إلى السماء فبث الذعر في نفوس الأعداء وهلعت

---

(1) روض القرطاس ص 95 ـ الحلل ص 41 ـ الكامل ج 10 ص 154 ـ الروض المعطار ص 92 ـ الحلة السيراء ص 355 ـ نفح الطيب ص 99 ـ الاستقصا ص 117 ـ وفيات الأعيان ج 7 ص 118 الأندلس في عهد المرابطين ص 83.

Dozy: hist. des m. D'Esp. P. 128.

Hamet: hist. du mag. P. 86.

(2) الروض المعطار ص 92 ـ الحلة السيراء ص 355 ـ نفح الطيب ج 6 ص 99 الذخيرة ج 1 ص 244 ـ 245 ـ الاستقصا ج 1 ص 177 ـ وفي تلك الأثناء تذكر ابنه الصغير وقد تركه مريضاً بإشبيلية فأنشد يقول:

أبـا هـاشـم هشمتني الشفـار فلله صبري لذاك الأوار

تذكرت شخيصك تحت العجاج فلم يثنني ذكره للفرار

(3) روض القرطاس ص 95.

(4) روض القرطاس ص 95 ـ الأندلس في عهد المرابطين ص 84 ـ دوزي: ملوك الطوائف ص 306.

قلوبهم[1]. في هذه الأثناء كان الفونس يدفع بجيشه إلى الأمام لانتزاع النصر، فذهل عندما رأى بعض حرس معسكره فارين، وأتته الأخبار من داخل المعسكر باستيلاء المرابطين عليه[2] وإنه خسر حوالي عشرة الاف قتيل[3] وألفى الفونس نفسه محاصراً من المسلمين فاضطر للقتال متقهقراً نحو معسكره المحترق، ولكن يوسف لم يترك له فرصة لالتقاط الأنفاس، فانقض عليه كالسيل، وقاتل الفونس عند ذلك قتال المستميت وبلغ قلب الجيش المرابطي، حتى أن الأمير يوسف ارتاب بنتيجة المعركة[4]، فبدأ يبث الحماس في نفوس المسلمين قائلاً: «يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة»[5]. ولم يقتصر يوسف على تشجيع الجنود وبث الحماس في نفوسهم فقد كان يقاتل في مقدمة الصفوف وهو ابن التاسعة والسبعين «وكأن العناية الإلهية كانت تحميه»[6] وانتدب كذلك الفقهاء والصالحين لوعظ الجنود وتشجيعهم[7]. وفي هذا الجو الرهيب من القتال الذي دام بضع ساعات سقط خلاله الاف القتلى وغمر الدم ساحة المعركة، عندها دفع الأمير يوسف حرسه الخاص من السودان إلى القتال[8]

---

(1) الحلل ص 42.
(2) الحلل ص 42 ـ أشباخ: ص 84.

Hamet: hist. du maghreb P. 86.

(3) ابن الكردوس ص 93.
(4) الأندلس في عهد المرابطين ص 85.
(5) روض القرطاس ص 95 ـ ملوك الطوائف ص 310.

Dozy hist. des mus. D'Espagne T3 - P. 128.

(6) الأندلس في عهد المرابطين ص 85.
(7) نفح الطيب ج 6 ص 101 ـ الحلة السيراء ص 355 ـ الروض المعطار ص 92 ـ الاستقصا ج 1 ص 117 ـ الحلل ص 42 ـ وأعمال الاعلام: تحقيق د. عبادي ص 243 ـ المغرب الكبير ص 725 ملوك الطوائف ص 313.

Hist. des mus. D'Espagne T3 - P. 129.

(8) نفح الطيب ص 101 ـ الحلة السيراء ص 355 ـ الروض المعطار ص 92 الاستقصا ص 117.

فترجل منهم حوالي أربعة الاف كانوا مسلحين بدروق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان[1]، اندفعوا اندفاع الصاعقة لتحطيم المقاومة النصرانية، فطعنوا الخيل حتى رمحت بفرسانها، وانقض أسود شجاع من الحرس على الفونس والتصق به ومنعه من استعمال سيفه وطعنه بخنجر يقال له الأطاس[2] كان متمنطقاً به فهتك درعه ونفذ في فخذه[3] وبقي أثره بادياً في الفونس ما بقي حياً.

وقبل دخول الظلام بدت تباشير النصر للأمير يوسف، فقد لاذ من بقي من النصارى بالفرار، واشتدت الهزيمة على الفونس الذي تمنى الموت على العيش، وطلب ماء لإرواء غليله، فلم يجد منه قطرة واحدة، وأخيراً وقع بعض أتباعه على قليل من النبيذ فسقوه إياه[4]، ولجأ مع خمسماية فارس من فرسانه الذين أفلتوا من أظفار المنية إلى تل قريب بانتظار الظلام للنجاة من سيوف المرابطين[5]، وحاول المسلمون اللحاق به فمنعهم الأمير يوسف قائلاً: «الكلب إذا وهم لا بد أن يعض، وقد سلم الله المسلمين من معركة ولم يقتل منهم إلا القليل، فإن هجمتم على هؤلاء أبلوا بلاءً عظيماً، ولكن اتركوهم ولاحظوا حالهم»[6]. امتثل المسلمون لأوامر يوسف وكانت مناسبة لألفونس، فقد انسل مع من بقي معه إلى مدينة قورية ومنها تابع سيره إلى طليطلة ودخلها بمئة فارس

---

(1) نفح الطيب ص 101 ـ الحلة السيراء ص 355 ـ الروض المعطار ص 92 ـ الاستقصا.
(2) الحلل ص 42.
(3) نفح الطيب ج 6 ص 101 ـ الحلة السيراء ص 355 ـ الروض المعطار ص 92 ـ الاستقصا ج 1 ص ١١٧ ـ الحلل ص 243 وأعمال الأعلام: تحقيق: د. عبادي ص 244.
(4) الأندلس في عهد المرابطين ص 86.
(5) نفح الطيب ص 101 ـ الحلة السيراء ص 355 ـ الروض المعطار ص 93 ـ الاستقصا ص 117 ـ أعمال الأعلام ص 244 روض القرطاس ص 97 ـ ابن الكردبوس ص 92 ـ أشباخ ص 86 ـ ملوك الطوائف ص 314.
Dozy: hist. des mus. D'Espagne T.3 - P. 129.
(6) الحلل ص 43.

بعد أن مات الباقون في الطريق[1]. وهناك سأل عن خيرة فرسانه ورجاله فلم يسمع إلا نواح الثكالى فحزن عليهم حزناً شديداً[2].

وفقد الفونس في الزلاقة القسم الأعظم من جيشه، وأمر يوسف بضم رؤوس القتلى من النصارى[3] فعمل منها المسلمون مآذن يؤذنون عليها[4]. وخسر المسلمون عدداً كبيراً ولكن المنتصر دائماً يقلل من خسائره، فقد ذكر أن مكان المعركة لم يكن فيه موضع قدم إلا على ميت أو دم[5]. وقضى في الزلاقة جماعة من العلماء والفقهاء والقضاة منهم قاضي مراكش عبد الملك المصمودي والفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي[6].

وأقام الجيش الإسلامي أربعة أيام يجمع الأسلاب والغنائم التي تركها الإسبان وراءهم في ساحة المعركة[7]، وآثر الأمير يوسف بها ملوك الأندلس،

---

(1) روض القرطاس ص 96 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج 7 ص 118 ـ المعجب ص 134 يذكر العدد بـ 9 أشخاص ناجين ابن الكردبوس ص 94 ـ دوزي: 314 ملوك الطوائف.

Hamet: Hist: du maghreb P. 86: le nomblre 400 - 500.

(2) ابن الكردبوس 94 ـ الحلة السيراء ص 356 ـ الروض المعطار ص 95 ـ نفح الطيب 103 الاستقصا 117.

(3) روض القرطاس ص 96 ـ الحلة السيراء ص 356 ـ الروض المعطار ص 93 ـ نفح الطيب ج 6 ص 102 ـ الاستقصا ج 1 ص 117 ـ وفيات الأعيان ج 7 ص 118 ـ الحلل ص 43 يذكر أن عدد الرؤوس 24 ألف رأس وأعمال الأعلام: تحقيق د. عبادي ص 244 العدد 9 آلاف رأس.

(4) ابن الكردبوس ص 95 ـ روض القرطاس ص 96 الحلة السيراء ص 356 ـ الروض المعطار ص 93 ـ نفح الطيب ص 102.

(5) ذكر صاحب روض القرطاس أن عدد القتلى من المسلمين ثلاثة آلاف ص 96 ـ والأمير عبدالله في مذكراته ص 106 «ولم يفقد من المسلمين إلا القليل».

(6) الحلة السيراء ص ٣٥٦/ ـ الاستقصا ص 117 ـ نفح الطيب ص 103 ـ الروض المعطار.

(7) الحلل ص 46 ـ / الكامل ج 10 ص 154 ـ وفيات الأعيان ج 5 ص 29 وج 7 ص 118.

وقد عرّفهم أن هدفه الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام[1].

وأرسل الأمير يوسف إلى المغرب كتاباً[2] يزف إليهم البشرى السعيدة بالنصر المبين، هذا نصه: «أما بعد حمد الله المكفل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه، والصلاة على سيدنا محمد أفضل رسله وأكرم خلقه وأسراه، فإن العدو الطاغية لما قربنا من حماه وتوافقنا بإزائه الدعوة وخيرناه بين الإسلام والجزية والحرب، فاختار الحرب. فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة يوم الاثنين 15 رجب. وقال: الجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير والأحد عيدنا نحن. فافترقنا على ذلك. وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه وعلمناه أنهم أهل خدع ونقض عهود. فأخذنا أهبة الحرب لهم، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا أحوالهم فأتتنا الأنباء في سحر يوم الجمعة 12 رجب أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين، يرى أنه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين، فنبذت إليه أبطال المسلمين وفرسان المجاهدين فتغشته قبل أن يتغاشاها وتعدته قبل أن يتعداها. وانقضت جيوش المسلمين في جيوشهم كانقضاض العقاب على عقيرته، ووثبت عليهم وثوب أسد على فريسته. وقصدنا برايتنا السعيدة المنصورة في سائر المشهدة المنشرة، ونظروا إلى جيوش لمتونة نحو الفنش ـ فلما أبصر النصارى رايتنا المشتهرة المنتشرة ونظروا إلى مراكبنا المنتظمة المظفرة، وأغشتهم بروق الصفاح وأظلتهم سحائب الرماح ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح، فالتحم النصارى بطاغيتهم الفنش وحملوا على المسلمين حملة منكرة فلتقاهم المرابطون بنيات خالصة وهمم عالية، فعصفت ريح الحرب وركبت دائم السيوف والرماح بالطعن والضرب، وطاحت المهج وأقبل سيل الدماء في هرج. ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج. وولى الفنش مطعوناً في إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه في 500 فارس من ثمانين ألف فارس ومائتي ألف راجل قادهم الله إلى

(1) نفح الطيب ص 103 ـ الحلة السيراء ص 356 ـ الروض المعطار ص 95 الاستقصا ص 117.

(2) روض القرطاس ص 97 و 98.

المصارع والحتف العاجل، وتخلص إلى جبل هنالك ونظر النهب والنيران في محلته من كل جانب وهو من أعلى الجبل ينظرها شذراً ويحيد عنها صبراً ولا يستطيع عنها دفعاً ولا لها نصراً، فأخذ يدعو بالثبور والويل ويرجو النجاة في ظلام الليل وأمير المسلمين بحمد الله قد ثبت في وسط المعركة مراكبه المظفرة تحت ظلال بنوده المنتشرة منصوراً لجهاد مرفوع الأعداد، ويشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد، فقد سرح الغارات في محلاتهم، تهدم بناءها وتصطلم ذخائرها وأسبابها وتريه رأى العين دمارها ونهبها والفنش ينظر إليها نظر المغشى عليه ويعض غيظاً وأسفاً على أنامل كفيه فتتابعت البهرجة الفرار رؤساء الأندلس المهزومين نحو بطليوس والفار فتراجعوا حذراً من العار. ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواد أبو القاسم المعتمد بن عباد فأتى المسلمين وهو مهيض الجناح مريض عنه وجراح فهنأه بالفتح الجليل، وتسلل الفنش تحت الظلام فاراً لا يهدي ولا ينام ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربع مابة فلم يدخل طليطلة إلا في مئة فارس.

والحمد لله على ذلك كثيراً.

وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة 12 رجب 479/ 23 أكتوبر 1086 العجمي[1].

وأرسل المعتمد إلى ابنه الرشيد في إشبيلية يزف إليه البشرى بالنصر، وكان الناس بانتظار الأنباء على أحر من الجمر، وقد حمل الرسالة الحمام الزاجل، وهي مقتضبة إذ لا تتعدى السطرين، هذا نصها[2]:

«أعلم أنه التقت جموع المسلمين بالطاغية إذفنش اللعين، ففتح الله للمسلمين وهزم على أيديهم المشركين والحمد لله رب العالمين، فأعلم بذلك من قبلك من إخواننا المسلمين. والسلام». وقرئت الرسالة بمسجد إشبيلية

---

(1) هذا التاريخ هو المعتمد في تحديد زمان المعركة وكذلك ورد في الذخيرة رجب 479 هـ/ جـ 1 ص 242.

(2) ابن الخطيب: الحلل ص 44.

فعمها السرور، ثم توالت الكتب تفيض بأخبار النصر، منها كتاب المعتمد إلى سائر أنحاء مملكته، وهو من إنشاء الكاتب ابن عبدالله بن عبد البر العمري، وفيه يحدد تاريخ المعركة وسيرها وما أظهره الفونس من الغدر والآخرة للصالحين[1].

وجعل الأندلسيون يوم الزلاقة نظير القادسية واليرموك: «يوم لم يسمع بمثله من القادسية واليرموك، فيا له من فتح ما كان أعظمه يوم كبير ما كان أكرمه، فيوم الزلاقة ثبتت قدم الدين بعد زلاقها وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس واعتز به رؤوس الأندلس، فجزى

(1) الحلل ص 45 و 46 حيث نص الكتاب وما جاء فيه: «لما كان يوم 12 رجب الجمعة سنة 479 سنى الله أمراً يسر أسبابه وفتح لنا إلى الفرج والفتوح بابه وعطف علينا القابل للثواب الغافر للذنب والتقينا مع الطاغية الباغية... بعد غدر أبداه، وقد كان في أول اللقاء جولة على المسلمين فضل الله فيها بالشهادة لمن اهتم بأمانيها ثم أنزل سكينته فخطبت نصال المسلمين رقاب الكافرين فأنكحتها أبكاراً صانتها حجال المغافر وحجبتها ستور الطوارق من عيون المواتر، ولا مهر إلا ما نووه من كرم نفوس جرت متطوعة وحثت إلى الخيرات ممتعة، فنفلهم الله أنفالهم ووعده بالنصر فأوفى لهم فتلقوا رحمكم الله هذه النعم بالشكر كما تلقينا، وقولوا الحمد لله رب العالمين... كتابي هذا من المحلة المنصورة يوم الجمعة الموافق عشرين من رجب، وقد أعز الله الدين ونصر المسلمين وفتح لهم الفتح المبين وهزم الكفرة المشركين| وأذاقهم العذاب الأليم والخطب الجسيم فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه المسرة العظيمة (وفي الروض المعطار ص 94 ـ الهزيمة العظيمة والمسرة الكبيزة) والنعمة الجسيمة في تشتيت شمل الأذفونش والاحتواء على جميع عساكره... بعد إتيان النهب على محلاته واستئصال القتل في جميع أبطاله (وفي الروض المعطار ص 94 وأجناده بالإضافة إلى أبطاله) وحماته حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها، فـلله الحمد على جميع صنعه، ولم يصبيني والحمد لله إلا جراحات يسيرة آلمت لكنت فرجت بعد ذلك «فلله الحمد والمنة والسلام» وقد ورد ذكر كتاب المعتمد هذا عند ابن خلكان: وفيات الأعيان ج 7 ص 118 وعند ابن الخطيب في أعمال الأعلام: تحقيق عبادي ص 245 «نقلاً عن الحلل» وفي الحلة السيراء لابن الأبار ص 356 والروض المعطار ص 94 ونفح الطيب ج 6 ص 102.

الله أمير المسلمين وناصر الدين أفضل جزاء المسلمين بما بل من أرماق ونفس من خناق ووصل لنصر هذه الجزيرة من حل وتجسم إلى تلبية دعائها واستبقاء دمائها من حزن وسهل حتى هزموا المشركين وظهر أمر الله وهم كارهون»[1].

وكانت لمعركة الزلاقة نتائج مهمة بالنسبة للأندلسيين والمرابطين والإسبان. فالأندلسيون وقد جاءهم النصر بعد أن سارت بلادهم في طريق الانهيار أشواطاً إثر هزائم متتالية جعلوه قرين أيام الإسلام الكبرى، تغنى به شعراؤهم فأنشدوا فيه القصائد الغراء حتى ظهر ما يسمى بأدب الزلاقة[2]. ورفع ذلك النصر من الروح المعنوية لهم، فقد أنقذت سرقسطة من سقوط محتم، وأزاح عن ملوك الطوائف وأمرائها كابوس النصارى ومتطلباتهم التي لا تنتهي من الجزية وغيرها، وتنفسوا الصعداء بعد الكبت والتضييق عليهم، ولكن ذلك النصر أسقط من هيبة هؤلاء الملوك أمام رعاياهم خاصة وأنهم قد هزموا في بدء المعركة ولولا تدارك يوسف لهم لضاعت الأندلس.

منذ تلك اللحظة، أخذت الرعية تتمرد عليهم وترفض إعطاءهم الضرائب غير الشرعية والمخالفة لتعاليم الإسلام وقد دفعهم ذلك إلى التعلق بالمرابطين، فقد مهدت الزلاقة إلى إسقاط دول الطوائف فيما بعد على يد منقذيهم.

أما المرابطون فقد انفردوا بإحراز النصر بعد هزيمة الأندلسيين وصمود المعتمد لم يغير من نتيجة المعركة ـ وقاموا بأعباء المعركة لوحدهم. وأدرك أمير المرابطين يوسف منذ تلك اللحظة إنه إذا أريد لحركة الجهاد النجاح والاستمرار فلا بد له من أن يضطلع بالعبء لوحده، إذ أن ملوك الطوائف لا جدوى منهم ولا يمكن الاعتماد عليهم بسبب الفرقة التي تمزق صفوفهم ولم يتخلوا عن أنانياتهم حتى في الساعات الحرجة التي يتوقف عليها مصير البلاد، ويبدو أن الأمير يوسف قرر إسقاطهم منذ تلك المعركة عندما يحين الوقت المناسب.

---

(1) الحلل ص 47.

(2) الشعراء الذين أنشدوا القصائد في تلك المناسبة كثر ومنهم ابن جهور وابن هبون وابن اللياقة وابن عبادة ـ الذخيرة جـ 1 ص 244 ـ 245 ـ 246.

وفي المغرب فقد أطاعته القبائل التي ظلت مترددة في ولائها وتضمر الغدر والحقد للمرابطين، فكانت هذه القبائل - وهي زناتية - تنتظر نتيجة المعركة لتتخذ موقفاً يتلاءم مع تلك النتيجة، وقد أخلدت إلى السيكنة وأعلنت ولاءها التام وبذلك ساعدته الزلاقة على حل مشاكله الداخلية دون إراقة نقطة دم واحدة.

وعلى صعيد العالم الإسلامي، فقد عمت الأفراح أرجاءه وأعتقت الرقاب واتصل النبأ السعيد بالإمام الغزالي الذي سر بهذا النصر واعتبر الأمير يوسف المسلم المثالي الذي سيعيد للإسلام سابق عزه وينقذه مما تردى فيه[1].

أما الإسبان فقد منوا بهزيمة ساحقة حطمت آمالهم بالاستيلاء على الأندلس وطرد العرب منها، وجعلت معركة الزلاقة الفونس يغير من خطط حرب الاسترداد، فبعد أن كان يعتمد على القوة الذاتية الإسبانية، لجأ إلى طلب العون والمساعدة من خارج الحدود من فرنسا وإيطاليا[2]، حتى إنه هددهم بأنه سيدع المرابطين يجتازون جبال البرتات لمهاجمة فرنسا في حال عدم إجابة طلبه، وكان له ما أراد، ولكن عودة الأمير يوسف المفاجئة إلى المغرب جعلته يتخلى عن استخدام تلك النجدة.

بعد أن فرغ الأمير يوسف من معركة الزلاقة عاد إلى إشبيلية ودعا رؤساء الأندلس إلى اجتماع عام وطلب منهم الاتفاق والاتحاد ضد عدوهم المشترك الذي استغل تشتتهم، فأجابه الجميع بقبول وصيته وتحقيق رغبته[3]. وترك لهم ثلاثة الاف جندي مرابطي للدفاع عن ثغور الأندلس بقيادة سير بن أبي بكر[4].

---

(1) قيام دولة المرابطين ص 285.
(2) الأندلس في عهد المرابطين ص 90.
(3) مذكرات الأمير عبدالله ص 106.
(4) نفح الطيب ج 6 ص 104 - الروض المعطار ص 95 - الحلة السيراء ص 356 - وفيات الأعيان ج 7 ص 122 - ملوك الطوائف ص 314 - دائرة المعارف: مادة أبو يعقوب ج 5 ص 238.

في نشوة النصر عاد الأمير يوسف فجأة إلى المغرب دون أن يجني ثمار نصره، وعلى الأقل استرجاع مدينة طليطلة. وقد تعددت الأسباب التي حملته على تلك العودة المفاجئة: أولها وفاة ابنه الأمير أبي بكر الذي استخلفه على سبتة وكان مريضاً[1] وثانيها أخبار وردته من المغرب تستوجب وجوده، فقد وصله كتاب ينبئه باضطراب الأحوال على الحدود الشرقية[2] لمملكته، إذ تحالف بنو حماد الصنهاجيين مع عرب بني هلال وحاولوا غزو المناطق الحدودية التابعة للدولة المرابطية مغتنمين فرصة وجود الأمير يوسف مع أكثرية جيشه في الأندلس، هذا التهديد عجل من عودة الأمير يوسف لتفادي هذا الخطر الطارىء، وقد أجرى اتصالاً مع أنسبائه بني حماد وعمل على استرضائهم[3]. وثالث الأسباب احتراز من عمل يقوم به إبراهيم ابن الأمير أبي بكر بن عمر[4] لاسترداد حق أبيه الأمير الشرعي للمرابطين سابقاً. والسبب الأخير الذي حمله على العودة إلى المغرب خشيته من أن ينقلب نصره إلى هزيمة لأنه لم يعد يملك قوة يستولي بها على بلاد النصارى، وقد تخوف من الحاح الأندلسيين عليه بتتبع

(1) روض القرطاس ص 98 ـ الاستقصا ج 1 ص 118 ـ الأندلس في عهد المرابطين ص ٩٩ ـ المغرب الكبير ص 725ـ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص 321 ـ دائرة المعارف: مادة أبو يعقوب ج 5 ص 238 دوزي ملوك الطوائف ص 314.

Dozy: hist. des mus. D'Espagnet 3. P. 150.

بغية الملتمس ص 31.

(2) قيام دولة المرابطين ص 288 نقلاً عن الذخيرة: مخطوط بغداد القسم الثاني ص 106.

(3) قيام دولة المرابطين ص 288.

(4) كان إبراهيم والياً على سجلماسة من قبل أبيه الأمير أبي بكر، وسبق له أن قام بمحاولات فاشلة لانتزاع الملك من الأمير يوسف. ففي سنة 469 هـ/ 1076 وصل إبراهيم من الصحراء يطالب بملك أبيه ونزل بخارج أغمات مع اللمتونيين، فأرسل إليه الأمير يوسف مزدلي يستوضحه، فقال: اطلب ملك أبي الذي غصبنا فيه عمي يوسف. البيان المغرب ج 4 ص 29. أما الآن ويوسف في الأندلس بعيد عن قواعده الأساسية فيمكن أن تتكرر محاولة ابراهيم خاصة وأن معركة الزلاقة قد كلفت يوسف ثمناً باهظاً زهرة جنده فلا بد له من العودة ليكون قريباً يقضي بسرعة على أي تحرك مضاد.

الفونس، إذ ربما أرادوا من ذلك نهاية أحد الفريقين الإسباني أو المرابطي فيتخلصون منه على أهون سبيل.

وصل الأمير يوسف إلى المغرب واستقر بعاصمته مراكش حتى ربيع الآخر عام 480 هـ 1087م[1] ثم خرج يتجول في أنحاء مملكته يتفقد أحوالها ويصلح من شؤونها وينظر في أمور الرعية، ويتقصى أخبار عماله والقضاة[2]، ومدى تطبيقهم للشريعة الإسلامية.

في هذه الأثناء حدث أمر مهم بالنسبة للأمير يوسف، فقد توفي ابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر[3]، وبموته انفتحت الطرق أمام الأمير يوسف ليضع يده على السلطة دون أن ينازعه فيها منازع.

---

(1) روض القرطاس ص 98 ـ أعمال الأعلام تحقيق د. عبادي ص 249 ـ وفيات الأعيان ج 5 ص 29 ـ ملوك الطوائف ص 314 ـ الزركلي: الأعلام ج 10 ص 295.

(2) روض القرطاس ص 98.

(3) روض القرطاس ص 87.

عوامل ضم الأندلس إلى الدولة المرابطية

1 ـ **حملة حصن ليبط**: اضطراب أحوال الأندلس بعد الزلاقة ـ التضييق على المرابطين ـ الإسبان يستعيدون نشاطهم ـ استئناف الأعمال الحربية في الشرق ـ خلاف أمراء الأندلس: خلاف المعتمد وابن رشيق ـ أوضاع شرق الأندلس ـ ذهاب المعتمد إلى المغرب لطلب النجدة ـ يوسف يلبي نداء المعتمد ـ العبور إلى الأندلس ـ تجمع الأمراء ـ حصار الحصن ـ ظهور الخلافات بين الأندلسيين ـ اعتقال ابن رشيق ـ فرار جيشه ـ انسحاب يوسف ـ الفونس يخلي الحصن.

2 ـ **العوامل الأندلسية**: طبقات المجتمع الأندلسي ـ الطبقة الحاكمة فرضها للضرائب ـ لجؤوها إلى المرابطين ـ مساعدتها النصارى أثناء ليبط ـ موقف الشعب الأندلسي ـ الفقهاء واعتمادهم على المرابطين: ابن القلاعي قاضي غرناطة.

3 ـ **العوامل المغربية**: شهوة الفتح ـ غنى الأندلس ـ الدفاع عن المغرب.

بعد عودة الأمير يوسف إلى المغرب، اضطربت أحوال الأندلس من جديد فقد عاد ملوكها وأمراؤها إلى سيرتهم الأولى من الاختلاف فيما بينهم والاتصال بالعدو، كأن وصية الأمير يوسف لهم لم تكن[1]، فقد ذهبت مع رحيله إلى المغرب، ويدأوا بمضايقة القوة المرابطية التي بقيت في الأندلس، فأرسل قائدها سير بن أبي بكر رسالة إلى الأمير يوسف يعرفه فيها:

(1) راجع صفحة 241.

«بأن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال في أضيق عيش وأنكده وملوك الأندلس في أطيب عيش وأرغده»[1]. وكان ملوك الأندلس يبغون من ذلك أن يجعلوا المرابطين يزهدون في بلادهم فيرحلون عنها، وبذلك يتخلصون من حليف طامح بأهون سبيل. ثم إن معركة الزلاقة لم تكن حاسمة كمعركة الفتح شذونة ـ فقد كانت صدمة أصابت الإسبان، ثم بدأوا ينهضون منها في أقل من عام. ومرد ذلك إلى النجدات التي أتتهم من فرنسا وإيطاليا والبابوية التي شنت الحروب الصليبية في المغرب قبل المشرق، وجعلت من الأندلس خط الصدام الأول، أضف إلى ذلك أن الإمارات الاسبانية تكونت بعد صراع رهيب مع الطبيعة[2] والعرب، وصمدت أمام تلك القوى العاتية مستندة إلى قاعدة شعبية صلبة ترسخت عبر أجيال من الكفاح المرير، يغذيه شعور قومي وديني، واستأنف الاسبان، أعمالهم الحربية من جديد واختاروا الجبهة الأكثر ضعفاً في الأندلس، فاتجهوا نحو الشرق حيث إمارات بلنسية ومرسية ولورقة والمرية، كانت هذه الإمارات أضعف إمارات الأندلس عسكرياً[3]، فبلنسية خاضعة بصورة غير مباشرة للنصارى ويحكمها القادر بن ذي النون صاحب طليطلة السابق وصنيعة الفونس ـ بحراب السيد لقاء مبلغ من المال[4]. أما مرسية ولورقة فهما تخضعان للمعتمد بن عباد الأولى

---

(1) الروض المعطار ص 94 ـ الحلة السيراء ص 357 ـ نفح الطيب ج 6 ص 104.

(2) النصارى الذين نجوا من معركة شذونة (معركة الفتح) لجأوا إلى قاصية جيليقية واعتصموا بوهادها الوعرة خاصة في صخرة «كوفادنجا» وقد حاصرهم ولاة الأندلس وتساقطوا من الجوع والمرض حتى لم يبق منهم إلا ثلاثون رجلاً و 10 نساء تركوا أمرهم للطبيعة القاسية بعد عجزهم عن اقتحامها.

Dozy: hist. des mus. D'Espagnet. 3. P.129.

(3) تاريخ ابن الكردبوس ص 96 ـ العبر ج 6 ص 186 و 187 ـ المغرب الكبير ص 729 ـ دائرة المعارف م 5 ص 238 مادة أبو يعقوب.

Hist. des mus. D'Espagnet. 3 P. 131 - encyi. uni T I. P. 782.

(4) تاريخ الشعوب الإسلامية ص 321.

بالحق والثانية بالفعل[1]، فصاحب لورقة ابن أياس كان أضعف من أن يقاوم، وفي مرسيه ابن رشيق وقد أراد المعتمد أن يأخذها منه لابنه الراضي تعويضاً له عن الجزيرة الخضراء التي تنازل عنها للمرابطين، فجمع المعتمد جيشه وطلب من ابنه المعتد مهاجمة ابن رشيق. ولكن ابن رشيق سارع ووضع نفسه بتصرف المرابطين ولم يمكن المعتمد من تحقيق غرضه. أمام هذه الحالة المتردية شن الاسبان الغارات على الامارتين وحاصروهما حتى أوشكتا على السقوط[2]. واغتنم الفونس هذه الفرصة واستولى على حصن لييط[3] وشحنه بالمقاتلين[4]، واتخذه قاعدة لشن الغارات على أملاك المعتمد بن عباد بشكل خاص لمضايقته عقاباً له على دوره الأساسي في استدعاء المرابطين إلى الأندلس[5].

وهكذا بدت مناطق شرق الأندلس بعد الزلاقة مباشرة وكأنها على شفير الهاوية والسقوط بيد الاسبان، وارتفعت اصوات الاستغاثة من جديد تستنجد بالأمير يوسف. وأخذت الوفود الشعبية وعلى رأسها الفقهاء تعبر إلى المغرب مستغيثة مستنجدة به لإنقاذ الأندلس من المحنة التي عادت، فالبلنسيون يشكون له أعمال «السيد» حامي القادر بن ذي النون، وسكان المناطق الأخرى يعانون الأمرين من حامية حصن لييط[6]، وأضحت الأندلس نهباً لقطاع الطرق وافتقد سكانها الأمن والسلام.

لخطورة الوضع الجديد قرر المعتمد الذهاب بنفسه إلى المغرب وطلب

---

(1) الحلل ص 48.

(2) Dozy: hist. des mus. D'Espagnet. 3. P.132.

(3) Hist. des mus. D'Espagnet. 3. P.123.

(4) حصن لييط ـ قلعة حصينة ـ يقع على قمة جبل شاهق على مقربة من لورقة في قلب بلاد الأندلس ضمن أملاك المعتمد بن عباد الحلل ص 48 ـ روض القرطاس ص 98 ـ الكامل في التاريخ ج 10 ص 155 ـ تاريخ الشعوب الإسلامية ص 321.

Hist. des mus. D'Espagnet. 3. P.132.

(5) روض القرطاس ص 98 ـ الحلل ص 48.

(6) روض القرطاس ص 98.

المساعدة من الأمير يوسف(1). وذهاب المعتمد يضفي على الطلب طابع الأهمية، إذ أن عميد الطوائف يطلب المساعدة بنفسه وقد كان بإمكانه أن يكتب للأمير أو أن يرسل إليه بعثة كما فعل قبل الزلاقة. وعمله هذا يدل على ثقته بالأمير يوسف لما رآه منه من تضحيات في الزلاقة، وما أظهر من عفة وشهامة في أسلاب الحرب. وهناك عامل مهم دفعه إلى الذهاب، فبعد الزلاقة بدأ الأمراء الذين كانوا خاضعين له قبلها بالتمرد عليه والالتجاء إلى المرابطين ـ ابن رشيق مثلاً. فأراد المعتمد أن يستنجد بالأمير على هؤلاء وأن يضع حداً لتمردهم.

عبر المعتمد البحر إلى المغرب واستقبله الأمير يوسف في المعمورة(2) من وادي سبو(3) بالحفاوة والكريم. وهناك أطلع المعتمد الأمير يوسف على حالة الأندلس المتردية، حتى كأن الزلاقة لم تكن. فقال له الأمير: «كان بإمكانك الكتابة إليّ دون الشخوص بنفسك وأنا أحقق رغبتك. فأجابه المعتمد: إن الخطر الداهم هو الذي دفعني إلى العبور، ولن يقوى الأندلسيون على النصارى ويعبور الأمير يؤدي خدمة جليلة للدين»(4). فوعده الأمير خيراً. فعاد إلى أشبيلية وأخذ يستعد للمعركة المقبلة «فأكثر من السهام والبطارد والعرادات»(5) ونظم جيشه خاصة وأنهم الأندلسيون الذين صمدوا أمام الإسبان في الزلاقة بعد فرار الآخرين.

وفي العام 481 هـ/ 1088 م عبر الأمير يوسف المضيق إلى الجزيرة الخضراء، ومنها استنفر الأندلسيين للجهاد فاستجابوا لطلبه ولبوا نداءه ومن

---

(1) المغرب الكبير ص 729.

(2) المعمورة: تسمى اليوم المهدية: الاستقصا ج 1 ص 119.

(3) روض القرطاس ص 98 ـ الحلل ص 48 ويسمى المكان «الدخلة» ـ الاستقصا ص 119 ـ تاريخ الشعوب الإسلامية ص 321.

Hamet: hist. du Maghreb P.87.

(4) الحلل ص 48 ـ مذكرات الأمير عبدالله ص 108.

Dozy: hist. des mus. D'Esp. T.3. P.134.

(5) الحلل ص 48.

الذين حضروا: تميم وعبدالله إبنا بلكين بن زيري المعتصم بن صمادح وابن رشيق وأمراء أقل أهمية وعلى رأس الجميع المعتمد[1]. ووفد عليه كذلك البناؤون والنجارون والحدادون من مرسيه[2] وتلقاه المعتمد بألف دابة تحمل الميرة والقرى[3].

بعد أن استكمل المسلمون تجمعهم قادهم الأمير يوسف مباشرة نحو حصن ليط وكانت به حامية نصرانية مؤلف من ألف فارس و 12 ألف راجل[4]. وبدأ المسلمون الهجوم على الحصن، فصمد أمامهم. فضرب الأمير يوسف عليه الحصار مدة أربعة أشهر بلا جدوى[5]. وكان القتال يدور عليه ليل نهار مداورة[6]، فكان كل أمير يهاجم بدوره ثم يحل مكانه أمير آخر[7]. كانوا يضربون الحصن بالمجانيق والعرادات واستعملوا كافة الوسائل الحربية المتوفرة وقام ابن صمادح بعمل حربي جديد، فصنع فيلاً واقترب به من أسوار الحصن، فرماه النصارى بسهم ناري أحرقه[8]. وفشل المسلمون في اقتحامه وظهر لهم من مناعته ما أيأسهم، ولجأت حاميته إلى الحيلة، فكانت تنيره ليلاً وتبث الإشاعات بين المسلمين بمجيء الفونس لإنقاذهم[9]، وبقي الأمر كذلك حتى

---

(1) الحلل ص 49 ـ روض القرطاس ص 99.

Hist. des mus. D'Esp. T.3. P.134.

(2) الحلل ص 49 ـ روض القرطاس ص 99.

(3) روض القرطاس ص 99 ـ الاستقصا ج 1 ص 119.

(4) الحلل ص 49 ـ روض القرطاس ص 99 ويذكر أنه كان بالحصن 12 ألف مقاتل عدا الذرية والعيال ـ الأندلس في عهد المرابطين ص 91.

Dozy: hist. des mus. D'Esp. T.3. P.135.

(5) روض القرطاس ص 99.

Hamet: hist. du Maghreb P.87.

(6) روض القرطاس ص 99 ـ الحلل ص 49 ـ مذكرات الأمير عبدالله ص 108.

(7) مذكرات الأمير عبدالله ص 108.

(8) مذكرات الأمير عبدالله ص 109.

(9) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 108.

دخل الشتاء[1]، وأثناء الحصار اشتغل الأندلسيون بمشاكلهم الشخصية، فقد ذر قرن الشقاق بين المتحالفين، حتى أن الأخوة كانوا مثل الضرائر المتنازعة، فأبناء بلكين بن زيري عبدالله وتميم أظهرا للأمير يوسف ما تجيش به نفوسهما من حقد وكره لبعضهما قلما أظهرا ذلك للعدو، وكأن الأمير ليس له من عمل سوى حل مشاكل الأخوة[2]. وكذلك عاد الخلاف بين المعتمد وابن رشيق صاحب مرسية، فشكى المعتمد إلى الأمير يوسف بابن رشيق وأنه حليف لألفونس وأنه دفع جباية مرسية له كجزية[3] ويؤدي خدمات لنصارى الحصن المحاصرين[4]، فما كان من ابن رشيق إلا أن التجأ إلى الأمير يوسف للاحتماء به من المعتمد. تصرف الأمير يوسف بحكمة، فهو بحاجة إلى المعتمد أكثر من ابن رشيق: «ونحن لم نأمن أمر الرومي والأوكد علينا في هذا الوقت مداراة المعتمد حتى ترينا الأمور وجوهها»[5]. ثم إن ابن رشيق لم يتقدم إلى الأمير محبة به ولا إيثاراً له بل هرباً من عدوه القديم المعتمد، وأن مساعدته للنصارى يعتقد ببقائهم في حصن لييط «يثبت في مرسيه»[6].

وعملاً بأحكام السنة استفتى الأمير يوسف الفقهاء في أمر ابن رشيق، فجاءت الفتاوى بإزاحته عن المسلمين وإسلامه للسلطان[7]، واستغاث ابن رشيق بالأمير يوسف الذي أجابه بأنها أحكام الدين ولا يستطيع مخالفتها[8]، وأمر قائده سير بن أبي بكر باعتقاله وتسليمه للمعتمد مشترطاً عليه إبقاؤه

---

(1) روض القرطاس ص 99.
(2) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 106 و 107.
(3) الحلل ص 49 ـ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص 19.
(4) مذكرات الأمير عبدالله ص 112.

Dozy: hist. des mus. D'Esp. T.3. P.139.

(5) مذكرات الأمير عبدالله ص 111.
(6) مذكرات الأمير عبدالله ص 112.
(7) مذكرات الأمير عبدالله ص 112 الحلل ص 50.
(8) مذكرات الأمير عبدالله ص 112.

حياً»[1]. ونفذ سير المهمة، وبهذا العمل يكون الأمير يوسف قد وضع فتاوي الفقهاء فوق كل اعتبار مهما كانت النتائج، وضحى بحليف صغير من أجل حليف أكبر.

فرّ جيش مرسية من المعركة ومنع الميرة عن الجيش المرابطي ومن معه من الأندلسيين الذين يحاصرون الحصن، فاضطربت الأحوال ووقع الغلاء وارتفعت الأسعار[2]، وأصبح وضع المحاصرين حرجاً خاصة وأنهم على أبواب الشتاء، والفونس عندما علم بخلافات المسلمين الداخلية حشد جيشاً[3] وسارع لإنقاذ أتباعه، فاضطر الأمير يوسف إلى رفع الحصار عن الحصن[4]، فهو لا يريد أن يخوض مع الإسبان معركة غير مأمونة النتائج خاصة بعد الذي رآه من حكام الأندلس وتآمرهم واتصالهم بالعدو، وأكثر ما كان يخشاه، وقد أصبح بين نارين ـ الفونس وأمراء الأندلس ـ أن يفقد ما ربحه في الزلاقة. انسحب الأمير يوسف من أمام الحصن مفسحاً الطريق لألفونس للوصول لإنقاذ الحامية، إذ كان ذلك هدفه ليس أكثر، لأنه بعد هزيمته في الزلاقة لم يتجرأ على خوض معركة مواجهة مع المرابطين. وصل الفونس إلى الحصن وأخرج من نجا من الموت وكان عددهم مئة فارس وألف راجل[5]، ورأى أن لا فائدة من الاحتفاظ به لأن ذلك يتطلب حامية كبيرة معرضة لمصير سابقتها، فقرر إخلاءه وتدميره[6] واسترجع ابن عباد الحصن بعد أن تركه النصارى أطلالاً.

---

(1) الحلل ص 50.

Dozy: hist. T.3. P.140.

(2) الحلل ص 50.

(3) الحلل ص 50 ـ روض القرطاس ص 99 ـ مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 112. ويذكر أن عدد الجيش الذي حشده الفونس 18 ألف مقاتل.

Hist. des mus. T.3. P.140.

(4) الحلل ص 50 ـ مذكرات الأمير عبدالله ص 112 ـ روض القرطاس ص ٩٩.

(5) روض القرطاس ص 99.

(6) الحلل ص 50.

Dozy: hist. des mus. D'Esp. T.3. P.140.

رجع الأمير يوسف إلى لورقة، وترك أربعة الاف مرابطي بقيادة داود ابن عائشة للمحافظة على منطقة مرسية[1]، وكذلك بعث بعسكر إلى بلنسية بقيادة محمد بن تاشفين[2].

وفي العام 482 هـ/ 1089 م عاد الأمير يوسف إلى المغرب وأخذ يستعد لتصفية أمراء الأندلس بعد أن تغيرت نفسه عليهم.

كانت حملة حصن لييط مناسبة كشفت الطيب من الخبيث رأى الأمير يوسف خلالها أنه إذا أريد للأندلس الإسلامية الاستمرار في البقاء ولحضارتها التطور والازدهار، لا بد من إزاحة أولئك الذين أوصلوها إلى هذا الدرك من الانحطاط.

والعوامل التي دفعت الأمير يوسف إلى اتخاذ قراره متعددة منها ما هو خاص بالأندلس ومنها ما هو خاص بالمغرب ومرتبط بالمرابطين.

أ ـ العوامل الأندلسية

كانت للمجتمع الأندلسي خواصه التي تميزه وظروفه الموضوعية المرتبطة أوثق ارتباط بتاريخه وبنوعية المراحل التي مر بها لقد دخل الإسلام تلك البلاد التي كانت خاضعة لحكم اقطاعي وتفاعلت هذه المعطيات مع تعاليم الإسلام فنشأ مجتمع له ميزاته وخصائصه ـ كان المجتمع الأندلسي زراعياً يعتمد في حياته على الزراعة، ثم تليها الصناعة والتجارة لتكمل حاجات السكان، وسبل إنتاج وسائل العيش هذه بدرجاتها المختلفة من التطور لعبت الدور الأساسي في بناء المجتمع الأندلسي وتحديد علاقات أفراده ببعضهم، فالزراعة وسيلة الحياة الرئيسية أنشأت طبقتين منفصلتين طبقة غنية من الملاكين، هي أغنى طبقات المجتمع ويحكم غناها قبضت على زمام الحكم واستأثرت به. تلك هي طبقة

(1) دول الطوائف ص 327.
(2) الحلل ص 50.

ملوك وأمراء الأندلس، والثانية طبقة الفلاحين الذين يرتبطون بالملاكين برباط التبعية. والصناعة والتجارة أفرزت طبقة من أصحاب الأعمال الذين لم تسمح لهم على وجه العموم وسائل عملهم بالحصول على ثروات ضخمة تتيح لهم لأن يكونوا في عداد الطبقة الحاكمة. وحفلت المدن بعدد كبير من الناس يكسبون قوتهم مقابل الأعمال التي يقومون بها، أولئك هم العامة من السكان، وهكذا أفرز المجتمع الأندلسي الإسلامي طبقتين منفصلتين طبقة الأمراء والملوك الغنية وطبقة الشعب التي تضم كافة أبناء الأندلس[1] من فلاحين وعمال وسائر العامة. فالطبقة الحاكمة استأثرت بالسلطة بعد سقوط الخلافة الأموية ـ بل إنها ساهمت مساهمة فعالة في عملية الإسقاط تلك مستخدمة شتى الأساليب ـ وارتقى زعماؤها إلى ملوك وأمراء الأندلس انصرفوا للاهتمام بمصالحهم الخاصة دون الاهتمام بالرعية، فشيدوا القصور الفخمة التي تحاكي قصور الخلفاء الأمويين، فقصر ابن ذي النون في طليطلة فاق الوصف، وكذلك قصور بني عباد في إشبيلية كالزاهر والمبارك وغيرها... واشتدت حاجة الملوك إلى الأموال للإنفاق على حياة هذه القصور[2] ودفع الجزية لملوك النصارى لقاء عدم الاعتداء عليهم[3]، وتسديد رواتب الجنود المرتزقة الذين كانوا يجلبونهم لحراستهم، وتمويل الحرب التي نشبت بينهم، وللحصول على هذه المبالغ لجأوا إلى أساليب متعددة، فكانوا يصادرون أراضي المواطنين مستخدمين الأساليب التعسفية من طرد وفرض ضرائب باهظة، مما يدفع أصحابها إلى هجرها فيضمونها إلى أملاكهم. أما الضرائب التي فرضوها فكانت بدعة في المجتمع الاسلامي لم ينص عليها القرآن فقد فرضوا جزية شهرية على رؤوس

(1) المقصود بأبناء الأندلس المسلمون فقط لأن النصارى بدأوا في ظل ضعف هؤلاء الأمراء يتمتعون بامتيازات منها حماية ملوك إسبانيا النصارى لهم، وكذلك اليهود فقد استأثروا بالحكام ولم يتعرضوا للتعسف الذي كان يلقاه المسلمون.

(2) اشترى ابن رزين حاكم السهلة مغنية حسناء بملغ ثلاثة آلاف دينار، وتعد إمارة فقيرة بالنسبة لغيرها.

(3) كان القادر بن ذي النون يدفع للسيد مبلغ عشرة الاف دينار سنوياً لقاء حمايته من الشعب في بلنسية.

المسلمين تسمى القطيعة وضريبة على الأموال من الغنم والبقر والدواب والنحل وقبالات على كل ما يباع في الأسواق. يضاف إلى ظلمهم ضعف عقيدتهم الدينية «ولو وجدوا في اعتناق النصرانية وسيلة لتحقيق أهوائهم ومصالحهم لما ترددوا»[1] هؤلاء الأمراء والملوك عندما هددهم النصارى الإسبان بالاستئصال، وأيقنوا أن أساليبهم السابقة للحفاظ على بقائهم باءت بالفشل لجأوا إلى المرابطين لإنقاذهم، ولكن بعد الزلاقة ندموا على استدعاء المرابطين واتصلوا بالنصارى هذه المرة لإنقاذهم من المرابطين ودفعوا لهم الجزية من جديد. فابن رشيق صاحب مرسية قدم معونته للنصارى أثناء حصار لييط[2]. وعبد الله بن بلكين صاحب غرناطة يشير صراحة إلى اتصاله بالفونس عن طريق رسوله البرهانس وقد دفع له الجزية، وبلغ به الاستخفاف أن أبلغ ذلك إلى الأمير يوسف: «لهذا الوقت يحتاج الإنسان ما ادخر ليصون به بلده وعرضه، وأنا جدير بأن أعطي من بيت مالي بحيث يسلم البلد. . . ورأيت مع ذلك أن أجدد معه عقداً ألا يعترض لي بلداً ولا يغدرني بعدها. . .» ثم خاطب الأمير يوسف: «ننص عليه جميع ما وقع وما دفعت الضرورة إليه وإن الحاضر أبصر من الغائب»[3]. وتجاوز أمراء الأندلس ذلك إلى استعداء الفونس على المرابطين المقيمين في ثغور الأندلس وخاصة أبناء بلكين بن زيري» كان منهم مداخلة الطاغية في عداوة يوسف»[4]. فكان لا بد من إزالة هؤلاء المتآمرين نتيجة ما اقترفته أيديهم الآثمة بحق الدين والوطن الأندلسي.

أما الشعب الأندلسي فكان مقهوراً مغلوباً على أمره غير قادر على الثورة، فقد جرده حكامه من كافة الأسلحة وسلطوا عليه سيف الارهاب، فكان لا يجروء حتى على التعبير عن آرائه وأفكاره، واستخدم الأمراء المرتزقة وغالباً النصارى لإخماد أي تمرد أو بوادر ثورة وليت الحكام الجائرين يقومون

(1) محمد عبدالله عنان: دول الطوائف ص 406 نقلاً عن رسالة لابن حزم.

(2) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 112.

(3) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 125 و 127 العبر ج 6 ص 187.

(4) العبر ج 6 ص 187 ـ ابن الكردبوس ص 104.

بواجباتهم تجاه الرعية من تأمين الحرية والعدل وصد العدوان، بل على العكس من ذلك فقد تركوا الشعب فريسة سهلة للنصارى الذين شنوا الغارات على أراضي المسلمين، وأحرقوا المدن والقرى، وشردوا السكان من ديارهم، فأقفرت أكثر الثغور المتاخمة للنصارى فاستولوا على تلك المناطق بكل سهولة. رأى هذا الشعب المضطهد أن وطنه في خطر ولا يمكن إنقاذه إلا بإسقاط حكامه والاتحاد مع المغرب في ظل المرابطين، بعدما رأى من عدلهم وتطبيقهم لأحكام الإسلام. وها هي الفرصة قد أتت فلا بد من اغتنامها وإلا ضاعت إلى الأبد.

كان يقود الشعب في معركته الصامتة قادته الروحيون ـ الفقهاء ـ الذين حظوا بمكانة مرموقة لدى الأمير يوسف، فكان يستشيرهم في الأمور المهمة، وبما أنهم المحرك الأساسي للشعب ومستودع أسراره، فقد لعبوا دوراً بارزاً في مجريات الأحداث في الأندلس لقد كانوا الوسطاء بين الشعب والأمير يوسف، وقد أغبطهم عبوره الأول إليهم: «هذا على رغم الفسقة سلاطين الأندلس»[1]. وانتصاره في الزلاقة أزاح كابوساً ثقيلاً عن صدورهم، وأصبح بإمكانهم المجاهرة بآرائهم دون خوف من ملوكهم، وكان على رأسهم قاضي غرناطة ابن القلاعي، فقد توطدت العلاقة بينه وبين الأمير يوسف منذ ذهاب أول بعثة إلى المغرب لطلب النجدة، إذ كان أحد أعضائها، وكان يؤمن بأن الأمير يوسف ذو ضمير حي لا يسكت على مظالم ومفاسد حكام الأندلس. وقد نصب خيمته بالقرب من مركز الأمير ولاقت أقواله ضد الحكام تجاوباً لدى الأمير، وبلغت تلك الأقوال الأمير عبد الله صاحب غرناطة فاعتقله ولكنه اضطر إلى إطلاق سراحه، ففر إلى قرطبة ومنها اتصل بالأمير وأطلعه على جلية الأمور[2]، وأفتى بخلع ملوك الطوائف. وبالإضافة إلى فتوى القاضي ابن القلاعي، فقد تلقى الأمير يوسف فتاوى فقهاء الأندلس والمغرب بوجوب خلعهم، وقد وردت عليه

---

(1) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 118.

(2) مذكرات الأمير عبدالله ص 119.

Dozy: hist. des mus. D'Esp. T.3. P.141 - 142.

فتاوى فقهاء المشرق بهذا الأمر وفي مقدمتهم الإمام الغزالي وأبو بكر الطرطوشي[1].

ب ـ العوامل المغربية

عامل مهم يضطرم به كل متغلب إلا وهو شهوة الفتح، فالمراكشي[2] يذكر «أن الأمير يوسف قد تجول في الأندلس عقب الزلاقة للتفرج والنزهة وهو يريد غير ذلك، وكان يصغر من قدر الجزيرة وإنها كانت عظيمة قبل رؤيتها ولكنها الآن لا تستحق الأهمية المعطاة لها» ولكنه كان يسر لبعض ثقاته: «كنت أظن أني قد ملكت شيئاً فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي، فكيف الحيلة في تحصيلها؟»[3] وقد أمعن الأمير يوسف التجول في كورة اشبيلية وراقه غناها وجذبته خصوبة أرضها، ففيها الرساتيق على مسيرة عشرين فرسخاً عامرة بالضياع كلها تين وعنب وزيتون ويوسف قضى مرحلة طويلة من حياته في صحراء قاحلة، فأخذ يخطط لضم تلك البلاد إلى مملكته. وكذلك لفت غناها انتباه المرابطين فهم بدو صحراويون قضوا حياتهم في شظف العيش وقد قدموا كثيراً من الدماء للذود عن تلك البلاد فأخذوا يشعرون بأنهم أولى بهذه النعم من أمرائها المتخاذلين الذين أوردوها مورد التهلكة. بالإضافة إلى ذلك، فقد أدرك الأمير يوسف وهو القائد المحنك أهمية الصلة الحربية بين العدوتين، أدرك أن سقوط الأندلس بيد الإسبان معناها سقوط خط الدفاع الشمالي للمغرب مما يؤدي إلى تهديد السواحل المغربية من قبل الأعداء، فلا بد من اتخاذ الإجراءات قبل حدوث الكارثة[4].

---

(1) العبر ج 6 ص 187 ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام تحقيق د. عبادي ص 250.
Hamet: hist. dus maghreb. P.88.

(2) المعجب ص 133 ـ 135.

(3) المعجب ص 138.

(4) التاريخ قديمه وحديثه يذكر أن أية قوة كانت تصل إلى إحدى ضفتي البحر المتوسط على مضيق جبل طارق كانت تجتاح المنطقة الثانية، فالوندال لما وصلوا إلى جنوب الأندلس=

وهكذا كان ضم المرابطين للأندلس استجابة لنداء الشعب بإيعاز من الفقهاء لإنقاذ الأندلس من السقوط المحتم بيد الإسبان وبالتالي دفاعاً عن المغرب.

= اجتاحوا بلاد المغرب وقبلهم الفينيقيون، وإن من الناحية التجارية ـ بعد وصولهم إلى أطراف المغرب أقاموا المستعمرات على سواحل إسبانيا، والعرب عندما أتموا فتح المغرب الأقصى استولوا على الأندلس، وفي التاريخ الحديث بعد أن طرد الإسبان المسلمين العرب من الأندلس اجتاحوا المغرب ولا تزال حتى الآن مدينة سبتة مستعمرة إسبانية.

ضم الأندلس إلى الدولة المرابطية

1 ـ الجواز الثالث: حصار طليطلة ضم غرناطة ومالقة.

2 ـ ضم مملكة بني عباد: المعتمد يمني نفسه بغرناطة ـ خيبة أمله ـ التحالف الأندلسي ضد المرابطين ـ المعتمد يرفض لقاء يوسف وشروطه ـ عودة يوسف إلى المغرب ـ القيادة بيد سير ـ بدء العمليات العسكرية ـ سقوط طريف ـ المعتمد يستنجد بالفونس ـ حصار المدن ـ سقوط جيان ـ وقرطبة ـ نجدة الفونس ومعركة حصن المدور ـ حصار إشبيلية ـ المؤامرة الداخلية ـ إحراق الأسطول ـ دخول إشبيلية ـ استسلام المعتمد ـ استمرار المقاومة من قبل أبناء المعتمد ـ مقتلهم ـ أسره، نفيه وسجنه، مأساته.

3 ـ ضم المرية.

4 ـ ضم مرسية وويره ودانية.

5 ـ ضم بلنسية: الخلاف بين الفونس والكمبيادور ـ ابن جحاف يستغل الوضع ـ اتصاله بالمرابطين ـ ابن جحاف يسيطر على المدينة ـ التخلص من القادر ـ بلنسية جمهورية ـ غضب الكمبيادور ـ حصار المدينة ـ سقوطها بيد القاضي ـ بشروطه ـ التشدد والتضييق على المدينة ـ سقوطها بيد الكمبيادور ـ إعدام ابن جحاف ـ غضب الأمير يوسف ـ الجيش المرابطي بقيادة ابن عائشة ـ وفاة السيد ـ مزدلي يسترجع المدينة وأثر ذلك.

6 ـ معارك شرق الأندلس: معركة كنثرة ـ استعاد جزيرة شقر ـ حصار

طليطلة ـ استنجاد ابن هود ـ حملة الفونس على اشبيلية ـ تراجعه.

7 ـ المرابطون وسرقسطة ـ أثر العبور الأول على ابن هود ـ قبول الأمير يوسف عذر ابن هود ـ العلاقات الجيدة بين المرابطين في عهد يوسف وابن هود.

8 ـ الجواز الأخير: أخذ البيعة لولده علي في قرطبة وأسباب اختيار المدينة ـ خطاب الولاية.

9 ـ مرض يوسف ـ وفاته. ما قال فيه كبار المؤرخين.

في عام 483 هـ/ 1090 م عبر الأمير يوسف البحر إلى الأندلس ـ للمرة الثالثة ـ برسم الجهاد[1] وعبوره هذه المرة دون طلب استغاثة أو نجدة، كما حدث في الجوازين السابقين، وسار تواً إلى طليطلة مجتاحاً أراضي قشتالة، كان يرغب في استرجاع المدينة ليشفي جرح الأندلس الدامي فيزداد تعلق الأندلسيين به. وعاث المرابطون في أحواز طليطلة وخربوا ودمروا وأحرقوا ثم ضربوا الحصار حول المدينة الضائعة وفيها الفونس، ولكن الأمير يوسف تراجع أمام أسوارها المنيعة وارتد نحو الجنوب، كل ذلك ولم يتقدم أحد من الأندلسيين لمساعدته ضد عدوهم اللدود[2].

يمم الأمير يوسف نحو غرناطة وبها الأمير عبد الله بن بلكين بن باديس بن زيري الصنهاجي، ويمت بصلة القرابة للأمير يوسف[3]، وكان الأمير عبد الله قد فاق غيره من أمراء الأندلس بالخيانة والتآمر والاتصال بالعدو، وقد وشى به

---

(1) روض القرطاس ص 99 ـ الحلل ص 50 ـ الاستقصا ج 1 ص 120 ـ أعمال الاعلام، تحقيق. د. عبادي ص 250 ـ المغرب الكبير ص 731.
الأندلس في عهد المرابطين ص 93. دائرة المعارف: ج 5 ص 239 مادة أبو يعقوب.

(2) روض القرطاس ص 99 ـ الاستقصا ص 120 ـ دائرة المعارف ص 239.

(3) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 104 وقد ورد «خاصة إنه من أهل القرابة ـ أي الأمير يوسف».

للأمير يوسف مولاه مؤمل. ويعد حملة حصن ليط عمد عبد الله إلى تشييد الحصون والاستعداد لحصار طويل الأجل من إقامة الأجباب وإعداد المطاحن وأنواع العدد من التراس والنبل والعرادات وجميع الأقوات[1]، استعداداً لمقاومة المرابطين. وكان يستخف بالجيش المرابطي: «وكم عسى الجيش القادم أن يعم جميع البلاد، ومحاولة معقل واحد منها تطول وتحدث في خلاله أحوال»[2].

قسم الأمير يوسف جيشه إلى فرق أرسل إحداها إلى غرناطة للاستيلاء عليها[3]. وضربت بقية الفرق شبه حصار على كورتها[4] لمراقبة الحصون من تغلغل النصارى لمساعدة حليفهم، وطلب قادة الجيش المرابطي القوت من الأمير عبدالله فسارع إلى تلبية حاجاتهم[5]، وزاد على ذلك فأرسل إلى الأمير يوسف بعثة من الفقهاء مؤلفة من ابن سهل القاضي وباديس بن واروى من تلكانة[6] لإعلامه بأنه ابنه وأنه غير مخالف له، فتآمرت البعثة عليه أمام الأمير يوسف، وقال ابن واروى: «أرسلنا للخدمة له في زعمه ولم نصنع غير أني كتفته والقاضي ضرب عنقه»[7]، وطلب منه الأمير يوسف أن يأتي إليه دون تأخير! فارتاب واعتذر وأرسل إليه رسولين هماابن حجاج وابن ما شاء الله[8] فاعتقلهما الأمير وكبلهما بالحديد، وقال: «والله إني غزوته كما نغزو الفونس، والذي يقدر عليه فليصنع»[9]. وأرسل إلى الكور والحصون كتباً[10] يدعوها لعدم

(1) روض القرطاس ص 99 ـ مذكرات الأمير عبدالله ص 120.
(2) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 120.
(3) مذكرات الأمير عبدالله ص 149.
(4) روض القرطاس ص 100.
(5) مذكرات الأمير عبدالله ص 149.
(6) مذكرات الأمير عبدالله ص 127.
(7) مذكرات الأمير عبدالله ص 146.
(8) مذكرات الأمير عبدالله ص 147.
(9) مذكرات الأمير عبدالله ص 147.
(10) مذكرات الأمير عبدالله ص 148.

المقاومة، وأول مدينة أرسل إليها هي اليسانة وقد حمل الكتب نعمان الساعي، ومما جاء فيها: «أما بعد فقد جاء الحق وزهق الباطل أن الباطل كان زهوقاً[1] وإن لم تطوعونا فأذنوا بحرب من الله ورسوله»[2]. ولدى ورود كتب الأمير يوسف إلى الحصون والمعاقل أطاعه أهلها وسر القوم بذلك[3]. فأخرجوا عمال الأمير عبدالله، حتى أن الحصن الذي كان يمتنع تكفلت الرعية بحربه إلى جانب المرابطين حتى يستسلم[4]. وأخيراً وصل الجيش المرابطي إلى غرناطة وضرب عليها الحصار مدة شهرين[5]، وبداخلها الأمير عبدالله فاشتد عليه الأمر طلب الأمان من الأمير يوسف، فأرسل إليه مع الفقيه ابن سعدون أن لا طاعة ولا صلح إلا بالخروج إليه، وكتاب الأمان في النفس والأهل دون المال[6]، وخيره إن لم يكن لديه رغبة في الشخوص إليه فعليه مغادرة غرناطة إلى أي مكان يشاء[7]. واضطربت الأحوال داخل المدينة المحاصرة فالجنود البربر غمرهم السرور، والتجار لا طاقة لهم على الحرب، أما الرعية فهذا ما كانت تتمناه منذ زمن بعيد طمعاً في الحرية والكرامة والتخلص من الضرائب الفادحة، إذ أن الأمير يوسف لا يلزمها إلا بما أقرته الشريعة الإسلامية من عُشر وزكاة[8]. وأمام هذه الحالة التي تحمل على اليأس، فتح الأمير عبدالله أبواب غرناطة أمام الجيش المرابطي، وخرج مستسلماً للأمير يوسف الذي قدم في أثر جَيْشه إلى

---

(1) القرآن الكريم سورة الإسراء: آية 81، ويذكر هذا الكتاب ببلاغات الانقلابات العسكرية المعاصرة.

(2) القرآن الكريم: سورة البقرة آية 279.

(3) ابن الكردبوس ص 105.

(4) لم يرد ذكر أي حصن تمرد خوفاً من الرعية التي كانت على استعداد لمقاومة أي تمرد.

(5) روض القرطاس ص 99 ـ الاستقصا ج 1 ص 120.
Hamet: Hist. du Magh. P. 87.

(6) روض القرطاس ص 100 ـ الاستقصا ص 120 ـ دائرة المعارف ج 5 ص 239 ـ مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 149.

(7) مذكرات الأمير عبدالله ص 149.

(8) مذكرات الأمير عبدالله ص 150.

المدينة، فاستقبله الأمير بسرور وترحاب وكرر له إعلان الأمان في الأنفس والأهل، وعهد الأمير يوسف إلى جرور بمراقبة عبدالله حتى يقف على أمواله[1]، ثم أرسله إلى الجزيرة الخضراء ومنها إلى سبتة. وفيها قيل له انتظر حتى يحضر الأمير، ثم نقل إلى مكناسة وفيها تلقاه الأمير سير الذي أخبره بأن مقامه عنده إلى أن يرد أمر من الأندلس بشأنه، وهناك أرسل إليه الأمير يوسف مئة دينار ثم اتبعها بثلاثمائة دينار أخرى، وخاطبه بكتاب فيه كل جميل: «لا أنساك ما بقيت»[2].

وصادر الأمير يوسف جميع الأموال التي كانت بحوزة الأمير عبدالله، وكان قد جمعها جده باديس ودفنها عبدالله في داره[3]، ووزع بعضها على كبار قواده، وكانت قصوره تحوي من الأموال والنفائس أكثر من أي ملك آخر، وكان من جملة المجوهرات سبحة فيها أربعمائة جوهرة قدرت كل واحدة منها بمائة ألف دينار بالإضافة إلى الثياب والأثاث[4]، مما أدهش المرابطين.

بعد أن فرغ الأمير يوسف من ضم غرناطة إلى مملكته وجه جيشه نحو مالقة وفيها تميم بن بلكين بن باديس - شقيق عبدالله - فأسلم البلد للأمير بلا قتال وضرب الدراهم المرابطية[5] مما أسبغ عليه رضى الأمير، وهذا ما جعله مفضلاً على أقرانه. ونقل تميم إلى السوس وقد أوصى به الأمير يوسف إلى يزلف وبالغ في إكرامه، وكان في عافية ورغد في العيش[6].

وقد أمضى أولاد باديس بقية حياتهما في منفاهما بالمغرب[7].

---

(1) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 154.
(2) مذكرات الأمير عبدالله ص 160 و 161 بغية الملتمس ص 32.
(3) مذكرات الأمير عبدالله ص 155.
(4) الكامل 10 ص 155 - نفح الطيب ج 6 ص 107 - الروض المعطار ص 96.
(5) مذكرات الأمير عبدالله ص 162 وتميم أول من ضرب الدراهم المرابطية من أمراء الأندلس.
(6) مذكرات الأمير عبدالله ص 162 و 163 - الاستقصا ج 1 ص 120.
(7) روض القرطاس ص 100 ويذكر أن الإقامة كانت في مراكش وكذلك السلاوي في =

وهكذا ضم الأمير يوسف غرناطة ومالقة وأحوازهما في رجب 483 هـ/ أيلول 1090 م وأصبحت المنطقة ضمن السيادة المرابطية فألغيت الضرائب والجائرة واجتزىء ما نص عليه القرآن الكريم[1].

ضم مملكة المتعمد إلى الدولة المرابطية

بعد دخول الأمير يوسف إلى غرناطة قدم المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس لتهنئته بالنصر، وأرسل المعتصم بن صمادح ابنه كذلك[2]. وكان المعتمد يمني نفسه بامتلاك غرناطة، إذ يشير الأمير عبدالله في مذكراته إلى أن الأمير يوسف وعده بإعطائه المدينة[3] قائلاً له: «أنا رجل مغربي وليس قدمي أخذ مال ولا بلاد، وقد ترى ما رفع على صاحب غرناطة وتتوقع عليها من الرومي، وليس غرضي أكثر من تخليصها، فإذا صارت في يدي ولا يمكنني إمساكها لبين بلاد الأندلس من العدوة وضعتها عند ذلك في يدك فتكون أعلم بما تصنع بها وأقعد لما يصلح للمسلمين»[4]. كان الأمير يوسف يهدف من عمله هذا أن يبقي المعتمد خارج نطاق معركة غرناطة، فلا يتدخل إلى جانب الأمير عبد الله خاصة وقد بعث بكتب إلى ملوك الأندلس يطلب منهم المساعدة ضد المرابطين، ويحذرهم من أن دورهم آت «فاليوم بي وغداً بكم»[5]. والهدف الآخر الذي قصده يوسف من وعد المتعمد بغرناطة إظهار ملوك الأندلس أمام المسلمين وقد أعماهم الحقد والتآمر على بعضهم.

استقبل الأمير يوسف الوفد بفتور مظهراً تغيره عليهم كما اعتقل ابن

= الاستقصا ص 120 بينما يشير ابن الخطيب في الحلل أن الإقامة كانت في أغمات ص 51 بينما ابن خلدون يذكر في الجزء السادس أن الأمير يوسف بعث بهما إلى المغرب. العبر ج 6 ص 187 ـ بغية الملتمس ص 32.

(1) Dozy: Histoire des Mus. D'esp. t. 3. P. 144.

(2) الحلل ص 51 Histoire des Mus. P. 145.

(3) الاستقصا ج 1 ص 120.

(4) مذكرات الأمير عبد الله ص 164.

(5) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 166.

المعتصم بن صمادح[1]. وهنا أخذ الندم المعتمد وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه ـ ولكن بعد فوات الأوان ـ باستدعاء المرابطين إلى الأندلس[2]، وقال للمتوكل: «والله لا بدّ له من أن يسقينا من الكأس التي أسقى بها عبدالله بن بلكين»[3]. وانصرفا إلى بلادهما ولسان حالهما يقول انج سعد فقد هلك سعيد[4]. ووجها دعوة إلى أمراء الأندلس لعقد حلف لمقاومة «الاحتلال المرابطي»[5]، وأجريا كذلك اتصالات مع الفونس وتحالفا معه ضد الأمير يوسف[6]، وشرعا في تحصين البلاد. فقد وصل المعتمد إلى اشبيلية وبدأ بالاستعداد للمقاومة، فباشر في ترميم الأسوار والقنطرة[7]، فقال له ابنه الرشيد: «ألم أقل لك يا أبت يخرجنا هذا الصحراوي من بلادنا إن أنت أوردته علينا؟ فأجاب المعتمد: يا بني لا ينجي حذر من قدر»[8]. «ولم يكن المعتمد يدري أن تدميره في تدبيره وسل سيفاً له لم يدر أنه عليه»[9]. ولعب الوشاة دوراً بارزاً في توتير الأجواء بين الأمير يوسف والمعتمد، فدعا الأمير يوسف المعتمد للقاء معه للتشاور فامتنع المعتمد عن اللقاء قائلاً: «إن ذلك كان وقت كنت ضيفاً وتريد الغزو، فلزمتني معونتك بنفسي وجميع أموالي. والآن وأنت جار لي مثل باديس وحفيده وأنت أقدر مني على الشر بجنودك، فلا يمكنني التغرير بنفسي، عسى أن تريد أخذ بلدي، إذ لا تصح لك غرناطة إلا بما يضاف إليها من الأندلس»[10]. وهذا الرفض من قبل المعتمد اتخذه الأمير يوسف ذريعة

---

(1) Dozy: Histoire des Mus. D'esp. t. 3. P. 145.

(2) الحلل ص 51 Dozy: Histoire des Mus. D'esp. t. 3. P. 145.

(3) الحلل ص 52 Hist. des Mus. P. 145.

(4) مثل عربي قديم.

(5) Histoire des Mus. D'esp. t. 3. P. 145.

(6) يبدو أنهما لم يوفقا في عقد الحلف بين أمراء الأندلس فاتجها نحن الفونس.

(7) الحلل ص 52.

(8) الحلل ص 52.

(9) هذا القول للمراكشي ورد في المعجب ص 131.

(10) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 169.

لقتاله[1]. ومع ذلك لم يقدم الأمير يوسف على إرسال جيشه لمحاربة المعتمد بل أراد أن يمنحه فرصة أخيرة، علها تجنب الفريقين معركة تهرق فيها دماء المسلمين، فطلب إليه أن يطبق أحكام الشرع، وألا يفرض الضرائب المخالفة لتعاليم الإسلام، وأن يرابط في الثغور للذود عن حياض المسلمين[2]. وامتنع المعتمد عن الإجابة، فكان ذلك بمثابة إعلان الحرب على الأمير يوسف، فعاد إلى المغرب واستقر بسبتة في رمضان 483 هـ/ تشرين الثاني 1090[3]. وبدأ بالاستعداد لضم الأندلس كلها إلى مملكته وقال: «إنما غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم لما رأينا استيلاءهم على أكثرها. . . ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين ولأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة ولا علم عندهم برخاء العيش، إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه أو سلاح يستجديه أو صراخ يلبي دعوته»[4]. وفوض جميع الأمور من سياسية وعسكرية إلى القائد سير بن أبي بكر[5] وطلب إليه فتح اشبيلية. ومتى تم له ذلك فليتقدم إلى بلاد ابن الأفطس لفتح حاضرته بطليوس[6]، وقدم أبا عبد الله بن محمد بن الحاج على جيش آخر وأمره بالتقدم نحو قرطبة حيث الفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون، وقدم زكريا بن واسنوا على جيش ثالث وأمره بمهاجمة المعتصم محمد بن محمد بن معز بن صمادح صاحب المرية، وجرورا الحشمي على جيش رابع وأمره بمنازلة الراضي يزيد بن المعتمد في رندة[7]، وأمرهم بالتقدم لتحقيق أهدافهم حسب

(1) مذكرات الأمير عبد الله ص 169.

(2) مذكرات الأمير عبدالله ص 169.

(3) روض القرطاس ص 100 ـ الحلل ص 52 ويذكر صاحبها أن السنة كانت 484 هـ/ 1089 م.

(4) المعجب ص 162 و 163.

(5) الحلل ص 52 بغية الملتمس ص 32.

(6) الحلل ص 52 ـ أعمال الأعلام: تحقيق د. عبادي ص 250 روض القرطاس ص 100.

(7) الحلل ص 52 ـ أعمال الاعلام ص 251 وقد ورد اسم غروز بدل جرور وقد أمره يوسف بالسير نحو بني الأفطس.

الخطة التي رسمها لهم وانتظر النتائج، وكأن المعارك لم تستحوذ على كل جهوده وتفكيره، فقد اهتم ببناء المسجد الجامع في سبتة وزاد فيه حتى أشرف على البحر، وبنى البلاط الأعظم منه، وأمر ببناء السور السفلي للميناء[1].

بدأت العمليات العسكرية فسقطت طريف بيد القائد سير في ذي القعدة 483 هـ/ كانون الثاني 1091، ونادى المرابطون فيها بدعوة أمير المسلمين يوسف فتردد صداها في الأندلس من أقصاها إلى أقصاها[2]. وتابع سيره شمالاً نحو اشبيلية[3]، وهو يعتقد أن المعتمد سيخرج للقائه بالضيافات، لكنه لم يفعل بل تحصن داخل حاضرته[4]. كانت غاية سير من الهجوم على إشبيلية توجيه ضربة قاصمة للمعتمد إذ أنه أقوى ملوك الطوائف وأكثرهم غنى وجاهاً وأوسعهم مملكة، وإنه متى تمكن من إسقاطه تكون معركة ضم الأندلس للسيادة المرابطية قد انتهت لصالح المرابطين، ولم يبق على القائد سير سوى القيام بمظاهرة عسكرية على بقية الدويلات أكثر منها معركة حربية، وإذا حُمَّ القضاء على امرىء فإنه يلجأ إلى أهون الأمور بنظره، فلجأ المعتمد إلى الاسبان وطلب المساعدة من الفونس للدفاع عن مملكته ضد المرابطين ولو يوماً واحداً: «كنت ألام، أما بعد أن رأيت طلبي في الرومي اضطرتني الضرورة إلى ذلك للمدافعة ولو يوماً واحداً»[5]. وجرت الحرب بين الفريقين المرابطي والإشبيلي، كانت حرب حصار لا قتال، كان المعتمد يريد من ذلك إنهاك قوى المرابطين بحرب الحصار حتى تأتيه نجدة الاسبان، فيتمكن من القضاء عليهم إذ لا طاقة له على مواجهة عسكرية معهم لوحده.

وصل القائد سير إلى إشبيلية وضرب عليها الحصار، وكذلك وصلت بقية الجيوش إلى أهدافها فوصل جرور الحشمي إلى رندة وحاصرها وكذلك

---

(1) الحلل ص 52.
(2) المعجب ص 139.
(3) روض القرطاس ص 100.
(4) روض القرطاس ص 100.
(5) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 169.

محمد بن الحاج إلى قرطبة، وأرسل سير فرقة من جيشه الذي يحاصر إشبيلية إلى مدينة جيان بقيادة بطي بن إسماعيل فدخلها صلحاً[1]، وكانت المدينة الثانية التي تسقط بيد المرابطين بعد طريف، وبعث سير إلى الأمير يوسف يخبره بسقوطها. وبعد أن أتم بطي فتح جيان أمره سير بالتقدم نحو قرطبة لمساعدة ابن الحاج الذي كان يحاصرها، وكان حاكمها الفتح بن المعتمد قد تحصن بداخلها وأرسل زوجته وأولاده إلى حصن المدور بعد أن شحنه بالعدة والعدد[2]، وبذلك تكون عائلته بمأمن من الخطر وتلوذ بحمى ملك الإسبان إذا ساءت الأحوال وسقطت قرطبة، وأقام بعد ذلك في القصر مضطرباً خائفاً من المصير المجهول المرتقب. كان المعتمد حذراً على قرطبة من السقوط بأيدي المرابطين، فهي حاضرة الخلافة الأموية وقوة معنوية دافعة له ولمملكته ويرجو بقاء حاله بثبوتها فأوصى ابنه بالصبر قائلاً: «لا تجزع فالموت أهون من الذل وليس السلطان إلا من القصر إلى القبر»[3]. وأبلى الفتح البلاء الحسن في الدفاع عن نفسه والمدينة وأظهر جلداً وصبراً، ولكن رغم كل ذلك لم يتمكن من الصمود طويلاً أمام المرابطين، فقد اضطربت الأحوال داخل المدينة، إذ تآمرت جماعة من العامة مع المرابطين على فتح أبوابها وفق خطة محكمة[4]، وهذه الجماعة ناقمة على سياسة المعتمد وقد أتاها الغوث بقدوم المرابطين، وانثلمت بعض الأسوار وأحدث المرابطون فيها فتحات. ودخل المرابطون حاضرة الخلافة الأموية نهار الأربعاء 3 صفر 484 هـ/ 26 أذار 1091 م[5] بعد حصار دام ثلاثة شهر. وحاول الفتح أن يشق طريقه بالسيف إلى خارج

---

(1) روض القرطاس ص 100 ـ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص 95.

(2) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان ص 22.

(3) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 170.

(4) ابن خاقان: قلائد العقيان ص 22 ـ مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 107.

(5) روض القرطاس ص 100 ـ المعجب ص 140 ـ الاستقصا ج 1 ص 120 ـ دائرة المعارف ج 5 ص 239. Hamet: Histoire des Mag. Dozy: Hist des Mus. D'espagne. t. 3. P. 148 بغية الملتمس ص 32.

المدينة ولكنه قتل[1]، واحتز المرابطون رأسه مع الوزيرين ابن زيدون وابن بكر[2].

أقام القائد بطي فيها وأحكم السيطرة على حصونها، وبعد أن اطمأن إلى أحوالها بعث إلى قلعة رباح قاصية بلاد المسلمين قائداً مرابطياً من لمتونة بألف فارس فاستولى عليها[3]. وتابع المرابطون تقدمهم فاستولوا على بياسة وأبدة وحصن البلاط والمدور والصخيرة وشقورة، وتناثرت حصون ابن عباد ودخلها المرابطون ظافرين في أقل من شهر[4]، وهاجم القائد سير قرمونة واستولى عليها عنوة وذلك نهار السبت 17 ربيع الأول 484 هـ/ 12 أيار 1091 م[5]. وبذلك اقترب المرابطون من طليطلة وهددوها من جديد بعد أن أضحت على مرمى حجر منهم. وتفرغ سير إلى إشبيلية بعد أن خضعت له أكثر حصون ابن عباد، فأطبق عليها بأكثر قواته وسير نحوها جيشين الأول من الشرق والثاني من الغرب حيث الوادي الكبير وفيه الأسطول الذي يوفر للمدينة الحماية والمؤونة. وأصبح وضع المعتمد حرجاً للغاية فانقطع الرجاء أمامه وضاقت به السبل، إذ أنه لا يقوى على مقاومة المرابطين المؤيدين من الشعب الأندلسي. وأيقن أن ثباته مزعزع وأن النهاية باتت محتومة، فجدد استغاثته بالفونس ووعده بأن يعطيه الطارف والتليد[6]، إذ أضحى الأمل الوحيد بالنسبة له، ووجد الفونس الفرصة سانحة للثأر من العدو المرابطي المغربي الذي أذاقه الهزائم المتعددة، وشعر كذلك بأن رباطاً وثيقاً يشده إلى حكام الأندلس المسلمين ألا

---

(1) مذكرات الأمير عبدالله ص 170 ـ المعجب ص 139 ـ الاستقصا ص 120 ـ العبر ج 6 ص 187 ـ الأندلس في عهد المرابطين ص 95 Histoire des Mus. P. 148.

(2) مذكرات الأمير عبدالله ص 170.

(3) روض القرطاس ص 100 ـ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين ص 85.

(4) روض القرطاس ص 100 ـ الاستقصا ج 1 ص 120.

(5) روض القرطاس ص 100 ـ الاستقصا ص 120.

(6) روض القرطاس ص 100 ـ العبر ج 6 ص 187 ـ الكامل ج 10 ص 189 ـ الاستقصا ج 1 ص 120 ـ الأندلس في عهد المرابطين ص 96 Dozy: Hist des Mus. P. 149. Hamet P. 88.

وهو الشعور[1] بالخطر المشترك الخارجي الذي يهدد شبه الجزيرة الأيبرية. فخطر المرابطين وحد بين أعداء الأمس من أمراء الأندلس ونصارى الشمال الذين فضلوا بقاء حكام الأندلس الضعفاء على وجود حاكم مسلم قوي من طراز الأمير يوسف يهدد حكم الجميع.

ويادر الفونس إلى إرسال جيش بقيادة البرهانس[2] مؤلف من أربعين ألف راجل وعشرين ألف فارس ولكن هذه النجدة لم تجد نفعاً، إذ سرعان ما اختار القائد سير عشرة آلاف فارس من خيرة المرابطين بقيادة إبراهيم بن إسحاق اللمتوني[3]، والتقى الجيشان على مقربة من حصن المدور حيث دارت معركة رهيبة استشهد فيها كثير من المرابطين وقد منحهم الله النصر فهزموا النصارى[4]. وانهارت أمال المعتمد بنجدة الفونس فقرر الاعتماد على قائم سيفه، واستمر في الدفاع مع يقينه بأن معركته خاسرة، وعهد بالدفاع عن المدينة إلى ابنه الرشيد[5]، وكأن الخطر الخارجي لم يكف المعتمد وآله، إذ فجرت العامة الثورة داخل المدينة، وحاول الثوار فتح الأبواب للمرابطين[6] وذلك نهار الثلاثاء منتصف رجب 484 هـ/ تشرين الأول 1091 م[7]. ولكن المحاولة فشلت وألقى المعتمد القبض على المتآمرين، وبدل أن يحاكمهم فضل أن ينهي حياته السياسية دون إراقة دماء فعفا عنهم وأطلق سراحهم[8]. وفي هذه الأثناء

---

(1) هذا الشعور تبلور في العصر الحديث والمعاصر بالشعور القومي .Histoire des Mag .P. 88.

(2) Dozy: Histoir des Mus. D'Esp. T. 3 P. 149.

(3) روض القرطاس ص 100 ـ الاستقصا ج 1 ص 120 ـ الأندلس ص 96.

(4) روض القرطاس ص 101 ـ الكامل ج 10 ص 190 ـ الاستقصا ج 1 ص 120 ـ الأندلس في عهد المرابطين ص 96.

Dozy: Hist des Mus. D'Esp. t. 3. P. 150. Hamet: Hist. Mag. P. 88.

(5) Dozy: Hist des Mus. D'Ept. t.3 P. 148.

(6) المعجب ص 140 ـ قلائد العقيان ص 23 .Dozy: Hist des Mus. P. 149.

(7) المعجب ص 140.

(8) Dozy: Hist des Mus. P. 149.

تسلل المرابطون من فتحه السور عند باب الفرج واقتحموا المدينة فأسرع المعتمد من مقره بلا درع ولا درق لردع الداخلين، واستطاع أن يهزمهم فتزل المتسنمون عن الأسوار ولاذوا بالفرار وسد المعتمد الثلمة[1]. واعتقد سكان إشبيلية أن الخطر قد زال فتنفسوا الصعداء، لكن الأمل لم يطل كثيراً إذ تمكن المرابطون من إحراق الأسطول الراسي في الوادي الكبير[2]، وكان الحامية القوية للمدينة، وهذا العمل أشاع الذعر بين الإشبيليين إذ أن خط الدفاع الأول عن المدينة قد انهار وباتت المدينة تنتظر سقوطها بين لحظة وأخرى. ورغم ذلك فقد استمات المعتمد مع جيشه في القتال مما أدهش القائد سير إذ قال: «لو أني أقصد مدينة الشرك لم تمتنع هذا الامتناع»[3]. فشدد هجماته العنيفة عليها، وظهر عليها من البر رجل مرابطي من أصحاب الأمير يوسف يدعى حدير بن واسنوا، ومن الوادي الكبير القائد أبو حمامة مولى بني سجوت[4]، وفتحت إشبيلية أبوابها مستسلمة للمرابطين ودخلها سير نهار الأحد 22 رجب 484 م/ 13 أيلول 1091[5] وفر السكان مذعورين يرتمون من فوق الأسوار ويلقون بأنفسهم بالنهر. وجرت عملية نهب واسعة للمدينة، فخرج السكان شبه عراة يسترون عوراتهم بأيديهم[6]. وكان المعتمد في قصره محاطاً بنسائه وهن يندبن حظهن البائس ـ يفتش عن حل يحفظ كرامته كملك، فجمع ما تبقى من أنصاره وهجم على المرابطين الذين وصلوا إلى فناء القصر واستطاع ردهم حتى

---

(1) المعجب ص 140

Dozy: Hist des Mus. P. 149.

(2) المعجب ص 140 ـ قلائد العقيان ص 24.

Dozy: Hist. P. 149.

(3) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 170.

(4) المعجب ص 141.

(5) مذكرات الأمير عبدالله ص 170 ـ المعجب ص 141 ـ روض القرطاس ص 101 ـ وفيات الأعيان ج 5 ص 30 ـ الأندلس في عهد المرابطين ص ٩٦ ـ دائرة المعارف ج 5 ص 239 ـ بغية المتلمس ص 32.

(6) وفيات الأعيان ج 5 ص 30. Dozy: Hist des Mus. D'Esp.t. 3. tp. 150.

النهر وقتل ابنه مالك أثناء تلك العملية[1] ولم يصب هو بأذى. وعاد إلى القصر يفكر بمصيره وحاول أن يضع حداً لحياته بيده فامتنع لأن الإسلام يحرم قتل النفس[2]. وعند حلول الظلام أرسل ابنه الرشيد إلى الأمير سير عارضاً استسلامه بلا شروط، ثم استسلم للمرابطين الذين ألقوا القبض عليه وأهله[3]، ونهب مقره مثلما حدث في المدينة[4].

لكن المعارك لم تنته بسقوط العاصمة إشبيلية، واستمرت المقاومة بقيادة ولدي المعتمد المعتد في مارتلة والراضي في رندة[5]، فقد أنفا الذل وأبيا وضع أيديهما بغير يد أبيهما[6]، كان وضع الراضي جيداً فرندة محصنة ولم يجرؤ المرابطون على التقدم نحوها[7]، أمام هذا الوضع عمد القائد سير إلى مضايقة المعتمد لإجباره على مخاطبة ولديه بالاستسلام وإلا كان الموت نصيب الأسرة[8]، حتى أن أمهما كتبت إليهما مستعطفة راجية «وإن دم الكل مسترهن باستسلامهما»[9] ولهما العهود والمواثيق بعدم التعرض لهما بأذى. وقد حرك هذا النداء عواطف الرحمة وحقوق الأبوة في نفسيهما فاستسلما[10]. ولكن القواد المرابطين تنكروا للعهود التي أعطوها للمعتمد بشأن ولديه فقد قبض القائد جرور على الراضي وقتله غيلة وأحضر جسده[11]. أما المعتد فقد

(1) Hist des Mus. P. 150.
(2) Hist des Mus. P. 150.
(3) قلائد العقيان ص 30.
(4) Dozy: Hist des Mus. D'Espagne t.3. P. 151.
(5) قلائد العقيان ص 30 ـ المعجب ص 141.
(6) المعجب ص 143.
(7) Hist des Mus. P. 151.
(8) المعجب ص 143Hist des Mus. P. 151.
(9) المعجب ص 143 Hist des Mus. P. 151.
(10) المعجب ص 143 Hist des Mus. P. 151.
(11) المعجب ص 143 ـ مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 171.

استجاب للنداء مباشرة فكان قدره أقل قساوة، فأبقى عليه حياً بعد مصادرة جميع أملاكه[1].

وقد حرك هذا العمل مشاعر المعتمد فرثى أولاده القتلى بقصائد رقيقة حزينة[2].

وهكذا سقطت دولة بني عباد واسطة عقود دويلات الطوائف وانضوت تحت سيادة المرابطين.

مأساة المعتمد بن عباد

وكأن قتل أبنائه لم يكفِ، فكبله المرابطون بالحديد وحشروه مع أهل بيته على ظهر سفينة، وخرج الناس إلى ضفتي النهر لوداع ملكهم الأسير وهم يبكون[3]، ونقلتهم السفينة إلى المغرب، فأقاموا في مراكش[4]، ثم أمر يوسف بنقلهم إلى أغمات[5] حيث ألقى بهم في السجن. وسيم المعتمد بأشد أنواع التعذيب النفسي والجسدي وهو يرقد في غياهب سجنه، وقد أمر يوسف بذلك بسبب ثورة أحد أبنائه في الأندلس[6].

---

(1) المعجب ص 143. Hist des Mus. P. 151.

(2) رثى المعتمد أبناءه بقصيدة رقيقة جاء فيها:

أبـا خالـد أورثتني البث خـالداً ... أبا النصر مذ وُدعت ودعني نصري

وقبلكما ما أودع القلب حسرة ... تجدد طول الدهر ثكل أبي عمرو

المعجب ص 43.

(3) يصور الفتح بن خاقان في كتابه قلائد العقيان إخراج المعتمد من إشبيلية «... وخرج الناس إلى ضفتي الوادي لوداع ملكهم يبكون بدموع الغوادي وسارت بهم السفن والنوح يحدوهم والبوح باللوعة لا يعدوهم». قلائد العقيان ص 24.

(4) العبر ج 6 ص 187 ـ الاستقصا ج 1 ص 120.

(5) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 171 ـ المعجب ص 145 ـ روض القرطاس ص 101 ـ الكامل ج 10 ص 190 ـ وفيات الأعيان ج 7 ص 123 ـ «ج 1 ص 120» ـ دائرة المعارف ج 5 ص 239 مادة أبو يعقوب ـ بغية الملتمس ص 32.

(6) قلائد العقيان ص 30 ولكن صاحبها لم يذكر اسم ابن المعتمد هذا.

لقد كانت معاملة الأمير يوسف للمعتمد وعائلته قاسية جداً لم يسلكها أحد من قبله ولا بعده(1)، فلم يجر عليهم من الطعام إلا ما يقوم أودهم، مما دفع ببنات المعتمد الأميرات إلى خدمة الناس فكن يغزلن الصوف لكسب بعض دريهمات ينفقنها على الأهل. وحز ذلك في نفس المعتمد وتألم من حالته الحاضرة فكان عزاؤه الوحيد الشعر(2). وبقي المعتمد سجيناً في أغمات إلى أن وافته المنية فيها(3) في 11 شوال 488 هـ/ آخر تشرين الأول 1095 م(4) ودفن بظاهر المدينة. ولعل معاملة يوسف القاسية للمعتمد تعود إلى تحالف هذه الأخيرة مع الفونس واستدعائه له بعد أن مناه بالبلاد، وقد أدت حملة الفونس ضد المرابطين في حصن المدور إلى استشهاد جماعة منهم، بالإضافة إلى ما فقده المرابطون من عناصر بشرية في فتح إشبيلية وسائر أنحاء المملكة العبادية، هذه الضحايا التي ذهبت في صراع داخلي كان بإمكانها إحراز انتصارات على الاسبان بدل استنزافها داخلياً مما أوغر صدر الأمير يوسف ضد المعتمد، وعامله هذه المعاملة القاسية التي أضحت نقطة سوداء في تاريخ الأمير يوسف الأبيض.

---

(1) الكامل ج 10 ص 190.

(2) قال في قصيدة يعزي بها نفسه:

تبدلت في ظل عز البنود ... بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سناناً ذليقاً ... وغضباً رقيا صقل الحديد

وقد شاهد بناته يغزلن الصوف للناس فتألم وقال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً ... فجاءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة ... يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
يطأن في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

وفيات الأعيان ج 5 ص 32.

(3) روض القرطاس ص 101 ـ المعجب ص 145 ـ العبر ج 6 ص 187 ـ وفيات الأعيان ج 7 ص 123 وج 5 ص 35 ـ الاستقصا ج 1 ص 120.

(4) المعجب ص 145 ـ وفيات الأعيان ج 5 ص 35 ـ الاستقصا ج 1 ص 120 ـ دائرة معارف القرن العشرين مادة لثم ص 325. بينما يذكر ابن خلدون أن الوفاة كانت 490 هـ/ 1097 م العبر ج 6 ص 187 ـ بغية الملتمس ص 32.

ضم المرية

بعد بسط السيادة المرابطية على دولة بني عباد، قرر القائد سير بن أبي بكر ضم المرية إلى دولة المرابطين، وكان أميرها المعتصم بن صمادح قد اختص بمؤانسة الأمير يوسف عند عبوره الأول إلى الجزيرة[1]. ولكن حالة الصفاء لم تدم طويلاً، فقد تغير الأمير يوسف عليه بعد تخلفه كسائر ملوك وأمراء الطوائف أثناء حصار طليطلة وبدا نفاقه واضحاً[2]. فأرسل إليه سير جيشاً بقيادة أبي زكريا بن واسنوا[3] فتناثرت معاقله، وحاصر أبو زكريا المدينة فلم تصمد طويلاً بالرغم من حصانتها، فقد كان ينقصها الرجال المحاربون[4]، ودار القتال تحت شرفة القصر[5]، فأصاب المعتصم ـ وكان مريضاً ـ هلع شديد فأحضر ابنه معز الدولة وأوصاه بأن يلجأ إلى بني حماد في بجاية إذا دهمته الخطوب[6]. واشتد به المرض وهو يسمع قرقعة السلاح وصهيل الخيل فقال: «لا إله إلا الله نغص علينا كل شيء حتى الموت»[7]. ومات بعد ذلك عند طلوع الشمس نهار الخميس 22 ربيع الأول 484 هـ/ 15 أيار 1091 م[8] وانشغل به أهله فسلموا المدينة للمرابطين. ولاذ ابنه معز الدولة

---

(1) وفيات الأعيان ج 5 ص 44.

(2) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 167.

(3) الحلل ص ٥٢٪ ـ بينما يذكر أشباخ أن القائد كان داود بن عائشة الأندلس في عهد المرابطين ص 99.

(4) وفيات الأعيان ج 7 ص 122 و 123 ـ نفح الطيب ج 6 ص 105 الروض المعطار ص 96.

(5) المعجب ص 137.

(6) مذكرات الأمير عبدالله ص 167 روض القرطاس ص 101 ـ الكامل ج 10 ص 192. Dozy: Hist des Mus. D'esp. t. 3. P. 151.

(7) قلائد العقيان ص 54 وفيات الأعيان ج 5 ص 44 ـ المعجب ص 137.

(8) مذكرات الأمير عبدالله بن يزري ص 167 ـ المعجب ص 137 ـ روض القرطاس ص 101 ـ ابن الكردبوس ص 105 ـ وفيات الأعيان ج 5 ص 44 وج 7 ص 123.

بالفرار بماله وعياله إلى افريقية[1] - حسب وصية والده - ولجأ إلى المنصور بن الناصر الحمادي الذي قربه وأحسن إليه[2]. وكانت المرية ثالث دويلة أندلسية تسقط بيد المرابطين.

ضـم بطليوس

كان الغرب الأندلسي - وعاصمته بطليوس - موطن الثورات ضد الحكومة المركزية في قرطبة طيلة العهد الأموي، ويعود ذلك إلى طبيعته الجغرافية، فكان شبه مستقل عنها. ولما اشتدت حرب الاسترداد اكتوى الغرب بنارها مثل غيره من إمارات الأندلس، وقد استنجد صاحب بطليوس المتوكل عمر بن الأفطس بالمرابطين[3] لصد عدوان النصارى، وبعد معركة الزلاقة أبقى الأمير يوسف في غرب الأندلس ثلاثة آلاف مرابط للدفاع عنه فعمر، وخفت تعديات النصارى عليه. وعندما فوض الأمير يوسف شؤون الأندلس إلى القائد سير بن أبي بكر أقام المتوكل معه علاقات ودية حتى إنه ساعده ضد المعتمد[4]، ولكن بعد القضاء على بني عباد استوحش وخاف على نفسه[5]، فكان يظهر الطاعة للأمير القائد سير ويلبي جميع طلباته، وبالسر يتصل بالفونس للاستعانة به إذا دهمه خطر المرابطين[6]. أخذ سير يتدخل في شؤون بطليوس تمهيداً لبسط سيادة المرابطين عليها، عند ذلك جاهر المتوكل في محالفة الفونس[7] وتنازل له عن ثلاث مدن مهمة هي أشبونة وشنترين وشنتمرية الغرب. هذا العمل المخزي كان له أسوأ الوقع لدى القائد سير، فأرسل جيشاً استولى على شلب ويابرة

---

(1) روض القرطاس ص 101 - ابن الكردبوس ص 105.

(2) ابن الكردبوس ص 105.

(3) راجع ص 69.

(4) الكامل ج 10 ص 193. Dozy: Hist des Mus. D'Esp. t. 3. P. 152.

(5) مذكرات الأمير عبدالله ص 172.

(6) مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 172.

(7) مذكرات الأمير عبدالله ص 172 - العبر ج 6 ص 187 - Dozy: Hist des Mus. D'Esp. t. 3. P. 152.

وتابع سيره إلى العاصمة بطليوس[1]، واجتاز هذا الجيش أثناء زحفه مروج بطليوس حيث بطحاء الزلاقة كانت لا تزال غاصة بعظام النصارى الذين سقطوا قتلى فيها ولم يدفنوا، مما أثار الحماس في الجيش المرابطي الذاهب لإنقاذ المسلمين من خيانة ملكهم وغطرسة أعدائهم[2]، وضرب هذا الجيش الحصار على المدينة، ولم يستطع الفونس تقديم المساعدة الفعالة لحليفه الجديد ابن الأفطس[3] الذي أصبح وجهاً لوجه أمام المرابطين الذين استولوا على مملكته بسهولة[4]، واتفق الأمير سير مع المواطنين الناقمين على ملكهم على فتح أبواب بطليوس له ليلاً[5]، ودخلها المرابطون في صفر 487 هـ/ أذار 1094 م وتمركزوا في القلعة، وألقى القبض على المتوكل وولديه الفضل والعباس[6] وطلب سير منه أن يدله على الأموال التي خبأها[7]، ثم أمر بإخراجهم من المدينة حيث أعدموا جميعاً[8] في عيد الأضحى [9]٤٨٧ هـ/ 1094 م[10]. وحمل أبناؤه الصغار إلى مراكش[11]، ولم ينج من الأسر إلا ابنه المنصور الذي استطاع الهرب والتحق بالنصارى وصار في تعداد جيوشهم يهاجم بلاد الأندلس

---

(1) Dozy: Hist des Mus. P. 152.

(2) الأندلس في عهد المرابطين ص 101.

(3) الأندلس في عهد المرابطين ص 101.

(4) Dozy: Hist des Mus. D'Esp. t. 3. P. 152.

(5) وفيات الأعيان ج 7 ص 123 Dozy: Hist P. 152.

(6) مذكرات الأمير عبدالله ص 174.

(7) مذكرات الأمير عبدالله ص 174 ـ العبر ج 6 ص 187 ـ وفيات الأعيان ج 7 ص 123 الأندلسي في عهد المرابطين ص 101 ـ دائرة معارف القرن العشرين مادة لثم ص 326.
Dozy: Hist des Mus. P. 152.

(8) الكامل ج 10 ص 193. Dozy: Hist des Mus. D'Esp. t. 3. P. 152.

(9) الكامل ج 10 ص 193 ـ مذكرات الأمير عبدالله بن زيري ص 174 ـ وفيات الأعيان ج 7 ص 123 ـ دائرة معارف القرن العشرين مادة لثم ص 326.
Dozy: Hist des Mus. P. 152 - Hamet: Hist des Mag. P. 88.

(10) العبر ج 6 ص 187 يذكر أن السنة 489 هـ/ 1096 م.

(11) وفيات الأعيان ج 7 ص 123.

المسلمة انتقاماً لوالده وأخوته[1]، وتابع سير تقدمه نحو ثغر أشبونة الذي سلمه المتوكل للنصارى وكانت به حامية نصرانية بقيادة ريمون البرجوني صهر الفونس واستطاع بعد قتال عنيف أن يسترد الثغر ويعيده إلى سيادة الإسلام وذلك عام 487 هـ/ 1094 م[2] وفتح كذلك شنترين[3].

ضم مرسية ووبرة ودانية

اضطربت أحوال شرق الأندلس، إذ عادت الرغبة لدى النصارى في الاستيلاء على هذا الجزء المسلم من الجزيرة فهاجم غرسية المرية والفونت لورقة وحاصر البرهانس مرسية والكمبيادور شاطبة وبنى أسقف أفرنجي حصن شَشَنة[4].

لم يسكت الأمير يوسف على هذه الأعمال العدوانية التي استهدفت المسلمين في أعراضهم وأملاكهم وأنفسهم فعين ابنه محمداً والياً على شرق الأندلس[5]. سار الأمير محمد نحو مرسية والتقى بالنصارى وهزمهم وخلع صاحبها ابن رشيق في شوال 484 هـ/ ت 10912 م[6] وأخذ مدينة وبرة في شعبان 485 هـ/ أيلول 1092[7]. وتابع سيره إلى دانية وفيها ابن مجاهد العامري الذي فر منها في البحر والتجأ إلى بجاية لدى الناصر بن حماد[8]،

---

(1) مذكرات الأمير عبدالله ص 174: «ويقال إنه تنصر فيما بعد وأعماله تدل على ارتداده عن الإسلام.

(2) المعجب ص 164.

(3) المعجب ص 164.

(4) ابن الكردبوس ص 99 و 100.

(5) ابن الكردبوس ص 101 هو محمد بن عائشة وقد نسب إلى أمه، كان من كبار قواد أبيه يوسف.

(6) كان ابن رشيق قد فر من سجنه لدى المعتمد وعاد إلى مدينته مرسية. روض القرطاس ص 101.

(7) روض القرطاس ص 101.

(8) روض القرطاس ص 101 ـ ابن الكردبوس ص 102.

ودخلها محمد، ثم استولى على شاطبة وفر منها صاحبها ابن منقذ وكذلك سقطت بيده أفراغ في شرق الأندلس[1].

ضم بلنسية

بعد حملة الأمير يوسف على لييط، احتدم الخلاف بين الفونس والكمبيادور لتخلف الأخير عن مساعدة الفونس فانعكس هذا الخلاف على مدينة بلنسية التي كانت مسرحاً لعملاء الاثنين، واستغل الوضع الجديد قاضي المدينة جعفر بن عبدالله بن جحاف المعافري[2] وصاحب الأحكام ابن أوجب[3]. واستجاب القاضي لرغبة البلنسيين بالتخلص من السيطرة الأجنبية، ودعماً لمركزه اتصل بالمرابطين فقد ذهب إلى دانية لمقابلة ابن عائشة وطلب منه النهوض إلى بلنسية لإنقاذها ووعده بإعطائه إياها[4]. أوفد ابن عائشة معه القائد المرابطي أبا ناصر[5] على رأس فرقة من الفرسان عام 485 هـ/ 1092 م بلغ عدد أفرادها أربعين فارساً[6]. وحاول صنيعة الكمبيادور ابن الفرج[7] اعتقال القاضي وأرسل جماعة لتنفيذ ذلك ولكنهم فشلوا وقام أنصار القاضي بطرد أنصار ابن الفرج وفتحوا الأبواب للمرابطين الذين دخلوا المدينة بشكل يلفت النظر حتى اعتقد السكان أن العدد هو عشرة أضعاف العدد الحقيقي. أمام هذه الحالة أخرج أنصار القادر بن ذي النون عائلاتهم وذخائرهم وأموالهم إلى القلاع

---

(1) روض القرطاس ص 101.
(2) البيان المغرب ج 4 ص 31 الاكتفاء ص. Dozy: Recherches P. 142.
(3) البيان المغرب ج 4 ص 31.
(4) روض القرطاس ص 101 ـ ابن الكردبوس ص 103 ـ الاكتفاء ص X . Dozy: Recherches P. 142.
(5) ابن الكردبوس ص 103 ـ البيان المغرب ج 4 ص 31 ويسميه ابن نصر Recherches P. 143.
(6) Recherches P. 143.
(7) ابن الفرج أحد عملاء الكمبيادور الذين سلطهم على بلنسية، كان يتصرف في المدينة باسم الكمبيادور سيده.

والحصون، حتى أن القادر نفسه أرسل عائلته إلى حصن شبرب والعقاب وحاول الفرار[1] أسرع القاضي واعتقله مع ابن الفرج، وأراد أن يأخذ منه الأموال والجواهر سراً، فأوعز إلى أنصاره بأن يقتلوا القادر، ونفذ هذه المهمة ابن الحديدي[2] الذي اغتاله وفصل رأسه عن جسده وذلك في 13 رمضان 485 هـ/ 8 تشرين الأول 1092[3]. وغدت بلنسية في ظل القاضي جمهورية[4] تولى رئاستها[5]، وانشغل بأمور جعلت المرابطين ينفضون عنه، فقد استثقلهم وشعر بأن وجودهم يحد من تصرفاته، ولكنه بحاجة ماسة إليهم لحماية نظامه الجديد فأصبحوا بنظره كمرتزقة وهم الذين قدموه على غيره آملين بأن يقف ضد العدو النصراني المجاور[6]، وهكذا ساءت العلاقات بين القاضي والمرابطين. كان السيد أثناء ذلك يهاجم سرقسطة فاغتاظ كثيراً لضياع المدينة من يد أعوانه ودخول المرابطين إليها كحلفاء لابن جحاف، فقد كانت مورد رزقه فحصته السنوية منها 10 الاف دينار، ووصلته أخبار خلاف القاضي مع حلفائه المرابطين فسار بكل قواته نحو المدينة عام 486 هـ/ 1093 م[7] وهو يتلف المزروعات ويقتل الرجال ويحرق القرى والطواحين والسفن وكل ما يخص القاضي، وهاجم المدينة، ولكن المرابطين ومن معهم من البلنسيين صدوا

---

(1) البيان المغرب ج 4 ص 31.

(2) البيان المغرب ج 4 ص 32.

(3) ابن الكردبوس ص 13 ـ الأندلس في عهد المرابطين ص 100 ـ الاكتفاء ص XI . Recherches P. 145.

(4) Dozy: Recherches sur L'histoire de L'Andalus, 145.

(5) يشير ابن الكردبوس في الاكتفا إلى جهل القاضي بأمور سياسية، ودُفع إلى النظر في أمور سلطانية لم يتقدم قبل في غوامضه حقائقها الماركوب أساليب سياسية لم يكن له عهد باقتحام مضايقها ولا بالدخول في ضنك مآزقها. ولم يعلم أن تدبير الأقاليم غير تلقين الخصوم وأن عقد ألوية البنود غير الترجيح بين العقود وانتحال الشهود الاكتفا ص XI.

(6) الاكتفا ص XI ـ البيان المغرب ج 4 ص 32.

(7) البيان المغرب ج 4 ص 33.

الهجوم وأكرهوه على التراجع عن الجسر، ولكنه عاود الهجوم وحاصر المدينة[1] وضيق عليها حتى طلب السكان الصلح مع الكمبيادور الذي قبله بشروط أهمها أن يغادر المرابطون المدينة وهكذا كان، إلا أن الكمبيادور بعد خروج المرابطين ظهر على حقيقته وأنه لا يقيم للأخلاق وزناً، فطلب من القاضي أن يرابط جيشه في جبالة[2] وأن يرسل ابنه كرهينة لضمان عدم تمرده وعدم طلب المساعدة من المرابطين، وأن يتنازل له عن عائدات المدينة وبعبارة واحدة أن يكون جابياً له لا أكثر. رفض القاضي هذه الطلبات المجحفة وقرر القتال حتى الموت وندم على إخراج المرابطين من المدينة فطلب منهم النجدة من جديد وكذلك من المستعين بن هود وحتى من الفونس[3]. ولكن أية مساعدة لم تصله، فقد عاد الجيش المرابطي الذي جاء لنجدته أدراجه قبل بلوغ أسوار المدينة بسبب رداءة الطقس وكثرة الوحول في الطرقات والمسالك من كثرة الأمطار، فأصيب السكان بخيبة أمل كبيرة، فقد تقدم الكمبيادور بجيشه وضرب الحصار على المدينة وضيق عليها حتى ساءت حالتها الاقتصادية واشتدت الأزمة داخلها، فقد ارتفع سعر قفيز القمح من اثني عشر ديناراً إلى تسعين ديناراً وندرت الأقوات وهبط سعر المنازل، وسارع الناس إلى الهروب من المدينة فوقعوا أسرى بيد النصارى الذين قتلوا بعضهم وباعوا البعض الآخر، وقد انضم إلى الكمبيادور بعض أشرار المسلمين وفجارهم وفساقهم تسموا بالدوائر[4] - وكثير منهم ارتد عن الإسلام - وأخذوا يشنون الغارات على المسلمين يكشفون المحرمات يقتلون الرجال ويسبون النساء والأطفال ووصل بهم الأمر إلى بيع المسلم الأسير بخبزة وقدح خمر ورطل حوت[5]. ومن لم يستطع فداء نفسه تركوه للكلاب المسعورة تنهشه حتى الموت. وكذلك تعلقت

(1) تاريخ ابن الكردبوس ص 103، ويشير كذلك في الاكتفاء إلى حصار المدينة: فلزمها ملازمة الغريم وتلذذ بها تلذذ العشاق بالرسوم.

(2) ضاحية من ضواحي بلنسية.

(3) Recherches sur L'Histoire de L'andalus P. 172.

(4) ابن الكردبوس ص 103.

(5) ابن الكردبوس ص 104.

طائفة بالبرهانس كانت بمثابة الخدم[1]، وقد تصدى له الأمير سير وهزمه وبقي السيد يحاصر المدينة وشدد عليها الهجوم فسقطت أكثر أجزائها في يده. وبعد حصار دام عشرين شهراً[2] سقطت المدينة بيد الكمبيادور نهار الخميس 15 حزيران 1094 م/ جماد الأول 487 هـ[3] فأجلى المسلمين عنها وأحل محلهم النصارى واعتقل ابن جحاف وصادر منه ذخائر ومجوهرات القادر بن ذي النون ثم أمر بإعدامه حرقاً بالنار[4] وذلك في ربيع الثاني 489 هـ/ أيار 1095 م.

أثار سقوط بلنسية بيد الإسبان وإحراق القاضي ابن جحاف موجة عارمة من السخط في صفوف مسلمي الأندلس، وعم الحزن الجزيرة كما حدث يوم سقوط طليطلة.

جرد الأمير يوسف جيشاً بقيادة ابنه محمد بن عائشة لاسترجاع المدينة من يد الإسبان وقد انضمت إليه قوات أندلسية من لاردة بقيادة صاحبها تأييد الدولة ومن طرطوشة بقيادة سيد الدولة ومن شنتمرية بقيادة حسام الدولة ومن البونت بقيادة نظام الدولة[5]. وحاصر الجيش المرابطي المدينة مدة عشرة أيام قاوم الكمبيادور الحصار واستطاع أن يهزم المرابطين ويبعدهم عن الأسوار، ولجأ إلى المناورة فقد خرج من المدينة واستولى على بعض الحصون المجاورة لها ثم عاد إلى داخل المدينة، وجمع المسلمين في القصر[6] وعرّض بالمرابطين أمامهم وطلب منهم مبلغ سبعمائة ألف مثقال وإلا كان الموت نصيبهم وأخذ يردد على

---

(1) ابن الكردبوس ص 104.
(2) ابن الكردبوس ص 103.
(3) البيان المغرب ج 4 ص 33. الاكتفا ص XI.
. Dozy Recherches\ P. 179.
(4) ابن عذاري يصف عملية إحراق القاضي بأسلوب مؤثر. البيان المغرب ج 4 ص 33 ـ الأندلس في عهد المرابطين ص 109 ـ الاكتفا ص 16.
Recherches P. 179.
(5) البيان المغرب ج 4 ص 40.
(6) البيان المغرب ج 4 ص 41.

مسمعهم: «على يد رذريق ذهبت إسبانيا وعلى يد رذريق ستعود»[1]. ثم أغلق أبواب القصر عليهم فأضحوا وكأنهم في سجن، وسلط عليهم أحد زبانيته من اليهود يسومهم العذاب ويبتز منهم الأموال[2]. واستمرت حالة بلنسية هكذا حتى وفاة الكمبيادور عام 492 هـ/ 1099 م. وحاولت زوجته «شيمين» متابعة الصمود في المدينة، واستنجد النصارى بالملك الفونس الذي جاء لنجدتهم وأقام في المدينة شهراً وأنصاره يرغبونه فيها ويهونون عليه أمر المرابطين[3]. في هذه الأثناء جهز الأمير يوسف جيشاً مرابطياً بقيادة الأمير مزدلي ونزل على المدينة والتقى الجيشان حيث دارت معركة انسحب الفونس على أثرها من المدينة بعد أن أحرقها[4] كي لا يستفيد منها المسلمون. ودخل الأمير مزدلي بلنسية في رمضان 495 هـ/ تشرين الأول 1102 م[5]. وكان لاستردادها دوي هائل في العامل الإسلامي أثار قريحة القراء وأسال أقلام الكتاب[6].

بعد ضم المرابطين لبلنسية تابعوا تقدمهم نحو الحصون الواقعة في شرق الأندلس فاستولوا على مربيطر والمنارة والسهلة وقد سقطت البونت في أيديهم

---

(1) رذيق الذي ذهبت إسبانيا على يده هو الملك القوطي الذي هزمه طارق بن زياد عام 92 هـ/ 711 م، ورذريق الآخر اسم الكمبيادور.

(2) البيان المغرب ج 4 ص 41.

(3) البيان المغرب ج 4 ص 42.

(4) البيان المغرب ج 4 ص 42.

(5) أمبروسو هويسي ميراندا: مجلة تطوان السنة 1958 ـ 1959 ـ العددان 3 و 4 و 165 و 166 ويذكر أن عام استعادة بلنسية على يد مزدلي 494 هـ/ 1100 و 1101 م ـ الاكتفاء ص XI.

Dozy: Recherches P. 189. Hist. des Mus. D'Esp. T. 3. P. 153.

(6) كتب أبو الفضل جعفر بن شرب يقول: وحياك بلسان الأقلام حين أشرق وجه الدين فأسفر وزهق حصن الملحدين فنفر وأقبل الفتح في لمته التأييد يرفل في ثوب العصر الجديد. وجاء الوعد الناصر ببلنسية فالأن وقد نشر الميت من لحده وعاد الحسام إلى غمده فهبت ريح النصر وقد بحر بعد حسر الاكتفا ص XI.

Recherches P. 189.

عام 496 هـ/ 1103 م. وتقدموا شمالاً نحو شنتمرية وكان حاكمها عبد الملك بن رزين قد أعلن الطاعة للمرابطين ولكن هذا الاعتراف لم يمنعهم من تنفيذ مخططهم الهادف إلى ضم الأندلس ودخلوا المدينة في الثامن من رجب 497 هـ/ نيسان 1104 م وخلعوا حاكمها ابن رزين. وأدى توسع المرابطين في شرق الأندلس إلى مهاجمة برشلونة، فغزاها الأمير مزدلي وبلغ مناطق لم يبلغها أحد قبله من المرابطين[1]، فهدم بيع برشلونة وأحرق مناطقها وهزم جنودها وقفل راجعاً بالغنائم والأسلاب منها نواقيس وصلبان وأواني مرصعة بالفضة والعقيان أمر بتركيبها كثريات في جامع بلنسية[2].

معارك شرق الأندلس معركة كنشرة

هاجم الفونس أطراف مملكة المرابطين واحتل قلعة أيوب وحاصر مدينة سالم[3]. فجرد الأمير يوسف جيشاً يضم مرابطين وعرباً[4] بقيادة ابن الحاج وانضم إليه محمد بن فاطمة[5] والتقى المرابطون بالفونس بكنشرة[6] حيث دارت معركة قاسية هُزم فيها النصارى ولاذوا بالفرار من سيوف المسلمين، ولجأ الفونس إلى مدينة طليطلة فحاصره المرابطون فيها سبعة أيام ثم انصرفوا، وسر الأمير يوسف بهذا النصر[7]. حدثت هذه المعركة 492 هـ/ السبت 15

(1) العبر ج 6 ص 188 ـ ابن الكردبوس ص 110.
(2) ابن الكردبوس ص 111.
(3) البيان المعرب ج 4 ص 44.
(4) العرب المقصودون هنا هم عرب بني هلال كما يشير إلى ذلك الدكتور حسين مؤنس حاشية ص 17 من تاريخ ابن الكدروس.
(5) البيان المغرب ص 44.
(6) بلدة من أعمال طليطلة «Consuegra» وابن الكردبوس أول من أورد الاسم العربي لها «كنشره» والمصادر المسيحية أشارت بوضوح إلى الانتصار الذي حققه ابن الحاج على الفونس عند هذه المدينة وقد اعتبرت ثانية الزلاقة. ابن الكردبوس ص 108.
(7) ابن الكردبوس ص 108 ـ امبروسوهويسي ميراندا: مجلة تطوان 1958 ـ 1959 ـ العددان 3 ـ 4 ص 13.

آب 1097. وقد فقد الكمبيادور فيها أحد أولاده يدعى ديبغو Diego[1]. وأرسل الأمير يوسف جيشاً إلى كنكة بقيادة ابن عائشة فهزم البرهانس وحلفاءه الأراجونيين ثم سار إلى جزيرة شقر والتقى هناك بجماعة من جند السيد فأوقع بهم وهزمهم ولم يفلت منهم إلا القليل[2]، وفتح الجزيرة بمساعدة الأسطول المرابطي.

وفي عام 493 هـ/ 1098 م عبر إلى الأندلس الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف مجاهداً وصحبه الأمير سير ومحمد بن الحاج، وساروا جميعاً إلى طليطلة وحاصروها وشنوا الغارات على نواحيها، ثم عادوا بعد أن روعوا مواطنيها[3]. وفي عام 497 هـ/ 1102 م أرسل المستعين بن هود كتاب استغاثة ضد الفونس، فأنفذ إليه الأمير يوسف ألف فارس بقيادة ابن فاطمة فارتد النصارى خائبين[4]. وفي السنة نفسها ولى الأمير يوسف ابن فاطمة على بلنسية فاشترك مع القائد علي بن الحاج في غزو طليطلة رداً على غارات النصارى على سرقسطة، وقد استشهد القائد ابن الحاج فخلفه في منصبه ابن فاطمة[5]. وتابع القائد الجديد هجومه وهاجم النصارى بفحص اللجج من بلاط العروس وانتصر عليهم[6]. وعندما شاع في الأندلس خبر مرض الأمير يوسف 498 هـ/ 1103 م ظن الفونس أن الفرصة قد واتته للثأر من المسلمين فجرد حملة من ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس عدا المشاة وتوغل في أراضي المسلمين حتى وصل إلى ناحية من نواحي إشبيلية تعرف بمقاطع، فكمن له الأمير سير هناك حتى وصلته الامدادات بقيادة عبد الله بن الحاج وأ[illegible] المسلمون الهزيمة

(1) ابن الكردبوس ص 108.
(2) ابن الكردبوس ص 108.
(3) ابن الكردبوس ص 109.
(4) ابن الكردبوس ص 113.
(5) ابن الكردبوس ص 112 ـ البيان المغرب ج 4 ص 44 ويشير فقط إلى استشهاد ابن الحاج.
(6) ابن الكردبوس ص 113.

بالفونس ففقد ألفاً وخمسمائة فارس[1] وعاد مهزوماً إلى بلاده. هكذا كانت معارك شرق الأندلس سجالاً بين الفريقين فلم يحرز أي فريق نصراً حاسماً، واستمرت الحالة إلى ما بعد وفاة الأمير يوسف.

المرابطون وسرقسطة

ضم الأمير يوسف الأندلس إلى مملكته وأخضعها لحكمه وعادت موحدة كما كانت زمن الخلافة الأموية، ولم يبقَ خارج سلطته إلا إمارة سرقسطة التي يحكمها المستعين أحمد بن هود. كانت سرقسطة كالشوكة في حلق النصارى فقد قاومتهم زمناً طويلاً وتراجعوا أمام صمودها[2]. وحاول الفونس الاستيلاء عليها بعد أخذه طليطلة، وأقسم ألا يبرحها حتى تستسلم، ولكن عبور المرابطين 479 هـ/ 1086 م جعله ينسحب خائباً وتنفس المستعين الصعداء فأخذ يقوي مركزه ويستعد للدفاع عن قاعدة الثغر الأعلى، وقد تقرب من الأمير يوسف وأبدى له عذره للتخلف عن المشاركة في معركة الزلاقة، وقبل الأمير هذا العذر، ونشأت علاقات ودية بين الأميرين، وعندما بسط المرابطون سيادتهم على شرق الأندلس اقتربوا من حدود سرقسطة، سارع المستعين إلى الاتصال بالأمير يوسف وأرسل إليه سفارة من وزيريه أبي الأصبغ وأبي عامر وكانت برئاسة ابنه عماد الدولة أبي مروان عبد الملك[3]. وزود المستعين السفارة برسالة جاء فيها[4]: «نحن بينكم وبين العدو سد لا يصل إليكم ضرر، وقد قنعنا بمسالمتكم فأقنعوا منا بها إلى ما نعينكم به من نفيس الذخر».

استقبل الأمير يوسف السفارة بالترحاب وأجاب المستعين إلى ما طلب

---

(1) البيان المغرب ج 4 ص 45 ـ مجلة كلية الاداب جامعة القاهرة السنة 1952 ـ المجلد الثاني ص 57 و 58.

(2) فقد تراجع أمام أسوار سرقسطة وصمود سكانها شارلمان عام 161 هـ/ تموز 778 م.

(3) الحلل ص 53 ـ المغرب الكبير ص 732 ـ الأندلس في عهد المرابطين ص 105.

(4) الحلل ص 53 ـ المغرب الكبير ص 732.

وبعث إليه برسالة طويلة[1]. ويرى الدكتور عفيف الترك في أمر هذه السفارة:

«إن المستعين كان يهدف من وراء هذه السفارة اجتذاب المرابطين إلى مظاهرة الإسلام في الأندلس بعد أن ساء الوضع كثيراً عقب مقتل القادر بن ذي النون في بلنسية في 13 رمضان 485/ 1092 م وما تلا ذلك من أحداث خطيرة حملت الكمبيادور على حصار بلنسية ودخولها في جمادي الأول 487 هـ/ 1094 م، ولا يستبعد أن يكون المستعين والأمير يوسف قد اتفقا على تطهير منطقة بلنسية من القشتاليين وتحريرها من احتلالهم. . . وقد يكون بين بنود المعاهدة أن يساعد يوسف المستعين على استرجاع أراضي طرطوشة ولاردة من المنذر التجيبي وضمها إلى سرقسطة لتكون جبهة قوية مع المرابطين للوقوف أمام نوايا قطالونيا وأراغون التوسعية. ومن المرجح أن هذه السفارة الهودية قد وصلت إلى مراكش عندما انتهى ابن عائشة من التغلب على مرسية ودانية في الوقت الذي كان فيه السيد يضيق الخناق على بلنسية 486 هـ[2] 1093 ـ 1094 م».

---

(1) (1) نص رسالة الأمير يوسف إلى المستعين: من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى المستعين بالله أحمد بن هود أدام الله تأييده. من حاضرة مراكش حيث تتلى آية شرفك ومآثر سلفك، ونحن نحمد الله بجميع المحامد ونستهديه أحسن الموارد ونسأله أتم الفوائد وأنجح المقاصد ونصلي على سيدنا محمد صفوة أوليائه وخاتم أنبيائه.

وأما الذي عندك أيدك الله لجنابك الكريم ومجدك الصحيح ومحلك المعلوم فود صريح وعقد في ذات الله تعالى صحيح. وردنا نشأة السيادة والنبل والنباهة والفضل أبو مروان عبد الملك ابنك ولادة ونسباً وإننا وداداً وتقرباً زاد الله به عينك قرة نفسك مرة ومعه خاصتك الوزيران أبو الأصبغ وأبو عامر أكرمهما الله بتقواه، وكلا وفيناه حق نصابه وأتيناه بره من بابه وأدينا إليك كتابك الجليل الخطير المقبول المبرور فوقفنا منه على وجه شخوصهما وأصغينا في تفصيل جملة إلى تخليصهما فألقينا لهما مراجعة ذلك ما لقنوه وسفرنا لهما عن وجه مقصدنا فيه حتى استبانوه وجملته الوفاق وجماعة الانتظام في سلك ما يرضي الله تعالى والإسلام. الحلل ص 53 و 54.

(2) المغرب الكبير ص 737 «حيث ورد رأي الدكتور عفيف الترك وهي مأخوذة من أطروحة الدكتور عفيف الترك لنيل الدكتوراه عام 1956 تحت عنوان دولة بني هود في سرقسطة.

وتوطدت العلاقات الودية بين الأميرين، وأهدى المستعين إلى الأمير يوسف سنة 496 هـ/ 14 آنية من الفضة مما يدل على متانة تلك العلاقات[1].

وهكذا أقام المستعين بن هود في سرقطسة مرتاح البال يهدد النصارى بالمرابطين فيما لو حدثتهم أنفسهم بمهاجمة حدوده[2]، وبقيت سرقسطة الإمارة الوحيدة التي لم يضمها الأمير يوسف إلى دولته.

في عام 496 هـ/ 1102 م عبر الأمير يوسف للمرة الرابعة والأخيرة إلى الأندلس، وكانت دويلات الطوائف قد سقطت بيد المرابطين وآلت الأندلس إلى سلطانهم وغدت ولاية تابعة للمغرب، وقد توارت العناصر والزعامات وانهار سلطان العصبيات المحلية.

وقصد الأمير يوسف إلى قرطبة ينجز المهمة التي قدم من أجلها إلا وهي تنظيم شؤون الأندلس والنظر في أمور المملكة المرابطية، وكانت تحدوه نحو الأندلسيين عواطف ونيات سلمية[3]، واصطحب معه ابنيه الأميرين أبا الطاهر تميم وأبا الحسن علياً، وكان الأصغر سناً[4]، وبعد أن تفقد الادارات واطمأن إلى حسن سير العمل فيها جمع القادة والولاة من لمتونة وأشياخ البلاد وفقهائها في قرطبة[5] وأفضى إليهم بالذي ينويه ألا وهو ولاية العهد لولده علي[6]، فسارعوا إلى تنفيذ رغبته، وبايعوا علياً بولاية

(1) المغرب الكبير 837 ـ الحلل ص 54 ـ الكامل ج 10 ص 193.

(2) الحلل ص 54 ـ العبر ج 6 ص 188 ـ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ص 200 تاريخ الشعوب الإسلامية ص 322 ـ دائرة معارف القرن العشرين مادة لثم ص 326.
Dozy: Hist. des Mus. D'Esp. T. 3. P. 153.

(3) الحلل ص 55 ـ الأندلس في عهد المرابطين ص 112.

(4) روض القرطاس ص 101 ـ الأندلس في عهد المرابطين ص 112.

(5) روض القرطاس ص 101 ـ الأندلس في عهد المرابطين ص 112.

(6) روض القرطاس ص 101 ـ الأندلس في عهد المرابطين ص 112 ـ الحلل ص 56 Hamet: Hist. du Mag. P. 90.

العهد في ذي الحجة 496 هـ/ 1103 م[1].

والدافع الذي حدا بالأمير يوسف إلى إدخال نظام ولاية العهد في حكمه يعود إلى أنه عمر قرناً استطاع خلاله أن يؤسس دولة شملت المغرب والأندلس وضمت شعوباً وقبائل وممالك متفرقة وحدها بعبقريته وأشركها في معارك الجهاد، ولكي يضمن لهذه الدولة الناشئة الوحدة ويعصمها من الفرقة بعد وفاته، كان لا بدّ له من أن يضع لها نظاماً يكفل لها ذلك فطبق نظام ولاية العهد ليبقى لها حاكم واحد. وقد استمر هذا النظام حتى سقوط دولة المرابطين. واتبع الأمير يوسف النظام الوراثي السائد في العالم الاسلامي آنذاك. ولو أنه ترك الأمر شورى بين المرابطين لآل أمرهم إلى الفرقة لصعوبة اجتماعهم على شخص معين ولأدى ذلك إلى الفوضى، مما يهدد المغرب وبالتالي ينعكس الأمر على الأندلس التي كانت بحاجة ماسة للاستقرار ولمساعدة المرابطين.

وقد علل ترشيحه لابنه علي لهذا المنصب لمتابعة العمل برسالة المرابطين وللمحافظة على وحدة الأمة، ولا يستبعد أن يكون الأمير يوسف قد لجأ إلى تولية علي دون سائر أبنائه قد حدث تحت تأثير زوجته أم علي[2] وكانت على جانب من الجمال، ولا يستغرب أن تعمل على تولية ابنها. وقد عبر صاحب المعجب عن قوة نفوذ المرأة في عهد المرابطين: «استولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور»[3].

واختيار الأمير لمدينة قرطبة لأخذ البيعة يدل على مكانة المدينة، فهي حاضرة الخلافة في الغرب الاسلامي ولها قدسية واحترام في نفوس المسلمين، لذلك فضلها على غيرها من مدن الأندلس، ولعل يوسف كان يهدف إلى جذب مسلمي الأندلس وإلى القضاء مسبقاً على كل تمرد يؤدي إلى الانفصال بين

---

(1) روض القرطاس ص 101 ـ الحلل ص 56 ويذكر أن عام أخذ البيعة هو 495 هـ/ 1101 م الأندلس في عهد المرابطين ص 112 ويذكر تاريخ أخذ البيعة 1103 م 496 هـ. مرآة الجنان جـ 3 ص 167، لم يحدد التاريخ.

(2) إبراهيم حركات: النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين ص 76.

(3) المعجب ص 177.

العدوتين، فأراد أن يثبت لمسلمي الأندلس أن احترام آرائهم ومكانة بلادهم تستحوذ على اهتمامه.

وعهد الأمير يوسف إلى كاتبه الفقيه أبي محمد بن عبد الغفور[1] أن يكتب نص ولاية العهد وكان مشهوراً ببلاغته. وهذا هو النص[2]:

«الحمد لله الذي رحم عباده بالاستخلاف، وجعل الإمامة سبب الائتلاف، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم الذي ألف القلوب المتنافرة، وأذل لتواضعه عزة الملوك الجبابرة.

أما بعد، فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين، خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه كيف تركه هملاً لم يستنب فيه سواه. وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظمة وجعلها من أكد الأشياء الكريمة كيف في هذه الأمور العائدة بمصلحة الخاصة والجمهور. وإن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة وحضه الله بها من النظر في هذه الأمور الدينية الشريفة قد أعز الله رماحه واحد سلاحه فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي واهتزازاً وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازاً، فاستنابه فيما استرعى ودعاه لما كان إليه، دعا بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأي فرضوه لما رضيه واصطفوه لما اصطفاه ورأوه أهلاً أن يُسترعى في ما استرعاه، فأحضره مشترطاً عليه الشروط الجامعة بينها وبين المشروط، بل ورضي وأجاب حين دُعي بعد استخارة الله الذي بيده الخيرة والاستعانة بحول الله الذي من آمن به شكره. وبعد ذلك مواعظ ووصية بلغت من النصيحة مرامي قصية يقول في خاتمة شروطها وتوثيق ربوطها. كتب شهادته على النائب والمستنيب من رضي إمامتهما على البعيد والقريب وعلم علماً يقيناً بما وصاه في هذا الترتيب وذلك في عام 495 هـ[3]/ 1101 م.

(1) الحلل ص 56.
(2) الحلل ص 56 و 57.
(3) قد يكون نص ولاية العهد قد كتب قبل عبور يوسف الأخير إلى الأندلس بعام أي في عام 495 هـ/ 1101 م.

وقد اشترط الأمير يوسف على ابنه علي أن يُبقي في الأندلس جيشاً مرابطياً مؤلفاً من 17 ألف فارس موزعة على الحواضر والثغور منها سبعة آلاف بإشبيلية وألف بقرطبة وألف بغرناطة وأربعة آلاف بالشرق وباقي العدد أي خمسة آلاف بالثغور المتاخمة للنصارى للدفاع والمرابطة وقمع كل تمرد قد ينشب في المستقبل[1].

وهكذا صار الأمير يوسف وابنه علي من كبار الملوك[2] وسارع القراء إلى مدحه[3] وانقطع إليه من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة خلفاء بني العباس في صدر دولتهم[4].

وقال محمد بن الخلف في البيان الواضح: وما سلى النفوس كل التسلية وأطفأ نار الرزية ما كان من نظره الجميل ورأيه الأصيل من تولية الأمر في حياته لابنه الأمير أبي الحسن.

ولم تسجل تولية علي أية معارضة من أي جانب على الرغم من أنه أصغر أخوته سناً، وقد رشحه الأمير يوسف وقبله المرابطون، ذلك لأن الملثمين قد أذعنوا لاحترام لمتونة منذ أربعة قرون بينما أذعنت لمتونة بدورها لبني ورتنطق منذ ذلك التاريخ، بالإضافة إلى شخصية يوسف القوية التي كانت تضفي الهالة على دولته الناشئة.

وأصدر الأمير يوسف أوامره بأن ينقش اسم ولي عهده إلى جانب اسمه على السكة. فصدرت النقود تحمل في إحدى وجهيها «لا إله إلا الله ـ الأمير

---

(1) الحلل ص 57 و 58 ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة المجلد 11 ج 2 ص 97 الثغر الأعلى في عهد المرابطين د. مؤنس.

(2) المعجب ص 163.

(3) قال أحد الشعراء يمدح الأمير علياً:

وإن كان في الإنسان يحسب ثانياً	علي وفي العلياء يحسب أولاً
كـذلك الأيـدي سـواء بنـانها	وتختص في هن الخناصر بالحلا

الحلل ص 55 و 56 ولم يذكر اسم الشاعر.

(4) الحلل ص 60.

علي بن الأمير يوسف بن تاشفين»[1]. وكذلك أمر بالدعوة له في خطب الجمعة.

وفاة الأمير يوسف بن تاشفين

بعد أن أتم الأمير يوسف أخذ البيعة لخليفته الأمير علي، واطمأن إلى حسن سير الإدارة في الأندلس قفل عائداً إلى المغرب واستقر بعاصمته مراكش.

وفي أواخر عام 498 هـ/ 1104 م مرض أمير المسلمين وأصابه الضعف، واشتدت به العلة وأدرك قرب أجله، استدعى ولده علياً وأفضى إليه بوصيته الأخيرة وهي تحتوي على ثلاث خصال، الأولى ألا يهيج أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة، والثانية أن يهادن بني هود وأن يتركهم حائلاً بينه وبين الروم والأخيرة أن يقبل من أحسن من أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئهم[2].

وبعد مرض دام عاماً وشهرين فاضت روحه إلى باريها نهار الإثنين الثالث من المحرم 500 هـ/ الرابع من أيلول 1106 م[3] بعد أن بلغ من العمر قرناً بكامله 400 ـ 500 هـ/ 1009 ـ 1106 م، وحضر الوفاة ولداه أبو الطاهر تميم

(1) إبراهيم بركات: التاريخ السياسي والحربي للمرابطين ص 81.
(2) الحلل ص 60.
(3) الحلل: ص 60 يذكر أن الوفاة في شهر ربيع الأول 500 هـ/ روض القرطاس يذكر التاريخ مستهل محرم عام 500 هـ ص 101 ـ الكامل ج 10 ص 416 ـ يذكر التاريخ عام 500 هـ نفح الطيب ج 6 ص 111، الوفاة عام 500 هـ ـ وفيات الأعيان ج 7 ص 125، الوفاة الاثنين 3 محرم 500 هـ وهذا هو التاريخ المعتمد ـ الحلة السيراء ص 305 الوفاة 501 هـ/ 1107 م دائرة معارف القرن العشرين: مادة لثم ص 326، للوفاة 3 محرم 500 هـ/ أيلول 1106 م ـ أعمال الأعلام: تحقيق د. عبادي ص 252 الوفاة مستهل محرم ـ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص 114 الوفاة محرم 500 هـ/ أيلول 1106 ـ ابن الكردبوس ص 113. شذرات الذهب جـ 3 ص 413.

Hamet: Hist. du Mag. P. 90.

وولي عهده أبو الحسن علي[1]، ودفن بحاضرة قصره في مراكش[2].

وهكذا غاب الأمير يوسف بن تاشفين الذي تربى في أحضان الإسلام واستلهم أيام الرسالة الأولى، وأيقن أن الصحراء الممزقة قطعاً تتنازعها قبائل بدوية لا تعرف إلا الغزو ولا تحب إلا التناحر فيما بينها، أيقن أن الإسلام وحده قادر على لمّ الشمل وجمع الكلمة وتوحيد القوة لتغيير وجهة التاريخ، لقد سار على خطى نبي الإسلام محمد (ﷺ) الذي وحد قبائل العرب وجعل منها قوة وصل مدها إلى أواسط أوروبا وقلب بلاد الصين، وبعد أربعة قرون ظهر يوسف بن تاشفين في صحراء المغرب وأثبت للتاريخ أن قوة العرب ووحدتهم لا يمكن أن تنفصم عن الإسلام دين الوحدة والمحبة والقوة والعدالة.

وضع يوسف نصب عينيه هذه المبادىء وآمن بها وأخذ يسعى إلى تحقيقها في رقعة شاسعة من البلاد العربية، فعمل على وحدة القبائل المغربية وجاهد.

---

(1) الحلل ص 60.

(2) الحلل ص 60.

المرابطون

علي بن يوسف

تولى الحكم يوم وفاة والده نهار الاثنين أول محرم 500/2 أيلول 1106 وكان والده قد أوصاه بثلاثة أمور، ألا يفعل شيئاً لإثارة أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة وأن يهادن بني هود أمراء سرقسطة وأن يتركهم حائلاً بينه وبين النصارى. والثالث أن يعطف على من أحسن من أهل قرطبة وأن يتجاوز عمن أساء عنهم[1].

وبعد عدة أشهر من توليه الحكم عبر المضيق إلى الجزيرة الخضراء منتصف 500/ مطلع 1107 فاستقبله زعماء الأندلس وفقهاؤها.أكرم الجميع ووصلهم[2].

وانصرف إلى تنظيم الأندلس، عين على غرناطة أخاه تميماً وجعله قائداً على الجيوش المرابطية في الأندلس، وعلى قرطبة محمد بن أبي بكر اللمتوني، وعلى بلنسيه وشرق الأندلس محمد بن الحاج. وعاد إلى مراكش.

وفي سنة 501 طلب إلى أخيه تميم أن يستأنف غزو أراضي النصارى رداً على غزوة الفونس السادس ملك قشتالة، فقد استغل مرض الأمير يوسف بن تاشفين والد علي وأرسل حملة من 3500 فارس إلى إشبيلية وعاث فيها.

وتصدى للنصارى سير بن أبي بكر والي إشبيلية يساعده ابن الحاج

---

(1) الحلل ص 60.

(2) الحلل 62 ـ البيان المغرب ص 67.

والي غرناطة وردوهم على أعقابهم بعد أن قتلوا منهم 1500 رجل[1].

خرج الأمير تميم في رمضان 501/ أيار 1108 ولحقت به قوات المرابطين وهاجم أقليش واستولى عليها نهار الخميس 5 شوال/ 28 أيار ودمر حصونها، وحول كنيستها إلى جامع.

جهز القشتاليون جيشاً يقوده سانشو ابن الفونسو السادس لإنقاذ القلعة التي تحصن بها النصارى، فأجمع القادة المرابطون على التصدي لهم وفي مقدمتهم محمد بن عائشة ومحمد بن فاطمة[2] لأن تميماً كان متردداً[2].

وحدثت المعركة فجر الجمعة 16 شوال 501/29 أيار 1008 كانت المعركة عنيفة جداً انتهت بهزيمة القشتاليين بعد سقوط أكثر قادتهم قتلى منهم سانشو ابن الفونس السادس ومؤدبه غرسية كونت دي قبرة والكونتات السبعة. وتقدر الرواية الإسلامية قتلى القشتاليين بأكثر من 23 ألف[3]. ثم استولى المرابطون بعد ذلك على قلعة المدينة بالإضافة إلى عدد كبير من الحصون المجاورة[4].

بعد هذا الانتصار عبر الأمير علي إلى الأندلس على رأس جيش كبير للمرة الثانية في 15 محرم 503/آب 1109 وسار إلى طلبيرة واستولى عليها. وأعاد كنيستها جامعاً. وهاجم طليطلة وحاصرها مدة سبعة أيام ولكنه لم يستطع فتحها فارتد عنها إلى قرطبة[5].

وبينما كان المرابطون يحاصرون طليطلة كان جيش مرابطي بقيادة سير بن أبي بكر يهاجم أراضي البرتغال ويستولي على يابره وإشبونه وشنترين[6] وذلك

(1) البيان المغرب ص 67.
(2) روض القرطاس 104.
(3) روض القرطاس 160.
(4) المصدر السابق 160.
(5) المصدر السابق 160.
(6) المعجب 90 ـ 93.

سنة 1111/504 ووصل إلى قلمرية عاصمة البرتغال وفي سنة 1112/505 سار مزدلي والي قرطبة إلى قشتالة وحاصر طليطلة 1114/507 ودارت معركة مع قائدها البار هانيس مني فيها الفريقان بخسائر فادحة ارتد بعدها مزدلي إلى قرطبة، وبعد وفاته عين الأمير علي مكانه ابنه محمد الذي سار لمحاربة القشتاليين الذين هاجموا أراضي قرطبة. ونشبت معركة استشهد فيها محمد ومحمد بن الحاج وأبو إسحاق بن دانية وأبو بكر بن واسنو في صفر 27/509 حزيران 1115 فعين الأمير علي ابن عمه الأمير أبا بكر يحيى بن تاشفين وهاجم النصارى ولكنه أصيب بهزيمة فادحة في 28 جمادى الآخر 509/ت1/1115[1].

وتوفي الأمير سير بن أبي بكر في جمادي الأولى 1114/507 ثم توفي الأمير مزدلي وفقد المرابطون أشجع قائدين من قادتهم[2].

كان المرابطون بقيادة محمد ابن الحاج قد استولوا على سرقسطة من يد صاحبها عبد الملك بن هود لممالأته النصارى سنة 1110/503 وفي سنة 1111/504 هاجم الفونسو المحارب ملك أراجون سرقسطة ومعه ابن هود ولكنه انهزم أمام المرابطين[3].

وفي سنة 508 هاجم/1114 هاجم ابن الحاج مع محمد بن عائشة برشلونه ولكنه أصيب بهزيمة في أثناء عودته ثم عاود المرابطون مهاجمة برشلونه وحاصروها مدة عشرين يوماً..

وفي السنة ذاتها هاجم أسطول من جنوة وبيزة وبرشلونة الجزائر الشرقية حاصر مدينة ميورقة مدة عام ثم اقتحموها مطلع 1115/509 فأرسل الأمير علي أسطولاً من 300 سفينة بقيادة أمير البحر ابن تفرطاش فغادرها الغزاة بعد أن دمروها[4].

---

(1) روض القرطاس 161.

(2) روض القرطاس 162.

(3) روض القرطاس 162.

(4) ابن الكردبوس 165.

وجاز الأمير إلى الأندلس للمرة الثالثة وافتتح مدينة قلمرية عاصمة البرتغال 18 صفر 511/22 حزيران 1117 ولكنه لم يحتفظ بها لموقعها النائي وعاد إلى المغرب.

ثم جاء إلى الأندلس 515/1121 بعد ثورة قرطبة على المرابطين انتهت بالصلح مع سكان المدينة بعد أن ذكروه بوصية والده.وقد نظم الأندلس فعزل القاضي ابن رشد وولى مكانه أبا القاسم بن حمدين وعين على غرناطة أخاه تميماً ثم على إشبيلية واضطر الأمير علي على لمغادرة الأندلس عندما وصلته أخبار المهدي بن تومرت[1].

جهز النصارى جيشاً كبيراً من الفرنج الذين جاؤوا من فرنسا والأرجونيين والبشكنس وحاصروا سرقسطة في صفر 512/22 أيار 1118 واستمر الحصار سبعة أشهر وحدث أثناء الحصار وفاة واليها عبدالله بن مزدلي واضطرت المدينة إلى التسليم إلى الفونس المحارب حيث غادرها سكانها وكان سقوطها يوم الأربعاء 3 رمضان 512/18 ك1/1118[2].

كانت سرقسطة المدينة المهمة الثانية بعد طليطلة تسقط بيد الاسبان وهي نذير شؤم وضربة قاصمة لظهر للاندلس، إذ أنذرت المسلمين بأن مصيرهم إلى بوار إن لم يتداركوا أمورهم. وأعطت الاسبان دفعاً قوياً جعلتهم يواصلون حرب استردادهم ويحققون أهدافهم رويداً، بينما المسلمون في صراع فيما بينهم يفوق حدة الصراع مع عدوهم اللدود الذي يبغي فناءهم وهم عنه غافلون ومعه أحياناً كثيرة متحالفون.

بعد سقوط سرقسطة توالى سقوط ما تبقى من قواعد الثغر الأعلى، فقد استولى الفونس المحارب على طرسونه وبرجة وحصون الأجون ومالن وجمايون وأبيلا سنة 513/1120[3].

---

(1) الحلل 63 ـ ابن الأثير جـ 10 ص 197 ـ روض القرطاس 164.
(2) نفح الطيب جـ 2 ص 585 ـ روض القرطاس 163.
(3) روض القرطاس 163.

استاء علي بن يوسف لسقوط سرقسطة فكتب إلى أخيه الأمير إبراهيم بن يوسف والي إشبيلية بتجهيز الجيوش لوضع حد لعدوان أراجون وكان الفونسو يحاصر قلعة أيوب فأعد جيشاً لمواجهة المرابطين من 12 ألف فارس عدا العناصر الأخرى ووقعت المعركة في ظاهر بلدة كتنده 24 ربيع الأول 514/ حزيران 1120 انهزم فيها المسلمون واستشهد عدد غفير من الفقهاء منهم العلامة أبو علي الصدفي وأبو عبدالله بن الفراء قاضي المرية وانسحب الأمير إبراهيم إلى بلنسية، فكانت نكبة مروعة للأندلس وحطت من هيبة المرابطين العسكرية[1] . .

أدت خسائر المرابطين أمام الاسبان إلى تشجيع المعاهدين على الثورة والاتصال بالنصارى وتحريضهم على قتال المسلمين مقدمين لهم كل مساعدة ممكنة. وكان نصارى غرناطة أشد المعاهدين نشاطاً في هذه المؤامرة، وهم أكثر المعاهدين عدداً وأغناهم مالاً، وكانت لهم كنيسة خارج غرناطة دمرها يوسف بن تاشفين بناء على طلب الفقهاء سنة 492[2] .

وبعد الانتصارات التي حققها الفونسو المحارب بعث معاهدو غرناطة برسائل إليه يلحون عليه أن يستولي على غرناطة، وأرسلوا إليه رسائل فيها 12 ألف اسم رجل مستعدون للقتال معه يضعون ثرواتهم ومحاصيلهم بتصرفه ويرغبونه بثراء غرناطة وموقعها وازدهارها وأنها عاصمة المرابطين في الأندلس. وبناء على هذه الدعوات جهز الفونسو جيشاً من عشرين ألف رجل منهم 5 آلاف فارس وخرج من سرقسطة أول شعبان 519/1125. وكان معه عدد من رجال الدين على رأسهم اسقفا سرقسطة ووشقة. وأقسموا على الانجيل بألا يفر أحد منهم[3] وسار شرقاً ثم اتجه جنوباً ودخل أراضي بلنسية وهو يدمر كل ما يمر عليه. وفي الوقت نفسه يزداد عدد جيشه بالوافدين عليه من المعاهدين الذين كانوا أدلاء له في الطريق وكاشفين عورات المسلمين ونقاط ضعفهم.

---

(1) الكامل جـ 8 ص 301 و 302.

(2) الإحاطة 1/114.

(3) الحلل 67.

وظل يسير حتى اقترب من غرناطة والنصارى يلحون عليه بمهاجمة المدينة. عرف المسلمون بأمرهم ففر عدد كبير منهم والتحقوا بألفونسوا[1].

أسرع المرابطون بجيوشهم إلى غرناطة، وأحاطوا بها، وزحف الفونسو إلى شرق المدينة بحوالي 50 ألف ولم يستطع دخول المدينة فتراجع بعد أن ألقى باللائمة على المعاهدين وعلى رأسهم ابن القلاس وذلك في 26 ذي الحجة 520/21 ك1 1127م.

وبعد تراجعه عن غرناطة كانت الجيوش المرابطية تلاحقه حتى اصطدمت به في الرينسول قرب غرناطة انتصر فيها المسلمون في بداية الأمر ولكن أصيب المسلمون بعد ذلك بهزيمة لسوء تقدير القيادة، واستولى النصارى على معسكر المسلمين آذار 1127/[2].

بعد انتصاره عاد إلى غرناطة حيث وقعت بينه وبين المسلمين معارك عنيفة. وأخيراً قرر العودة بعد أن فقد عدداً كبيراً من جنوده وأنه لم يحقق هدفه بالاستيلاء على غرناطة.

كان للنصارى المعاهدين دور كبير في هذه الحملة. فقد كانوا يمثلون خطراً حقيقياً، ولكنه خفي على الأندلس الإسلامية، بالرغم مما كانت تسبغه عليهم الحكومات المتعاقبة من الرعاية. فكانوا ينتهزون أية مناسبة لقتال المسلمين والاتصال بالاسبان وتشجيعهم على غزو الأندلس، مما حدا بالفقهاء وكانوا بعيدي النظر إلى وجوب تهجيرهم، وكان على رأسهم القاضي أبو الوليد بن رشد فعبر المضيق إلى المغرب واجتمع بالأمير علي بن يوسف واطلعه على أعمال المعاهدين وأفتى بتغريبهم عن الأندلس وعمل الأمير بهذه الفتوة وصدر أمره بتهجيرهم إلى المغرب إلى مكناسة وسلا وغيرها جزاءً لهم عما اقترفوه بحق المسلمين وكان ذلك في رمضان 521/ 1127م[3].

(1) الملل 66.
(2) الكامل جـ 8 ص 319.
(3) روض القرطاس ص 163.

ثم أصدر الأمير علي أمراً بوجوب تسوير المدن الأندلسية وتحصينها.

موقعة القلاعة

عاود الفونسو المحارب نشاطه العسكري في منطقة الثغر الأعلى عاملاً على الاستيلاء على ما تبقى بأيدي المسلمين من الثغور والمعاقل وأهمها لا ردة وإفراغه ومكناسة حتى يتصل بالبحر المتوسط وكانت طركونة قد سقطت سنة 110/ بيد برنجير أمير برشلونة.

وبقيت طرطوشة المدينة الوحيدة في سرقسطة ما تزال بيد المسلمين فقرر الفونسو انتزاعها. علم الأمير علي بنواياه فجهز حملة من السود ودارت معركة بين الطرفين في القلاعة على مقربة من جزيرة شقر جنوبي بلنسيه 1129/523 انهزم فيها المسلمون هزيمة ساحقة.

موقعة إفراغة

استأنف الفونسو نشاطه العسكري بالاستيلاء على معاقل الثغر فاستولى على مكناسة الواقعة عند ملتقى نهري سجرى وإبرة 1133/527. ثم اتجه نحو مدينتي إفراغة ولا رده، بدأ بمهاجمة إفراغة وخشي المرابطون من نتائج حملة الفونسو فعقدوا اتفاقاً مع كونت برشلونة رامون الثالث على أن يدفعوا له ضريبة مقدارها 12 ألف دينار فغضب الفونسو لهذا الاتفاق وأقسم أنه سوف ينتزع المناطق المؤدى عنها المبلغ لحرمان الفريقين المتعاهدين منه واستعد المرابطون للمعركة، ودارت أمام أسوار إفراغة أبدى فيها الفريقان ضروباً من البسالة والشجاعة انتهت بهزيمة ساحقة لقوات النصارى واستيلاء المسلمين على معسكرهم وذلك في 23 رمضان 17/528 تموز 1134. ولاذ الفونسو بالفرار إلى سرقسطة حيث توفي بعد أيام من المعركة[1]. ولم يستغل المرابطون نصرهم

---

(1) الروض المعطار 525 ـ الكامل 351 جـ 8.

المؤزر في إفراغة ويتقدموا لاستعادة سرقسطة وكان بإمكانهم دخولها بعد تدمير الجيش الأراجوني وبعملهم هذا ارتكبوا خطأ عسكرياً فادحاً كان له تأثير في المدى البعيد على مصير الأندلس.

تولى تاشفين بن علي حكم الأندلس سنة 522[1]/ 1128م وغزا أراضي قشتالة،ففي سنة 1128/522 هزم القشتاليين الذين هاجموا جبال الكرس قرب قلعة رباح. وفي سنة 1129/523 أرسل جيشاً من إشبيلية بقيادة واليها عمر بن سير اللمتوني إلى قشتالة ولكنه انهزم،فأمر الأمير تاشفين بعزله. وفي سنة 1130/524 وصلت قوات قشتالة إلى جوار قرطبة فاستنجد واليها عبدالله بن تينغمر بالأمير تاشفين فبادر إلى نجدتها، فارتد القشتاليون .وفي رمضان 1130/524 خرج تاشفين وهاجم حصن السكة من أعمال طليطلة واقتحمه وقتل من كان به وأسر قائده تلبو فرنانديت وتابع سيره إلى حصن بارجاس ثم إلى سان سرفاردو في ضواحي طليطلة وعاد إلى غرناطة[2].

وفي سنة 1132/526 خرج القشتاليون من طليطلة باتجاه قرطبة فأسرع الأمير تاشفين للقائهم ودارت معركة في قرية براشة انهزم فيها القشتاليون هزيمة منكرة وأسر قائدهم. وسار الأمير إلى قلعة رباح وترك الأسرى لدى سكانها لاستبدالهم بأسراهم. ثم عاد إلى غرناطة.

وفي السنة ذاتها خرج جيش من قشتالة بقيادة الكونت، دريجو كونثالث إلى إشبيلية وهاجم حصن القليعة، تصدى لهم والي المدينة عمر بن الحاج اللمتوني وأسر جماعة منهم، ضرب أعناقهم على مرأى من إخوانهم على الضفة الثانية للنهر، فغضب القشتاليون واقتحموا النهر وهزموا المرابطين وقتلوا ابن الحاج[3] ثم زحفوا نحو إشبيلية فسار الأمير تاشفين لقتالهم وهزمهم.

واستأنف القشتاليون العدوان على الأندلس فقد خرج الفونسو ريموندس

---

(1) روض القرطاس 106.
(2) البيان المغرب جـ 2 ص 98.
(3) الإحاطة 1/46.

على رأس جيش ضخم نحو بطليوس، خرج للقائهم الأمير تاشفين والتقى بهم قرب سهل الزلاقة حيث دارت المعركة الخالدة أيام جده يوسف، رتب جيشه ونشب القتال. دارت الدائرة على القشتاليين وذلك في جمادي الأولى 528/ آذار 1134.

- وفي أواخر تلك السنة ذي الحجة أصيب الجيش المرابطي بهزيمة في «بالبكار» إذ انقضى حوالي 2000 جندي قشتالي على معسكر المسلمين ووصلوا إلى مخيم الأمير تاشفين وثبت لهم واستطاع جندي مرابطي من قتل قائد القشتاليين فانهزموا وكان عدد القتلى كبيراً من الفريقين[1].

وغزا الأمير تاشفين سنة 1137/532 أراضي وبذه والاركون قرب قونقه واستولى على مدينة الأركون وقتل وسبى من بها وكان عدد السبي 6 آلاف[2].

بقي الأمير تاشفين والياً على الأندلس من سنة 1137/532[3] حيث استدعاه والده علي وعقد له البيعة بولاية العهد في 8 ربيع الأول سنة 533/ 1138م[4].

وتولى الحكم بعد وفاة والده في شهر رجب 533/ك 2 1139 وبعد وفاته 27/رمضان 539/22 شباط 1145[5].

انقسمت الأندلس إلى دويلات طوائف من جديد بعد الثورات التي قامت بها على المرابطين وكان الغرب أول المناطق التي أعلنت الثورة على المرابطين تزعمها أحمد بن الحسين بن قسي وتصوف وأصبح شيخاً من شيوخ الصوفية وكثر أتباعه وتسموا بالمريدين. وقد أرسل محمد بن يحيى الشلطيشي إلى مارتله فاستولى عليها الخميس 12 صفر 539. وقد حاول الاتصال بعبد المؤمن بعد

(1) البيان المغرب 98 و 99 روض القرطاس 164.
(2) روض القرطاس 107.
(3) روض القرطاس 164.
(4) البيان المغرب 104 جـ 2.
(5) ابن خلدون 6/231 الحلل 100 ـ روض القرطاس 165.

معركة وهران ومصرع تاشفين بن علي فبعث سفيراً إلى عبد المؤمن وهو قائم على تلمسان أواخر سنة 539 ويذكر اسمه مقروناً بالمهدي فأنكر عليه عبد المؤمن ذلك ولم يرد عليه[1].

وكان محمد بن عمر بن المنذر قد ثار في شلب. وانضم إلى ابن قسي وكذلك سكان يابرة بقيادة ابن وزير. وسار ابن المنذر بعد ذلك إلى لبلة واستولى عليها بمعاونة البطروجي، وشعر ابن المنذر بالغرور فهاجم إشبيلية، ووصل إلى طريانه. وهناك تصدى له أمير الأندلس المرابطي يحيى بن غانية وألحق به هزيمة نكراء وفر ابن المنذر إلى شلب.

وعندما اندلعت ثورة قرطبة، بقيادة القاضي ابن حمدين، فعمل ابن قسي على اغتنام الفرصة والمغامرة بأن يسير بقواته ومعه الكاتب ابن القابلة لمهاجمتها وأرسل إليها بعض المريدين لبث دعوته فيها. ولكنه اضطر إلى التراجع بعد أن تطورت الأحداث في المدينة إذ طرد القرطبيون ابن حمدين وولوا عليهم سيف الدولة ابن هود[2] وساءت العلاقات بعد ذلك بين ابن قسي وحليفه سيد راي بن وزير صاحب باجه، وأرسل ابن قسي ابن المنذر لقتاله. وانهزم ابن المنذر ووقع في أسر سيدراي وانتهت المعركة بسقوط شلب بيد سيدراي[3] ثم استولى على مارتله وأعلن الدعوة لابن حمدين.عندها اضطر ابن قسي للعبور إلى المغرب لمقابلة الخليفة عبد المؤمن تائباً، فتقبل الخليفة اعتذاره وأكرمه. وكان ذلك في شوال 541 هـ/ 1147م.

ثــورة قــرطبــة

في الوقت الذي نشبت الثورة في الغرب قامت ثورة في قرطبة تزعمها القاضي أبو جعفر حمدين بن علي بن حمدين وهو عربي دخل جده إلى الأندلس مع بلج بن بشر، وقد ولي القضاء في قرطبة 529 هـ بعد مقتل قاضيها ابن

(1) المصدر السابق 6/231، أعمال الأعلام 251.
(2) الحلة السيراء 203.
(3) أعمال الأعلام 251.

الحاج ثم صرف عنه 532. ونتيجة اعتداء قام به القرطبيون على المرابطين لعب دوراً في تهدئة الفتنة. وكانت قرطبة بلا قاضٍ فأذن الأمير علي بن يوسف لأهلها باختيار قاضٍ فأجمعوا على ابن حمدين وهكذا تولى القضاء للمرة الثانية 536 هـ/ .

وثار القرطبيون على المرابطين مغتنمين خروج الحاكم المرابطي يحيى بن غانية إلى إشبيلية للقضاء على حركة المريدين فيها، خلعوا الوالي أبا عمر اللمتوني وأبطلوا دعوة المرابطين، ونادوا بالقاضي ابن حمدين أميراً وبايعوه في المسجد الجامع 5 رمضان 539 هـ/ 1145 واستقر بقصر الخلافة وتلقب بأمير المسلمين وناصر الدين. فلما علم ابن غانية بأحداث قرطبة وكان يطارد المريدين عاد أدراجه إلى إشبيلية فثار أهلها عليه. وجرح أثناء القتال الذي خاضه ضد الثوار فالتجأ إلى حصن مرجانة القريب منها[1].

ولكن القرطبيين ثاروا بأميرهم الجديد واستدعوا أحمد بن عبد الملك بن هود الملقب بسيف الدولة فلبى الدعوة ودخل المدينة. فأسرع ابن حمدين بالفرار والتجأ إلى حصن فرنجولش. ولكن القرطبيين المنقلبين ثاروا بعد 12 يوماً على سيف الدولة بن هود وقتلوا وزيره ابن الشماخ ففر إلى جيان واستولى عليها من حاكمها القاضي ابن جزي[2] وعاد إليها ابن حمدين فنظم أمور المدينة واستمر في الحكم 11 شهراً. ولكن خصومه استدعوا ابن غانية فغادر إشبيلية في جمادي الآخر 540/1154 والتقى بابن حمدين في استجة. فانهزم ابن حمدين ودخل ابن غانية قرطبة في 2 شعبان وفر ابن حمدين إلى بطليوس ومنها إلى قشتالة مستنجداً بملكها القيصر الفونسو ريموندس، فأمده بقوة بقيادة فرناندو خوانس. واستطاع دخول قرطبة مع النصارى في 10 ذي الحجة 540/ أيار 1145 واعتصم ابن غانية بالعقبة، وعاث النصارى في المدينة فساداً واستباحوا المسجد الجامع ومزقوا المصاحف ونزعوا النواقيس التي كانت رؤوساً للثريات[3].

---

(1) أعمال الأعلام ص 53.

(2) الحلة السيراء 225.

(3) الإحاطة 392.

في هذه الأثناء عبر الموحدون إلى الأندلس فرأى القيصر أن يهادن ابن غانية ليكون سداً بينه وبين الموحدين. وتم التفاهم بين الاثنين. واستمر ابن غانية يحكم قرطبة عاماً آخر. أما ابن حمدين فقد عبر إلى المغرب وقابل الخليفة تحت أسوار مراكش 541 ثم عاد إلى الأندلس واستقر بمالقه عند ابن صور الثائر بها وتوفي في رجب 546/ ت 1151/2[1].

ثورة غرناطة

ونشبت ثورة مماثلة لثورة قرطبة في غرناطة تزعمها القاضي أبو الحسن علي بن عمر بن أضحى وبعث إليه ابن حمدين يدعوه لتأييد دعوته فاستجاب ابن أضحى للدعوة وأيد عدد كبير من سكان المدينة. وأخرجوا المرابطين مها، فاعتصموا بالعقبة. ونشب قتال شديد بين الفريقين، كان يرأس المرابطين علي بن أبي بكر ابن أخت علي بن يوسف، ومالت كفة النصر إلى جانب المرابطين فاستنجد ابن أضحى بابن حمدين وبابن جزي قاضي جيان فأمده ابن حمدين بقوات يرأسها ابن أخيه علي بن أبي القاسم، ولكن فريقاً من الغرناطيين رأوا أن يولوا قيادتهم رجلاً قادراً يقف في وجه المرابطين. وتم الاتفاق على استدعاء سيف الدولة بن هود، وتحالف مع ابن أضحى. ودار قتال مع المرابطين فقد فيها كثيراً من جنده. واستطاع بعد جهد أن يدخل غرناطة من فوق الأسوار واستمر القتال شهراً في المدينة فقد خلاله ابن هود ابنه عماد الدولة. وتوفي ابن أضحى. ثم أتت نجدة لابن هود من مرسية قتل المرابطون معظمها، ولما رأى ابن هود أن لا طاقة له بمحاربة المرابطين فر إلى جيان واستقر بها سنة 1146/540[2].

وكذلك ثار في مالقة القاضي أبو الحكم الحسين بن الحسين بن عبدالله بن الحسين بن حسون تولى قضاء مالقة 538 هـ/ أعلن الثورة عندما ترامت إليه

(1) أعمال الأعلام 254 بغية الملتمس 261.

(2) الحلة السيراء ص 209.

أنباء ثورات زملائه القضاة في قرطبة وغرناطة. ودعا لنفسه وطرد المرابطين من المدينة، ولكنهم استمروا في مهاجمة المدينة من الحصون المجاورة، فاستعان بالنصارى. وضايق الأهالي من أجل دفع أجورهم فتآمروا عليه مع قائد حرسه اللوشي ودخل المتآمرون القصر. وبعد دفاع مستميت انتحر القاضي أبو الحكم في 11 ربيع الأول 547/ حزيران 1152 م[1].

ثورة وادي آش

وثار في وادي آش قرب غرناطة أحمد بن محمد بن ملحان الطائي واستولى على العقبة وتلقب بالمتأيد بالله. ولما ثار محمد بن سعد بن مردنيش في شرق الأندلس عمل على توسيع أملاكه ومحاربة الموحدين. أعلن ابن ملحان تأييده للموحدين ثم عبر إلى المغرب واستقر في مراكش[2]. .

وكذلك ثار في جيان القاضي يوسف بن عبد الرحمن بن جزي انتزعها منه فيما بعد ابن هود 539/1145 وشملت الثورة رنده وشريش وقادس.

فقد ثار في رنده رجل علم أخيل بن إدريس الرندي كان من بطانة ابن حمدين، استولى على رنده واستقر بها. ولكن فريقاً من سكانها استدعى ابن عزون الثائر في شريش فاستجاب لهم واستولى على المدينة وفر منها ابن أخيل. وعندما دخل الموحدون إلى الأندلس انضم إليهم فولوه قضاء قرطبة ثم إشبيلية وتوفي سنة 561/1166[3].

وكان ابن عزون قد ثار بشريش وانضم إلى ابن حمدين ولكنه خلع طاعته 541/ وعبر إلى المغرب وقابل الخليفة عبد المؤمن، ولما عبر الموحدون إلى الأندلس كان أول المستقبلين لهم[4].

(1) أعمال الأعلام ص 255.

(2) المصدر السابق ص 264.

(3) الحلة السيراء ص 222.

(4) روض القرطاس ص 132.

الفصل الثامن

الموحدون في الأندلس

- وفاة المهدي بن تومرت - مبايعة عبد المؤمن بالخلافة.
- انضمام غرب الأندلس إلى الموحدين.
- انضمام غرناطة والمرية.
- سقوط طرطوشة وقواعد الثغر الأعلى بيد الإسبان.
- الخليفة يوسف بن عبد المؤمن.

عبوره إلى الأندلس - استشهاده في شنترين

- الخليفة يعقوب بن يوسف (المنصور) عبوره إلى الأندلس معركة حصن الأرك.
- الخليفة محمد بن يعقوب (الناصر).
- معركة العقاب وهزيمة الموحدين: بداية نهاية الأندلس.
- سقوط دولة الموحدين.

الموحدون

بعد وفاة المهدي بن تومرت في 29 رمضان 524/ 1130 بويع بالخلافة عبد المؤمن بن علي في رمضان من السنة ذاتها 31 آب 1130[1]. وكان قد درس على يد ابن تومرت.

بعد قضائه على دولة المرابطين ودخوله مراكش في 8 شوال 1131/541، وجه اهتمامه نحو الأندلس التي عمتها الثورات في آخر عهد المرابطين. وقد آلت السلطة في المغرب إلى الموحدين فلا بد لهم من إخضاع الأندلس، وكان الثوار الأندلسيون قد اتصلوا بالموحدين ودعوهم إلى دخول الأندلس منهم علي بن عيسى بن ميمون في قادس، فقد بايع الموحدين وخطب لهم في جامعها سنة 540/[2]. وكذلك المتصوف أحمد بن قسي في مرتلة فقد عبر المضيق إلى المغرب، وقابل عبد المؤمن 540/ ودعاه إلى إخضاع الأندلس لسلطته. فأرسل الخليفة معه جيشاً بقيادة براز بن محمد المسوفي[3]، ثم اتبعه بجيشين بقيادة موسى بن سعيد وعمر بن صالح الصنهاجي، عبروا إلى الأندلس في غرة محرم 541/ وهاجموا أبا الغمر بن عزون الثائر بشريش ورنده، فدخل في طاعة الموحدين. ثم اخضعوا لبلة ومرتله وشلب وباجة وبطليوس[4].

(1) عبد المؤمن بن علي بن يعلا بن مروان بن نصر بن عامر: روض القرطاس 183 ـ أعمال الأعلام 265.

(2) ابن خلدون جـ 6 ص 233 و 409 ـ روض القرطاس 189.

(3) روض القرطاس 189.

(4) ابن خلدون جـ 6 ص 233.

بعد أن سيطر الموحدون على غرب الأندلس ساروا نحو إشبيلية، وانضم إليهم زعماء المريدين أحمد بن قسي وسيد راي بن وزير ويوسف البطروجي، استولوا على طلياطه وحصن القصر. وحاصروا إشبيلية من البر والبحر، انسحبت منها حاميتها المرابطية لضعفها إلى قرمونة، وقتل الموحدون من أدركوه من أفرادها، وقد قتل ابن العربي ابن القاضي أبي بكر بن العربي عميد فقهائها. ودخلها الموحدون في 12 شعبان 541/18 ك 2 1147[1] وتولى حكمها عبد العزيز وعيسى أخوا المهدي، فأساءا السيرة واستباحا المحرمات، مما دفع بالموالين للموحدين للثورة، فقد تراجع عن بيعة الموحدين صاحب لبلة البطروجي وصاحب شلب ابن قسي وصاحب قادس علي بن عيسى وكذلك ابن الحجام في بطليوس، فأرسل الخليفة جيشاً بقيادة يوسف بن سليمان سار إلى لبلة رأخضع البطروجي، ثم أخضع طلياطة وحصن القصر، قصد الغرب فأخضع طلبيرة وعاد إلى الطاعة ابن ميمون صاحب قادس وكذلك ابن الحجام صاحب بطليوس، وقد وفد زعماء الغرب على الخليفة عبد المؤمن في سلا، ما عدا ابن قسي الذي كان يفكر في استغلال الموحدين لمصالحه الخاصة، فلما رأى قوتهم نحول إلى محالفة النصارى، فقد اتصل بملك البرتغال الفونسو هنريك. ولبى الفونسو طلبه فأرسل إليه فرساً من خيله ورمحاً، مما أثار أهل شلب عندما رأوه يتحول إلى النصارى فدبروا له مؤامرة بزعامة ابن المنذر ابن قسي واقتحم المتآمرون القصر وقتلوا ابن قسي ورفعوا رأسه على الرمح الذي أرسله إليه الفونسو جمادي الآخرة 546/ أيلول 1151 وأعادوا الدعوة للموحدين.وكان الموحدون قد دخلوا المرية سنة 541، تولى جيش الموحدين فيها عبدالله بن سليمان ولكن ثار عليه رجال البحر فوليها بعده يوسف ابن مخلوف ثار عليه أهل المرية وقتلوه وولوا عليهم أبا يحيى بن الرميمي[2] حتى سقطت بيد ملك قشتالة[3] في 20 جمادي الأول 554/..

---

(1) ابن خلدون جـ 2346 ـ الكامل جـ 11 ص 14.

(2) نفح الطيب جـ 2/206 ـ المعجب 210.

(3) نفح الطيب جـ 6/207 الكامل 9/17.

أما بشأن قرطبة فكان الفونسو السابع يرى أن ابن غانية يمثل المقاومة المرابطية ضد الموحدين.وكان ابن غانية يشعر بأسى عميق بأنه أصبح تابعاً لملك قشتالة الذي أخذ بمضايقته، فاستدعاه إلى حصن أندوجر وهناك طالبه بالتنازل عن بياسة وأبده، فاضطرا إلى تلبية طلبه. ثم طالبه من جديد بالتخلي عن جيان أو مضاعفة الجزية، فوعده بتحقيق ذلك، وطلب منه إمهاله بعض الوقت. واتصل ابن غانية ببراز بن محمد المسوفي الموحدي في اشبيلية واجتمع الاثنان في أستجه وتم الاتفاق على تسليم قرطبة وقرمونة للموحدين لقاء معاونته للاحتفاظ بجيان.وقبض على رسل الفونسو واعتقلهم في قلعة يحصب فاضطر النصارى إلى التخلي عن جيان[1]. وغادر ابن غانية قرطبة إلى غرناطة وهو يسعى إلى مبايعة المرابطين للموحدين في المدن التي كانت لا تزال بأيديهم مثل غرناطة[2]. وتوفي ابن غانية في 24 شعبان 543/7 ك 2 1149.

اغتنم الفرصة ملك قشتالة فأرسل جيشاً هاجم مدينة قرطبة للمرة الثانية خلال ستين من رجب 543/ 1148.

فلما علم براز المسوفي والي إشبيلية بالأمر، جهز جيشاً كبيراً، وزحف الجيش الموحدي نحو قرطبة لتحريرها من النصارى. فاضطر الفونسو إلى مغادرتها خشية من خوض معركة غير مأمونة النتائج[3]، ودخلها الموحدون في شعبان 543/ ثم اتبعوها بمدينة جيان التي كان يهددها القشتاليون. واستولوا بعد ذلك على بياسة وأبدة وبقيت غرناطة بيد المرابطين.

وفي سنة 1152/547 استولى الموحدون على مالقه بعد مصرع صاحبها القاضي ابن حسون.

وفي وادي آش ثار أحمد بن محمد بن ملحان الطائي ودعا لنفسه وتلقب بالمتأيد بالله وتشدد في جمع الأموال وتملك الضياع الكثيرة. حتى غدا من

---

(1) ابن خلدون 6/235.
(2) روض قرطاس 191 ابن خلدون 6/235.
(3) نفح طيب 6/112 الكامل 9/28.

أغنياء عصره وضم إلى مجلسه العلماء والأدباء والفلاسفة منهم أبو بكر بن طفيل الفيلسوف والطبيب.

وأعلن الثورة في شرق الأندلس في بلنسية ومرسية وتحالف مع النصارى محمد بن سعد بن مردنيش سار إلى وادي آش مع قوة نصرانية اضطر الطائي إلى إعلان ولائه للموحدين تاركاً وادي آش لابن مردنيش الذي احتله مع بسطه سنة 1151/546[1]، وهدد جيان ولكن ثورة قامت ضده في بلنسيه بقيادة عبد الملك بن شلبان وقد نكل ابن مردنيش بالثوار بعد دخول بلنسية لأنهم أبدوا ميلاً للموحدين[2].

ولى الخليفة على إشبيلية عبدالله بن أبي حفص بن علي وعبد الرحمن بن يكيت على قرطبة فدخلا الأندلس 1155/550 وبادر ابن يكيت بالجهاد ضد النصارى فهاجم حصن البطروج واستولى عليه وأسر قائده القشتالي. ثم عاد في حملة ثانية استولى على حصني منثو والمدور وهذه الحصون تقع جنوب قرطبة.

ثم سار ابن أبي حفص والي إشبيلية إلى بطليوس حيث انضمت إليه قواتها بقيادة ابن الحجام وسار الجيش نحو البرتغال وهاجم أطرونكس واستولى عليه، وعاث قتلاً وتدميراً في أراض العدو،ثم اشتبك معه في معركة دارت الدائرة فيها على البرتغاليين[3].

غرناطة

سيطر الموحدون على الأندلس وبقيت غرناطة بأيدي المرابطين واستطاع واليها المرابطي ميمون بن بدر أن يصمد مدة سبع سنوات 543. وأخيراً شعر ميمون بأن لا طاقة له على الاستمرار في مقاومة الموحدين، بعث إلى الخليفة عبد المؤمن يعرض تسليم المدينة فأجابه الخليفة إلى طلبه وتسلم

(1) أعمال الأعلام 264.

(2) صبح الأعشى 6/443.

(3) البيان المغرب جـ 3 ص 32، 33.

الموحدون المدينة، ورحل ميمون إلى مراكش حيث استقبله الخليفة. وولي عليها ابنه أبا سعيد و كان دخولهم في 551/1156[1].

استعادة المرية

كانت المرية قد سقطت بيد الاسبان 542/1147. وكان الموحدون يتوقون لاستعادة هذا الثغر الحيوي لاتصالاتهم البحرية. وكان يؤيد هذا المشروع الخليفة، أرسل ابنه أبو سعيد والي غرناطة حملة ووصلت إلى أسوارها حيث قتلت عدداً من النصارى، وعادت إلى حصن برجه شمال غرب المدينة. وحصلت الحملة على معلومات مهمة وهي أن عدد النصارى في القصبة قليل ولا يمكنهم الدفاع عنها. عندها سار أبو سعيد بالجيش إلى المدينة وضرب الحصار عليها. ورمى حصونها وأسوارها بالمجانيق، واستنجد النصارى فيها بالفونسو السابع فأرسل جيشاً 12 ألف فارس ومعهم ابن مردنيش على رأس جيش من 6 آلاف مسلم. وقد فر من معسكر الموحدين ابن ملحان الطائي وانضم إلى ابن مردنيش عدوه. واستمر الحصار رغم ذلك على المدينة ولم يستطع العدو وعملاؤه اختراق الحصار فاضطرت المدينة إلى التسليم بعد حصار دام 7 أشهر في ذي الحجة 552/1157م[2].

وارتد الفونس السابع مع حليفه ابن مردنيش خائبين ومرض الفونسو أثناء عودته إلى طليطلة وتوفي في مورتله 21 آب 1157[3].

كانت بلنسية من مدن الأندلس المهمة وقد أولاها المرابطون أهمية لقربها من ثغر برشلونة والممالك النصرانية. فقد تولاه كبار قادة المرابطين بعد تحريرها من النصارى. من ولاتها الأمير مزدلي الذي حررها من النصارى وتميم بن يوسف ويحيى بن غانية وكان واليها عند إندلاع الثورة عبدالله بن محمد أخ

---

(1) روض القرطاس ص 264.
(2) روض القرطاس 193 ـ ابن خلدون جـ 6 ص 237 الكامل جـ 9 هـ 30 و 56.
(3) الكامل جـ 9 ص 30 و 56 ـ روض القرطاس 193.

يحيى بن غانية وقاضيها مروان بن عبدالله بن مروان بن عبد العزيز.

وعندما اندلعت الثورة ضـد المرابطين في قرطبة اتفق الوالي والقاضي على ضبط الأمور. ولكن الوالي ابن غانية توجس شراً من نوايا القاضي ففر إلى شاطبة وأجمـع سكان بلنسية على تولية القاضي ابـن عبد العزيز بتأييد مـن عبدالله بن عياض قائد الثغر وعبدالله بن مردنيش، وهرب الوالي السابق ابن غانيـة من شاطبة فضمها ابن عبد العزيز لامارته. ولكنه عجز عن ضبط الأمور فعزله الجند واستدعوا ابن عياض فلجأ ابن عبد العزيز إلى المرية حيث اعتقل[1].

بعد فرار ابن عبد العزيز اختار الجند المتمردون لقيادتهم عبدالله بن محمد بن سعد بن مردنيش صهر ابن عياض، ثم حضر ابن عياض فنظم أمور الولاية وعاد إلى مرسية تاركاً صهره ابن مردنيش. وكانت الثورة قد اندلعت في مرسية بزعامة أبي محمد بن الحاج اللورقي ودعا لابن حمدين ثم تخلى ابن الحاج فأرسل إليهم ابن حمدين عبدالله الثغري والياً في شوال 539/ فعين على القضاء الفقيه أبا جعفر محمد بن عبدالله بن أبي جعفر الخشني الذي نبذ طاعة ابن حمدين وسار إلى شاطبة لقتال ابن غانية المرابطي فثارت العامة وأطلقت سراح عبدالله الثغري وصهريه، وكان ابن أبي جعفر قد اعتقلهم. ولكنه قتل في معركة بظاهر غرناطة على أيدي المرابطين.

وبعد مقتل ابن أبي جعفر قدم أهل مرسية في ربيع الأول 540/ محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسي. ولكن بعض أهل مرسية استدعوا ابن عياض من بلنسيه، فدخل المدينة، وعزل ابن طاهر وذلك 10 جمادى الآخر ولى 540/ت 1 1145 م ثم غادرها بعد أن عين عليها صهره ابن مردنيش ودعا لابن هود. وكان ابن عياض جندياً شجاعاً، وكان النصارى يعدونه بمئة فارس[2].

---

(1) أعمال الأعلام 256.

(2) المعجب 115.

وخرج لمساعدة ابن مردنيش في قتال النصارى الذين أغاروا على أحواز شاطبة ومعه ابن هود. ودارت معركة في اللج قرب بلدة البسيط نهار الجمعة 20 شعبان 540/ شباط 1146 انهزم فيها المسلمون وسقط قتيلاً عبدالله بن مردنيش وسيف الدولة ابن هود ونجا بن عياض فكانت ضربة مؤلمة للمسلمين في شرق الأندلس[1].

وكان ابن هود حليفاً للنصارى وصنيعه ملكهم القيصر الفونس السابع وكانوا يشجعونه على التمرد في الأندلس ويمدونه بالمساعدات.

بعد مصرع ابن هود، دعا ابن عياض لنفسه ببلنسية تاركاً ابن مردنيش في مرسية. وامتدت إمارته من شمال بلنسية حتى قرطاجنة جنوباً. استمر في حكمها حتى وفاته في 22 ربيع الأول 542/ 21آب 1147م[2]. وخلفه محمد بن سعد بن مردنيش في شرق الأندلس جمادى الأول 542/ت 1 1147. وابن مردنيش أبو عبدالله محمد بن سعد بن محمد بن سعد بن مردنيش وكان والده سعد والياً على افراغة أيام المرابطين، واستطاع صد الفونسو المحارب ملك أراجون 527/ 1133 وعمه عبدالله بن سعد صهر ابن عياض[3].

وقد أضحى حاكم شرق الأندلس مجاوراً للنصارى، كان يؤثرهم على المسلمين ويقلدهم في مأكله وملبسه وتصرفاته ويغدق عليهم الأموال التي يغرمها لرعاياه المسلمين[4]. وقد لقبوه بالملك الذئب. فقد رأى أن يعقد المحالفات معهم للحفاظ على ممتلكاته وللوقوف في وجه الموحدين.

فعقد صلحاً مع كونت برشلونة رامون برنجير الرابع مدته أربع سنوات ثم معاهدة مع الفونسو السابع ملك قشتالة. وكان يؤدي لكل منهما ضريبة سنوية مقدارها 50 ألف مثقال ذهب. وامتدت علاقاته إلى خارج الأندلس، فعقد

---

(1) الحلة السيراء 226 ـ أشباخ 216.
(2) المعجب 115 ـ أعمال الأعلام 260.
(3) وفيات الأعيان 492/2 نفح طيب 8/113 أعمال أعلام ـ 259.
(4) أعمال الأعلام ص 261.

معاهدة صلح مع جمهورية بيزه 543/1149 وأخرى مع جمهورية جنوه، تعهد فيها بأن يؤدي إلى حاكمها ضريبة مقدارها 10 آلاف دينارمرابطي «مئة ألف مثقال» مدة 4 سنوات ومع تسهيلات لتجارها في مملكته. وكذلك هادى ملك بريطانية هنري الثاني(1). كان يساعد ابن مردنيش مغامر آخر مولد إبراهيم ابن محمد بن مفرج بن همشك صاهره ابن مردنيش فأضحى من أخلص قادته(2).

سقوط طرطوشة وقواعد الثغر الأعلى

بعد هزيمة النصارى في معركة إفراغة 228 هـ/ توقفوا عن مهاجمة بقية قواعد الثغر الأعلى التي كانت بيد المسلمين لاردة وإفراغه ومكناسة. ولما اندلعت الثورة ضد المرابطين في الأندلس انشغلت حامياتهم بالدفاع عن نفسها ورأى النصارى أن الفرصة سانحة لاحتلال هذه القواعد، وكانت مجاورة لبرشلونة، وقد جهزوا حملة صليبية لاحتلالها بدعوة من البابا أوجين الثالث. فتألفت حملة من أراجونه وقطلونية وبيزة وجنوة وفرسان المعبد بقيادة رامون برنجير كونت برشلونة وحاصروا المدينة مدة أربعين يوماً سقطت في أيديهم شعبان 543/1148 ثم تلتها لا ردة 544/1149 وأخيراً افراغة ومكناسة(2).

كانت هذه المدن تابعة اسمياً لابن مردنيش ولكنه لم يدافع عنها كي لا تسوء علاقته مع كونت برشلونة الذي عقد معاهدة معه. وكل ما عمله أنه حافظ على الرعايا المسلمين مشترطاً في الاتفاقية مع جنوه بألا توقع أضراراً برعاياه.

والحدث الثاني سقوط مدينة المرية بيد النصارى. فقد كانت مركزاً لانطلاق الحملات البحرية الإسلامية إلى الأراضي النصرانية المجاورة، فاستغلوا فرصة اضطراب أحوال الأندلس وجهزوا حملة صليبية باركها البابا من قشتالة وقطلونيه ونافار وجنوه وبيزة وقوة فرنسية قدمت من أوروبا وسارت هذه

---

(1) أعمال الأعلام 260.

(2) روض القرطاس 176 ـ الكامل أحداث سنة 544.

الحملة إلى المرية وضربت عليها الحصار براً وبحراً طيلة ثلاثة أشهر واضطرت المدينة بعد أن يئست من وصول المساعدات إلى التسليم في جمادى الأولى 1147/542.

بسط ابن مردنيش نفوذه على وادي آش وبسطه فأضحى مجاوراً للموحدين في جيان وبياسة وأبدة في الجنوب والشرق فبدأ الصراع بين الفريقين.

هاجم ابن مردنيش مع حلفائه القشتاليين مدينة جيان فسلمها واليها الكومي بدون قتال، ثم تابع سيره إلى قرطبة وهاجمها بعنف فتصدى له واليه ابن يكيت. ودارت معركة شديدة عاد على أثرها ابن يكيت إلى داخل المدينة وضرب ابن مردنيش عليها الحصار. ولجأ ابن يكيت والقاضي ابن إدريس إلى حيلة لإبعاد ابن مردنيش عن قرطبة. فأرسلا كتاباً مرسلاً من سيد راي بن وزير إلى ابن مردنيش بأن يهاجم إشبيلية لأنها بلا حامية دفاع. ووصل ابن مردنيش إلى ظاهر إشبيلية ونزل بالفونت، وكان الموحدون ساهرين على حفظ المدينة واتخذوا إجراءات صارمة للدفاع عنها، فقتلوا من شكوا بولائه وأدرك ابن مردنيش بأنه خدع فغادر إشبيلية دون طائل 1159/554.

وفي سنة 1160/555 أرسل جيشاً إلى قرطبة بقيادة صهره ابن همشك ودارت معركة قتل فيها ابن يكيت الموحدي ثم سار إلى قرمونة ودخلها بالتآمر مع عبدالله ابن شراحيل أحد زعمائها. وتحصن الموحدون بالقصبة مما دفع بأبي يعقوب والي إشبيلية بإرسال نجدة لمساعدتها(1).

بعد استرجاع المهدية من النورمان في 10 محرم 555/. وجه الخليفة اهتمامه للأندلس فبعث رسالة إلى ابنه السيد أبي عثمان والي غرناطة يأمره بالمسير إلى جبل طارق لبناء مدينة تكون منزلاً للخليفة، فاستدعى العمال والنجارين من جميع أنحاء الأندلس لهذه المهمة. وتم إنجاز البناء في ذي القعدة 555/ ك 1 116. ثم عبر الخليفة إلى المدينة الجديدة قضى زهاء شهرين نظم خلالها شؤون الأندلس، ونظم جيشاً من 18 ألف فارس من الأندلسيين والموحدين وولى قيادة

(1) أعمال الأعلام ص 261.

الموحدين ابن الشرقي والأندلسيين ابن صناديد[1]، وأبقى على إشبيلية ابنه أبا يعقوب وعلى غرناطة ابنه أبا سعيد، وعين على قرطبة الشيخ أبا حفص ابن يحيى الهنتاني ثم قفل عائداً إلى المغرب مطلع 556/ شباط 1161.

كانت قرمونة لا تزال على تمردها بقيادة ابن شراحيل يساعده ابن همشك. فأرسل السيد أبو يعقوب قوة بقيادة ابن أبي حفص حاصرت المدينة فغادرها ابن همشك ودخلها الموحدون بعد اتفاق سري مع رجل من أهلها فتح لهم باب البرج الأكبر وذلك في محرم 557/ ك 1 ـ 1151[2].

وضع ابن همشك بعد فراره من قرمونة خطة لاحتلال غرناطة فاتفق مع أهلها اليهود وابن دهري على أن يساعدوه في دخول المدينة، وكان بها حامية موحدية. وحسب الخطة المرسومة في ليلة من جمادى الأولى 555 فتح اليهود بإيعاز من ابن دهري باب الربض بغرناطة لابن همشك فدخل المدينة وفر الموحدون إلى القصبة وعجز عن إقتحامها، فاستنجد بصهره ابن مردنيش الذي أرسل إليه قوة، وكذلك انضمت إليهم فرقة من النصارى بقيادة البار ردريجيس حفيد البار هانيس. وسارت هذه القوة لمساعدة ابن همشك الذي نزل بالقلعة الحمراء في مواجهة القصبة، وأفتن بتعذيب الموحدين الذين أسرهم فاستنجدوا بالخليفة. أمر بتجهيز جيش وتجمعت الجيوش الموحديه[3] في فحص غرناطة ودارت معركة مع ابن همشك وحلفائه النصارى انتهت بانتصار ابن همشك وقتل عدد من قادة الموحدين منهم ابن أبي حفص والي إشبيلية، وفر السيد أبو سعيد إلى مالقة. تألم الخليفة لهذه الهزيمة فأمر بإعداد جيش من 20 ألف مقاتل[4] بقيادة ابنه أبي يعقوب يوسف ومعه زعيم أشياخ الموحدين يوسف بن سليمان، وسارع ابن مردنيش لمساعدة صهره ومعه فرقة من النصارى. سار الموحدون إلى قرب غرناطة. ويوم الخميس 27 رجب 557 12 تموز 1162/ جمع الشيخ

(1) الحلل 118 روض قرطاس 200.
(2) المعجب 124 روض قرطاس 200.
(3) الكامل جـ 9 ص 78 و 79.
(4) أعمال الأعلام جـ 261 ـ الكامل 79 جـ ـ 9.

ابن سليمان الموحدين وخطب فيهم وحثهم على الاستشهاد. وتوجه الجيش حيث قوات ابن همشك والنصارى، ودارت معركة قاسية انتهت بانتصار الموحدين وقتل عدد من قادة النصارى في مقدمتهم البار ردريجس وابن كونت أورقلة ومعظم قادة الأندلسيين المتمردين. وارتد ابن مردنيش دون قتال إلى مرسيه وابن همشك بفلوله إلى جيان[1] ودخل الموحدون غرناطة الجمعة 28 رجب 557/ 13 تموز 1162. بعث السيد أبو يعقوب يوسف بأنباء النصر إلى والده وهو مقيم في الرباط فغمره السرور وأصدر إليه تعليماته بتنظيم شؤون الأندلس، أولى غرناطة عناية خاصة ونقل مركز الحكم من إشبيلية إلى قرطبة لموقعها المتوسط في البلاد. واستقر أبو يعقوب يوسف في قاعدته الجديدة فأعاد تعميرها وحصنها فعاد إليها كثير من سكانها الذين هجروها أثناء الفتنة.

ثم توفي الخليفة عبد المؤمن الجمعة 10 جمادى الآخرة 15/558 أيار 1163[2] بمدينة سلا. وخلفه ابنه يوسف حسب وصية الخليفة. وكان قد حضر من قرطبة عندما استدعاه والده. وتمت البيعة للخليفة الجديد خلال يومين. ثم حمل جثمان والده إلى تينملل في نهار الجمعة أول شعبان حيث دفنه إلى جانب المهدي بن تومرت تنفيذاً لوصيته.

تولى الخلافة بعد وفاة عبد المؤمن ابنه يوسف رجب 558 كان محباً للجهاد جاء إلى الأندلس مرتين 566 ـ و 579.

ففي سنة 560 أغار ابن مردنيش الثائر مع حلفائه النصارى على قرطبة فسير إليه الخليفة جيشاً كبيراً بقيادة أبي سعيد وأبي حفص من الموحدين وعرب بني هلال فانهزم ابن مردنيش بفحص مرسيه واعتصم بالمدينة[3].

وعاد النصارى إلى غزو أراضي الأندلس فقد أغار فرديناند ملك ليون على وادي آنه وأخذ الفونسو هنريكي ملك البرتغال يوسع حدوده شرقاً وجنوباً على

---

(1) الكامل 79 جـ ـ 9، نفح الطيب جـ ـ 6 ص 112.
(2) الكامل 81 ـ جـ ـ 9.
(3) ابن خلدون 394/6 أعمال الأعلام 269.

حساب المسلمين فاستولى على ترجاله ويابره وحصني شبرينة وجلمانية[1].

وحاصر بطليوس فأرسل الخليفة أبا حفص على رأس جيش من الموحدين لإنقاذها، وقد تمكن سكانها من صد البرتغاليين.

وعزم الخليفة على السير بنفسه إلى الأندلس لوضع حد لغارات النصارى فاستنفر المسلمين وتجمعت عنده حشود هائلة من العرب بالإضافة إلى الموحدين. وعبر المضيق في صفر 566/ ونزل بأشبيلية وطلب من أخيه عثمان والي غرناطة بمهاجمة مرسية حيث يعتصم ابن مردنيش، والتقى الجيشان في الجلاب حيث انهزم ابن مردنيش ولجأ إلى مرسيه، فحاصره الموحدون واستولوا على لورقة وبسطة. وتوفي ابن مردنيش وهو محاصر فخلفه ابن هلال الذي دخل في طاعة الموحدين[2]، وسلم لهم الحصون التي كانت خاضعة لأبيه بلنسية ومربيطر وشاطبة ولورقه وقرطاجبة وأقام الخليفة 4 سنوات في الأندلس قاد أثناءها حملات ضد الاسبان. ففي سنة 567 هاجم جنوب البرتغال وحاصر شنترين واستولى على القنطرة. وفي سنتي 568 و 569 أغار على نواحي قلعة رباح. وسنة 571 عاد إلى المغرب. وظهرت بسالة العرب وشجاعتهم فكان الفارس العربي يبرز بين الصفين ويطلب قتال الفارس النصراني فلا يجرؤ على المبارزة. أثناء إقامته في الأندلس اهتم بالعاصمة إشبيلية فقد أقام فيها المسجد الجامع والجسر والقصبة والزلالق للسور والأرصفة على الوادي الكبير[3].

وانتهز الاسبان عودة الخليفة إلى المغرب ففي سنة 572 استولى القشتاليون على قونكة[4]. وأخذ القشتاليون والبرتغاليون والأرغونيون يشنون الغارات على الأندلس، عندها قرر الخليفة وضع حد للاسبان بعد أن كثر عيثهم في أراضي المسلمين فجاء إلى الأندلس سنة 579 بجيوش جرارة وهاجم مملكة

---

(1) ابن خلدون 6/499 ابن خلدون جـ 6 ص 400.

(2) المعجب 249 - ابن خلدون 6/500 روض القرطاس 1/265 يذكر السنة 560 ونفح الطيب 113.

(3) روض القرطاس 266.

(4) أشباخ: 321.

البرتغال وسار إلى شنترين وكان البرتغاليون قد استولوا عليها سنة 541 هـ وحاصرها حصاراً شديداً دمر أحوازها. ولكنه لم يستطع فتحها لحصانتها، ولأن ملك البرتغال كان قد استعد للحصار وشحنها بالرجال والسلاح والمؤن، وحل الشتاء خاف المسلمون من فيضان نهر تاجه فأشاروا عليه بالعودة إلى إشبيلية[1] ورأى أن لا جدوى من الحصار الذي طال. حاول محاصرة إشبونة وأسرع رجاله بحزم الخيام تمهيداً للرحيل، وعبر أكثر الجنود النهر متازحمين بشكل فوضوي. وبقي مع الخليفة قلة من جنوده، ولاحظ ابرتغاليون رحيل معظم الجيش الموحدي أغاروا على معسكر الخليفة فقتل عدد من قادة الجيش. وأصيب الخليفة بسهم مسموم عندها ارتد الجيش الذي عبر النهر فتراجع البرتغاليون إلى شنترين. وحمل الموحدون خليفتهم الجريح ومات بعد يومين في 7 رجب 580/ ، ونقلوه إلى إشبيلية ومنها إلى تينملل حيث دفن بجوار والده عبد المؤمن[2] وخلفه ابنه يعقوب.

استغل البرتغاليون انتصارهم في شنترين فهاجموا غرب الأندلس فاضطر الخليفة إلى العبور إلى الأندلس في 3 ربيع الأول 585 وسار إلى شنترين وإشبونة ليثأر لوالده واجتاح المنطقة وعاث فيها تدميراً، أحرق القرى والمزارع. قتل وسبى السكان ثم عاد إلى المغرب[3]، فانتهز بدرو بن هنريكي عودة الخليفة وهاجم شلب مستعيناً بالصليبيين الأوروبيين الذي جاؤوا من إنجلترا وهولندا، وحطوا قبالة إشبونة وحاصروا شلب من البحر وبدرو من البر وتمكنوا من دخولها[4] ثم أغاروا على غرب الأندلس واستولوا على باجة ويابرة 586[5].

استاء الخليفة من تقاعس رؤساء الأندلس وتخاذلهم أمام الاسبان. فقام

(1) المعجب: 258.
(2) المعجب 258 ـ أعمال الأعلام 269 ـ نفح الطيب جـ 6 ص 113 ـ روض القرطاس 268 ـ الكامل جـ 9 ص 195.
(3) روض القرطاس 267.
(4) المعجب 280 نفح الطيب 114.
(5) روض القرطاس 269 ـ نفح طيب 6/114.

محمد بن يوسف والي قرطبة باستعادة شلب وقصر أبي دانس ويابرة ثم عاد إلى قرطبة[1].

بينما الخليفة مقيم في مراكش قدم عليه وفد ملك قشتالة لمراجعته في تجديد المعاهدة،وهو في الوقت نفسه يضمر الشر للمسلمين. رفض الخليفة عرضهم وقطع المفاوضات واستعد للحرب. أرسل إلى إشبيلية يطلب من واليها أن يبني له حصناً على الوادي الكبير ليكون مقراً للمجاهدين المغاربة في الأندلس فكان حصن الفرج.

بلغ الفونسو عزم الخليفة على العبور إلى الأندلس. وكان أمد الصلح قد انتهى، جهز جيشه وحدد لهم يوماً للإغارة على الأندلس، فشنوا الغارات في يوم واحد على أراضي الأندلس، اجتاحوا أراضي إشبيلية وعاثوا فساداً وتخريباً. وردت أخبار هذه الغارة على الخليفة وهو يتأهب لقتال بني غانية في إفريقية، عدل عن قتالهم وقرر الجواز إلى الأندلس لمحاربة القشتاليين[2]. عبر المضيق في 20 جمادى الأول 591/ نيسان 1194. أقام يوماً في الطريق، ثم رحل إلى إشبيلية ونزل بقصر البحيرة، استقبله سكانها، تفقد حصن الفرج، وصلى في الجامع الكبير. ثم استعرض قواته في 27 جمادى الآخرة، أغدق عليهم الأموال ووزع الأسلحة والخيول. أمر بإخراج السجناء الذين يسمح الشرع بإخراجهم..

غادر إشبيلية إلى قرطبة في 11 رجب/ 22 حزيران. وتابع سيره إلى الأرك بالقرب من قلعة رباح. وخيم على مسافة مرحلتين من القشتاليين في شعبان/ تموز. وخرجت سرية قشتالية من القلعة تستطلع أخبار المسلمين، وقعت في كمائن الموحدين فأبادوها.

علم الفونسو بعبور الخليفة إلى الأندلس، أسرع إلى طليطلة حيث أعد جيشاً كبيراً لقتال الموحدين. وتوجه بهذا الجيش إلى الأرك حصنه الأمامي على حدود الأندلس، وكأنه كان واثقاً من النصر فبدأ المعركة قبل وصول جيوش

---

(1) المعجب 280 ابن خلدون 511/6 روض القرطاس 269.

(2) ابن خلدون جـ 6 ص 245 ـ نفح الطيب 115.

حلفائه من ليون ونافار، حتى أنه أحضر معه جماعة من التجار اليهود ليبيعهم الأسرى المسلمين[1].

ونظم الخليفة جيشه نهار السبت 5 شعبان فولى الوزير أبا يحيى قيادة الجيش وابن صناديد قيادة الأندلسيين، وجيرمور بن رياح قبائل العرب، ومنديل المغراوي قبائل مغراوة ومحيو بن أبي بكر بن حمامة قبائل بني مرين وجابر بن يوسف قبائل عبد الواد وعين تجليدر على قبائل هسكورة ومصمودة ومحمد بن منعفاد على غمارة والحاج أبي خزر على المتطوعة. وجميعهم بأمرة الوزير أبي يحيى واختص نفسه بعسكر الموحدين والعبيد[2].

وضع الخليفة وقادته خطة الحرب، وقرر البدء بالزحف على معسكر النصارى سارت الجيوش الموحدية ببطء نحو الأرك، ونزلت في السهل المجاور له نهار الثلاثاء 8 شعبان/ 17 تموز، وتقدم النصارى نحو الموحدين الذين لم يردوا عليها لأن الخليفة قرر أن يخوض المعركة في اليوم التالي. وهو يوم الأربعاء 9 شعبان 18 تموز. كانت الجيوش الموحدية على أهبة الاستعداد ومعبأة تعبئة حربية، فجعل القائد أبو يحيى الأندلسيين في الميمنة وقبائل المغرب والعرب في الميسرة والرماة والأغزاز والمتطوعين في المقدمة. وجعل مركزه في القلب مع قبيلته. وكان مكان المنصور في المؤخرة مع العبيد وجند الموحدين[3].

وقبل بدء المعركة قام الوزير القائد خطيباً، طلب فيه من الحشود بناءً على طلب الخليفة دعاهم فيه إلى التسامح والإخلاص في النيات. ثم ألقى القاضي أبو علي بن حجاج خطبة بليغة دعا فيها المسلمين على الاستبسال[4].

صباح 9 شعبان 591/ 18 تموز 1194 نشبت المعركة المرتقبة وكان

(1) الكامل جـ 9 ص 232 و 233 ويسمى المكان مرج الحديد ـ نفح الطيب 115.

(2) روض القرطاس 246 ـ نفح الطيب 116.

(3) نفح الطيب 116 يذكر النصر.

(4) البيان المغرب جـ 3 ص 194.

القشتاليون قد غادروا معسكرهم كالبحر الزاخر أسراباً تتلوا سراباً وأمواجاً تعقب أمواجاً، وتقدم في الدفعة الأولى من سبعة إلى ثمانية آلاف فارس اصطدمت بمقدمة جيش الموحدين ثم تراجعت ثم اقتربت ثم تقهقرت، ثم استعدت للهجوم الفعلي وكان الوزير أبو يحيى والقائد ابن صناديد يحثان الجنود على الثبات.

وأخيراً تركز هجوم القشتاليين على القلب الذي يقوده الوزير معتقدين أن الخليفة المنصور يقوده لأنه أمر برفع الأعلام الخليفية على القلب، فصمد الوزير وجنوده ولكن الهجوم كان صاعقاً قتل فيه الوزير مع جماعة من جنوده، عندها تقدمت سائر فرق الجيش الموحدي وأحاطت بالقشتاليين من كل جانب حيث دارت معركة رهيبة استمرت حتى غروب الشمس.

وأسفرت عن هزيمة القشتاليين الذين لاذوا بالفرار إلى حصن الأرك[1] بعد أن فقدوا أعداداً كبيرة من القتلى. واستطاع الفونسو الفرار مع عشرين فارساً تحت جنح الظلام إلى طليطلة. واقتحم المسلمون حصن الأرك وغنموا جميع ما فيه من الذخائر والسلاح[2].

تقدر الروايات الإسلامية عدد القتلى بعشرات الألوف من النصارى والغنائم بـ 150 ألف خيمة و 146 ألف رأس خيل ومئة ألف بغل ومئة ألف حمار. وقسم الخليفة الغنائم بعد تخميسها بين المسلمين.

وقد نادى الخليفة في عسكره بأن من غنم شيئاً فهو له عدا السلاح[3].

إثر النصر الذي أحرزه الموحدون بث المنصور سرايا جنده فاستولى على عدة حصون،وهاجم الموحدون قلعة رباح ودخلوها بعد قتال عنيف قتل فيه نونيودي فوينتس أستاذ جمعية القلعة بعد أن كانت في حوزة النصارى منذ نصف قرن تقريباً وأمر بتطهير جامعها الذي حوله النصارى إلى كنيسة وعين عليها

(1) روض القرطاس المعجب 159 ـ ابن خلدون 242 جـ ـ 6.
(2) روض القرطاس 269 ـ نفح الطيب 1/ 418 الكامل 9/ 233 أعمال الأعلام 269.
(3) نفح الطيب جـ 1 ـ 418 الكامل 9/ 233 الخيام 146 ألف.

يوسف بن قادس[1]. وهاجم مدينة طليطلة، ضرب عليها الحصار وخرب نواحيها.

عاد المنصور إلى إشبيلية بعد معركة الأرك 27 شعبان 591، فأكمل بناء الجامع والصومعة في 19 ربيع الآخر 592 ورفع فوقها التفافيح الذهبية[2].

وفي مطلع الربيع أمر المنصور بالاستعداد للغزو، واستشار القادة في اختيار مناطق الغزو. وأثناء ذلك وصل إلى إشبيلية وفد ملك قشتالة يطلب الصلح فرفض المنصور. واستقر الرأي على غزو منطقة استرامادورا لاسترداد ما اغتصبه النصارى. فخرج المنصور من إشبيلية في جمادى 10/ 592/ نيسان 1196 واتجه شمالاً إلى حصن منتانجش، فاستسلمت حاميته طالبة الأمان فأمنهم. وأمر القائد ابن صناديد بمواكبتهم إلى المناطق الآمنة. فاعتدت عليهم جماعة من العرب وسبت نساءهم والأطفال. فغضب الخليفة لهذا العمل الذي يتنافى ومبادىء الإسلام وأمر بمعاقبة المعتدين ورد السبايا إلى ذويهم وإيصالهم آمنين إلى حدود قشتالة. ثم تابع زحفه إلى مدينة ترجالة فغادرها سكانها النصارى وطاردهم الموحدون ثم عبر نهر تاجه وحاصر قلعة بلاسنثيا (وفي مصادر الموحدين ابلتانسيه) فاستسلمت حاميتها بعد يوم من الحصار واعتبر أفرادها أسرى لمقاومتهم فقبض الموحدون على قائدها ومعه 150 من الأعيان، حملوا إلى مدينة سلا[3] وهاجموا طلبيرة وانتسفوا زرعها وضربوا أرباضها، كل هذه الأعمال العسكرية وملك قشتالة لم يجرؤ على مواجهة الموحدين الذين استمروا في زحفهم، نحو طليطلة وهاجموها من الجهة الشمالية فامتنع النصارى بها واستعدوا للدفاع. وعبر الموحدون نهر التاجه إلى الجهة الجنوبية وأتلفوا المزروعات واستمروا يعيثون في أحواز طليطلة عدة أيام ثم ارتدوا عنها بعد أن أظهروا للعدو القشتالي قوتهم[4]. وذلك سنة 592/ أثناء عملية الغزو لأراضي

(1) المراكش 283 نفح طيب 6/116.
(2) الكامل جـ 9 ص 233.
(3) الروض المعطار 13.
(4) الكامل جـ 9 ص 233 ـ نفح الطيب جـ 186 و 116.

قشتالة وفد على المنصور رسول ملك ليون الفونسو التاسع يرجوه بمعاونته بقوات موحدية لغزو قشتالة. فاستجاب المنصور لطلبه وأمده بقوة من الموحدين فغزا أراضي قشتالة. وأغار كذلك ملك نافارسانشو على أراضي قشتالة. ودخل مدينة سرية.

ولما انتهى المنصور من غزواته وأظهر للقشتاليين قوة الموحدين ارتد جنوباً عائداً إلى إشبيلية واقتحم أثناء العودة بعض حصون منطقة طليطلة ووصل إلى إشبيلية في رمضان 592/ 1195 لإراحة جنوده استعداداً لغزوة لاحقة. وأثناء إقامته في إشبيلية انصرف إلى النظر في أمور العمال ومحاسبتهم على تقصيرهم واختلاسهم الأموال. فأمر بمحاسبة ـ داود بن أبي داود فيما يتعلق بالأموال وكذلك أبي علي عمر بن أيوب. وأقدم على إجراء تعيينات فقلد أبا زيد بن يوجان إشغال البرين (المغرب والأندلس)، وقدم أبا القاسم بن نصير على أعمال إشبيلية والكاتب يوسف بن عمر على لبلة.

ولما انتهى فصل الشتاء أعلن تعبئة الجيوش فاحتشد لديه أعداد هائلة وخرج للغزو من إشبيلية جمادي الأولى 593/14 نيسان 1196 فيمم وجهه نحو قرطبةفي تلك الأثناء حدثت نكبة الفيلسوف ابن رشد لآرائه وتعاليه على الخليفة. واعتقل في سجن الليسانة مدة 3 سنوات حتى عفا عنه الخليفة وأطلق سراحه 594 وألحقه بيلاطه حتى توفي في صفر 595/[1].

ثم غادر قرطبة مخترقاً جبل الشارات نحو طلبيرة. ولما رحل إلى حدود قشتالة وفدت عليه رسل الفونسو الثامن يطلبون الصلح فصرفهم دون جواب لأنه عقد العزم على اختراق أراضي قشتالة ثم توجه إلى مكادة وأتلف محاصيلها. تحول جنوباً نحو طليطلة وضرب عليها الحصار. وهناك وصلته الأخبار بأن مساعدات وصلت من ملك أراجون إلى الفونسو وأنهما يرابطان في قلعة مجريط فتوجه نحو مجريط بعد أن خرب أراضي طليطلة وحاصر مجريط بضعة أيام ولم يكن فيها الملكان، فقد غادراها إلى وادي الرملة وتركا فيها قوة بقيادة دون

(1) المعجب 174 و 175.

ديجولويث دي هارو.

وغادر المنصور مجريط إلى قلعة هنارس ثم إلى وادي الحجارة وهو يدمر القرى ويحرق المزارع. وفي اليوم التالي أجرى الموحدون عرضاً عسكرياً لقواتهم في ضواحي وادي الحجارة لإرهاب العدو. وارتد نحو الجنوب وهو في طريق العودة حاصر قونقة ثم إقليش ومنها سار جنوباً ووصل إلى قرطبة آخر رمضان 593/1187، وأخيراً وصل إلى إشبيلية في عيد الفطر 593/ آب 1197[1]. واهتم الخليفة أثناء إقامته في إشبيلية بالمسجد الجامع وبصومعته وتزويدها بالتفافيح الذهبية التي أشرف على صنعها ورفعها المعلم أبو الليث الصقلي وقدرت قيمتها بـ 100 ألف دينار من الذهب[2] ونظم أمور الأندلس إدارياً فعين ولده السيد أبا زيد على إشبيلية والسيد أبا ربيع بن أبي حفص على بطليوس وأبا عبدالله بن أبي حفص على الغرب. وحصن القواعد وشحنها بالحاميات[3].

ثم وفدت عليه رسل ملك قشتالة طالبين الهدنة فاستجاب لهم الخليفة بشروطه وفق شريعة الإسلام. لمدة عشر سنوات[4].

وفي ذلك الوقت تحرج موقف ملك ليون الفونسو التاسع حليف الموحدين فقد نفاه البابا من الكنيسة باعتباره خارجاً على النصرانية، وأذن لملك البرتغال بحربه فلجأ إلى إشبيلية طالباً مساعدة المنصور. لكن لم يلب الخليفة طلبه لأنه كان قد عقد الهدنة مع القشتاليين.

بعد أن نظم شؤون الأندلس غادر إشبيلية أواسط جمادي الأولى 594/ آذار 1198 إلى مراكش فوصل إليها في شعبان 594/ حزيران 1198.

وقد اتخذ إجراءات ضد اليهود فأمرهم بارتداء لباسٍ خاص بهم لتمييزهم

---

(1) ابن خلدون 6/245.
(2) روض القرطاس 251.
(3) البيان المغرب 3/204 ـ ابن خلدون جـ 6 ص 242.
(4) ابن خلدون 6/245 ـ المعجب 160.

عن غيرهم، وكان الخليفة عبد المؤمن قد خير أهالي الذمة من نصارى ويهود باعتناق الإسلام أو مغادرة الأراضي التي يسيطر عليها الموحدون. تغيرت السياسة نحوهم واتسمت بالتسامح فتركوا أحراراً.

وكانوا ينظرون إلى اليهود بتزمت أكثر من النصارى. لأنهم في عهد المنصور أثروا وتشبهوا بالمسلمين باللباس ومظاهر الحياة. عندها فرض عليهم زياً خاصاً عبارة عن قميص أزرق طوله ذراع وعرضه ذراع وبرنس أزرق ذي أكمام واسعة وقلنسوة زرقاء تصل إلى الأذنين، والذي حمل المنصور على ذلك شكه بإسلامهم فلو صح إسلامهم لتركهم يعيشون عيشة المسلمين. ولو صح عنده كفرهم لقتلهم وسبى الذرية والنساء فهم يغشون المساجد. والله أعلم بما تكن صدورهم. وصدر قرار المنصور في أوائل 595/1199[1]. ولما تولى الخليفة الناصر خفف من هذه الإجراءات وسمح لهم باستبدال اللون الأزرق بالأصفر.

وفي ليلة الجمعة 22 ربيع الأول 595/22 ك 2 1199 توفي الخليفة المنصور ونقلت بقصره بالصالحة ودفن هناك ثم نقلت رفاته إلى تينملل[2].

الخليفة محمد الناصر

وخلفه في اليوم التالي ابنه محمد أبو عبدالله وتلقب بالناصر لدين الله. وهو في السابعة عشرة من عمره. عزل أخاه السيد أبا محمد عبدالله عن ولاية إشبيلية ثم أعاده إليها 597/ 1201. وقد حدث في إشبيلية سيل كبير جرف أحياء من المدينة، وبلغ عدد المنازل المدمرة ستة آلاف وكان وقوعه ظهر يوم الاثنين 19 جمادي الأولى 597/ 26 آذار 1201 استمر ثلاثة أيام[3].

وجهز الخليفة الناصر حملة إلى جزيرة ميورقة حيث بنو غانية الذين ينتهزون الفرص ويغيرون على أراضي الموحدين فقد هاجم عبدالله بن إسحاق بن غانية جزيرة يابسة الخاضعة للموحدين أوائل 597 وهاجم 598 جزيرة

---

(1) المعجب 205 نفح الطيب 6/116 لم يذكر المدة.

(2) روض قرطاس 270 ـ ابن خلكان 2/431 نفح طيب 6/117 الكامل 9/245.

(3) البيان المغرب 214 جـ 3 الروض المعطار ص 59.

منورقة واستولى عليها من الموحدين، فاضطر الخليفة إلى مهاجمته وأعد أسطولاً من 300 سفينة منها 70 غراباً و 30 طريدة و50 مركباً كبيراً و 150 قارباً بالإضافة إلى قوة برية من 2200 فارس و 700 من الرماة و 115 ألف رجل وكان يقود الحملة البحرية أبو العلاء بن يوسف بن عبد المؤمن، والجيش البري الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص. انطلقت الحملة من جزيرة دانية أواخر 1203 فوصلت الى يابسة بعد عدة أيام، واستولى أبو العلاء على منورقة وأسر صاحبها ابن نجاح وأرسله إلى العاصمة حيث أعدم[1]. واستمرت الحملة في تقدمها إلى ميورقة حيث تصدى لها عبدالله بن إسحاق، ودارت معركة رهيبة قتل فيها ابن غانية واقتحم الموحدون المدينة ودخلوها وهم يرفعون رأس عبدالله بن إسحاق[2].

انصرف الناصر محمد إلى معالجة أوضاع المغرب عن الاهتمام بأحوال الأندلس. وكان القشتاليون قد أخلدوا إلى السكينة بعد هزيمتهم في الأرك واجتياح الخليفة المنصور لأراضيهم والعيث فيها. ولما طال الصراع بين الموحدين وابن غانية وانقطع عبور المجاهدين إلى الأندلس. أدرك الاسبان النصارى أن الفرصة سنحت لاستئناف الغزو لأراضي المسلمين.

وكان الفونسو الثامن القشتالي يتحرق للثأر بعد هزيمة الأرك. ولما انتهى أجل الهدنة المعقودة بينه وبين الموحدين جهز حملة سنة 1209/606 ومعه فرسان قلعة رباح وسار إلى جيان وبياسة واستولى على عدة حصون، ثم عاد في العام التالي واجتاح أراضي جيان وبياسة حتى وصل إلى أطراف ولاية مرسية، وعاد إلى طليطلة مثقلاً بالغنائم.

وفي الوقت نفسه سار أبو العلاء، إدريس بن يوسف بالأسطول الموحدي إلى برشلونة اجتاح شواطىء قطلونية، وعاد بالأسرى والغنائم في صيف 1210/607 مما أغضب بيدرو الثاني ملك أراجون فخرج ومعه قوات من

---

(1) المصدر السابق 216 جـ 3.

(2) روض قرطاس 153 ـ الروض المعطار 110.

فرسان المعبد واستولى على حصون في شمال بلنسية.

كان لهذه الغارات صدى عميقاً في المغرب ولم يكن بوسع الحاميات الموحدية الصغيرة التصدي لجيوش النصارى الجرارة، فاستغاثت بالناصر خاصة وقد جرى ملك قشتالة على خرق الهدنة بالرغم من احتجاج رسل الخليفة الناصر على ذلك. فقرر العبور إلى الأندلس وأرسل الكتب إلى سائر أنحاء المغرب يدعو فيها السكان إلى الجهاد. وكتب إلى ولاة الأندلس بالاستعداد[1]. ولما كمل الاستعداد غادر مراكش يوم السبت 20 رمضان 607/5 شباط 1211 إلى الرباط وغادرها يوم الاثنين 18 شوال 4 نيسان 1211. وقد لاقى الجيش صعوبات أثناء مسيره على سواحل المغرب نتيجة فساد الولاة فأمر الخليفة بعزلهم ومعاقبتهم[2].

وعبرت جيوش الموحدين إلى الأندلس واستقرت في إشبيلية نهاية 1211/607 م ثم خرج على رأس الجيش قاصداً قلعة شلبطره التي تقع جنوب غرب قلعة رباح التي استعادها أبوه المنصور بعد الأرك وهي قلعة حصينه يرابط فيها الفرسان النصارى بعد خروج قلعة رباح من أيديهم ومنها يشنون الغارات على أراضي المسلمين..

حاصرها الموحدون وقتلوا 400 من النصارى في أرباضها وضربوها بـ 40 منجنيقاً فاستلمت بعد 51 يوماً ودخلوها وحولوا كنيستها إلى جامع وذلك في ربيع الأول 608/ آب 1211[3] ثم رجع الخليفة إلى إشبيلية.

كان ملوك إسبانيا النصرانية الفونسو الثامن ملك قشتالة وسانشو الثامن ملك نافار قد عقدا هدنة سنة 1207 مدتها 5 سنوات انضم إليها بيدرو الثاني ملك أراجون. ومما قوى عرى هذا التحالف وجود البابا أنوصان الثالث على كرسي البابوية الذي كان يضطرم بروح صليبية حاقدة على المسلمين، وكان ملك

(1) ابن خلدون 6/249 روض قرطاس 154.
(2) روض القرطاس 155.
(3) الروض المعطار 110.

قشتالة قد رجاه بدعوة الأمم النصرانية لمؤازرته، فاستجاب لمطلبه، وأرسل إلى أساقفة جنوب فرنسا يدعوهم إلى المساهمة بأنفسهم وأموالهم في مساعدة ملك قشتالة وأنه يمنح كل من يلبي الدعوة الغفران.

بعد عودة الخليفة من غزوة شلبطرة إلى إشبيلية كان الفونسو الثامن القشتالي يستعد للحرب.وقد وفدت على طليطلة وفود المتطوعين من فرنسا طيلة سنة 1211/608 وسائر المدن الاسبانية وفرسان قشتالة وفرسان الجمعيات الدينية، فرسان قلعة رباح وشنت ياقب والاسبتارية والداوية والقوامس رؤساء أسرة لارا والكونت ديجو لوبيث ولوبي دياث دي هارو مع فرسانهم بالإضافة إلى مطارنة من فرنسا على رأس مقاتلين وفي مقدمتهم مطران أربونة واسقفا بوردو ونانت. .

وفي أيار 1212 بلغ عدد الصليبيين الأوربيين القادمين لمساعدة اسبانيا النصرانية ألفين من البارونات مع حاشياتهم و 110 آلاف من الفرسان و 50 ألفاً من الرجال، وقد وصلت مقادير من الأعتدة والمؤن والأسلحة من فرنسا وإيطاليا. وأمر البابا في روما بالصوم ثلاثة أيام التماساً للنصر[1].

كان الموحدون يستعدون كذلك لليوم الفاصل في الأندلس.

وفي 20 حزيران 1212/17 محرم 609 خرجت الجيوش النصرانية من طليطلة نحو الجنوب وكانت مقسمة إلى ثلاثة أقسام: جيش الطليعة من الصليبيين الأوروبيين وعدده 60 ألف يقوده القائد القشتالي ديجولوبيث دي هارو. والجيش الثاني من قوات أراجون وقطلونية وفرسان الداوية يقوده بدرو الثاني ملك أراجون. والجيش الثالث من قوات قشتالة وليون والبرتغال وفرسان قلعة رباح وشنت ياقب والاسبتارية يقوده الملك الفونسو الثامن يعاونه الأحبار وعلى رأسهم ردريك مطران طليطلة وعدده حوالي 30 ألف فارس ما عدا المشاة.

وخرج الناصر من إشبيلية 20 محرم 609/23 حزيران 1212 نحو جيان

(1) أشباخ 359 ـ 360.

لقتال النصارى بينما كانت الجيوش النصرانية تسير جنوباً نحو الأراضي الإسلامية. وفي ٢٤ حزيران وصلت إلى حصن ملجون واقتحمته وقتلت حاميته الإسلامية القليلة العدد ثم تابعت سيرها نحو قلعة رباح المنيعة وكان يتول الدفاع عنها سبعون رجلاً بقيادة أبي الحاج يوسف بن قادس[1] وحاصرتها وصمدت القلعة. ولكن رأى قائدها أن لا جدوى من المقاومة فرأى أن يسلمها سلماً بعد حصول الأمان له ولرجاله. وقبل بهذا العرض الفونسو لأنه يمكنه من دخول القلعة دون قتال. ولكن بعض حلفائه رفضوا إعطاء الأمان. عندها أصر أبو الحاج على القتال فاضطر الفونسو إلى الموافقة وتسلم القلعة سلماً وأعطاها لفرسانها السابقين[2].

أثار استيلاء النصارى على القلعة بهذه الطريقة خلافاً بين القشتاليين والصليبيين الوافدين، إذ رأى الوافدون أن ترك المسلمين يغادرون القلعة أحياء عملاً لا يتفق مع أغراضهم الصليبية وقد سرت إشاعات بأن الفونسو عثر في القلعة على تحف اختصها لنفسه. فغادر كثير منهم إسبانيا عائدين إلى بلادهم بلغ عددهم حوالي 50 ألف مقاتل[3].

عاد ابن قادس بعد سقوط قلعة رباح، فمنعه الوزير أبو سعيد بن جامع من مقابلة الخليفة وأعطى للخليفة صورة واصفاً ابن قادس بالخيانة فأمر الخليفة بإعدامه مع صهره دون أن يستمع إلى عرض موقفه بما أثار سخط الجنود الأندلسيين. ولما شعر بذلك الوزير استدعى قادتهم وطلب منهم مغادرة جيش الموحدين إذ لا حاجة لهم[4].

معـركة العقـاب

بعد سقوط قلعة رباح بيده نظم الفونسو الثامن جيشه وخاصة بعد مغادرة الوافدين الأوروبيين، واستأنف سيره نحو الجنوب حتى أشرف على مرتفعات

(1) روض القرطاس 157.
(2) المعجب 183 ـ روض القرطاس 157.
(3) أشباخ 362 و 363. المعجب 183.
(4) روض القرطاس 158 ـ الروض المعطار 37.

جبل الشارات ونزل في ممر مورادال نهار 13 تموز /10 صفر 609.

وتحرك الخليفة الناصر نحو الشمال، وقسم جيشه خمسة أقسام القسم الأول من العرب والثاني من قبائل المغرب صنهاجة وزناته والثالث من المتطوعين والرابع من الموحدين والخامس من الأندلسيين وقدر عدده بحوالي 600 ألف رجل[1] وعبر نهر الوادي الكبير واحتلت فرق من الجيش ممرات جبل الشارات ومنها ممر لوسا الوعر. وخيمت في البسيط تجاه هذا الممر.

قرر الناصر مقابلة الاسبان في هذا الموضع ويدعى موقع العقاب وأنه كان واثقاً من النصر.

نظم الموحدون الجيش وقسموه إلى خمس فرق الفرقة الأمامية من المتطوعة وقوات القلب من الجنود الموحدين والقوات الاحتياطية والميمنة من الأندلسيين والميسرة من البربر وضربت خيمة الخليفة على ربوة عالية تحرسها فرقة العبيد[2].

ونظم الاسبان جيشهم وقسموه إلى ثلاثة أقسام: القلب يقوده الملك الفونسو مع احتفاظه بالقيادة العليا، والثاني الجناح الأيمن يقوده سانشو ملك نافار ومعه الصليبيون من أوروبا والثالث الجناح الأيسر يقوده بيدرو ملك أراجون[3].

وليلة الاثنين 15 صفر 16/609 تموز 1212 استعد الفريقان. قضى النصارى جزءاً منها في الصلاة والدعاء من أجل النصر.

وبدأت المعركة صباح يوم الاثنين. بدأ النصارى بالهجوم وهاجمت طلائعهم بعنف مقدمة جيش الموحدين فثبت وتراجع النصارى. ثم أتتهم الامدادات فلم يستطع عندها الموحدون اختراق صفوفهم وهاجم صباحاً الجيش

---

(1) تختلف الروايات في عدد جيش الموحدين، ففي نفح الطيب جـ 6 ص 117 600 ألف، وفي روض القرطاس 500 ألف جـ 158.

(2) روض قرطاس 258 ـ أشباخ 367.

(3) أشباخ 366.

النصراني جناحي الجيش الموحدي واستبسلت مقدمة جيش الموحدين في الدفاع حتى استشهد جميع أفرادها[1].

وحاول النصارى التقدم إلى قلب الجيش الموحدي فردوا على أعقابهم بعد قتال عنيف. واستطاع جناحا الجيش الموحدي رد الهجوم الذي تعرضا له فتراجع النصارى.

ولما شاهد الفونسو تراجع قوات النصارى مما ينذر بهزيمة ساحقة،نزل إلى ميدان المعركة بما معه من قوات يقاتل قتال اليائس ومعه ملكا أراجون ونافار. واندفعت قوات النصارى بهجوم صاعق ارتدت على أثره قوات الميمنة والميسرة عند الموحدين. وفر الأندلسيون والعرب من المعركة، فاضطربت صفوف الجيش الموحدي. عندها ركز النصارى هجومهم على قلب الجيش الموحدي حيث خيمة الخليفة، وقد ارتفعت معنوياتهم القتالية بعد هزيمة جناحي جيش الموحدين. وصمد القلب الذي يتألف من جيش الموحدين النظامي. وأخيراً استطاع النصارى اختراق القلب إلى دائرة الحرس الخاص فردتهم سهام الحرس[2]. وأخيراً تمكنوا من اختراق دائرة الحرس فكان أول من دخلها الكونت البارو نونيزدي لارا وبيده علم أبيض على رأس فرقة من الفرنسيين. وصمد الخليفة في هذا الموقف اليائس بعد أن قتل من الحراس العبيد 10 آلاف[3]. وأخيراً فر على ظهر فرس قدمها إليه أعرابي متجهاً نحو بياسة.

ولاذت فلول الجيش الموحدي بالفرار، وقوات النصارى تطاردها وتمعن فيها قتلاً حتى جن الليل ودخل النصارى معسكر الجيش الموحدي الذي أضحى أثراً بعد عين.

لقد كانت خسائر معركة العقاب فادحة جداً بالنسبة للمسلمين فقد هلك

---

(1) روض القرطاس 258 ـ نفح الطيب 420.
(2) روض القرطاس 158.
(3) المعجب 183.

من الجيش الموحدي حوالي مئة ألف رجل.

أياً كانت الأسباب التي أدت إلى الهزيمة فأنها كانت حاسمة بالنسبة إلى الأندلس أدت إلى خراب الأندلس وسقوطها تباعاً بيد الاسبان[1].

استغل الفونسو الثاني انتصار في العقاب فاستولى على الحصون القريبة من مكان المعركة منها حصن العقاب وبلج تولوسا ثم تقدم إلى مدينتي بياسة وأبدة فدخل بياسة وقتل سكانها. ثم سار إلى أبدة فقاومته وحاصرها 15 يوماً وعرض عليه سكانها التسليم لقاء مبلغ مليون دينار على أن تترك المدينة حرة. قبل الفونسو ولكن الأحبار رفضوا ذلك. لم يغضبهم الفونسو فدخلوا المدينة وأبادوا سكانها البالغ عددهم 60 ألف تقريباً[2].

وعاد بعد ذلك إلى طليطلة وقرر أن يكون يوم 16 تموز يوم عيد النصر.

أما الخليفة الناصر فقد عاد إلى إشبيلية، ثم عبر البحر إلى مراكش.

احتجب عن الناس ومرض في أوائل شعبان 610 وتوفي نهار الأربعاء 10 شعبان 610/ ٢٢ ك 1 1213 مغموماً من نكبة العقاب[3].

يوسف بن محمد المستنصر بالله

خلف والده محمد الناصر في 11 شعبان 610/23 ك 1 1213 وهو في السادسة عشرة من عمره[4] نظم الأندلس فولى على غرناطة السيد إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن وعلى إشبيلية عمه أبا إسحاق بن المنصور وفي عهده حدث أمر لم يكن بالحسبان فقد وفد على مراكش اليهودي إبراهيم بن الفخار وزير ملك قشتالة بشأن عقد هدنة رحب بها الخليفة وأرسل الكتب إلى عمال

(1) الروض المعطار ـ نفح الطيب 420 أعمال أعلام 270.
(2) المعجب 184 ـ أشباخ 372.
(3) روض القرطاس 263 ـ الحلل 121.
(4) المعجب 184.

الأندلس يطلب منهم الالتزام بشروط الهدنة مع قشتالة.

بعد معركة العقاب توالت الكوارث على الأندلس وكان قصر أبي دانس أهم المواقع التي سقطت بيد الاسبان بعد المعركة الفاصلة، فقد استغل البرتغاليون وجود اسطول من الألمان في مياه إشبونة متجهاً إلى المشرق، فدعوا بحارته إلى شن حرب صليبية ضد مسلمي الأندلس، فساروا إلى قصر أبي دانس وحاضروه براً وبحراً في 30 تموز 1217 وصمد المسلمون للحصار بقيادة الوالي عبدالله بن وزير. وطلب النجدة من الخليفة فأمر ولاة الأندلس بإنجاده وسارت جيوش الأندلس لرد الاعتداء على الثغر وحلت بها الهزيمة وسقط الثغر نتيجة تخاذل رؤساء الأندلس مما يدل على الحالة السيئة التي آلت إليها الأندلس[1] وذلك في 14 رجب 18/614 ت1 1217 ودخل النصارى الثغر وقتلوا من كان به من المسلمين.

تلا سقوط قصر أبي دانس سقوط قاصرش الواقعة شمال ماردة لتأمين حدود بلاده فسار ملك البرتغال إلى المدينة في ت 2 616/1218 وحاصرها فصمدت حاميتها فاضطر إلى رفع الحصار وعاد سنة 619/1221 إلى مهاجمتها ثم تراجع للمرة الثانية. وتكرر الهجوم عليها حتى سقطت 622/1223 وحدث سنة 618/1220 قدوم سفير قشتالة إلى مراكش لتجديد الهدنة المعقودة.

وطرز وزير المستنطر رسالة إلى ملكة قشتالة من إنشاء الكاتب ابن عياش يعرض فيها ما أبرم بينه وبين مبعوثها بشأن الهدنة[2].

وتوفي الخليفة المستنصر فجأة نهار السبت 12 ذي الحجة 620 دون وريث فاتفق الموحدون على مبايعة السيد أبي محمد عبد الواحد بن الخليفة يوسف المنصور[3] وهو في الستين من العمر.

---

(1) روض القرطاس 273.
(2) الروض المعطار 162.
(3) نفح الطيب جـ 6 ص 117.

الفصل التاسع

مملكة غرناطة

غرناطة منذ الفتح حتى سقوط دولة الموحدين

ـ 1 ـ

غرناطة مدينة صغيرة من أعمال ولاية البيرة فتحها العرب سنة 92 هـ/ 712م. وقد أقطعها أبو الخطار والي الأندلس في عهد هشام بن عبد الملك إلى جند الشام الذين استقروا فيها.

وبعد سقوط الخلافة الأموية وانقسام الأندلس إلى دول الطوائف كانت غرناطة من نصيب البربر الصنهاجيين، فقد استولى عليها زاوي بن زيري الصنهاجي، وحاول المرتضى الأموي[1] أخذها منه لاتخاذها عاصمة له فصده عنها زاوي بعد معركة دامية 408 هـ ثم رحل زاوي إلى تونس مستخلفاً عليها ابن أخيه حبوس بن ماكسن. وبعد وفاته 429 هـ[2] خلفه ابنه باديس تلقب بالمظفر وظل يحكمها حتى وفاته 476 هـ.وخلفه في حكمها حفيده عبدالله بن بلكين بن باديس، ثم ضمها المرابطون سنة 483 هـ[3] واستمرت تحت حكمهم حتى استولى عليها الموحدون 551 هـ/ 1156م وظلوا يحكمونها حتى كانت ثورة محمد بن يوسف بن هود عليهم بعد انهيار دولتهم فخضعت له[4].

بعد وفاة الخليفة يوسف المستنصر بالله[5] سنة 620 هـ/ دون وريث بايع الموحدون عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن.ولكن ثار عليه عبدالله بن

---

(1) المرتضى الأموي. راجع ص 175.
(2) الإحاطة 146 جـ 1.
(3) الإحاطة ص 146.
(4) ابن خلدون جـ 4 ص 168.
(5) روض القرطاس 273 ـ ابن خلدون جـ 1484.

يعقوب والي مرسية وأعلن نفسه خليفة وتلقب بالعادل في صفر 621 هـ/ وبايعه ولاة الأندلس وكانوا إخوته، عين الخليفة الجديد أخاه أبا العلاء إدريس على إشبيلية.وعبر إلى المغرب سنة 622 هـ/ ، ولكن أبو العلاء خلع طاعة أخيه العادل ودعا لنفسه بإشبيلية وتلقب بالمأمون، عندها ثار الموحدون على العادل وقتلوه وعينوا مكانه يحيى ابن أخيه الناصر 624 هـ/[1] فلجأ المأمون إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث طالباً منه المساعدة لقاء مبلغ كبير من المال مع منح امتيازات للنصارى في مراكش منها السماح لهم ببناء كنيسة، فأمده فرناندو بقوة نصرانية عبرت معه إلى المغرب 626 هـ/ 1228 م. ودارت معركة مع الخليفة يحيى الذي انهزم ودخل المأمون مراكش ظافراً. ثم توفي فجأة في ذي الحجة 629 هـ/ 1232 م فخلفه ابنه عبد الواحد وتلقب بالرشيد. نتيجة هذا الصراع بين الموحدين انهار حكمهم في الأندلس، وبرز زعيم أندلسي محمد بن يوسف بن هود من أحفاد حكام سرقسطة، استغل محمد يوسف الأوضاع المتردية في الأندلس وتحالف المأمون الموحدي مع ملك قشتالة فأخذ يدعو إلى تحرير الأندلس من النصارى والموحدين وهذا ما دفع بالأندلسيين إلى تأييده والانضمام إليه. وعندما آنس من نفسه القوة هاجم مدينة مرسية 625 هـ/ 1228 م وانتزعها من حاكمها الموحدي أبي العباس، فاشتد ساعده.واتصل بالخليفة العباسي المستنصر ودعا له[2]، فأرسل إليه الخلع والرايات عندها تلقب بالمتوكل على الله ثم دخلت في طاعته جيان وقرطبة وماردة وبطليوس وغرناطة 628 هـ/ 1231 وكانت خاضعة للخليفة الموحدي المأمون[3].

وخاض ابن هود معارك مع الموحدين والاسبان، وقد انتصر على الموحدين سنة 626 هـ/ 1229 م فانضمت إليه إشبيلية. ولكنه انهزم أمام الفونسو التاسع ملك ليون الذي هاجم مدينة ماردة وحاصرها. وسار ابن هود

(1) روض القرطاس 274 ـ نفح الطيب جـ 1 ص 421 ـ ابن خلدون جـ 4 ص 168.

(2) الخليفة العباسي المستنصر ابو جعفر بن الظاهر تولى الخلافة 623 ـ 640 هـ 1226 ـ 1243 م.

(3) روض القرطاس 274 ـ الإحاطة 146 خضوع غرناطة 626 هـ.

لإنقاذها فانهزم وسقطت المدينة بيد الفونسو(1). ثم تبعتها مدينة بطليوس 627 هـ/ 1230 م.

ودارت معركة مع فرناندو الثالث ملك قشتالة في فحص شريش انهزم فيها ابن هود للمرة الثانية وسقطت المدينة 631 هـ/ 1234 م(2).

بعد هزيمته في شريش سار ابن هود إلى نواحي غرناطة لقتال منافسه محمد ابن الأحمر، فرأى الاسبان أن الفرصة سانحة لهم للاستيلاء على قرطبة التي كانت تعاني من الفوضى والاضطراب وضعف الدفاع عنها. وكان الاسبان قد دخلوها سابقاً مرتين دون أن يستقروا فيها، فهاجم القشتاليون القسم الشرقي منها واقتحموه ليلاً واستولوا على بعض الأبراج. علم فرناندو بالعملية العسكرية الناجحة فأسرع بقواته إلى المدينة وحاصرها استنجد سكانها بابن هود الذي سار بقواته إلى استجه ولكنه لم يتقدم لإنقاذ العاصمة بل تحول إلى بلنسية لمساعدة حاكمها ابن زيان ضد ملك أراجون عله يظفر بالاستيلاء عليها، خاصة بعدما تبين له أن لا قدرة له على التصدي للجيش القشتالي الذي يفوقه عدة وعدداً. وترك قرطبة لمصيرها المحتوم. استبسل سكانها ودافعوا عن مدينتهم أروع دفاع. ولكنهم اضطروا إلى الاستسلام بعد أن أرهقهم الحصار ولم تصل إليهم النجدات.

ودخل القشتاليون عاصمة الأندلس في 23 شوال 633 هـ/ 29 حزيران 1236 وحولوا جامعها مباشرة إلى كنيسة(3).

كان سقوط قرطبة إنذاراً بأن حرب الاسترداد الاسبانية ماضية إلى نهايتها ألا وهي طرد العرب من الأندلس.

وتوفي ابن هود بعد ذلك في ثغر المرية على يد وزيره ونائبه فيها أبي

---

(1) ابن خلدون 129 جـ 4.

(2) روض القرطاس 275.

(3) ابن خلدون جـ 4 ص 169 ـ نفح الطيب جـ 6 ص 209 ـ 422 ـ 215، روض القرطاس 276.

عبدالله محمد بن عبدالله الرميمي. وتفصيل ذلك أنه كان لابن هود جارية نصرانية تركها لدى الوزير الذي استأثر بها وخشي العاقبة،فاغتال سيده في 24 جمادي الأول 635/21 كانون الثاني 1238 م[1].

على أثر وفاة ابن هود انتهز الفرصة خايميى ملك أراجون فهاجم بلنسية التي كان يحكمها السيد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن الذي كان قد انهزم أمام ابن هود في مرسية. ثار عليه البلنسيون والتفوا حول أبي جميل زيان بن مردنيش وخلعوا طاعة الموحدين فغادر أبو زيد بلنسية والتجأ إلى ملك أراجون ودخل في طاعته وأعلن اعتناقه للنصرانية[2] وسار مع سيده الجديد لمحاربة المسلمين، استغل خايميى هذه الظاهرة وأخذ يستولي على حصون المسلمين المحاذية له. وهزم ابن زيان في أنيشه 634 هـ/ 1237، ثم حاصر بلنسية في رمضان 635 هـ/ 1238 م. استمات البلنسيون بالدفاع عن مدينتهم واستنجدوا بالأمير أبي زكريا بن حفص عاهل إفريقية. بادر بإرسال قوات نقلتها عدة سفن، ولكنها لم تستطع خرق الحصار وسقطت المدينة في 27 صفر 636/9 تشرين الأول 1238 م[3].

ودخلت مرسية صلحاً في طاعة فرناندو ملك قشتالة 10 شوال 640 و/ 1243 م[4].

وتبع ذلك سقوط شاطبة ودانية ولقنت وأوريولة وقرطاجنة بين سني 641 و 644 هـ/ 1242 و 1245 م[5].

في هذه الظروف القاسية التي أخذت فيها الأندلس تواجه مصيرها المحتوم بالفناء بعد سقوط قواعدها المهمة قامت دولة عربية في جنوب الأندلس قادت

---

(1) ابن خلدون جـ 4 ص 169 ـ نفح الطيب جـ 6 ص 208.
(2) ابن خلدون جـ 4 ص 168.
(3) ابن خلدون جـ 4 ص 167 ـ نفح الطيب جـ 6 ص 237.
(4) نفح الطيب جـ 6 ص 216.
(5) نفح الطيب جـ 6 ـ 244.

الصراع مع الأعداء مدة قرنين ونصف من الزمن. تلك هي مملكة غرناطة. كان صمودها واستمرارها يعود إلى عوامل جغرافية وبشرية إذ أنها تقع إلى جنوب نهر الوادي الكبير الذي يشكل حاجزاً طبيعياً بين الاسبان والعرب، وفي الوقت ذاته أن موقعها قريب إلى عدوة المغرب حيث كانت الامدادات والنجدات تصلها وتدعم صمودها.

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر الخزرجي

أسس هذه المملكة محمد بن يوسف بن نصر الخزرجي الذي يرجع نسبه إلى سعد بن عبادة الأنصاري الصحابي الكبير[1]. ولد في أرجونة سنة 595 هـ/ 1198 م. ولما كثرت غزوات النصارى لأراضي الأندلس رأى الفرصة سانحة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه فالتف حوله الأنصار في أرجونة والمناطق المجاورة ودخلت في طاعته جيان وبسطة ووادي آش والحصون القريبة رغم معارضة ابن هود له، ثم توجه إلى قواعد الأندلس الجنوبية لأنها بمنأى عن غزوات العدو الاسباني، ورأى أن يستظل بدعوة الخلفاء المسلمين فدعا لأبي زكريا الحفصي حاكم إفريقية وللخليفة العباسي المستنصر وأيدته قرمونة وقرطبة وإشبيلية سنة 629 هـ/ ثم عدلت قرطبة وإشبيلية إلى طاعة ابن هود. ونشبت ثورة في إشبيلية قادها القاضي أبو مروان الباجي وطرد عامل ابن هود منها وبسط نفوذه على المدينة[2]، فحالفه محمد بن يوسف بن الأحمر ضد ابن هود، ولكنه ما لبث أن غدر بالقاضي واغتاله ودخلت في طاعته شريش ومالقة والحصون القريبة منه سنة 630 هـ/ وانضم إلى جيشه كثير من المسلمين الذين غادروا المناطق التي احتلها الاسبان فاستطاع تجهيز جيش كبير ساعده على تنفيذ مشاريعه[3].

---

(1) ابن خلدون جـ 4 ص 17 ـ نفح الطيب جـ 1 ص 280 ـ اللحمة البدرية ص 30 ـ نفح الطيب جـ 4 ص 170و 421 ـ نثير الجمان ص 77.

(2) روض القرطاس 275 ـ نفح الطيب جـ 4 ص 422.

(3) ابن خلدون جـ 4 ص 169 ـ اللمحة البدرية 31.

وبعد وفاة ابن هود عمل على ضم المناطق التي كانت تحت سيطرته، كان ابن هود قد ولى على غرناطة عتبة بن يحيى المغيلي، كان جائراً وخصماً لابن الأحمر يأمر بسبه على المنابر، وثار عليه جماعة من أشرافها بزعامة ابن خالد[1] وقتلوه وأعلنوا ولاءهم لمحمد بن يوسف بن الأحمر واستدعوه، فسار محمد إلى غرناطة ودخلها غروب الشمس آخر شهر رمضان 635 هـ/ نيسان 1238 وهو يرتدي ملابس خشنة تواضعاً. نزل بجامع القصبة وصلى المغرب بالناس ثم غادر المسجد إلى قصر باديس الصنهاجي. ومنذ تلك اللحظة غدت غرناطة قاعدة ملكه[2].

بعد أن استقر في غرناطة سار إلى المرية وانتزعها من حاكمها ابن الرميمي وبذلك امتد حكمه إلى الشواطىء الجنوبية[3].

كان يساعد ابن الأحمر في تحقيق مشاريعه أصهاره بنو اشقيلولة المولدين. كان زعيمهم أثناء الفتنة أبا الحسن بن اشقيلولة من زعماء الأندلس ومن خصوم محمد ابن هود، فانحاز إلى جانب ابن الأحمر وأيد دعوته منذ قيامها. وتوطدت العلاقة بين الأسرتين بالمصاهرة إذ تزوج أبو الحسن أخت محمد بن يوسف وتزوج ابنه كذلك أبو محمد عبدالله بن أشقيلولة من ابنة محمد أيضاً. ولما استقرت له الأمور ندب أبا الحسن لحكم وادي آش، وأبا محمد عبدالله لمالقة. وبعد وفاة أبي الحسن خلفه في وادي آش ابنه أبو إسحق. وقوي نفوذ بني أشقيلولة لأنهم كانوا يطمعون بأكثر من حكم المدن مما جعل ابن الأحمر يخشاهم في آخر أيامه[4].

وهكذا ولدت مملكة غرناطة من رحم الفوضى التي سادت الأندلس وكانت بحاجة إلى الاستقرار بعد أن مزقت الفتنة الأندلس وجعلتها فريسة سهلة

---

(1) اللمحة البدرية 35 ـ نفح الطيب جـ 1 ص 422.
(2) نفح الطيب جـ 1 ص 422.
(3) نفح الطيب جـ 1 ص 422.
(4) ابن خلدون جـ 4 ص 170 ـ روض القرطاس 275 ـ أعمال الأعلام 287 ـ نفح الطيب جـ 1 ص 422.

بيد الأعداء. فكان على ابن الأحمر وقد أضحى أمل الأندلسيين أن يعمل على إنقاذ الأندلس من الحالة التي آلت إليها على يد حكامها المتخاذلين الذين كانوا يؤثرون الانضواء تحت راية الملك الاسباني على مظاهرة محمد بن يوسف بن الأحمر، فكان هؤلاء الحكام الصغار يضحوم بمقدساتهم ويخضعون للاسبان ويؤدون لهم الضرائب للبقاء في حكم مدنهم ومقاطعاتهم[1].

كان فرناندو ملك قشتالة يرى في ابن الأحمر عدواً يجب القضاء عليه، وكان ابن الأحمر يرى في نفسه أنه زعيم الأندلس وأن موقفه يحتم عليه حماية ما تبقى منها والتصدي للنصارى، فسار إلى قلعة مركش التي تقع إلى جنوب غرب جيان وحاصرها سنة 636 هـ/ رداً على غارات النصارى على أحواز جيان، وقدم النصارى لنجدتها فاضطر ابن الأحمر إلى رفع الحصار، واشتبك مع القوة القادمة في معركة أسفرت عن هزيمة القشتاليين قتل فيها قائد قلعة مرتش وعدد من قادة فرسان قلعة رباح[2]. بعد الهزيمة التي لحقت بجيشه في مرتش، نظر فرناندو إلى هذه المملكة بعين الحذر، وتاق للثأر لتلك الهزيمة، فبعث جيشاً بقيادة ابنه الفونسو إلى منطقة جيان فاستولى على أرجونة مسقط رأس محمد بن الأحمر، ثم حاصر غرناطة سنة 642 هـ/ 1244 م ولكنه تراجع أمام حصونها المنيعة، وعاد القشتاليون في السنة التالية 643 هـ/ 1245 م إلى مهاجمة جيان، فكادت تسقط. عندئذ رأى ابن الأحمر أن لا طاقة له بالاستمرار في الحرب لتفوق النصارى عليه. آثر مهادنة فرناندو فسار إليه معترفاً بطاعته. وتم الاتفاق بين الاثنين على أن يحكم ابن الأحمر مملكته باسم ملك قشتالة، وأن يؤدي جزية سنوية مقدارها 150 ألف قطعة ذهبية ويتنازل له عن عدد من الحصون على أن يساعد الملك القشتالي ابن الأحمر في حربه ضد أعدائه من المسلمين، فيقدم الملك عدداً من الجنود لمساعدته وأن يحضر ابن الأحمر اجتماع قشتالة النيابي (الكورتيس) باعتباره تابعاً للعرش القشتالي[3].

(1) نفح الطيب جـ 1 ص 422.
(2) عنان ـ نهاية الأندلس ص 43.
(3) عنان ـ نهاية الأندلس 43 ـ ابن خلدون جـ 4 ص 190.

وتنفيذاً للاتفاق، سلم ابن الأحمر إلى فرناندو جيان وأرجونه وقلعة جابر كرهائن دليلاً على حسن النية. وتنازل له كذلك عن الفرنتيرة[1].

لقاء هذا الخضوع عقد السلم بين الفريقين لمدة عشرين سنة عام 643 هـ/ 1245 م. وهكذا ضحى ابن الأحمر باستقلاله السياسي لقاء الاحتفاظ بأراضيه[2].

ونتيجة الفتن المستمرة، كان الزعماء الأصاغر يهرعون إلى مصادقة ملك قشتالة والانضواء تحت لوائه للاحتفاظ بالحكم. وكان سلوك ابن الأحمر يشجعهم على المضي في هذا الطريق.

وكان الاسبان قد استولوا على شرق الأندلس، وبقي الغرب فريسة سهلة انتزعوه بسهولـة. ففي سنة 645 هـ/ 1247 م تنازل القاضي ابن محفوظ لفرناندو الثالث عن المقاطعات التي كانت خاضعة له في غرب الأندلس وتضم طبيرة والعلى وشلب والخزانة ومرشوشة وبطرن والحرة[3]. وأخذ فرناندو يتأهب للاستيلاء على إشبيلية، بدأ باحتلال الحصون الأمامية لها، واقنع ابن الأحمر سكـانها بتسليمها صلحاً حقناً للـدمـاء. وتـم ذلـك فـي أواسـط 645 هـ/ 1247 م. وهكذا سقطت الحصون جميعها بيد الاسبان.

وبدأ فرناندو بحصار إشبيلية في جمادي الأولى 645 هـ/ آب 1247 بقوة كبيرة. وسد أسطول قشتالي مجرى الوادي الكبير منعاً من وصول الإمدادات إليها. بالإضافة إلى ذلك أرسل ابن الأحمر كتابع لفرناندو قوة من الفرسان للمساعدة في حصار المدينة، بدل أن يرسل تلك القوة لمساعدتها. وهكذا نزل حكام الأندلس المسلمون إلى هذا الدرك من الخيانة والتخاذل جعلهم يساعدون العدو ضد أبناء شعبهم[4].

---

(1) اللمحة البدرية 36 ـ الإحاطة جـ 2 ص 65.
(2) اللمحة البدرية ص 36 ـ الإحاطة جـ 2 ص 65.
(3) نهاية الأندلس ص 43.
(4) ابن خلدون جـ 4 ص 190 ـ نفح الطيب جـ 6 ص 216.

تولى القائد ابن شقاف الدفاع عن المدينة وصمدت. وطال الحصار كانت تصلها بعض الإمدادات من المغرب. واستغاث الشعراء بأهل العدوة وعلى رأسهم الشاعر إبراهيم بن سهل الإشبيلي، فقد أرسل قصيدة مؤثرة يستصرخ فيها أهل المغرب ويطلب النجدة.

يا معشر العرب الذين توارثوا شيم الحمية كابراً عن أكبر
أنتم أحق بنصرة دين نبيكم ولكن تمهد في قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا ذاك البناء بكل لدن أسمر[1]

وبعد سنة ونصف من الحصار الشديد وبعد مقاومة باسلة اضطرت إشبيلية إلى الاستسلام. ودخلها فرناندو في مستهل رمضان 646 هـ/ 23 كانون الأول 1248[2].

محى فرناندو المعالم الإسلامية للمدينة فحول مباشرة مسجدها إلى كنيسة. وتفرق سكانها في المدن التي كانت لا تزال تحت سيطرة المسلمين وخاصة غرناطة.

وتلا سقوط إشبيلية سقوط المناطق المجاورة لها شريش وشذونة وقادس وغيرها، وسقوط قادس كان بمعاونة ابن الأحمر[3].

وليس من مبرر لأفعال ابن الأحمر الخيانية الشاذة في مساعدة القشتاليين في حربهم ضد المسلمين، فأنها خيانة قل مثيلها في التاريخ العربي، ولكنها كانت شائعة في الأندلس وخاصة بعد سقوط الخلافة.

كان الغوث المنتظر للأندلس من وراء البحر من العدوة. ولبى بنو مرين النداء قبل أن يثبتوا حكمهم في المغرب، فعبر إلى الأندلس حوالي ثلاثة آلاف مقاتل، على رأسهم القائد محمد بن إدريس المريني وأخوه الفارس عامر،

(1) الذخيرة ص 74.
(2) نفح الطيب جـ 7 ص 216.
(3) ابن خلدون جـ 4 ص 190.

أرسلهم السلطان يعقوب بن عبد الحق[1]. عدا عن المتطوعين. فقد أحدثت رسائل وقصائد الاستنجاد بالمغاربة التي كان يرسلها الأندلسيون أثرها، إذ كان الفقهاء وخطباء المساجد يحضون الناس على الجهاد[2] ومن هذه القصائد قصيدة مؤثرة لابن المرحل قرئت في جامع القرويين بفاس نهار الجمعة 665 هـ وبكى الناس لسماعها:

استنصر الدين بكم فاستقدموا ... فــانكــم أن تسلمــوه يسلــم

لاذت بكــم أنــدلــس نــاشــرة ... بــرحــم الــديــن ونعــم الــرحــم

فاسترحمتكم فاسترحموها أنه ... لا يرحم الرحمن من لا يرحم[3]

بعـد وصـول هـذه القـوة تبـدل مـوقـف ابـن الأحمـر وتحـول إلـى متصـد للاسبان. فعندما هاجموا أراضيه سنة 662 استطاع أن يهزمهم بمساعدة المتطوعين القادمين من المغرب. فكان أول نصر تحرزه الأندلس على أعدائها منذ انهيار دولة الموحدين، وعندما عبر المجاهدون المرينيون استعاد قائدهم عامر مدينة شريش من الاسبان.

تخوف ملك قشتالة من هذه الظاهرة وخشي أن يشتد ساعد ابن الأحمر بالمساعدات التي ترد على الأندلس من العدوة، فرأى أن يبادر للاستيلاء على قواعد الأندلس الباقية بيد العرب. ففي سنة 662/ 1263 انتزع مدينة استجه من حاكمها ابن يونس، وطرد سكانها المسلمين بعد أن قتل وسبى كثيراً منهم، رغم أنها دخلت بالأمان.

واستمر الفونسو العاشر بالعمل على احتلال ما يمكن احتلاله. أرسل صهره نونيو دي لارا 663/ 1264 لمهاجمة مملكة غرناطة فاستغاث ابن الأحمر بالمغرب، أرسل إليه السلطان المستنصر بالله الحفصي أموالاً لمساعدته، ولكن ذلك لم يغير من واقع الحال شيئاً عندها اضطر ابن الأحمر لمهادنة ملك قشتالة،

---

(1) نفح الطيب جـ 1 423.

(2) نفح الطيب جـ 1 ص 443.

(3) روض القرطاس 303.

وتنازل له عن عدد من المدن والحصون منها مدينة شريش وبلغ عدد الحصون التي تنازل عنها للاسبان أكثر من مئة حصن في غرب الأندلس[1].
665/ 1267.

وهكذا فقدت الأندلس مدنها وقواعدها التالده خلال ثلاثين عاماً 627 ـ 655 وانحسرت في رقعة ضيقة حول غرناطة بعد أن كانت تشغل نصف مساحة شبه الجزيرة قبل قرن تقريباً.

وأثار الانهيار السريع قرائح الشعراء فنظموا القصائد الوجدانية والقومية التي ترثي الأندلس منهم أبو الطيب صالح بن شريف الرندي الذي يبكي الأندلس فيها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان   فلا يغر بطيب العيش إنسان[2]

وقضى محمد بن يوسف أيامه الأخيرة يوطد دعائم ملكه، اختار لولاية عهده ابنه أبا سعيد[3] فرج. ولكنه توفي، فعين مكانه ابنه محمد آخذاً بالنظام الوراثي.

لم يحرك الاسبان ساكناً، فقد التزموا بالهدنة مع ابن الأحمر، ولكن التمرد أتاه من أصهاره بني أشقيلولة. وكان قد زوج سنة 664/ إحدى بناته لابن عمه الرئيس أبي سعيد بن إسماعيل بن يوسف ووعده بولاية مالقة. وكان واليها أبا محمد بن أشقيلولة وهو صهره أيضاً، فغضب واستقل بالمدينة. فسار إليه ابن الأحمر ومعه فرقة من النصارى وحاصر مالقة ثلاثة أشهر، ولكنه ارتد عنها سنة 665/1266 م، ثم عاد إلى حصارها مرة ثانية 668/1269، وفشل أيضاً في الاستيلاء عليها.

وعاد الاسبان إلى مهاجمة المملكة الاسلامية، فأغار الفونسو العاشر على الجزيرة الخضراء وعاث فيها. استنجد ابن الأحمر بالسلطان أبي يوسف

---

(1) نهاية الأندلس 49.
(2) نهاية الأندلس 50.
(3) اللمحة البدرية 37.

المريني، ولكن ابن الأحمر توفي قبل وصول الامدادات إليه.

تلقب ابن الأحمر بأمير المسلمين، وقد بنى قصر الحمراء الشهير في غرناطة واتخذه مركز حكمه. كان يباشر الأمور بنفسه ويدقق بالأموال، يخصص للعامة يومين يعالج أمورهم. كان يعقد مجلس شورى من الزعماء والفقهاء والقضاة يسترشد بآرائهم في تصريف أمور المملكة.

استوزر عبد الملك بن يوسف بن صناديد صاحب جيان والقائد محمد الرحيمي.

بعد حياة حافلة بالجهاد توفي محمد بن يوسف ابن الأحمر في 29 جمادى الآخرة 671/ 1272 كانون الأول إثر سقوطه عن جواده وقد قارب الثمانين. ودفن بالمقبرة العتيقة بأرض السبيكة[1].

2 ـ محمد بن محمد بن يوسف الفقيه 671 ـ 701

بعد وفاة ابن الأحمر مؤسس المملكة خلفه ابنه أبو عبدالله محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه لعلمه[2]، ولد بغرناطة 533/1235 كان يتمتع بالخلال الحميدة، شاعراً يؤثر مجالسة العلماء والأدباء، اهتم بالمملكة نظم الدواوين والجباية.

مع تسلمه الحكم عاد الاسبان إلى سياستهم العدوانية تجاه مملكة غرناطة، وشعر محمد الفقيه بالخطر يتهدده من الفونسو العاشر القشتالي.

وكان والده قد أوصاه بالتحالف مع بني مرين في المغرب لأنهم القوة الوحيدة التي بإمكانها مساعدة الأندلس[3].

وبنو مرين من قبيلة زناته البربرية، ومع ذلك فإنهم يرجعون نسبهم إلى

---

(1) اللمحة البدرية ص 31 و 32 ـ نفح الطيب جـ 1 ص 423.

(2) اللمحة البدرية 37.

(3) ابن خلدون جـ 7 ص 191.

العرب، وأنهم يتحدرون من بر بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار كما الصنهاجيون يرجعون نسبهم إلى قبيلة حمير اليمانية(1).

وقد انتصر بنو مرين على الموحدين في معركة وادي غفو بين فاس ومراكش. ودخل أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق مراكش 9 محرم 668(2).

وكانت أنظار الأندلس تتطلع دائماً نحو المغرب أثناء المحن، فلما اشتد خطر القشتاليين على غرناطة، أرسل محمد الفقيه وفداً أندلسياً يحمل رسالة استغاثة إلى سلطان المغرب يشرح له فيها أوضاع الأندلس وخطر الاسبان الداهم، استجاب السلطان،وكتب إلى ابن الأحمر يعلمه بعزمه على الجواز إلى الأندلس برسم الجهاد، وأرسل فوراً قوة من خمسة آلاف جندي بقيادة ابنه أبي زيان عبرت إلى الأندلس على متن عشرين جفناً أعدها الفقيه أبو القاسم العزمي، ونزلت بطريف في 16 ذي الحجة 673/1275 م(3)، وعاث أبو زيان في أراض النصارى حتى وصل إلى شريش.وعاد محملاً بالغنائم والأسرى والسبي. وكان السلطان قد استعد للعبور فأرسل إلى ابن الأحمر يطلب منه التنازل له عن بعض الثغور لتكون مراكز تجمع لجيوشه في الذهاب والإياب، فتنازل له عن رنده وطريف والجزيرة(4) وعبر السلطان إلى الأندلس ونزل بطريف نهار الخمس 21 صفر 674 هـ/ 15 آب 1275 م، فأسرع ابن الأحمر وبنو أشقيلولة للترحيب به.

اجتاح السلطان سهل الفرنتيرة، ووصل إلى أبدة شرق قرطبة، تصدى له القشتاليون بقوات بلغت تسعين ألف مقاتل(5). يقودها صهر الملك الدون نونيو دي لارا، وكان السلطان قد تراجع إلى أستجة، ووضع الغنائم في ناحية حتى لا تشغل نفوس المحاربين. ثم نظم الجيش فولى على مقدمته ابنه يوسف أبا يعقوب. وحض جنوده على الاستشهاد في سبيل الإسلام. وزحف نحو

---

(1) نهاية الأندلس 95 ذخيرة سنة 10 ـ 11 ـ 12.

(2) ابن خلدون 166 جـ 7.

(3) روض القرطاس 313.

(4) نفح الطيب جـ 1 ص 423.

(5) نهاية الأندلس 100.

القشتاليين ومعه فرقة أندلسية بقيادة بني أشقيلولة، ودارت معركة قرب استجه 15 ربيع الأول 674 هـ/ 9 أيلول 1275 م إنهزم فيها القشتاليون هزيمة قاسية كانت الأولى منذ انتصارهم في معركة العقاب، إذ بلغ عدد القتلى 18 ألف بينهم القائد نونيودي لارا.

أمر السلطان بجمع رؤوس القتلى وأذن عليها لصلاة العصر[1]. عاد السلطان إلى الجزيرة الخضراء حيث أراح جيشه ووزع الغنائم وأعطاها لابن الأحمر، فقد بلغ عدد الأسرى 7830 شحصاً وحيوانات النقل 614 ألف رأس. وقد أرسل إليه الرئيس أبو محمد بن أشقيلولة قصيدة يهنته بالنصر مطلعها.

هبت بنصركم الرياح الأربع وجر بسعدكم النجوم الطلع[2]

وخرج السلطان للغزو فوصل إلى أحواز إشبيلية نهار الأربعاء 18 جمادى الأول/ 23 تشرين الأول، ثم ارتد إلى شريش فطلب منه رهبانها وزعماؤها الصلح فاستجاب لهم[3] وعبر السلطان المضيق عائداً إلى المغرب في رجب 674/ كانون 1 1275 بعد أن قضى في الأندلس 5 أشهر.

على أن هذا النصر الذي أحرزه السلطان المريني على القشتاليين لم يلق ترحيباً لدى ابن الأحمر، إذ أخذ يرتاب بنوايا السلطان خاصة بعد أن قرب إليه بني أشقيلولة[4]. وكان السلطان قد بعث إليه برأس نونيو دي لارا فأرسله بدوره بعد أن ضمخه بالطيب والمسك والكافور إلى الفونسو[5].

بعد وفاة أبي محمد بن أشقيلولة سنة 676 هـ/ صاحب مالقة تنازل ابنه محمد عنها إلى السلطان المريني أبي يوسف يعقوب الذي أرسل بدوره حاكماً لها من قبله مما زاد من شكوك ابن الأحمر بالسلطان، فأرسل وزيره عزيز الداني

---

(1) روض القرطاس 316، 317، 318 ـ نفح الطيب جـ 1 ـ 423.
(2) روض القرطاس 319.
(3) روض القرطاس 328.
(4) ابن خلدون جـ 7 ص 198.
(5) روض القرطاس 319.

للاستيلاء على المدينة ففشل. وجاز السلطان أبو يوسف المضيق إلى الأندلس نهار الخميس 28 محرم 1/677 تموز 1278 م وحل بمالقه، فلقي ترحيباً حاراً من سكانها، ثم غزا أراضي النصارى[1] يرافقه بنو أشقيلولة حتى وصل إلى نواحي إشبيلية. تجنب القشتاليون الاشتباك معه. ثم دعا ابن الأحمر للقائه تم اللقاء قرب قرطبة ودار عتاب بينهما لم يؤد إلى صفاء القلوب. واستطاع ابن الأحمر أن يحصل على مالقه 677 ـ 1279 بعد أن أعطى لصاحبها ثغر المنكب وشلوبانية، ثم اتصل بملك قشتالة واتفق معه على منع السلطان المريني أبي يوسف من العبور إلى الأندلس. وبالفعل نزلت قوات قشتالية في الجزيرة الخضراء ثم أرسل ابن الأحمر إلى يغمراسن ملك المغرب الأوسط خصم السلطان يعرض عليه محالفته. علم السلطان المنصور بالأمر فأرسل أسطولاً كبيراً من إحدى وسبعين سفينة إلى الأندلس مطلع سنة 678 هـ/ 1279 م بقيادة ابنه أبي يعقوب وهزم أسطول النصارى وأسر سفنه وكان بين الأسرى ابن أخت الفونسو. ثم نزل بالجزيرة الخضراء[2]. وزحف أبو يعقوب على مربلة فصده ابن الأحمر.

انتهز القشتاليون وبنو أشقيلولة فرصة انشغال ابن الأحمر بالتصدي لقوات المرينيين، وهاجموا غرناطة فردهم ابن الأحمر على أعقابهم 679/ 1280. خشي السلطان عاقبة هذه السياسة على مسلمي الأندلس، اتصل بابن الأحمر وعرض عليه المودة والتفاهم لما فيه مصلحة المسلمين. تم الاتفاق بينهما، وطلب السلطان من ابن الأحمر بأن يتنازل له عن مالقه لتكون قاعدة لجيشه. وهكذا توطدت العلاقات بين السلطان وابن الأحمر[3].

وأضحت بعد ذلك دولة بني مرين تستقطب اهتمام النصارى كلما نشبت بينهم حرب أهلية. فقد تولى حكم قشتالة الفونسو العاشر الملقب بالعالم أو

---

(1) روض القرطاس 324.
(2) روض القرطاس 333 ـ ابن خلدون جـ 14 ص 765. يذكر العداء بين ابن الأحمر والسلطان المنصور.
(3) روض القرطاس 335.

الحكيم وكانت له صلات وثيقة بعلماء الأندلس. تأثر بتفكيرهم وآرائهم. وكان يحترم جيرانه المسلمين لعلومهم وثقافتهم، انصرف إلى العلوم ووضع جداوله الفلكية المسماة باسمه (الالفونسية). وكان اهتمامه بالعلوم أن أهمل شؤون المملكة، فاضطربت أوضاعها وثار عليه مطلع 681 هـ/ 1282 ابنه سانشو وخلعه عن العرش، استنجد الفونسو المخلوع بالسلطان المنصور المريني الذي لبى نداءه، فعبر إلى الجزيرة الخضراء. وهرع الفونسو للقائه[1] وقدم إليه تاجه رهناً للمساعدة[2] فأمده السلطان بمئة ألف قطعة من الذهب لتجهيز الجيوش. وغزا المنصور قرطبة وحاصرها ثم زحف على طليطلة ووصل إلى قلعة مجريط[3].

انقلب ابن الأحمر إلى معاداة السلطان وتحالف مع سانشو ملك قشتالة الجديد، انتهز توغل السلطان في قشتالة وهاجم ثغر المنكب حيث ترابط قوات المغرب، مما أغضب السلطان فارتد لقتاله. خشي ابن الأحمر عاقبة تصرفاته وعاد إلى التفاهم مع السلطان وصفت العلاقات بينهما. وقفل السلطان أبو يوسف عائداً إلى المغرب مثقلاً بالأسرى والغنائم[4].

وفي 20 صفر 684/ آب 1285 عبر السلطان أبو يوسف إلى الأندلس وزحف على أراضي النصارى وهدفه تخريب الأراضي التي استولوا عليها من المسلمين، وغزا شريش. وسار ابنه أبو يعقوب إلى إشبيلية، ثم اجتاح جيش المنصور أراضي قرمونه والوادي الكبير وبسائط إشبيلية ولبلة واستجه الفرنتيرة. سر ابن الأحمر لأعمال السلطان العسكرية وبعث بقوة من غرناطة لمؤازرته. ثم وصل الأسطول المغربي واستولى على مضيق جبل طارق وطرد سفن العدو منه. عندها رأى سانشو عقم المقاومة فطلب الصلح. وبعث إلى السلطان وفداً من الأحبار لهذا الغرض مزوداً بالموافقة على شروط السلطان.

---

(1) روض القرطاس 337 ـ 338.
(2) ابن خلدون جـ 7 ص 205 ـ روض القرطاس 338.
(3) ابن خلدون جـ 7 ص 205.
(4) روض القرطاس ص 338.

استجاب المنصور لمطلب الوفد القشتالي. اشترط عليهم مسالمة المسلمين وامتناعهم عن الاعتداء على الأندلس وإلغاء الضرائب المفروضة على التجار المسلمين لقاء عبورهم بلاد النصارى، وابتعاد قشتالة عن سياسة الدس بين المسلمين، قبل الوفد القشتالي هذه الشروط جميعها وتعهد بتنفيذها. وعلى الأثر قدم سانشو إلى معسكر السلطان الذي استقبله مرحباً به وتعهد سانشو بتنفيذ الشروط. وسأله السلطان أن يرسل إليه بعض الكتب العربية التي صادرها النصارى من المدن الأندلسية، فأرسل إليه ثلاثة عشر حملاً نقلها السلطان إلى فاس منها كتب التفسير للثعالبي وابن عطية،ثم نظم شؤون الأندلس فعين ابنه أبا زيان على الثغور وأوصاه بألا يتدخل في شؤون ابن الأحمر. كان لهذا التدبير أثره الطيب لدى ابن الأحمر الذي قرب إليه بني مرين المهاجرين إلى الأندلس، وكان منهم الفرسان الأشداء فأسند إليهم قيادة الجيش[1].

أقام السلطان أبو يوسف في الجزيرة الخضراء استعداد للعبور إلى المغرب. ولكن أدركه المرض وتوفي في محرم 685/ آذار 1285 في الجزيرة الخضراء بعد حياة حافلة بالجهاد في المغرب والأندلس. وخلفه على الحكم ابنه يوسف أبو يعقوب.

استمرت العلاقات ودية مع ابن الأحمر وتنازل له السلطان الجديد عن وادي آش[2].

انتهز سانشو ملك قشتالة وفاة السلطان أبي يوسف فنكث بعهده، وأغار سنة 690/ 1291 على أراض المسلمين، فرد السلطان أبو يعقوب بمهاجمة شريش، وأعلن الجهاد، فأرسل سانشو أسطوله إلى المضيق ليحول دون وصول المجاهدين من المغرب ودارت معركة بحرية انهزم فيها الأسطول الإسلامي 1291/690. لكن هذه الهزيمة لم تفت من عضد السلطان. فأرسل أسطولاً آخر أجبر الأسطول القشتالي على الانسحاب. وعبر السلطان إلى الأندلس في

(1) نفح الطيب جـ 2 ص 639 ـ روض القرطاس 341، 342، 343.
(2) ابن خلدون جـ 7 ص 217 ـ روض القرطاس 378.

رمضان 690/ 1292 وغزا شريش ووصل إلى أحواز إشبيلية ثم عاد إلى المغرب 691/1292 م(1).

تخوف ملك قشتالة من سياسة السلطان نحوه، فاتصل بابن الأحمر وحذره من نوايا المغاربة تجاه ثغور الأندلس ولا سيما طريف. وكان سانشو يريد الاستيلاء على هذا الثغر بمساعدة ابن الأحمر.

انخدع ابن الأحمر، وتم الاتفاق بين الاثنين على انتزاع طريف من المرينيين وطلب ابن الأحمر أن تكون ضمن أملاكه. وقبل سانشو علانية ولكنه كان يخفي عكس ذلك، إذ كان يريد أن تكون له. وهاجم التحالف الجديد القشتالي الغرناطي الثغر الذي سقط بعد أربعة أشهر من الحصار أيلول 1292/ 691. ورفض سانشو تسليم الثغر إلى ابن الأحمر الذي أدرك بعد فوات الأوان الخديعة التي أبعدته عن حليفه الطبيعي، فعاد يرسل الوفود إلى السلطان معتذراً عما بدر منه بشأن طريف.

استجاب السلطان إلى مطلب ابن الأحمر ورضي عنه. عندها ذهب ابن الأحمر إلى طنجه حيث استقبله السلطان وزوده بقوة لاستعادة طريف ولكنه لم يوفق في ذلك(2).

وعقد ابن الأحمر معاهدة صلح مع ملك أراجون خايمي الثاني جاء فيها أن يلتزم الفريقان الأندلسي والأراجوني عدم الاضرار ببعضهما، وأن تعادي أراجون أعداء غرناطة سواء من المسلمين والقشتاليين وأن تكون أبواب التجارة مفتوحة بين البلدين بحيث يتنقل التجار بحرية وأمان، وأن يتعهد ملك غرناطة بمساعدة أراجون في صراعها ضد قشتالة وألا يعقد صلحاً معها إلا بموافقة حليفه، ويتعهد ملك أراجون لسلطان غرناطة بمثل ذلك. وألا يعترض سلطان غرناطة على ما يستولي عليه حليفه ملك أراجون من أراضي قشتالة إلا المناطق التي كانت تابعة لغرناطة

(1) ابن خلدون جـ 7 ص 217 ـ روض القرطاس 379، 380.

(2) روض القرطاس 383 ـ ابن خلدون جـ 7 ص 217.

فتعاد إليها وقد وقعت هذه المعاهدة آخر ربيع الثاني 701/ 31 كانون الثاني 1301[1].

بعد توقيع المعاهدة توفي محمد الفقيه في شعبان 701/ أيار 1302 وخلفه ابنه أبو عبدالله محمد الملقب بالمخلوع[2].

السلطان محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن الأحمر

وفي عهده ساءت العلاقات مع بني مرين فقد رأى أن يتحالف مع ملك قشتالة ضد السلطان أبي يعقوب. وبدأ عمله العدائي ضد السلطان المريني بأن أوعز إلى صاحب مالقة أبي سعيد فرج بن إساعيل بأن يحرض أهل سبته على خلع السلطان وأن يعود إلى محالفة ملك قشتالة. جهز أبو سعيد حملة بقيادة عثمان بن أبي العلاء المريني هاجمت سبته واستولت عليها في شوال 1306/705 م. ثم جاء أبو سعيد إلى سبته واستبد بأمرها وأعلن انضواءها تحت سلطة السلطان محمد ابن الأحمر[3].

استاء السلطان المريني لهذا الغدر وبعث على الفور حملة إلى سبته. حاصرت المدينة ولكنها فشلت في دخولها. فانسحبت وطاردها عثمان بن أبي العلاء وخرب أحواز سبته 1307/706[4].

عزم السلطان أن يسير بنفسه لاسترداد المدينة، ولكن فتى من خصيانه يدعى «لاسعادة» اغتاله في ذي القعدة 706/ نيسان 1307. تسلم الحكم بعده ابنه عامر أبو ثابت[5] بعد صراع مرير مع أخيه أبي سالم.

في تلك الأثناء وقعت بالأندلس ثورة ضد السلطان محمد قادها أخوه أبو

---

(1) عنان: نهاية الأندلس 112.

(2) الإحاطة جـ 1 ص 552.

(3) الإحاطة جـ 1 ص 552 و 560.

(4) روض القرطاس 387 و 388.

(5) إحاطة ص 558.

الجيوش نصر بن محمد الفقيه[1]. اعتقل الثوار السلطان وخلعوه وقتلوا وزيره ابن حكيم في 708/ 1309[2].

نصر بن محمد الفقيه

كان السلطان الجديد نصر بن محمد الفقيه في الثالثة والعشرين من العمر. وفي عهده ساءت العلاقات بين غرناطة وقشتالة، غزا القشتاليون أراضي الأندلس 709/ 1309 واستغل ملكهم فرناندو الرابع العلاقات الفاترة بين غرناطة وبني مرين وانقطاع الإمدادات المغربية عن الأندلس منذ سقوط طريف بيد القشتاليين فعقد اتفاقاً مع ملك أراجون رغم عقد هذا الأخير معاهدة مع ابن الأحمر محمد الفقيه سنة 701/1301 م. واتفق الملكان القشتالي والأراجوني بأن يهاجم ملك أراجون المرية بينما يهاجم ملك قشتالة جبل طارق. بدأ حصار المنطقتين في وقت واحد 709/1309. فشل ملك أراجون في احتلال المرية وارتد بعد أن تكبد خسائر فادحة[3].

ورغم هزيمة النصارى في المرية استمر القشتاليون في حصار جبل طارق حتى اضطر المدافعون إلى الاستسلام. وسقط الثغر المنيع 709/ آذار 1310 بيد القشتاليين[4].

أدرك السلطان نصر ابن الأحمر، بعد فوات الأوان وكما حدث عند سقوط طريف ـ فداحة الخطأ الذي ارتكبه بمهاجمة سبته، فعاد يخطب ود السلطان المريني الجديد أبي ثابت عامر.

على أن تحسن العلاقات مع بني مرن لم يثن القشتاليين عن متابعة نشاطهم العسكري ضد غرناطة مما أجبر السلطان نصر ابن الأحمر إلى مهادنة فرناندو ملك قشتالة ودفع الجزية له، فثار عليه الشعب، وقاد الثورة ابن عمه حاكم غرناطة الرئيس أبو سعيد فرج بن إسماعيل ابن الأحمر، وعين الثوار أبا الوليد

(1) اللمحة البدرية ص 63 ـ روض القرطاس 387.
(2) إحاطة 560.
(3) ابن خلدون جـ 7 ص 240 ـ اللمحة البدرية 62.
(4) نفح الطيب جـ 1 ـ 425.

إسماعيل حفيد إسماعيل أخ محمد بن يوسف مؤسس المملكة، تنازل محمد «الذي لقب بالمخلوع» عن الحكم بعد هزيمته سنة 1313/712 وتربع على عرش غرناطة السلطان أبو الوليد إسماعيل في شوال 1314/713[1].

السلطان أبو الوليد إسماعيل 713 ـ 725/ 1314 ـ 1325

في أوائل عهده غزا القشتاليون مناطق غرناطة وهزموا المسلمين في وادي فرتونه 1317/716[2]. ثم هاجموا غرناطة بجيش كبير[3].

استنجد أبو الوليد بالسلطان المريني أبي سعيد الذي طالبه بتسليمه المتمرد عثمان بن أبي العلاء لقاء المساعدة، أبى السلطان ابن الأحمر ذلك.

كان يقود الجيش القشتالي الدون بيدرو (دون بطرة) والدون خوان الوصيان على العرش تساعدهما فرقة من المتطوعين الانكليز.

وبلغ عدد الجيش الغرناطي ستة آلاف إلى سبعة منهم ألف وخمسمائة فارس بقيادة أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء. دارت معركة شديدة في البيرة هزم فيها القشتاليون ولاذوا بالفرار بعد أن تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح. كان من بين القتلى قائدا الجيش القشتالي دون بطرة وخوان مع عدد كبير من أشرافهم. وطاردهم المسلمون مدة ثلاثة أيام يأسرون ويقتلون[4]. وبلغ عدد الأسرى سبعة آلاف أسير والقتلى بالآلاف[5].

وفي سنة 1321/721 عقد السلطان إسماعيل معاهدة صلح مع ملك أراجون خايميى الثاني نصت على عقد صلح مدته خمس سنوات تكون أثناءها أراضي الطرفين آمنة وأن تباح حرية التجارة لرعايا المملكتين وأن يتعهد كل منهما بمعاداة من يعادي أي من الفريقين وعدم إيواء أي عدو لهما، وأن تتمتع

(1) اللمحة البدرية 65 ـ نفح الطيب جـ 1 ص 424 ـ أعمال الأعلام 294 نثير الجمان 72.
(2) اللمحة البدرية ص 71 ـ أعمال الأعلام 294.
(3) نفح الطيب جـ 1 ـ 424.
(4) ابن خلدون جـ 4 ـ 172 نفح الطيب جـ 1 ص 245 ـ أعمال الأعلام 295.
(5) نفح الطيب جـ 1 ص 425.

السفن بحرية الملاحة وتكون الموانىء آمنة. وأن يطلق كل فريق من يأسر في البحر من رعايا الطرف الآخر. وتعهد ملك أراجون بالسماح للمدجنين بالخروج من أراضيه بأهلهم وأموالهم[1].

انتعش المسلمون بعد معركة البيرة وعادت سراياهم تغير على أراضي النصارى. ففي سنة 724 هاجم السلطان إسماعيل مدينة بياسة وقصفها بالحديد والنار فاستسلمت ثم أتبعها بمرتش في رجب 725/1325[2] وعاد إلى غرناطة مثقلاً بالأسرى والغنائم.

بعد هذه الانتصارات التي أحرزها السلطان إسماعيل امتدت يد القدر إليه، فقد اغتيل بعد ثلاثة أيام من دخوله غرناطة على يد ابن عمه محمد بن إسماعيل لخلاف على جارية نصرانية. وذلك في 26 رجب 725 حزيران 1325[3]..

السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف (أبو عبدالله) 725 ـ 733/ 1325 ـ 1333

خلف والده إسماعيل وهو في الحادية عشرة من عمره، قام بالأمر وزير أبيه أبو الحسن علي بن مسعود، وكذلك محمد بن أحمد ابن المحروق الذي بقي في الوزارة حتى اغتيل بتدبير من السلطان في محرم 729/ 1329[4].

جدد السلطان الجديد معاهدة الصلح مع ملك أراجون بناء على طلب هذا الأخير إذ كانت المدة قد انتهت. وافق السلطان أبو عبدالله محمد على تجديدها

(1) نهاية الأندلس 120.
(2) اللمحة البدرية ص 71.
(3) اللمحة البدرية 71 ـ أعمال الأعلام 295.
(4) أعمال الأعلام 296 ـ إحاطة 536.

بنصوصها كاملة ووقعت في جمادى الثانية 726/ أيار 6326.

في عهده دب النزاع بينه وبين شيوخ الغزاة المغاربة وعلى رأسهم عثمان بن أبي العلاء، ووقعت معارك بين الفريقين[1]، استغل القشتاليون ذلك وغزوا الأراضي الأندلسية، مما اضطر السلطان أبو عبدالله إلى الاستنجاد ببني مرين وتنازل عن الجزيرة الخضراء للسلطان أبي سعيد. ثم عبر البحر أواخر 732/ 1331 م إلى فاس حيث قابل أبا سعيد وأطلعه على أحوال الأندلس خاصة بعد ضياع جبل طارق[2].

كان السلطان أبو سعيد مؤمناً بالجهاد ويرى خطر الاسبان على المغرب لأن الأندلس تشكل خط الدفاع الشمالي له. ويسقوط الأندلس يتهدده الخطر فلا بد من حماية هذا الخط، فأرسل قوة بقيادة ابنه أبي مالك لاستعادة جبل طارق. اشتد ساعد ابن الأحمر وهاجم الجزيرة واستولى عليها ثم حاصر جبل طارق براً وبحراً وهزم الفونسو الحادي عشر واستعاد الجبل بعدما استسلمت حاميته القشتالية سنة 733/ 1333. وبذلك عاد الثغر المنيع إلى المسلمين. ورأى الفونسو أن لا أمل له بالنصر آثر الصلح وعقد معاهدة مع ابن الأحمر[3].

على أثر استرجاع جبل طارق عاد ابن الأحمر إلى غرناطة ولكن اغتاله أحد مماليك أبيه يدعى زيان في الطريق بوادي السقائين بتحريض من إدريس بن عبدالله بن أبي العلاء نهار الأربعاء 13 ذي الحجة 733/ 1333 م وخلفه أخوه أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل[4].

---

(1) الإحاطة 543.

(2) الإحاطة 544.

(3) ابن خلدون جـ 7 ص 255 ـ الإحاطة جـ 1 ص 540 اللمحة البدرية ص 77 ـ نفح الطيب جـ 1 ص 426 ـ أعمال الأعلام 297.

(4) اللمحة البدرية 89 نفح الطيب جـ 6 ص 120 و جـ 2 ص 9 ـ أعمال الأعلام 304، الإحاطة 549.

السلطان أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل 733/ 1333

كان في السادسة عشرة من عمره عندما تولى الحكم استوزر إبراهيم بن عبد البر(1). كان عالماً وشاعراً. أول عمل أقدم عليه أبعد بني أبي العلاء قتلة أخيه إلى تونس. قام بتدبير الأمور يحيى بن عمر بن رحو، قاد عدة غزوات ناجحه إلى قشتالة. من مآثره إنشاء جامعة غرناطة الشهيرة وتحصين المدينة وإنشاء الأبراج.

وفي عهده اشتدت وطأة الاسبان على الأندلس وكثرت غزواتهم فاستنجد أبو الحجاج يوسف بالسلطان أبي الحسن علي بن عثمان الذي بادر بإرسال الإمدادات بقيادة ابنه أبي مالك. ودارت معركة مع القشتاليين بقيادة دي جوفري تنوريو انهزم فيها المسلمون وقتل أبو مالك 740/1339. غضب السلطان أبو الحسن وقرر الثأر فعبر إلى الأندلس بأسطول من 140 سفينة في محرم 741/ تموز 1340. نشبت معركة بين الفريقين قرب نهر سلادو في جمادي الأولى 741/ 30 تشرين الأول 1340 استخدم فيها الأندلسيون آلات شبيهة بالمدافع تسمى الأنفاظ(2).

كانت معركة قاسية انهزم فيها المسلمون، وسقط معسكر السلطان وفيه حريمه وحاشيته، فذبحهم الاسبان بوحشية. ولاذ السلطان بالفرار. استولى الاسبان على قلعة يحصب 742/1341. حاول السلطان الثأر لهزيمته، ودارت معركة بحرية استخدم فيها المغاربة المدافع. ولكنه فشل للمرة الثانية، واستولى الإسبان على ثغر الجزيرة الخضراء(3).

على أثر الهزيمة التي حلت بالسلطان أبي الحسن، جرت مراسلات بينه وبين سلطان المماليك الناصر محمد بن قلاوون الذي رد بكتاب مماثل يهنىء

(1) اللمحة البدرية ص 89 ـ أعمال الأعلام 304.
(2) الاستقصا جـ 2 ص 65 ـ ابن خلدون جـ 7 ص 261 و 262.
(3) نفح الطيب جـ 1 ص 426 و جـ 6 ص 127.

فيه أبا الحسن بالنجاة[1] وذلك بتاريخ الخميس 26 صفر 745 هـ/ 1344[2].

أقام السلطان يوسف علاقات سلمية مع مملكة أراجون فجدد المعاهدة السابقة سنة 735/ 1335 مع بدرو الرابع مدتها عشر سنوات وطلب يوسف أبو الحجاج من السلطان المريني أبي الحسين الموافقة على هذه المعاهدة فوافق عليها بالشروط ذاتها وكذلك المدة بتاريخ صفر 746/ حزيران 1345 م.

في سنة 750/ 1349 غزا القشتاليون الجزيرة الخضراء وحاصروا جبل طارق، تصدت لهم حاميته المغربية وقوات ابن الأحمر، استمر الحصار عاماً كاملاً دون جدوى، وتفشى المرض في صفون القشتاليين فهلك عدد كبير منهم من بينهم الملك الاسباني، عندها اضطروا إلى رفع الحصار 751/ 1350 م[3].

استمر السلطان يوسف على عرش غرناطة حتى اغتاله مخبول بالمسجد نهار عيد الفطر 755/ تشرين الأول 1354 م[4]. ودفن بمقبرة الحمراء، وخلفه ابنه محمد الغني بالله[5].

السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل 755/ 1354

تلقب بالغني بالله[6] كان صغيراً تولى إدارة الأمور مولى أبيه رضوان. في عهده سطع نجم لسان الدين ابن الخطيب.

ولد لسان الدين ابن الخطيب في لوشة من أعمال غرناطة 25 رجب 713/ 1313 م. أخذ العلوم من كبار علماء عصره. حفظ القرآن، درس اللغة

---

(1) ابن خلدون جـ 7 ص 264.
(2) نفح الطيب جـ 1 ص 426.
(3) ابن خلدون جـ 4 ص 183 ـ نفح الطيب جـ 6 ص 128.
(4) أعمال الأعلام 306 استقصا جـ 4 ص 8 ـ نفح الطيب جـ 2 ص 9.
(5) اللمحة البدرية 100.
(6) اللمحة البدرية ص 100 ـ أعمال الأعلام 306.

والأدب والطب والفلسفة، نظم الشعر. تولى ديوان الكتابة للسلطان الراحل يوسف، ثم انتقل إلى خدمة ابنه محمد الغني بالله. ترأس وفداً من علماء الأندلس لمقابلة السلطان المريني أبي عنان سنة 755/ 1354 بناء على طلب ابن الأحمر(1)، وأدى المهمة بنجاح باهر(2). وفي سنة 756/ 1355 حاول حاكم جبل طارق ابن أبي منديل ا' ريني إشعال ثورة فيه فتصدى له سكان الجبل. وانتهت حركته باعتقاله وإرساله مع ولده إلى المغرب حيث أعدما. أرسل السلطان ابنه السعيد على رأس قوة من الفرسان لحماية الثغر(3).

ومنذ سنة 760/ 1359 بدأت غرناطة تشهد الخلافات الداخلية بين ملوكها. فكأن العدوان الخارجي الذي يستهدف وجودهم لم يثر اهتمامهم. فقد نشبت ثورة ضد محمد الغني بالله قام بها أنصار أخيه المعتقل إسماعيل(4) لديه وعلى رأسهم صهره الرئيس عبدالله بن أبي الوليد، اقتحم المتآمرون حصن الحمراء في 28 رمضان 760/ 1359 وقتلوا الحاجب رضوان ونادوا بإسماعيل ملكاً(5).

رأى الغني بالله عقم المقاومة ففر إلى وادي آش. صانع ابن الخطيب الملك الجديد فاستبقاه في الوزارة ثم اعتقله(6) مع شيخ الغزاة ابن رحو وعين مكانه إدريس بن عثمان بن أبي العلاء(7).

كانت تربط السلطان المعزول الغني بالله بالسلطان أبي سالم المريني علاقات صداقة ومودة(8). فأرسل سفيراً إلى غرناطة يدعو الغني بالله للقدوم إلى

---

(1) نفح الطيب جـ 2 ص 5 و 8 و 26.
(2) ابن خلدون جـ 7 ص 773.
(3) أعمال الأعلام ص 307.
(4) نفاضة الجراب 103.
(5) أعمال الأعلام 307.
(6) الاستقصا جـ 4 ص 9.
(7) نفاضة الحراب 115 نفح الطيب جـ 2 ص 27.
(8) نفاضة الخراب 125.

المغرب مع وزيره ابن الخطيب، فقدما على السلطان الذي استقبلها بحفاوة. وألقى ابن الخطيب قصيدة يدعو السلطان أبا سالم لنصرة مليكه جاء فيها:

سلا هل لديها من مخبره ذكر وهل أعشب الوادي ونمّ به الزهر
قصدناك يا خير الملوك على النوى لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر[1]

أثناء الإقامة في فاس توطدت العلاقة بين الخطيب وابن خلدون الذي كان من كبار رجال الدولة المرينية. وقد أوصى أهل المغرب باحترام ابن الخطيب وإكرامه.

اسماعيل بن يوسف بن اسماعيل

أيدت قشتالة الملك الجديد إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل[2]. وحدثت ثورة في المغرب أدت إلى مقتل السلطان أبي سالم. وقام بأمر الدولة الوزير عمر بن عبدالله[3]. سعى لديه ابن الأحمر لمساعدته على استرداد عرشه فاستجاب له. ويدأ الغني بالله يعمل على العودة، وقامت ثورة في غرناطة قتل فيها منافسه السلطان إسماعيل على يد الرئيس أبي سعيد. عندها عبر الغني بالله إلى الأندلس. ونزل بمالقة. ثم دخل غرناطة، وفر أبو سعيد إلى قشتالة. واستعاد محمد الغني عرشه في جمادي الآخرة 763/1361. ثم التحق به وزيره ابن الخطيب[4] وفي عام 767/ 1365 قرر الغني إلغاء مشيخة الغزاة التي كان يرأسها المرينيون[5]. ثم وفد على غرناطة عبد الرحمن بن خلدون[6] احتفى به السلطان الغني بالله ويعثه سفيراً إلى بيدرو ملك قشتالة 765/ سار ابن خلدون إلى إشبيلية حيث قابل الملك الذي أعجب به. وأثناء وجوده في إشبيلية زار دار آبائه. وفد قدمه إلى البلاط الطبيب اليهودي إبراهيم بن زرزر. وعرض ملك

(1) ابن خلدون جـ 7 ص 306 ـ اللمحة البدرية 108 ـ نفح الطيب جـ 2 ص 14 و 27 الاستقصا جـ 4 ص 9 ـ ابن خلدون جـ 14 ص 954 و 959.
(2) نفح الطيب جـ 2 ص 13.
(3) نفاضة الحراب 103.
(4) نفح الطيب جـ 2 ص 29 و 32 ـ الاستقصا جـ 4 ص 58.
(5) ابن خلدون جـ 7 ص 377 ـ نفاضة الحراب 286 ألاستقصا جـ 4 ص 81.
(6) ابن خلدون جـ 14 ص 880.

قشتالة عليه الإقامة في إشبيلية مع إعادة تراث سلفه إليه فرفض ذلك، ثم عاد إلى المغرب محملاً بالهدايا الثمينة بعد أن أدى مهمته[1] سنة 766/ .

أسند الغني بالله بعد عودته إلى الحكم الوزارة لابن الخطيب من جديد كان يعاونه تلميذه الشاعر أبو عبدالله بن زمرك، فقد تولى الكتابة[2] استبد ابن الخطيب بالأمور مما أثار الحسد والحقد في نفوس خصومه اتهموه بالزندقة، فر إلى المغرب ملتجئاً إلى السلطان عبد العزيز[3] المريني الذي رحب به[4]. وتولى الوزارة مكانه خصمه ابن زمرك.

قضى ابن الخطيب في منفاه ثلاث سنوات معززاً مكرماً، حتى أنه أرسل سفيراً إلى الأندلس أبا يحيى بن أبي مدين في طلب أهله وأولاده، فعاد به السفير سنة 774[5].

ثم توفي صديقه السلطان عبد العزيز، وخلفه ابنه الطفل السلطان السعيد، فحدث انقلاب في بلاط فاس بتدبير من الغني بالله أوصل أبا العباس أحمد بن أبي سالم إلى عرش المغرب وهذا صديق السلطان الغني بالله وحليفه[6]. فأخذ خصوم ابن الخطيب يسعون لدى بلاط فاس للتخلص من ابن الخطيب ونجحت سعايتهم، وكان الغني بالله قد حاول استعادته من السلطان عبد العزيز الذي رفض الطلب.

واستجاب السلطان أبو العباس لطلب الغني بالله فأمر باعتقال ابن الخطيب وبعث رسولاً إلى غرناطة يخبر ابن الأحمر بذلك، فبادر بإرسال وزيره خصم ابن الخطيب عبدالله بن زمرك إلى فاس وحضر الحوار الذي دار بين ابن الخطيب

(1) ابن خلدون جـ 7 ص 412.
(2) نفح الطيب جـ 2 ص 18 ـ ابن خلدون. جـ 7 ص 412
(3) ابن الخطيب جـ 14 ص 8901.
(4) نفح الطيب جـ 2 ص 30.
(5) نفح الطيب جـ 2 ص 30. السلطان أحمد بن أبي سالم بويع بطنجة 775 وخلع سنة 788 وفي سجنه قتل ابن الخطيب.
(6) الاستقصا جـ 4 ص 62 ـ ابن خلدون جـ 14 ص 1035.

وأهل الشورى والفقهاء في أمور نسبوها إليه، فأنكر ابن الخطيب التهم الموجهة إليه، ولكن الرد كان صريحاً بقتله. وأفتى الفقهاء بذلك تنفيذاً لأحكام الدين، ونفذ عملية القتل بعض الأوغاد بأمر من الوزير سليمان بن داود الذي كان يحقد عليه لخلاف بينهما سنة 776/ 1374[1].

اهتم الغني بالله بالعمران، بنى المستشفى في غرناطة، عني بتحصين الثغور، وبث روح الجهاد في الأندلس.

وقد توثقت العلاقات في عهده مع القاهرة. فجرت سفارات متبادلة مع سلطان مصر الأشرف شعبان، وكانت الرسائل منها رسالة من إنشاء ابن الخطيب (قبل نكبته) يعرب فيها سلطان غرناطة عن سروره بتلقي رسالة سلطان مصر التي يشيد فيها بغرناطة مركزاً للجهاد ضد العدو. ويهنىء الأشرف بانتصاره على الفرنج في معركة الاسكندرية 767 هـ/ 1365 م[2].

وعقد الغني بالله باسمه ونيابة عن السلطان عبد العزيز المريني معاهدة صلح مع ملك أراجون مدتها ثلاث سنوات ابتداء من رجب 768/ آذار 1367 جاء فيها؛ يتعهد كل من الفريقين بأن يمنع رعاياه من الاضرار برعايا الآخر براً وبحراً، وأن تكون لرعايا كل دولة حرية التجول والمتاجرة والمرور بأراضي الدولة الأخرى دون اعتراض أو ضرائب غير منصوص عليها. وأن تسمح أراجون بهجرة المدجنين، وأن يمتنع كل فريق عن مساعدة أعداء الفريق الموقع على المعاهدة.

ساد الأمن في عهد الغني بالله، واستغل انشغال قشتالة بحروبها الداخلية. فأخذ يشن الغارات على أراضيها، فقد احتلت قشتالة موقعين من أراضي المسلمين هما برغة وجيرة. وقطعت الطريق بين رنده ومالقة، فأرسل قوة في شعبان 767/ 1366 استعادتها ثم غزا سنة 768/ 1367 أحواز إشبيلية وفتح حصن أشر، ثم اقتحم مدينة جيان، وغنم ما فيها من مال وسلاح في أواخر

---

(1) ابن خلدون جـ 7 ص 340 ـ استقصا جـ 4 ص 63 و 64. نفح الطيب جـ 2 ص 39.
(2) صبح الأعشى جـ 8 ص 107.

محرم 769/ أيلول 1767 م، واقتحم أثناء عودته مدينة باغة ودمرها، ثم فتح مدينة أبدة شمال شرق جيان عنوة ودمر كنائسها وهدم أسوارها، وعاد إلى غرناطة ظافراً مثقلاً بالغنائم والأسلاب[1].

وفي أواخر سنة 769/ 1368 استولى على الجزيرة الخضراء وهدم حصونها ومعالمها كي لا تعود سليمة إلى أيدي النصارى وذلك بمساعدة السلطان عبد العزيز المريني. وزحف على أحواز إشبيلية وحاصر قرمونة وفتح مرشانة القريبة منها[2]. وبذلك هبت رياح النصر على يد الغني بالله التي افتقدها الأندلسيون منذ زمن بعيد.

توفي الغني بالله 793/ 1391 بعد عهد عامر بالجهاد والعمران وخلفه ابنه يوسف أبو الحجاج.

يوسف بن محمد الفقيه (يوسف الثاني، أبو الحجاج)

793 ـ 797/ 1391 ـ 1394

قام بتدبير أمور الدولة خالد مولى أبيه فاستبد وقتل أخوة يوسف الثلاثة سعداً ومحمداً ومطراً. وأراد قتل السلطان بالسم. فعرف بالأمر طبيب يوسف الخاص اليهودي يحيى ابن الصبع. فسخط عليه السلطان وقتله[3]. طلب السلطان يوسف مسالمة ملك قشتالة، وأطلق سراح عدد من الأسرى النصارى، فاستجاب الملك لذلك. وعقد الصلح بين الدولتين.

حاول ابنه محمد خلعه، وزحف مع أنصاره يريد احتلال الحمراء، ففشلت المحاولة عندما برز إلى الثوار السفير المغربي ونصحهم بالتزام الهدوء والاتحاد ضد عدوهم النصراني. ثم حدثت مناوشات مع القشتاليين في أحواز

(1) الاستقصا جـ 4 ص 56 الإحاطة جـ 2 ص 54.
(2) الاستقصا جـ 4 ص 56.
(3) الاستقصا جـ 4 ص 81.

مرسية ولورقة، وهاجموا فحص غرناطة، تصدى لهم الغرناطيون وردوهم على أعقابهم.

توفي السلطان يوسف أوائل 797/ 1394 م بعد حكم دام ثلاث سنوات وبضعة أشهر. بتدبير من السلطان المغربي أبي العباس. فقد كانت مراسلات بين السلطان أبي العباس ويوسف بن الغني بالله، تدل في ظاهرها على الود والصداقة، ولكنها تخفي نوايا أبي العباس ألا وهي رغبته في ضم الأندلس إلى المغرب، فدس إلى ابن الأحمر كسى فاخرة إحداها مسمومة ارتداها فمات[1]. خلفه في الحكم ابنه محمد.

السلطان محمد بن يوسف بن الغني بالله 797 ـ 808/1394 ـ 1405

تولى الحكم بعد وفاة والده بالاتفاق مع رجال الدولة، اعتقل أخاه يوسف وسجنه في قلعة شلوبانية قرب ثغر المنكب. استوزر ابن زمرك، وكان الغني بالله قد أبعده سابقاً عن الوزارة. ولكنه لم يمكث فيها سوى أشهر قليلة أساء فيها السيرة، فهاجمه الثائرون وقتلوه في منزله مع عائلته 797/ 1395[2].

عقد السلطان محمد هدنة مع القشتاليين، ولكن القشتاليين على عاداتهم لم يحترموا المواثيق، فأغاروا على أحواز غرناطة، رد السلطان محمد بغزو ولاية الغرب، واستولى على حصن أيامونتي، فرد القشتاليون بغزو أراضي غرناطة. وكان ملكهم هنري الثالث يجيش بنزعة صليبية ضد غرناطة، أخذ يستعد لغزوها، بحشد الأساطيل وتجهيز الجيوش. استعد السلطان محمد للدفاع واستنجد بملك تونس وأمير تلمسان، فبعثا إليه بوحدات بحرية، ولكنها انهزمت أمام جبل طارق. ثم عقدت هدنة بين الفريقين، وشكلت لجنة لتقدير الأضرار لمدة سنتين 808/6 تشرين الأول 1406 م. لكن هنري الثالث توفي وخلفه ابنه الطفل يوحنا تحت وصاية أمه وعمه فرناندو الذي نقض الهدنة

---

(1) الاستقصا جـ 4 ص 81.

(2) نفح الطيب جـ 4 ص 309.

الموقعة، وغزا أراضي غرناطة. واستولى على حصن الصخرة قرب رنده وكذلك حصن باغة، واستعاد حصن أيامونتي. رد السلطان محمد بمهاجمة جيان. انتهت الحرب بهدنة لمدة ثمانية أشهر 1408/ 811 وتوفي السلطان محمد في تلك السنة في غرناطة.

في عهد السلطان محمد كانت حالة من الهدوء تسود العلاقات بين غرناطة وأراجون منافسة قشتالة، وعقدت المعاهدات بين الدولتين. ففي ربيع الأول 808/ أيلول 1405 عقد السلطان محمد مع ملك أراجون مرتين وابنه ملك صقلية، معاهدة صداقة وتحالف مدتها خمس سنوات تنص على حرية التنقل والتبادل التجاري، وإمداد سلطان غرناطة بـ 400 إلى 500 فارس لمساعدة حلفائه في حروبهم مع عدو لا يكون صديقاً لغرناطة، ونفقاتهم تدفعها أراجون وكذلك إمداد السلطان بـ 14 إلى 5 سفن مزودة بالرجال والسلاح لمحاربة أعدائه على ألا يكونوا أصدقاء لأراجون، يتكفل السلطان بنفقاتهم، وكذلك حرية مرور السفن، وكيفية إطلاق سراح الأسرى وتحديد مبلغ مئة دينار ذهباً فداء الأسير(1).

السلطان يوسف بن يوسف بن الغني بالله
811 ـ 820/ 1408 ـ 1417

خلف يوسف أخاه السلطان محمد، فجدد الهدنة مع ملك قشتالة لمدة سنتين. ولما حاول تجديدها مرة ثانية رفض القشتاليون، وطلبوا منه الخضوع لهم. واستعد الفريقان للحرب، غزا القشتاليون أراضي غرناطة بقيادة الوصي فرناندو، حاصروا انتقيره، أسرع السلطان يوسف لمساعدة حاميتها الصامدة. ورغم المقاومة الباسلة سقطت المدينة 815/1412. ثم عقدت هدنة أطلق بموجبها السلطان يوسف مئات الأسرى النصارى دون فدية.

(1) نهاية الأندلس 152.

وفي عهده ثار سكان جبل طارق ودخلوا في طاعة السلطان المريني أبي سعيد، الذي أرسل إليهم أخاه عبدالله. لكن يوسف تصدى للمتآمرين وهزمهم، وأسر عبدالله، فأرسله مكرماً إلى المغرب وزوده بالأموال للانقلاب على أخيه وقد استطاع انتزاع الملك منه[1].

بعد إقرار الهدنة سادت بلاط الدولتين علاقات المودة والاحترام وأخذت غرناطة تغص بالفرسان النصارى والأشراف، وكانت تقام المبارزات الرائعة بين فرسان الدولتين فكانت أياماً مشهودة في تاريخ غرناطة قبل سقوطها.

السلطان محمد بن يوسف (الأيسر) ـ 820 ـ 846 8/ 1417ـ 1442

وتوفي السلطان يوسف سنة 820/ 1417 بعد حكم دام 9 سنوات وخلفه ابنه محمد الأيسر، كان سيء الخلق بعيداً عن الشعب وكان وزيره يوسف بن سراج يحاول بسياسته تخفيف حدة سخط الشعب عليه. وبنو سراج هم من القبائل العربية يعودون بنسبهم إلى قبيلة طي وقد وفدوا إلى الأندلس منذ الفتح واستقروا بقرطبة ومرسية، وظهروا أخيراً على مسرح الأحداث في غرناطة وكانوا في عهد الأيسر القادة والزعماء[2].

وبدأت الاضطرابات أثناء حكم الأيسر ولم يستطع ابن سراج تهدئة الأمور. وكان القشتاليون يشجعون هذه الحوادث لإضعاف مملكة غرناطة. ففي سنة 1428/831 هاجموا مملكة غرناطة ووصلوا إلى وادي آش ولم يستطع الأيسر، ردهم فثار الشعب عليه وخلعه وأتى بالأمير محمد بن محمد بن يوسف الثالث الذي لقب بالزغير. وفر الأيسر إلى تونس. عمل الملك الجديد على اكتساب محبة الشعب ولكنه لم يوفق في القضاء على المؤامرات التي كان يحيكها بنو سراج خصومه. فعمل على سحقهم، وطاردهم. فغادر يوسف بن سراج مع

---

(1) استقصا جـ 2 ص 148.

(2) نفح الطيب 4/ 138.

أنصاره غرناطة إلى إشبيلية ملتمساً حماية ملكها خوان الثاني الذي رحب بهم واتفق ابن سراج مع ملك قشتالة على مساعدة الأيسر لاسترداد عرشه فاستدعاه من تونس، وعاد مع فرقة من الفرسان أمده بها السلطان أبو فارس، نزل الأيسر في المرية فأرسل الزغير قوة لقتاله ولكن الجنود انضموا إلى الأيسر ودخل غرناطة استقبله سكانها بحماس، وحاصر الحمراء فسلمها إليه أنصار الزغير واعتقل الزغير مع أخيه الأمير أبي الحسن علي وأودع الاثنان قلعة شلوبانية سجن الدولة الرسمي.

أعاد الأيسر يوسف بن سراج إلى الوزارة وأرسل إلى ملك قشتالة خوان الثاني يطلب تجديد الهدنة، فأرسل إليه سفيره كونثالث دي لونا مشترطاً على الأيسر أن يؤدي الأموال التي أنفقها ملك قشتالة لإعادته إلى عرشه بالإضافة إلى جزية سنوية مع الخضوع له والافراج عن الأسرى المسيحيين، فرفض الأيسر الشروط. فهدده خوان بالحرب وأرسل في الوقت ذاته سفراءه إلى سلطان تونس أبي فارس الحفصي وإلى سلطان فاس عبد الحق المريني يرجوهما ألا يتدخلا في شؤون الأندلس. فأتاه الرد من السلطانين بالإيجاب، فأغار القشتاليون على أراضي المسلمين وقصدوا رنده فتصدى لهم الأيسر. ثم جاء خوان على رأس قوات قشتالية وعاث في المنطقة، عاد محملاً بالغنائم والأسرى/ 1431.

يوسف بن الحول

وعاد الأيسر إلى غرناطة التي أخذت تعمها الفتن والاضطرابات الداخلية وانقسمت المملكة الصغيرة إلى أحزاب صغيرة متناحرة وكان النصارى يتدخلون لإذكاء الفتنة بين المسلمين للانقضاض على ما تبقي في أيديهم من الأندلس، والتف المتآمرون حول الأمير أبي الحجاج يوسف بن الحول ويمت بالصلة إلى بني الأحمر بالخؤولة فأمه بنت محمد بن يوسف بن الغني بالله، وكان الملك الجديد وافر الثراء قوياً ولنجاح خطته قصد إلى خوان الثاني المرابط قرب غرناطة يترقب سير الأحداث، وتعهد له بأن يحكم باسمه ويخضع له فقبل الملك ذلك ووقع يوسف وثيقة الذل التي أعلن فيها أنه من أتباع الملك القشتالي ومن خدامه وتعهد بإطلاق سراح الأسرى النصارى ودفع جزية سنوية 20 ألف دينار ذهب وأن يمده بـ 1500 فارس لمساعدته في حروبه وأن يحضر جلسات

مجلس النواب القشتالي بنفسه إذا كان منعقداً جنوب طليطلة وأن يمثله أحد أقاربه إذا كان داخل قشتالة. وبالمقابل تعهد الملك بحماية يوسف طوال حكمه وحكم أبنائه وأن يعاونه على محاربة أعدائه من مسلمين ومسيحيين[1] وتم توقيع المعاهدة في 7 محرم 835/16 أيلول 1431 ونفذت المعاهدة مباشرة فهاجم ملك قشتالة مرج غرناطة وهزم الملك الأيسر الذي ارتد إلى غرناطة وتقدم عندها يوسف بمعاونة حلفائه النصارى نحو المدينة بعد أن نصبه خوان الثاني ملكاً ودارت معركة بين الملك الجديد وقوات الأيسر يقودها الوزير ابن سراج فانهزم جند الأيسر وقتل الوزير، فغادر غرناطة الأمير إلى مالقة ودخلها يوسف في ك 2 ـ 1432/ ربيع الأول 835. وأول عمل أقدم عليه تجديد معاهدة الخضوع لملك قشتالة في 22 جمادى الأولى 835/27 ك 2/1432.

وتوفي بعد ستة أشهر فأجمع الغرناطيون على إعادة الأيسر للمرة الثالثة إلى الحكم وبادر إلى عقد سلم مع ملك قشتالة لمدة سنة. ولكن القشتاليين ـ نقضوا الهدنة وأغاروا على أراضي غرناطة، فتصدى لهم الوزير ابن عبد البر وهزمهم موقعاً بينهم عدداً من القتلى والأسرى 838/ 1434.

وسار الأيسر لقتال القشتاليين 839/ 1435 وهزمهم ثم حاولوا احتلال جبل طارق فحلت بهم الهزيمة أيضاً وقتل قائدهم 840/ 1436 ثم هزمهم المسلمون في كازورلا ولكن قتل القائد ابن سراج فعم الحزن غرناطة.

بعد هذه الهزائم التي لحقت بالقشتاليين اخلدوا إلى السكينة. ورأى الأيسر أن يستعين بسلطان مصر فأرسل سفارة من أربعة أشخاص إلى السلطان جقمق في رجب سة 844[2] ولكن لم تؤد إلى نتيجة ملموسة.

محمد بن نصر (الأحنف)

ثم شهدت غرناطة حرباً أهلية مميته أدت في النهاية إلى سقوطها بيد القشتاليين ذلك أن خصوم الأيسر من الفرسان اللاجئين إلى قشتالة، وعلى

(1) نهاية 160.

(2) بدائع الزهور جـ 2 ص 227.

رأسهم الأمير يوسف بن أحمد حفيد السلطان يوسف الثاني ثاروا عليه. وكذلك في المرية فقد أيد الناقمون عليه الأمير محمد بن نصر بن الغني بالله والملقب بالأحنف. وقد نجح الأحنف في دخول غرناطة خلسة، اقتحم الحمراء واعتقل الأيسر سنة 1442. وتربع على العرش. ولكن قاومه فريق قوي بقيادة الوزير ابن عبد البر يؤيد يوسف المقيم في قشتالة. وزحف يوسف على غرناطة تساعده قوة من قشتالة استطاع دخول المدينة، وفر الأحنف الذي عاد واسترد عرشه من يوسف أوائل 1446. ورد على مساعدة القشتاليين ليوسف بأن أغار على أراضيهم، وهاجم قلعتي بني موريل وابن سلامه، وقتل من بهما من النصارى 1446 واغتنم فرصة الخلاف بين أراجون وقشتالة فعقد حلفاً مع أراجون وهزم القشتاليين قرب صنجاله 1450، وأرسل قوات إلى قتال يوسف ابن إسماعيل وهكذا عصفت الحرب الأهلية بغرناطة وقربت من نهايتها.

سعد بن محمد 1458 ـ 1463/863 ـ 868

واستمر الأحنف في الحكم حتى 1458، وخلفه الأمير سعد بن محمد حفيد السلطان يوسف الثاني الذي عزل 1462. وأعيد السلطان يوسف بن إسماعيل الذي حكم من أواخر 1463. وأثناء حكمه الأخير سقط جبل طارق بيد القشتاليين 1462/867 فقد هاجموه فجأة بقيادة الدوق مدينا سيدونا. واستولوا عليه. وبذلك فقدت غرناطة الطريق الوحيد الذي كان يربط غرناطة بالمغرب. وتشدد القشتاليون بالضغط على غرناطة، وقطعوا عنها الإمدادات تمهيداً لاحتلالها.

وأصابت غرناطة ضربة قاسية بسقوط دولة بني مرين بعد مقتل آخر سلاطينها عبد الحق بن أبي سعيد 1464/869. وحل محلهم بنو وطاس أعداؤهم القدامى[1] ولكن الدولة الناشئة أحجمت عن العبور إلى الأندلس لمساعدة غرناطة التي شعرت بأن أضحت وحيدة في مواجهة خصمها اللدود. ورغم ذلك كانت تعمها الفتن الداخلية بين العرش وخصومه من الأسر القوية، مما أجبر السلطان على قبول ما فرضه ملك قشتالة عليه من خضوع وجزية.

---

(1) الاستقصا جـ 4 ص 119.

وعاد الأمير سعد فهاجم الحمراء واستعاد العرش سنة 1463 من ابن إسماعيل وبقي في الحكم حتى أواخر سنة 868/ 1463، إذ ثار عليه ولده علي. وتلقب بالغالب بالله فأخرجه من غرناطة ـ سار سعد إلى مالقة واستقر بها[1].

علي بن سعد (أبو الحسن) 868 ـ 878/1463 ـ 1482

كان علي أبو الحسن في الثلاثين من عمره عندما تسلم الحكم ولم يستقر حكمه إلا بعد صراع مع أخويه أبي الحجاج يوسف وأبي عبدالله محمد بن سعد الملقب بالزغل. توفي بعد قليل أبو الحجاج. وبقي الزغل ينازع أخاه. انصرف الغالب بالله إلى تحصين مملكته وتنظيم أمورها تحدوه رغبة للجهاد فقد استعاد بعض الحصون من النصارى[2].

تعرض أبو الحسن لثورة أخيه الزغل في مالقة. وقد لجأ كعادة الخوارج الأندلسيين إلى ملك قشتالة هنري الرابع يطلب مساعدته ضد أخيه أبي الحسن 874/ 1469[3] فوعده،فرد أبو الحسن على القشتاليين بأن هاجم أراضيهم 875/ 1470. ثم كرر العملية مرة ثانية وانتزع منهم بعض الحصون[4]، ثم انصرف إلى محاربة أخيه الثائر الزغل..

في تلك الأثناء ثار في مالقة القائد محمد الفرسوطي، فسار أبو الحسن إلى المدينة الثائرة، ولكنه فشل في إخماد ثورتها. على أثر ذلك استدعى الثائرون أخاه الزغل المقيم أثناءها في بلاط قشتالة وتوجوه ملكاً عليهم. وبذلك انقسمت الدولة الصغيرة إلى مملكتين. وأخيراً جنح الاخوان بعد ما تبين لهما عواقب التفرقة إلى الهدنة. وتم الاتفاق على احترام الوضع القائم أبو الحسن في غرناطة والزغل في مالقة[5].

---

(1) نفح الطيب جـ 6 ص 258.

(2) نفح الطيب 6/258.

(3) الاستقصا 4/102.

(4) نفح الطيب 6/59.

(5) نفح الطيب جـ 6 ص 260.

في هذه الظروف الصعبة التي كانت تمر بها غرناطة من حرب أهلية أخوية جزأتها كانت اسبانيا النصرانية تحقق وحدتها وذلك باقتران فرناندو بن خوان الثاني ملك أراجون بايزابيلا أخت هنري الرابع ملك قشتالة 1479 فتم بهذا الزواج توحيد المملكتين بعد مرحلة طويلة من الحروب الأهلية، وأصبحت إسبانيا النصرانية قوة كبيرة عجلت في سقوط الأندلس.

وحاول السلطان أبو الحسن تجديد الهدنة مع القشتاليين وأرسل أوائل 883/ 1478 وفداً لهذه الغاية إلى فرناندو وإيزبيلا وكانا يقيمان بإشبيلية، فوافقا على الطلب شريطة أن يخضع لهما مع تأدية الجزية وأرسلا مبعوثاً إلى أبي الحسن لإبلاغه الشروط. فرفضها وأنذر السفير القشتالي بالحرب. فأسرع القشتاليون وهاجموا أراضي غرناطة وعاثوا في أحواز رنده فرد عليهم بالهجوم على مدينة الصخرة شمال غرب رنده واستولى عليها وقتل حاميتها ك 1 1481. أثار انتصار أبي الحسن خلافاً في صفوف الغرناطيين فالشعب أغبطه الانتصار ولكن بعض العقلاء انتقدوا عمله واعتبروه لا مبرر له وتخوفوا من العاقبة..

كان اقتحام الصخرة ظفراً مؤقتاً. ذلك لأن أبا الحسن تخلى عن الجهاد وركن إلى الهدوء والدعة وأساء التصرف مع القادة وأثقل الشعب بالضرائب يساعده في أعماله وزيره أبو القاسم بنيِّغش[1].

كان السلطان أبو الحسن قد اقترن بابنة عمه عائشة ابنة السلطان الأيسر، ورزق منها بولدين أبي عبدالله محمد وأبي الحجاج يوسف. كانت عائشة ملكة في ملك يحتضر. ورغم ذلك كانت تريد أن يؤول العرش إلى ابنها. وهذا ما أدى إلى خلافات دموية في البلاط الغرناطي وذلك أن أبا الحسن اقترن ثانية بفتاة نصرانية تدعى ثريا وبالاسبانية إيزابيلا ابنة أحد نبلاء اسبانيا القائد سانشو خمّنيس دي سوليس[2] وتسلطت ثريا على شؤون القصر وأصبحت الآمرة الناهية خاصة وأن أبا الحسن قد أصبح شيخاً عجوزاً. وقد أنجبت منه ولدين سعداً

---

(1) نفح الطيب 260/6.

(2) نفح الطيب 260/6.

ونصراً. أرادت أن تكون ولاية العهد لاحدهما، وبدأت تضايق عائشة الحرة[1] وتسعى لدى السلطان بذلك حتى أمر أبو الحسن باعتقال عائشة مع ولديها في برج قمارش الحصين مع تشديد المراقبة[2].

أثار هذا التصرف انقسام قادة غرناطة ووجهائها إلى فريقين متخاصمين فريق يؤيد عائشة الحرة وآخر يؤيد ثريا والسلطان. واستأثرت ثريا بالسلطة. لم تستسلم عائشة إلى واقعها المرير، فدبرت خطة للفرار من سجنها. اتصلت ببني سراج، وعرف السلطان بذلك فحقد على بني سراج.وأخيراً استطاعت الفرار مع ولديها في جمادي الآخرة 887/ 1482 بعملية جريئة أثارت إعجاب وعطف الغرناطيين. ثم ظهر ابنها محمد في وادي آش حيث أنصاره، وتمت عملية الفرار من برج قمارش في وقت كان السلطان أبو الحسن يدافع عن لوشه ضد النصارى[3].

كان ملك قشتالة يرقب الأحداث والتطورات الداخلية في غرناطة، ورأى الفرصة سانحة لاستعادة الصخرة، فأرسل حملة قوية إلى الأندلس هاجمت مدينة الحامة جنوب غرب غرناطة فجأة واحتلوها على الرغم من مقاومة أهلها الباسلة وأمعنوا في سكانها قتلاً وأسراً وسبياً في محرم 887/ شباط 1482 وأسرع أبو الحسن لاستردادها ففشل، وغادرها بعد أن علم أن ملك قشتالة قادم لإنقاذها.

ثم هاجم القشتاليون مدينة لوشه ودافعت حاميتها ببسالة بقيادة الشيخ علي العطار[4] وسار أبو الحسن لنجدتها وانتهت المعركة بانسحاب النصارى بعد أن تكبدوا خسائر فادحة جمادي الأول 887/ تموز 1482 وكان بين غنائم المسلمين بعض الأنفاظ التي أخذت تدخل في حصار المدن[5].

---

(1) التعريف لأنها عربية وثريا جارية.

(2) أخبار العصر ص 6.

(3) أخبار العصر 12، نفح الطيب 262/6.

(4) أخبار العصر ص 6 و 9 نفح الطيب 260 جـ 6.

(5) أخبار العصر ص 11.

بعد النصر في لوشة عاد السلطان أبو الحسن إلى غرناطة فثار عليه ابنه أبو عبدالله محمد وعزله ففر السلطان إلى مالقة ملتجئاً إلى حاكمها أخيه الزغل محمد بن سعد الذي كان يتصدى لجيش قشتالي كبير يحاول احتلالها.

محمد بن علي بن سعد «أبو عبدالله» 887 ـ 897/ 1482 ـ 1492

وتربع على عرش غرناطة الفتى محمد أبو عبدالله مكان أبيه 887/ 1482. وسيطر على غرناطة ووادي آش وبقيت مالقة والغرب موالية لأبيه.

كان فرناندو بعد هزيمته أمام لوشه أرسل جيشاً إلى مالقة لاحتلالها ليتم حصار غرناطة من الجنوب، وكان الزغل متأهباً للقاء النصارى. ودارت معارك دموية بين مالقة وبلش انتصر فيها الزغل وكبدهم خسائر فادحة فقتل وأسر الآلاف منهم صفر 888/ آذار 1483 وتعرف هذه المعركة بالشرقية.

كان لهذا النصر أثره في الأندلس فقد انتعشت الآمال واستبشر الأندلسيون بالنصر[1]. واغتنم الملك الشاب أبو عبدالله محمد فرصة هزيمة النصارى. وأراد أن يحرز نصراً يرفع من مكانته في صفوف الأندلسيين مقلداً عمه. فسار على رأس جيش نحو قرطبة ربيع الأول 888/ نيسان 1483 واجتاح عدداً من الحصون وهزم النصارى ثم عاد مثقلاً بالغنائم. وطارده النصارى ودارت معركة في قلعة اللسانة انهزم فيها الغرناطيون ووقع السلطان نفسه بالأسر ونقله أسروه إلى قائدهم الكونت دي كابرا الذي استقبله بحفاوة. ثم أخطر ملكه بالنبأ السعيد فأمر فرناندو بإحضاره إليه حيث جرى له استقبال حافل في مدينة قرطبة ثم سيق إلى أحد الحصون المنيعة بانتظار يوم الخلاص. وعاد المسلمون إلى غرناطة بعد أن فقدوا ملكهم الأسير وهم في حالة الأعياء الشديد وعم الأسى العاصمة، قرر قادتها بالاتفاق مع الأميرة عائشة على استدعاء الملك علي أبي الحسن من

(1) أخبار العصر 13 ـ نفح الطيب 6/262.

مالقة لإنقاذ الوضع المتردي، فاعتذر لمرضه[1] فتنازل لأخيه الزغل واعتزل الحكم[2].

حاول السلطان علي أبو الحسن افتداء ابنه الملك الأسير عارضاً شروطاً لدى ملكي قشتالة فرفضا الطلب، لأنهما كانا يريدان استغلال وجوده عندهم للحصول على مآربهما التي تخدم الاسبان.

وأخيراً تكللت جهود أمه عائشة بالنجاح في تحريره، إذ أرسلت وفداً برئاسة الوزير ابن كماشة مزوداً بالموافقة على شروط قشتالة. وانتهت المفاوضات بعقد اتفاقية سرية تتضمن اعتراف أبي عبدالله بطاعة الملكين القشتاليين فرناندو وزوجه إيزابيلا، وأن يدفع لهما جزية سنوية مقدارها 12 ألف دوبلاً من الذهب، وإطلاق سراح 400 أسير نصراني في غرناطة فوراً، وإطلاق سراح 70 أسيراً سنوياً لمدة 5 سنوات وأن يقدم رهائن إلى الملكين من كبار زعماء غرناطة من بينهم ابنه الأكبر. ويساعد فرناندو الملك أبي عبدالله بإخضاع المدن الأندلسية الثائرة عليه ومن ثم إخضاعها لتدخل في طاعة ملك قشتالة. ومدة هذه الهدنة سنتان.

وبعد أن كبل ملك قشتالة أسيره بهذه الشروط أطلق سراحه ورافقته فرقة من الفرسان النصارى إلى بعض الحصون الموالية له في غرناطة[3]. واتخذه وسيلة للاستيلاء على غرناطة، وفي الوقت نفسه أرسل من فرناندو قواته لتعيث في مملكة غرناطة لتستولي على ما تقدر عليه من الحصون. فأغارت على غرب مالقة أوائل 890/ 1485[4] واستولت على حصني قرطبة وذكوين وغيرها وقطعت الطريق ما بين رنده ومالقة، وزحفت على رنده فاستسلمت في جمادي الأول 890/ نيسان 1485. وبسقوطها انهارت وسائل الدفاع عن غرب

(1) نفح الطيب 6/263 العصر 13 ـ الاستقصا 102.
(2) أخبار العصر 18 ـ نفح الطيب جـ 6 ص 264.
(3) أخبار العصر 18 ـ نفح الطيب جـ 6 ص 265.
(4) الاستقصا جـ 4 ص 103.

الأندلس[1] وأخذ القشتاليون يهددون .ثم هاجموا حصن مكلين شمال غرب غرناطة. وكان به الملك الزغل، دارت معركة انتهت بانتصار المسلمين. وقد تكبد القشتاليون خسائر فادحة بالأرواح والمعدات وذلك في شعبان 890/ تموز 1485. وعاد الزغل وجنده مسرورين بهذا الانتصار. ولكنه لم يعط ثماره، فقد عمد فرناندو وإيزابيلا إلى إطلاق سراح أبي عبدالله محمد[2] الأسير لديهما، في ذلك الظرف بالذات لإثارة الحرب الأهلية في غرناطة لإضعاف الفريقين، ثم يجهزان على ما تبقى من قوة في المملكة الإسلامية التي تحتضر.

كانت مملكة غرناطة تشهد حرباً أهلية بين الزغل الذي يريد أن يبسط سيادته على سائر أنحاء المملكة، وابن أخيه يوسف أبي الحجاج بن علي في المرية، سار إليها الزغل ودخلها، وقُتل يوسف. ولكن ما أن عاد الزغل إلى غرناطة حتى عادت الفتنة من جديد، فقد كان الاسبان قد أطلقوا سراح الملك الأسير أبي عبدالله محمد، وسار أبو عبدالله إلى الحصون الشرقية الموالية له، ثم إلى منطقة بلش شرق بسطه حيث أعلن نفسه ملكاً، وأخذ يبث روح التخاذل في صفوف المسلمين مشيداً بمزايا الصلح الذي عقده مع ملكي قشتالة أثناء الأسر[3].

ثم اندلعت الفتنة في حي البيازين داخل مدينة غرناطة بتحريض من أبي عبدالله محمد وكان سكان الحي من عناصر الفتنة والاضطرابات. انشغل الزغل باخمادها عن قتال القشتاليين، وهذا ما كان يبغيه ملكا قشتالة، وأمدا أنصارهما بالانفاظ والبارود[4]. ودامت الحرب الأهلية عدة أشهر بين الزغل وابن أخيه محمد.

انتهز فرناندو الحرب الأهلية في غرناطة وهاجم مدينة لوشة للمرة الثانية

---

(1) نفح الطيب جـ 6 ص 265.
(2) أخبار العصر ص 17 ـ نفح الطيب جـ 6 ص 265.
(3) أخبار العصر ص 17 و 18 ـ الاستقصا جـ 4 ص 103.
(4) أخبار العصر ص 24.

وحاصرها وضرب أسوارها بالأنفاظ، وكان بداخلها أبو عبدالله محمد. وأخيراً استسلمت المدينة في 26 جمادي الأول 891/ أيار 1486 م. وقد أثار الغرناطيون بأن وجود أبي عبدالله في المدينة ليسلمها إلى القشتاليين[1] بشروط تتضمن الأمان لأهل لوشة على أنفسهم وأموالهم الذين يرغبون بمغادرة المدينة إلى أي جهة يشاؤون فغادروها الى غرناطة على أن يسلموا المدينة إلى الملك فرناندو مع سائر الأسرى النصارى، ودخل القشتاليون في 26 جمادي الأول 891/ أيار 1486. وغادر لوشة ومعه أبو عبدالله[2].

وانصرف فرناندو أثناء الحرب الأهلية في غرناطة إلى انتزاع ما يمكن انتزاعه من الحصون الأمامية فقد استولى على حصن البيره شمال غربي غرناطة وعلى حصن الثلين ثم حصن قلنبيرة وغيرها من الحصون المشرفة على غرناطة تمهيداً لمهاجمتها فهجرها سكانها إلى غرناطة[3].

كانت الحرب الأهلية لا تزال مشتعلة في حي البيازين وكان أبو عبدالله محمد قد رافق فرناندو في حملته، ثم عاد إلى المنطقة الشرقية إلى بلش يدبر أموره وغادرها إلى حي البيازين.وأعلن أنه عقد الصلح مع القشتاليين وأن فرناندو أمده بالرجال والأعتدة. وشدد الزغل الهجوم على الثوار وكاد يسحقهم عندما وصلته أخبار مقلقة عن مهاجمة قوات قشتالة لبلش ومالقة.

حصن الدفاع الأمامي للمدينة[4] فأسرع إليها ببعض قواته وأبقى قسماً منها لقتال ثوار البيازين، وهكذا تقسم جيش الزغل وبالتالي ضعفت قوته وسقطت بلش بأيدي الاسبان جمادي الأول 892/ نيسان 1487. وعاد الزغل كئيباً إلى غرناطة. وأثناء الطريق بلغه أن ابن أخيه أبا عبدالله محمد قد دخل المدينة 5 جمادي الأول 28 نيسان/ فارتد بقواته إلى وادي آش وتحصن به. وبذلك

(1) نفح الطيب جـ 6 ص 267 ـ أخبار العصر 19.
(2) طيب 267 ـ خلاصة العصر ص 21.
(3) طيب 6/267 عصر 22.
(4) نفح الطيب جـ 6 ص 268.

انقسمت المملكة الصغيرة إلى قسمين غرناطة وأعمالها يحكمها أبو عبدالله محمد ووادي آش حيث عمه الزغل. وبذلك تحقق هدف ملكي قشتالة ألا وهو تمزيق أوصال ما تبقى من الأندلس تمهيداً للقضاء عليها[1].

بعد سقوط بلش ومالقة سقطت الحصون المجاورة منها حصن قمارش ومومنتميور.وبذلك أشرفوا على مالقة أمنع ثغور الأندلس. وكانت بعد سقوط جبل طارق الصلة الوحيدة مع المغرب حيث كانت تأتي الإمدادات.وكان الاستيلاء على المدينة يقطع الصلة بين الأندلس والعالم الخارجي. فزحفوا على مالقة وحاصروها براً وبحراً بقوات كبيرة جمادي الثانية 892/ حزيران 1487. واستبسل المسلمون في الدفاع، وكان بينهم فرق مختارة من الفرسان مزودين بالأنفاظ، وكانت المدينة تعترف بطاعة الزغل المقيم في وادي آش، ولكنه لم يتقدم لمساعدتها خوفاً من غدر ابن أخيه ملك غرناطة. ورأى أن يستنجد بملوك المسلمين في وراء البحار فأرسل الرسل إلى أمراء إفريقية وإلى قايتباي سلطان مصر، وكان يقود المدافعين جنود غماره وقائدهم حامد الثغري. وأبدى المدافعون ضروباً من البسالة وفتكوا بالنصارى، ورغم ذلك شدد النصارى الحصار وقطعوا كل صلة للمدينة مع الخارج، فعانى المسلمون من الجوع فأكلوا الجلود وأوراق الشجر،فتك بهم المرض ومات كثير من الفرسان، حتى اضطر سكان المدينة إلى الاستسلام بعد ثلاثة أشهر من الحصار شعبان 892/ آب 1487 على أن يؤمنوا على أنفسهم وأموالهم. ولكن فرناندو غدر بهم ونقض عهد الأمان وأصدر قراراً ملكياً باعتبار المسلمين رقيقاً عليهم افتداء أنفسهم وحدد مقدار الفدية على كل مسلم ومسلمة مهما كان السن وهي ثلاثون دوبلا من الذهب عيار 22 قيراطاً. ويسمح لمن يؤدي الجزية بالتوجه إلى أي مكان ما عدا غرناطة. والهدف من ذلك كي لا يزداد عدد المقاتلين فيها. ولا يسري هذا القرار على بني الثغري وأفراد أشار إليهم القرار. ودخل النصارى مالقة وعاثوا فيها فساداً.وتدميراً وسبياً[2].

---

(1) نفح الطيب جـ 6 ص 268 ـ خلاصة العصر 24.

(2) نفح الطيب 270 و 271 جـ 6 خلاصة العصر 27 و 28.

أثناء حصار مالقة كان الزغل قد أرسل سفارات إلى ملوك المسلمين في إفريقية ومصر ولم يكن باستطاعة مصر أن ترسل قوات إلى الأندلس لبعد المسافة وخوفها من عدوان الأتراك في الشمال. ولجأ الأشرف سلطان مصر إلى إرسال السفراء إلى البابا وملوك النصارى عهد بأدائها إلى راهبين من رعاياه منهما القس أنطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس في القدس زودهما بكتب إلى البابا إنوصان الثامن وإلى ملك نابل فرناندو الأول وإلى فرناندو وإيزبيلا ملكي قشتالة يعاتب فيها ملوك النصارى على أعمالهم ضد المسلمين في الأندلس.ويشير فيها إلى الحياة الآمنة التي يعيشها النصارى وهم بالملايين في الشرق، لذلك يطلب إلى ملكي قشتالة بالكف عن هذا العدوان وعدم التعرض لهم والرحيل عن أراضيهم وإلا اضطر أن يعاملهم بالمثل فيبطش بالنصارى رعاياه وينكل بهم ويمنع دخول النصارى إلى الأراضي المقدسة ويهدم قبر المسيح وغيره وكل الأديرة والأماكن النصرانية المقدسة[1].

وغادر السفيران مصر إلى روما ونابل وقدما كتاب السلطان إلى البابا وملك نابل فكتب البابا إلى فرناندو وإيزبيلا يسألهما بماذا يجيب على كتاب السلطان، وكذلك كتب إليهما ملك نابل مستوضحاً عن سير الحرب ويلومهما في اضطهاد المسلمين ويبدي لهما النصح بالكف عن ذلك حتى لا يعامل السلطان نصارى الشرق المعاملة السيئة التي يلاقيها مسلمو الأندلس.على أن ملكي قشتالة لم يهتما كثيراً بمطالب سلطان مصر، وخاصة بعد أن أصبح سقوط الأندلس وشيكاً في أيديهم.ولكنهما كتبا إلى السلطان رداً فيه مجاملة إذ أنهما لا يفرقان بين رعاياهما المسلمين والنصارى، ولكنهما لن يصبرا على ترك أراضي الآباء والأجداد بيد الأجانب. وهكذا عاد الرسولان إلى مصر مزودين بجواب الملكين[2].

بعد سقوط مالقة بقيت المرية والمنكب بأيدي المسلمين، أغار فرناندو

(1) بدائع الزهور 3/246.
(2) نهاية الأندلس ص 222.

عام 1488/ 893 على أطراف غرناطة الشرقية واستولى على بيرة ويلشين وأشكر بعد أن أغدق العهود الخادعة على سكانها المسلمين. ثم توجهت قواته نحو مدينة بسطة أمنع الحصون في شرق غرناطة-بينما سار إلى ثغر المنكب الواقع في منتصف الطريق بين مالقة والمرية، وحاصره. دافع عنه القائد محمد بن الحاج، وصمد الحصن ثلاثة أشهر رغم معرفة المدافعين بالنتيجة وسقط الثغر في محرم 895/ ك 1 1489[1].

وتابع فرناندو تقدمه، ورأى أن يستولي على ما بيد السلطان الزغل في المناطق الشرقية وكانت بسطة أهم القواعد هناك وهي تابعة للزغل، وكان القشتاليون قد حاصروها. لم يستطع الزغل أن ينجدها بنفسه، فأرسل صهره يحيى النيار على رأس قوة من الفرسان. ودارت معارك عنيفة بين الفريقين تكبد فيها القشتاليون خسائر فادحة دون أن يفكوا الحصار عن المدينة. وأخيراً ضاق أهلها وفتك بهم المرض والجوع، فاضطروا إلى الاستسلام بعد اتفاق مذل بين من تولى الدفاع عنها بشجاعة نادرة يحيى ومندوب ملك قشتالة الدون جويتري دي كاردنياس بتاريخ 25 ك 1 1489/10 محرم 895. وتم تسليم المدينة إلى القشتاليين. ثم استسلمت المرية في ربيع الأول 895/ شباط 1490 بعد إعطاء عهود خادعة لسكانها. ثم استولى على برج الملاحة[2].

كان بين نصوص العهد المعطى لابن النيار «أنه إذا استطاع إقناع الزغل بالتنازل عن وادي آش لملك قشتالة فأنه سيكافئه بـ 10 آلاف ريال[3].

وأثمرت خيانة ابن النيار، فأقنع الزغل بالانضواء تحت لواء فرناندو وبعد أن رأى أن لا أمل له بالنصر، أذعن الزغل للأمر الواقع، سار إلى معسكر فرناندو معلناً الخضوع. وسقط وادي آش بسهولة بيد القشتاليين في صفر

(1) نفح الطيب جـ 6 ص 272.
(2) خلاصة العصر ص 31 الاستقصا جـ 4 ص 103 نفح الطيب جـ 6 ص 272 و 273.
(3) نفح الطيب جـ 6 ص 273 لم يذكر الاسم بالتحديد.

895/ 30 ك 2 1489[1].

وعقد الزغل معاهدة سرية مع فرناندو، ولكنه شعر بالوضع المهين الذي آل إليه، وأنه يستحيل عليه الاستمرار فيه، تنازل لفرناندو عن أملاكه لقاء مبلغ ورحل إلى المغرب حيث استقر في تلمسان[2].

غروب شمس الأندلس

بعد سقوط وادي آش لم يبق من الأندلس إلا غرناطة آخر مدن الإسلام مهيضة الجناح تنتظر قدرها، ورأى ملكا اسبانيا أن الوقت حان للاستيلاء عليها. وبذلك تنتهي حرب الاسترداد.

وباشرا بالعمل. فقد أرسلا في صفر 895/ مطلع 1490 كونتالو فرنانديث قائد حصن إليورة ومرتين الأركون قائد حصن موكلين يطلب من أبي عبدالله التسليم[3] وأن يختار مدينة يقيم فيها تحت طاعتهما[4].

أدرك أبو عبدالله خديعة فرناندو وأي خطأ ارتكبه بمهادنته فأرسل إليه رسوله أبا القاسم المليح حاملا رسالة بأسلوب مهذب معلناً الخضوع. ولكنه رفض طلبهما. وفشل أبو القاسم باقناع الملكين فقرر إعلان الحرب عليهما لولا نصيحة أصحاب الرأي له بالتريث، فأرسل إلى الملكين وزيره يوسف بن كماشه برفقة التاجر إبراهيم القيسي من أثرياء غرناطة يرتبط بالنصارى بعلاقات طيبة. وذهبا إلى إشبيلية وقابلا الملكين ولكنهما لم يوفقا في مهمتهما وعادت الحرب من جديد بين المسلمين والنصارى[5].

كان غرناطة قد أضحت الملاذ الوحيد للمسلمين في الأندلس بعد سقوط

---

(1) خلاصة العصر ص 31 ـ نفح الطيب جـ 6 ص 273.

(2) الطيب 6/273 العصر 31 6/275.

(3) خلاصة العصر 33.

(4) الاستقصا 4/103.

(5) خلاصة العصر 93.

مدنها وقواعدها بيد النصارى، فهرع إليها كل مسلم أبى أن يخضع للنصارى. حتى بلغ عدد المقيمين فيها أكثر من 400 ألف نسمة يغمرهم الحقد على النصارى الذين أذلوهم وهجروهم من مدنهم وقراهم بلا ذنب اقترفوه. فرفضوا الاستسلام وقرروا القتال حتى الموت. أدرك السلطان أبي عبدالله فداحة الخطأ الذي ارتكبه بمهادنة ملكي النصارى، وجمع قادة المسلمين للتشاور فأجمعوا على القتال[1] وبدأ المسلمون يغيرون على أراض النصارى. فرد فرناندو بأن أغار على غرناطة حتى وصل إلى أسوارها، فتصدى له المسلمون وعلى رأسهم أبو عبدالله وردوه بعد أن كبدوه خسائر فادحة رجب 895/ تموز 1490. عندها عمد فرناندو إلى تحصين الحصون القريبة من غرناطة مثل حصن برج الملاحة وهمدان وغيرها. وسار أبو عبدالله في قواته فاسترد قرية البذول وغيرها وثار أهل البشرات ووادي آش وفتح أبو عبدالله حصن أندرش جنوب شرق غرناطة ووضع حاميات في المناطق التي استعادها في شعبان 895[2].

وفي رمضان فتح قرية همدان الحصينة وأسر حاميتها النصرانية وحاول استعادة ثغر المنكب لاعادة الصلة بين الأندلس والمغرب واستولى أثناء زحفه على حصن شلوبانية. وعلم النصارى بالمحاولة فأرسلوا نجدات من بلش ومالقة لانجاد حاميته، فارتد عند ذلك لأن أدرك أنه لا يستطيع لهذه القوة. ولدى سماعه بخبر زحف أبي عبدالله على المنكب هاجم فرناندو مرج غرناطة وكان قد تخوف من ثورة المسلمين في وادي آش خاصة وأن النصر الذي أحرزه المسلمون قد أذكى حماس الثوار فخدع الثوار وأخرجهم من وادي آش إلى السهول. وهنا بادر أبو عبدالله بمساعدتهم على نقل عائلاتهم وأموالهم إلى غرناطة وبعضهم انتقل إلى المغرب. وأقفرت المنطقة من سكانها فأرسل فرناندو النصارى لتعميرها واغتنم أبو عبدالله الفرصة فاستولى على حصن أندرش للمرة الثانية مع غيره من الحصون[3].

---

(1) الطيب 6/ 273 العصر 34 استقصا 103.

(2) الطيب 6/ 274 خلاصة العصر 36 ـ 37.

(3) نفح الطيب 6/ 275 أخبار العصر 38.

عندها أدرك فرناندو أنه لا بد من الاستيلاء على غرناطة التي أضحت تثير روح الثورة ضد الاسبان، فأخذ أهبته للأمر، وخرج في مطلع سنة 1491/ 896 على رأس جيش لاحتلال غرناطة من 50 ألف مقاتل من الفرسان والمشاة مزودين بالمدافع. وأشرف على فحص غرناطة الواقع إلى الجنوب الغربي فيها في 23 نيسان 1491/12 جمادي الاخرة 896 وخيم على ضفاف نهر شنيل في قرية عتقه على مسافة ميلين منها وأرسل قوة إلى حقول البشرات التي تزود غرناطة بالمؤن فعاثت فساداً في المنطقة وأحرقت المزروعات والقرى وقتلت السكان وحولت المنطقة إلى قفار فانقطع عن غرناطة أهم مورد من مواردها[1].

وتقدم نحو المدينة وضرب حولها حصاراً شديداً مصمماً على دخولها مهما كانت التضحيات. وبنى لجيشه مدينة مسورة اتقاء لبرد الشتاء إذا طال الحصار.

وهكذا رنقت شمس الأندلس، وكانت نتيجة الصراع معروفة ومحسومة لصالح النصارى الذين أعدوا للحرب عدتها الحاسمة ضد مدينة يحيط بها العدو من كل الجهات. غير أن غرناطة لم تكن فريسة سهلة، فقد كانت تتمتع بموقع حربي حصين. فكانت تحميها من الشرق قمم جبال شلير «سيرانيفادا». وكانت المؤن تأتي عن طريقه إلى داخل المدينة، ومن الجنوب أسوار وأبراج.

وحل الشتاء فانقطع سبيل المؤن[2]. وفيها من الطاقة البشرية حوالي 400 ألف نسمة بينهم حوالي 20 ألف فارس وكانت تعيش شبح الحرب والحصار فاختزنت المؤن والأقوات وكانت مستعدة لحصار طويل. وأبدت المدينة في الدفاع ضروباً من البطولة فقد كان فرسانها يخرجون من المدينة ويهاجمون الأعداء موقعين بهم كثيراً من القتلى[3].

وقد تجلت المقاومة الفروسية الإسلامية بالفارس العربي موسى بن أبي

(1) العصر 44 نفح الطيب 275 جـ 6.
(2) الاستقصا جـ 4 ص 103.
(3) العصر 45 ـ الطيب 6/276.

الغسان قريب الملك أبي عبدالله والذي تربى على بغض النصارى وكان يرى في الموت خيراً من حياة الذل. كان يدرب الفرسان ويذكي الحماس في نفوس الغرناطيين وكان لموقفه أكبر الأثر في تطور الحرب. حمل السلطان والشعب على الجهاد حتى آخر رمق. وكان قوله المأثور في ذلك الظرف العصيب «ليعلم ملك النصارى أن العربي قد وُلد للجواد والرمح فإذا طفح إلى سيوفنا فليكسبها وليكسبها غالية. أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت فيه مدافعاً عنه من أفخم قصور غنمها بالخضوع أعداء الدين[1].

وكان موسى يرسل فرسانه للتصدي لقوات فرناندو التي كانت تجوب حقول غرناطة لتتلف مزروعاتها. ولكن بعد أن اشتدت وطأة الحصار اضطر المسلمون إلى الامتناع بأسوار المدينة. وقسم الدفاع عن غرناطة بين قادة الجيش والأسر، تولى موسى قيادة الفرسان يعاونه نعيم بن رضوان ومحمد بن زائده، وآل الثغري حراسة الأسوار، وزعماء القصبة والحمراء حماية الحصون[2].

كان حصار غرناطة محكماً من البر والبحر. وقطع فرناندو عنها طرق الإمدادات من المغرب بوضع الأسطول في مضيق جبل طارق حتى أن الإمارات المغربية كانت ضعيفة وخائفة من النصارى. كانت بعض الأقوات تأتيها من البشرات الجنوبية.

ولكن عندما حل الشتاء اشتد الجوع بالسكان، فر بعضهم إلى البشرات عندها أعلن حاكم المدينة أبو القاسم عبد الملك أمام مجلس الحكم بأن الأقوات تكفي لأمد قصير وأن اليأس دب في نفوس الجنود فانظروا لأنفسكم وأولادكم 103[3].

فاعترض موسى على ذلك وبث في النفوس حماساً جديداً وأيد موقفه

---

(1) نهاية الأندلس 238.

(2) نهاية الأندلس 235.

(3) خلاصة العصر 46 ـ استقصا 4/ 103.

السلطان أبي عبدالله محمد فسلم إلى القادة أمر الدفاع، وتولى موسى قيادة الفرسان مع مساعديه نعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة. وأمر موسى بفتح أبواب غرناطة ورتب فرسانه عليها فكان يثخنون في كل سرية نصرانية تقرب من الأبواب.

وأخيراً زحف فرناندو بقواته نحو أسوار المدينة فخرج المسلمون وفي مقدمتهم السلطان أبو عبدالله يقود الحرس الملكي وموسى يقود الفرسان. ودارت معارك رهيبة في الحصن حتى خضب بدماء الطرفين، وأخيراً أنهزم المشاة وتبعهم الحرس الملكي. وعبثاً حاول موسى الصمود أمام قوى العدو الهائلة فاضطر إلى التراجع إلى داخل أسوار المدينة.

أوصد المسلمون أبواب مدينتهم خائفين من المجهول خاصة وأنهم أيقنوا أن نهاية وطنهم وسقوطه بيد العدو أصبح محتوماً، ولما اشتد المرض والجوع في المدينة دعا السلطان أبو عبدالله القضاة والقادة والفقهاء إلى اجتماع في بهو قمارش في الحمراء لدراسة الوضع. وتقدم عبد الملك بشرح وافق عما آلت إليه الحالة في المدينة، وأن أمام الشعب إما الموت أو التسليم فاتفق الجميع على التسليم[1].

وكعادته رفض موسى القبول وحاول أن يبث الحماس في النفوس «لم تنضب كل مواردنا بعد فما زال لنا مورد هائل للقوة كثيراً ما أدى المعجزات: ذلك هو يأسنا، فلنعمل على إثارة الشعب ولنضع السلاح في يده ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة وأنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها[2].

غير أن كلماته لم تحدث أثرها في النفوس التي تملكها اليأس، ففوض السلطان أبو عبدالله الأمر للجماعة التي اتفقت على التسليم ومفاوضة ملك قشتالة بالأمر واختارت الوزير أبا القاسم عبد الملك للقيام بهذه المهمة في ت ١

(1) خلاصة العصر 48 و 49 ـ نفح الطيب جـ 6 ص 275.

(2) نفح الطيب جـ 6 ص 275.

1491 /1896.

وذهب عبد الملك إلى معسكر فرناندو حاملاً العرض. استقبله بحفاوة وكلف لمفاوضته أمينه فرناندو دي ثافرا والقائد جونز الفودي كريا واستمرت المفاوضات بضعة أسابيع وتوصل الفريقان إلى الاتفاق على صيغة التسليم وافق عليها الملكان. ووقعت في 25 ت 2 1491/ 21 محرم 897. تضمنت الوثيقة التي قررت مصير الأندلس 56 مادة.

تحدد تسليم المدينة خلال ستين يوماً من توقيع المعاهد وكيفية التسليم. وشاع بين الغرناطيين أن قادة غرناطة تلقوا رشاوى من القشتاليين للموافقة على الشروط[1].

والشروط المعطاة والحقوق والامتيازات للسلطان أبي عبدالله وكيفية الدخول إلى أماكن العبادة والفصل في النزاعات التي تنشأ بين المسلمين والنصارى وكذلك دفع الضرائب.

وكذلك أبرمت في اليوم الثاني وقعت فيه معاهدة التسليم معاهدة سرية تعطي للسلطان أبي عبدالله امتيازات متى نفذ تعهداته التي تضمنتها المعاهدة.

عاد الوزير أبو القاسم ومعه ابن كماشة حاملين شروط التسليم يصحبهما فرناندو دي ثافرا. وجمع السلطان الأعيان في بهو قمارش وعرض عليهم الشروط حيث تمت الموافقة عليها.

حملها المبعوث القشتالي إلى سيده فرناندو موقعة من السلطان. ورفض التوقيع موسى بن أبي الغسان، ونهض غاضباً بعد أن رأى الجماعة يوقعون صك الاستلام وصاح: «لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم..»[2] وخرج من المجلس فالتقى بسرية من الفرسان النصارى على ضفة نهر شنيل هاجمها وأمعن في أفرادها قتلاً حتى أفنى

(1) نفح الطيب جـ 6 ص 277 ـ الاستقصا جـ 4 ص 105.
(2) الاستقصا جـ 4 ص 104.

معظمهم ولكنه أصيب بجرح خطير وسقط عن جواده واستل خنجره وأخذ يدافع عن نفسه ولما انهارت قوته، ورفض أن يقع أسيراً ألقى بنفسه في النهر وغرق فيه[1].

ساد الحزن غرناطة وسرت الشائعات عن غدر السلطان والوزراء وأنهم حققوا مكاسب من عملية الاستلام. فحدثت انتفاضة إذ صمم الشعب القتال خشي السلطان أن تقضي حركة الشعب على خططهم فعجلوا في تسليم المدينة دون انتظار حلول مدة الستين يوماً المقررة في نص المعاهدة. ففي 20 ك 1 1491 أرسل أبو عبدالله وزيره ابن كماشه مع 500 من الرهائن إلى فرناندو وحمله هدية ثمينة واتفق مع ملك قشتالة على تسليم المدينة في 2 ك 2 1492/ 25 ربيع الأول، أي بعد 39 يوماً من توقيع المعاهدة.

وفي اليوم المحدد أرسل الملك فرناندو ثلاثة آلاف جندي مع سرية من الفرسان بقيادة الكاردينال بيدرو دي مندوسا مطران اسبانيا إلى المدينة. دخلوا قصر الحمراء.ثم دخل الجيش القشتالي المدينة وسلمهم الوزير ابن كماشه القصور والأبراج، فرفعت فوقها الصلبان والأعلام القشتالية.

وهكذا انتهت المأساة. واستولى القشتاليون على غرناطة آخر منارة للإسلام في الغرب. وانتهت بذلك دولة العرب في أوروبا بعد أن عاشت ثمانية قرون. وغادر السلطان أبو عبدالله عاصمته التي سقطت بيد العدو إلى البشرات.وأشرف من تل البذول على غرناطة، وأخذ يسرح نظره في الربوع الغالية التي نشأ فيها وأجهش بالبكاء، فصاحت به أمه عائشة التي كانت ترافقه «أجل ابك مثل النساء ملكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال» فكانت زفرة العربي الأخيرة.

وأضحى سقوط الأندلس مصدر إلهام للشعراء العرب الذي رثوها بشعر وجداني قل نظيره في التاريخ[2]. لم يستطع سلطان الأندلس أبو عبدالله العيش

---

(1) خلاصة العصر 50.

(2) الاستقصا جـ 4 ص 104.

في وطنه المفقود فغادر الأندلس إلى المغرب واستقر بفاس[1].

«وقد تضمنت هذه الوثيقة الشهيرة، التي قررت مصير آخر القواعد الأندلسية ومصير الأمة الأندلسية، شروطاً عديدة بلغت ستاً وخمسين مادة. وقد لخصت لنا الرواية الإسلامية معظم محتوياتها مع شيء من التحريف[2]. وإليك مضمون هذه المحتويات:

أن يتعهد ملك غرناطة والقادة، والفقهاء والوزراء والعلماء، وكافة الناس، سواء في غرناطة والبيّازين وأرباضهما، بأن يسلموا طواعية واختياراً، وذلك في ظرف ستين يوماً تبدأ من تاريخ هذه المعاهدة، قلاع الحمراء والحصن، وأبوابها وأبراجها، وأبواب غرناطة والبيازين، إلى الملكين الكاثوليكيين، أو إلى من يندبانه من رجالهما، على ألا يسمح لنصراني أن يصعد إلى الأسوار القائمة بين القصبة والبيازين، حتى لا يكشف أحوال المسلمين، وأن يعاقب من يفعل ذلك. وضماناً لسلامة هذا التسليم، يقدم الملك المذكور مولاي أبو عبدالله والقادة المذكورون، إلى جلالتيهما، قبل تسلم الحمراء بيوم واحد، خمسمائة شخص صحبة الوزير ابن كماشه، من أبناء وإخوة زعماء غرناطة والبيازين، ليكونوا رهائن في يديهما لمدة عشرة أيام، تُصلح خلالها الحمراء. وفي نهاية هذا الأجل يرد أولئك الرهائن أحراراً. وأن يقبل جلالتهما، ملك غرناطة وسائر القادة والزعماء، وسكان غرناطة والبشرّات وغيرهما من الأراضي، رعايا وأتباعا تحت حمايتهما ورعايتهما (1).

وأنه حينما يرسل جلالتهما رجالهما لتسلم الحمراء المذكورة، فعليهم أن يدخلوا من باب العشار ومن باب نجدة، ومن طريق الحقول الخارجية، وألا يسيروا إليها من داخل المدينة، حينما يأتون لتسلمها وقت التسليم (2).

وأنه متى تم تسليم الحمراء والحصن، يرد إلى الملك المذكور مولاي أبي

---

(1) نفح الطيب جـ 6 ص 278 ـ الاستقصا جـ 4 ص 105.

(2) أخبار العصر ص 48 و 50، ونفح الطيب ج 2 ص 615 و 616.

عبدالله ولده المأخوذ رهينة لديهما، وكذلك يرد سائر الرهائن المسلمين الذين معه، وسائر حشمه الذين لم يعتنقوا النصرانية (3).

ويتعهد جلالتهما، وخلفاؤهما إلى الأبد، بأن يترك الملك المذكور أبو عبدالله والقادة، والوزراء، والعلماء، والفقهاء، والفرسان، وسائر الشعب، تحت حكم شريعتهم، وألا يؤمروا بترك شيء من مساجدهم وصوامعهم، وأن تترك لهذه المساجد مواردها كما هي، وأن يقضى بينهم وفق شريعتهم وعلى يد قضاتهم، وأن يحتفظوا بتقاليدهم وعوائدهم (4).

وألا يؤخذ منهم خيلهم أو سلاحهم الآن أو فيما بعد، سوى المدافع الكبيرة، والصغيرة فإنها تسلم (5).

وأنه يحق لسائر سكان غرناطة والبيازين وغيرهما، الذين يريدون العبور إلى المغرب، أن يبيعوا أموالهم المنقولة لمن شاؤوا، وأنه يحق للملكين شراءها بمالهما الخاص (6).

وأنه يحق للسكان المذكورين أن يعبروا إلى المغرب، أو يذهبوا أحراراً إلى أية ناحية أخرى، حاملين أمتعتهم وسلعهم، وحليهم من الذهب والفضة وغيرها. ويلتزم الملكان بأن يجهزا في بحر ستين يوماً من تاريخه، عشر سفن في موانيهما يعبر فيها الذين يريدون الذهاب إلى المغرب. وأن يقدما خلال الأعوام الثلاثة التالية السفن، لمن شاء العبور، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طلب الراغبين فيه، ولا يقتضى منهم خلال هذه المدة أي أجر أو مغرم، وأنه يحق العبور لمن يشاء بعد ذلك، نظير دفع مبلغ «دوبل» واحد عن كل شخص، وأنه يحق لمن لم يتمكن من بيع أملاكه، أن يوكل لإدارتها، وأن يقتضى ريعها حيثما كان (7).

وألا يرغم أحد من المسلمين أو أعقابهم، الآن أو فيما بعد، على تقلد شارة خاصة بهم (8).

وأن يتنزل الملكان، للملك أبي عبدالله المذكور، ولسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما، لمدة ثلاث سنوات تبدأ من تاريخه، عن سائر الحقوق

التي يجب عليهم أداؤها عن دورهم ومواشيهم (9).

وأنه يجب على الملك أبي عبدالله، وسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما والبشرّات وأراضيها، أن يسلموا وقت تسليم المدينة طواعية ودون أية فدية، سائر الأسرى النصارى الذين تحت أيديهم (10).

وأنه لا يسمح لنصراني، أن يدخل مكاناً لعبادة المسلمين دون ترخيص، ويعاقب من يفعل ذلك (12).

وألا يولى على المسلمين مباشر يهوذي، أو يمنح أية سلطة أو ولاية عليهم (13).

وأن يعامل الملك أبو عبدالله المذكور، وسائر السكان المسلمين، برفق وكرامة، وأن يحتفظوا بعوائدهم وتقاليدهم، وأن يؤدي للفقهاء حقوقهم المأثورة وفقاً للقواعد المرعية (14).

وأنه إذا قام نزاع بين المسلمين، فصل فيه وفقاً لأحكام شريعتهم، وتولاه قضاتهم (15).

وألا يكلفوا بإيواء ضيف أو تؤخذ منهم ثياب أو دواجن أو أطعمة أو ماشية أو غيرها دون إرادتهم (16).

وأنه إذا دخل نصراني منزل مسلم قهراً عنه، عوقب على فعله (17).

وأنه فيما يتعلق بشؤون الميراث، يحتفظ المسلمون بنظمهم، ويحتكمون إلى فقهائهم وفقاً لسنن المسلمين (18).

وأنه يحق لسائر لسكان غرناطة والبشرات وغيرهما الداخلين في هذا العهد، الذين يعلنون الولاء لجلالتهما، في ظرف ثلاثين يوماً من التسليم، أن يتمتعوا بالإعفاءات الممنوحة، مدى السنوات الثلاث (19).

وأن يبقى دخل الجوامع والهيئات الدينية أو أية أشياء أخرى مرصودة على الخير، وكذا دخل المدارس، متروكاً لنظر الفقهاء، وألا يتدخل جلالتهما بأية صورة، في شأن هذه الصدقات أو يأمران بأخذها في أي وقت (20).

وأنه لا يؤخذ أي مسلم بذنب ارتكبه شخص آخر، فلا يؤخذ والد بذنب ولده أو ولد بذنب والده، أو أخ بذنب أخ، أو ولد عم بذنب ولد عم، ولا يعاقب إلا من ارتكب الجرم (21).

وأنه إذا كان مسلم أسيراً وفر إلى مدينة غرناطة أو البيازين أو أرباضهما أو غيرهما، فإنه يعتبر حراً، ولا يسمح لأحد بمطاردته إلا إن كان من العبيد أو من الجزائر (24).

وألا يدفع المسلمون من الضرائب أكثر مما كانوا يدفعون لملوكهم المسلمين (25).

وأنه يحق لسكان غرناطة والبيازين والبشرات وغيرها، ممن عبروا إلى المغرب، أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة التالية، وأن يتمتعوا بكل ما يحتويه هذا الاتفاق (26).

كما لايحق لمن عبر منهم إلى المغرب، ولم ترضه الإقامة هنالك، أن يعود خلال الأعوام الثلاثة، وأن يتمتع بكل ما في هذا الاتفاق (28).

وأنه يحق لتجار غرناطة وأرباضها والبشرات وسائر أراضيها، أن يتعاملوا في سلعهم آمنين، عابرين إلى المغرب وعائدين، كما يحق لهم دخول سائر النواحي التابعة لجلالتيهما، وألا يدفعوا من الضرائب سوى التي يدفعها النصارى (29).

وأنه إذا كان أحد من النصارى ـ ذكراً أو أنثى ـ اعتنق الإسلام، فلا يحق لإنسان أن يهدده أو يؤذيه بأية صورة، ومن فعل ذلك يعاقب (30).

وأنه إذا كان مسلم قد تزوج بنصرانية واعتنقت الإسلام، فلا ترغم على العودة إلى النصرانية، بل تسأل في ذلك أمام المسلمين والنصارى، وألا يرغم أولاد «الروميات» ذكوراً أو إناثاً، على اعتناق النصرانية (31).

وأنه لا يرغم مسلم أو مسلمة قط على اعتناق النصرانية (32).

وأنه إذا شاءت مسلمة متزوجة أو أرملة أو بكر اعتناق النصرانية بدافع

الحب، فلا يقبل ذلك منها، حتى تسأل وتوعظ وفقاً للقانون؛ وإذا كانت قد استولت خلسة على حلى أو غيرها من دار أهلها أو أي شيء آخر، فإنها ترد لصاحبها، وتتخذ الإجراءات ضد المسؤول (33).

وألا يطلب الملكان، أو يسمحا بأن يُطلب إلى الملك المذكور مولاي أبي عبدالله، أو خدمه أو أحد من أهل غرناطة أو البيازين وأرباضهما والبشرات وغيرهما، من الداخلة في هذا العهد، بأن يردوا ما أخذوه أيام الحرب من النصارى أو المدجنين، من الخيل أو الماشية أو الثياب أو الفضة أو الذهب أو غيرها، أو من الأشياء الموروثة، ولا يحق لأحد يعلم بشيء من ذلك أن يطالب به (34).

وألا يُطلب إلى أي مسلم، يكون قد هدد أو جرح أو قتل أسيراً أو أسيرة نصرانية، ليس أو ليست في حوزته، رده أو ردها الآن أو فيما بعد (35).

وألا يدفع عن الأملاك والأراضي السلطانية، بعد انتهاء السنوات الثلاث الحرة، من الضرائب إلا وفقاً لقيمتها، وعلى مثل الأراضي العادية (36).

وأن يطبق ذلك أيضاً على أملاك الفرسان والقادة المسلمين، فلا يدفع عنها أكثر مما يدفع عن الأملاك العادية (37).

وأن يتمتع اليهود من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما، والأراضي التابعة لها، بما في هذا العهد من الامتيازات، وأن يسمح لهم بالعبور إلى المغرب خلال ثلاثة أشهر، تبدأ من يوم 18 ديسمبر (38).

وأن يكون الحكام والقواد والقضاة، الذين يعينون لغرنغاطة والبيازين والأراضي التابعة لهما، ممن يعاملون الناس بالكرامة والحسنى، ويحافظون على الإمتيازات الممنوحة، فإذا أخل أحدهم بالواجب، عوقب وأحل مكانه من يتصرف بالحق (39).

وأنه لا يحق للملكين أو لأعقابهما إلى الأبد، أن يسألوا الملك المذكور أبي عبدالله، أو أحداً من المسلمين المذكورين بأية صورة، عن أي شيء يكونوا

قد عملوه، حتى حلول يوم تسليم الحمراء المذكورة، وهي فترة الستين يوماً المنصوص عليها (40).

وأنه لا يُولى عليهم أحد من الفرسان أو القادة أو الخدم، الذين كانوا تابعين لملك وادي آش[1] (41).

وأنه إذا وقع نزاع بين نصراني أو نصرانية ومسلم أو مسلمة، فإنه ينظر أمام قاضي نصراني وآخر مسلم، حتى لا يتظلم أحد مما يقضى به (42).

وأن يقوم الملكان بالإفراج عن الأسرى المسلمين ذكوراً وإناثاً، من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما وأراضيهما، إفراجاً حراً دون أية نفقة من فدية أو غيرها، وأن يكون الإفراج عمن كان من هؤلاء الأسرى بالأندلس في ظرف خمسة الأشهر التالية، وأما الأسرى الذين بقشتالة فيفرج عنهم خلال الثمانية أشهر التالية. وبعد يومين من تسليم الأسرى النصارى لجلالتعما يفرج عن مائتين من الأسرى المسلمين، منهم مائة من الرهائن ومائة أخرى (44).

وأنه إذا دخلت أية محلة من نواحي البشرات في طاعة جلالتهما، فإنها يجب أن تسلم إليهما كل الأسرى النصارى ذكوراً وإناثاً، في ظرف خمسة عشر يوماً من تاريخ الانضمام، وذلك دون أية نفقة (46).

وأن تعطى الضمانات للسفن المغربية الراسية الآن في مملكة غرناطة، لكي تسافر في أمان، على ألا تكون حاملة أي أسير نصراني، وألا يحدث لها أحد ضرراً أو إتلافاً، وألا يؤخذ منها شيء، ولا ضمان لمن تحمل منها أسرى من النصارى، ويحق لجلالتهما إرسال من يقوم بتفتيشها لذلك الغرض (47).

وألا يُدعى أو يؤخذ أحد من المسلمين للحرب رغم إرادته، وإذا شاء جلالتاهما استدعاء الفرسان، الذين لهم خيول وسلاح، للعمل في نواحي الأندلس فيجب أن يدفع لهم الأجر من يوم الرحيل حتى يوم العودة (48).

وأنه يجب على كل من عليه دين أو تعهد، أن يؤديه لصاحب الحق؛ ولا

---

(1) المقصود هنا هو مولاي الزغل.

يحق لهم التحرر من هذه الحقوق (52).

وأن يكون المأمورون القضائيون الذين يعينون المحاكم المسلمين، مسلمين، الآن وإلى الأبد (53).

وأن يكون المتولون لوظائف الحسبة الخاصة بالمسلمين، أيضاً مسلمين، وألا يتولاها نصراني الآن وفي أي وقت (54).

وأن يقوم الملكان في اليوم الذي تسلم إليهما فيه الحمراء والحصن والأبواب كما تقدم، بإصدار مراسيم الإمتيازات، للملك أبي عبدالله وللمدينة المذكورة، ممهورة بتوقيعهما، ومختومة بخاتمهما الرصاص ذي الأهداب الحريرية، وأن يصدق عليها ولدهما الأمير، والكردينال المحترم دسبينا، ورؤساء الهيئات الدينية، والعظماء والدوقات والمركيزون والكونتات والرؤساء، حتى تكون ثابتة وصحيحة الآن، وفي كل وقت (56 ثافرا) (43 سيمانقا).

وقد ذيلت المعاهدة، بنبذة خلاصتها، أن ملكي قشتالة يؤكدان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكي، القيام بكل ما يحتويه هذا العهد من النصوص، ويوقعانه باسميهما ويمهرانه بخاتميهما، وعليها تاريخ تحريرها وهو يوم 25 نوفمبر سنة 1491[1].

ثم ذيلت بعد ذلك، وبتاريخ لاحق هو يوم 30 ديسمبر سنة 1492، أعني بعد تسليم غرناطة بعام، بتوكيد جديد يأمر فيه الملكان ولدهما الأمير، وسائر

---

(1) رجعنا في ترجمة وتلخيص نصوص معاهدة التسليم إلى الوثيقتين الرسميتين اللتين تضمنتا نصوص هذه المعاهدة، وهما أولاً، الوثيقة المحفوظة بدار المحفوظات العامة في سيمانقا Archivo general de Simancas، وتحمل رقم P.R. 11- 207 ضمن مجموعة (Capitulaciónes con Moros y. Caballeros de Castilla). وهي تملأ إحدى عشرة لوحة كبيرة ومحررة بالقشتالية القديمة ولدينا منها صورة فتوغرافية. وثانياً، الوثيقة المعروفة بوثيقة فرناندو دي ثافرا، أمين الملكين الكاثوليكيين وتحفظ بمجموعة دي ثافرا ببلدية غرناطة، وقد نشرت ضمن مجموعة وثائق تسليم غرناطة:

Las Capitulaciônes para la Entrega de Granada, por Miguel Garrido Atienz (Granada 1910) p. 269 - 295 .

عظماء المملكة بالمحافظة على محتويات هذا العهد، وألا يعمل ضده شيء، أو ينقض منه شيء، الآن وإلى الأبد، وأنهما يؤكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكي بأن يحافظا، ويأمران بالمحافظة على كل ما يحتويه بنداً بنداً إلى الأبد، وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين، وتوقيع ولدهما وجمع كبير من الأمراء والأحبار والأشراف والعظماء[1].

* * *

وفي نفس اليوم الذي وقعت فيه معاهدة تسليم غرناطة، وهو يوم 25 نوفمبر سنة 1491 م، وفي نفس المكان الذي وقعت فيه، وهو المعسكر الملكي بمرج غرناطة، أبرمت معاهدة أخرى أو ملحق سري للمعاهدة الأولى، يتضمن الحقوق والإمتيازات والمنح، التي تعطى للسلطان أبي عبدالله، ولأفراد أسرته وحاشيته، وذلك متى نفذ تعهداته التي تضمنتها المعاهدة من تسليم غرناطة والحمراء، وحصونها.

وتتلخص هذه الحقوق والامتيازات والمنح فيما يأتي: .

أن يمنح الملكان الكاثوليكيان لأبي عبدالله ولأولاده وأحفاده وورثته إلى الأد، حق الملكية الأبدية، فيما يملكانه من محلات وضياع في بلاد برجة، ودلاية ومرشانة، ولوشار، وأندرش، وأجيجر، وأرجبة، وبضعة بلاد أخرى مجاورة، وكل ما يخصها من الضرائب وحقوق الريع، وما بها من الدور والأماكن والقلاع والأبراج، لتكون كلها له ولأولاده وأعقابه وورثته بحق الملكية الأبدية، يتمتع بكل ريعها وعشورها وحقوقها، وأن يتولى القضاء في النواحي المذكورة باعتباره سيدها، وباعتباره في الوقت نفسه تابعاً وخاضعاً لجلالتيهما، وله حق بيع الأعيان المذكورة ورهنها، وأن يفعل بها ما يشاء ومتى شاء، وأنه متى أراد بيعها، فإنه يعرض ذلك أولاً على جلالتيهما فإذا لم يريدا شراءها، فله أن يبيعها لمن شاء.

---

(1) راجع محموعة وثائق تسليم غرناطة السالفة الذكر (ص 289 و 290). من كتاب نهاية الأندلس.

وأن يحتفظ جلالتهما بقلعة أدرة، وسائر القلاع الواقعة على الشاطىء.

وأن يعطى جلالتهما إلى الملك المذكور مولاي أبي عبدالله، هبة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالي من الذهب (كاستيليانو)، يبعثان بها إليه، عقب تسليم الحمراء، وقلاع غرناطة الأخرى التي يجب تسليمها، وذلك في الموعد المحدد.

وأن يهب جلالتهما للملك المذكور، كل الأراضي والرَّحى والحدائق، والمزارع التي كان يملكها أيام أبيه السلطان أبي الحسن، سواء في غرناطة أو في البشرات، لتكون ملكاً له ولأولاده ولعقبه وورثته، ملكية أبدية، وله أن يبيعها أو يرهنها وأن يتصرف فيها كيفما شاء.

وأن يهب جلالتهما أيضاً، إلى الملكات والدته وإخواته وزوجته، وإلى زوجة أبي الحسن، كل الحدائق والمزارع والأراضي والطواحين والحمامات، التي يملكها في غرناطة والبشرات، تكون ملكاً لهن ولأعقابهن إلى الأبد، ولهن بيعها ورهنها والتمتع بها وفقاً لما تقدم.

وأن تكون سائر الأراضي الخاصة بالملك المذكور والملكات المذكورات، وزوجة مولاي أبي الحسن، معفاة من الضرائب والحقوق الآن وإلى الأبد.

وألا يطلب جلالتهما أو أعقابهما إلى ملك غرناطة أو حشمه أو خدمه رد ما أخذوه في أيامهم سواء من النصارى أو المسلمين من الأموال والأراضي.

وأنه إذا شاء الملك المذكور أبو عبدالله، والملكات المذكورات، وزوجة مولاي أبي الحسن وأولادهم وأحفادهم وأعقابهم، وقوادهم وخدمهم وأهل دارهم، وفرسانهم وغيرهم، صغاراً وكباراً، العبور إلى المغرب، فإن جلالتهما يجهزان الآن أو في أي وقت سفينتين لعبور الأشخاص المذكورين، متى شاءوا، تحملهم وكل أمتعتهم وماشيتهم وسلاحهم، وذلك دون أية أجر أو نفقة.

وأنه إذا لم يتمكن الملك المذكور وأولاده وأحفاده وأعقابه، والملكات

المذكورات، وزوجة مولاي أبي الحسن، والقواد والحشم والخدم، وقت عبورهم إلى المغرب، من بيع أملاكهم المشار إليها، فإن لهم أن يوكلوا من شاءوا لقبض ريعها، وإرساله حيث شاءوا دون أي قيد أو مغرم.

وأنه يحق للملك المذكور متى شاء، أن يرسل من يرى، من خدمه أو قادته إلى المغرب بسلع أو غيرها من إيراداته، وذلك دون قيد أو مغرم.

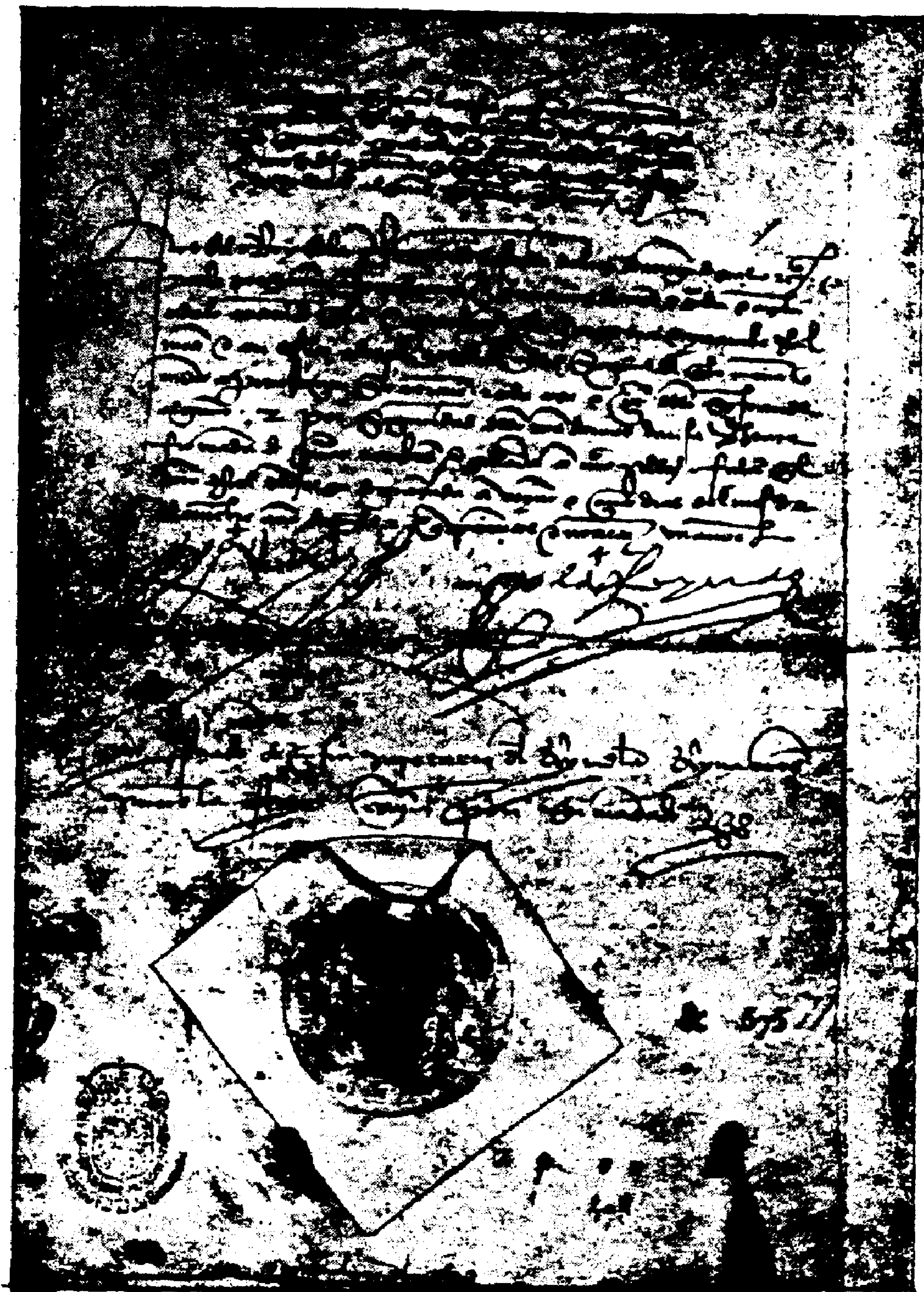
وأنه يحق للملك المذكور، متى خرج من غرناطة، أن يسكن أو يقيم متى شاء، في الأراضي التي أقطعت له، وأن يخرج هو وخدمه وقواده وعلماؤه وقضاته وفرسانه، الذين يريدون الخروج معه، بخيلهم وماشيتهم متقلدين أسلحتهم، وكذلك نساؤهم وخدمهم، وألا يؤخذ منهم شيء سوى المدافع، وألا يفرض عليهم الآن أو في أي وقت، وضع علامة خاصة في ثيابهم أو بأية صورة، وأن يتمتعوا بسائر الإمتيازات المقررة في عهد تسليم غرناطة.

وأنه في اليوم الذي يتم فيه تسليم الحمراء وحصونها، يصدر جلالتهما المراسيم اللازمة بالمنح المذكورة، موقعة ومختومة، ومصدق عليها من ابنهما الأمير والكردينال وسائر العظماء[1].

* * *

تلك هي الشروط التي وضعت لتسليم آخر القواعد الأندلسية، وتلك هي الصفحة الأخيرة من معاهدة التسليم التي أصدرها الملكيان الكاثوليكيان لأبي عبدالله وأهل غرناطة، مؤرخة في 25 نوفمبر سة 1491 م (21 محرم 897 هـ)، وعليها توقيعا فرناندو وإيسابيلا، وتوقيع سكرتيرها فرناندو دي ثافرا، وختم مملكة قشتالة. والأصل محفوظ بدار المحفوظات العامة في سيمانقا ويحمل رقم 207 ـ P. R. 11

(1) تحفظ النسخة القشتالية لهذه المعاهدة السرية التي عقدت بين الملكين الكاثوليكيين وأبي عبدالله بدار المحفوظات العامة في سيمانقا Archivo general de Simancas وتحمل رقم P.R Leg. II. Fol. 206. وقد حصلنا منها على صورة فتوغرافية.



صورة الصفحة الأخيرة من معاهدة التسليم

فهرس المصادر والمراجع

اسم المؤلف　　　　اسم الكتاب

1 ـ إبراهيم حركات: النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين منشورات الوحدة العربية ـ الدار البيضاء.

2 ـ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. الرباط 1980.

3 ـ ابن الآبار القضاعي: الحلة السيراء ـ دار النشر للجامعيين بيروت 1962.

4 ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ـ دار بيروت للطباعة.

5 ـ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة.

6 ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام.

7 ـ ابن الخطيب: نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب.

8 ـ ابن الخطيب: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ـ تونس.

9 ـ ابن الخطيب: اللمحة البدرية في الدولة النصرية.

10 ـ ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس ـ مطبعة معهد الدراسات الإسلامية ـ مدريد.

11 ـ ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ـ دار الكتاب اللبناني.

12 ـ ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ـ دار التراث 1968.

13 ـ ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي بن محمد: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ـ دار الجيل بيروت.

14 ـ ابن حزم الأندلسي: رسائل ابن حزم ـ المؤسسة العربية للدراسة والنشر.

15 ـ ابن حيان القرطبي: المقتبس من أنباء أهل الأندلس ـ دار الكتاب العربي.

16 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ـ حققه الدكتور إحسان عباس ـ دار صادر.

17 ـ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون 1971 ـ 1391.

18 ـ ابن دراج القسطلي: ديوان ابن دراج القسطلي ـ ت 421 ـ 1030 ـ المكتب الإسلامي دمشق.

19 ـ ابن سعيد: أبو الحسن: اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى علي بن موسى 610 ـ 685.
20 ـ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب ـ دار المعارف مصر.
21 ـ ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب دار الثقافة ـ بيروت.
22 ـ ابن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في أخبار الأقطار ـ صفة جزيرة الأندلس ـ القاهرة 1937.
23 ـ أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ت 524: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ـ دار الثقافة بيروت.
24 ـ أبو الحسن بن عبدالله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي ت 807: تأريخ قضاة الأندلس ـ دار الآفاق بيروت.
25 ـ المختصر في أخبار البشر.
26 ـ أبو الفداء: تقويم البلدان ـ باريس 1830.
27 ـ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ت 356.
28 ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك ـ دار القلم بيروت.
29 ـ أبو عبدالله محمد بن الحارث الخشني القروي ت 661 ـ 671: قضاة قرطبة ـ دار الكتاب اللبناني.
30 ـ أحمد بن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فارس ـ الرباط 2974.
31 ـ أحمد بن يحيى بن عميرة المتوفى 599 «الضبي»: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ـ دار الكتاب العربي.
32 ـ أشباخ: المؤرخ الألماني يوسف آشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ترجمة محمد عبدالله عنان ـ مؤسسة الخانجي 1377 ـ 1958.
33 ـ المؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس حتى آخر عهد الناصر ـ دار الكتاب اللبناني.
34 ـ المؤلف المجهول: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر ـ تطوان.
35 ـ إسماعيل بن يوسف النصري: نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان.
36 ـ الأمير عبدالله: مذكرات الأمير عبدالله أو كتاب التبيان.

37 ـ البكري ت 487: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب مكتبة المثنى ـ بغداد.
38 ـ البلاذري: فتوح البلدان ـ دار الهلال ـ بيروت.
39 ـ الحميدي: أبو عبدالله محمد بن أبي نصر 420 ـ 488 / 1029 ـ 1095: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ـ دار الكتاب اللبناني.
40 ـ الزركلي: الأعلام ـ الطبعة الثانية.
41 ـ السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدار البيضاء ـ دار الكتاب 1954.
42 ـ الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية. المكتبة التجارية ـ مصر.
43 ـ القلقشندي: صبح الأعشى ـ المؤسسة المصرية العامة.
44 ـ المالكي: رياض النفوس في طبقات القيروان وإفريقية مكتبة النهضة المصرية 1959.
45 ـ ابن أبي صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة.
46 ـ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ.
47 ـ المقري التلمساني: نفح الطيب ـ دار الكتاب العربي.
48 ـ الفتح بن خاقان أبو نصر بن محمد بن عبدالله بن خاقان القيسي الإشبيلي ت 529: قلائد العقيان في محاسن الأعيان 61 ينهج جامع الزيتونة ـ تونس.
49 ـ الفتح بن خاقان أبو نصر بن محمد بن عبدالله بن خاقان القيسي الإشبيلي ت 529: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس.
50 ـ أوروسيوس: تاريخ العالم ـ ترجمة عبد الرحمن بدوي.
51 ـ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية.
52 ـ حتي: تاريخ العرب ـ دار الكشاف.
53 ـ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي.
54 ـ حسن محمود: قيام دولة المرابطين ـ مكتبة النهضة المصرية 1957.
55 ـ دوزي: ملوك الطوائف ـ ترجمة كامل.
56 ـ دوزي: نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى.
57 ـ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي: الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع.

58 ـ شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان ـ دار صادر ـ بيروت 1404 ـ 1984.

59 ـ عبد الرحمن بن عبدالله بن الحكم 187 ـ 257: فتوح إفريقية والأندلس.

60 ـ عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ـ دار النهضة ـ بيروت.

61 ـ عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ القاهرة.

62 ـ عبدالله بن يوسف الأزدي ابن الفرضي 351 ـ 403 هـ: تاريخ علماء الأندلس ـ دار الكتاب اللبناني.

63 ـ عبدالله كنون: النبوغ المغربي.

64 ـ عبدالله العروي: تاريخ المغرب.

65 ـ عبدالله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب.

66 ـ علي الجزنائي: جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس الرباط 1967.

67 ـ عبد الهادي التازي: جامع القرويين بمدينة فاس ـ دار الكتاب اللبناني.

68 ـ محمد بن أحمد بن إياس الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

69 ـ محمد خفاجة: قصة الأدب في الأندلس ـ مكتبة المعارف بيروت.

70 ـ محمد عبد الهادي شعيرة: المرابطون ـ تاريخهم السياسي.

71 ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ـ دوائر المعارف.

72 ـ البستاني: دائرة المعارف.

73 ـ دائرة المعارف الإسلامية.

74 ـ دائرة المعارف الموسعة.

75 ـ محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين.

Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne. _ 76

Dozy: Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyeb âge. _ 77

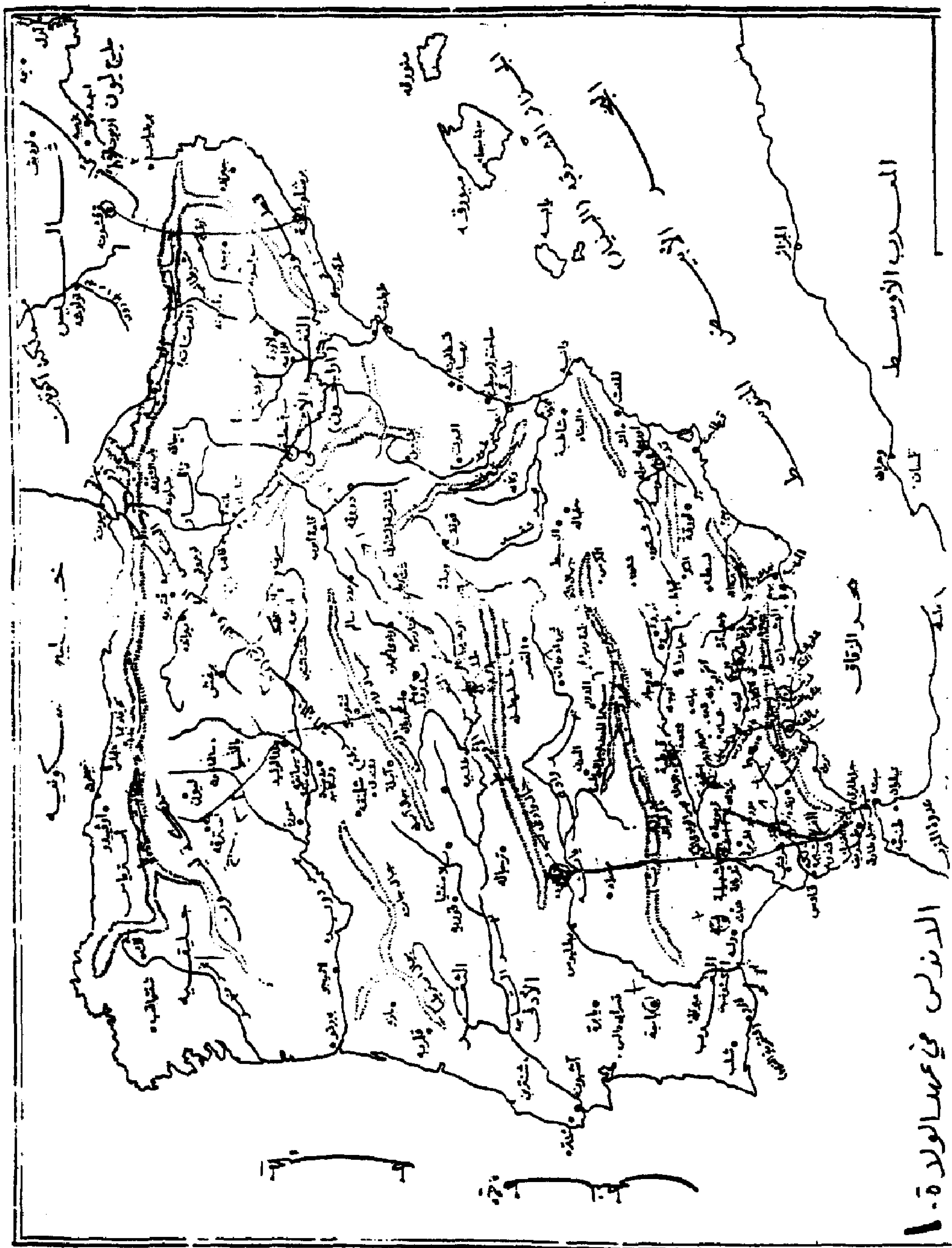
Encyclopedie de l'Islam. _ 78

Encyclopédie de l'Islam. _ 79

Hamet: Ismael Hamet. histoire du Maghreb. _ 80

. خريطة الأندلس في عصر ملوك الطوائف.

خريطة الأندلس في العصر الأموي.



خريطة الأندلس في عهد الولاة.

٢

خريطة رقم (٥)

الفتح والجهاد وراء البرت

البحر المتوسط

فهـــرس المــواضيـــع